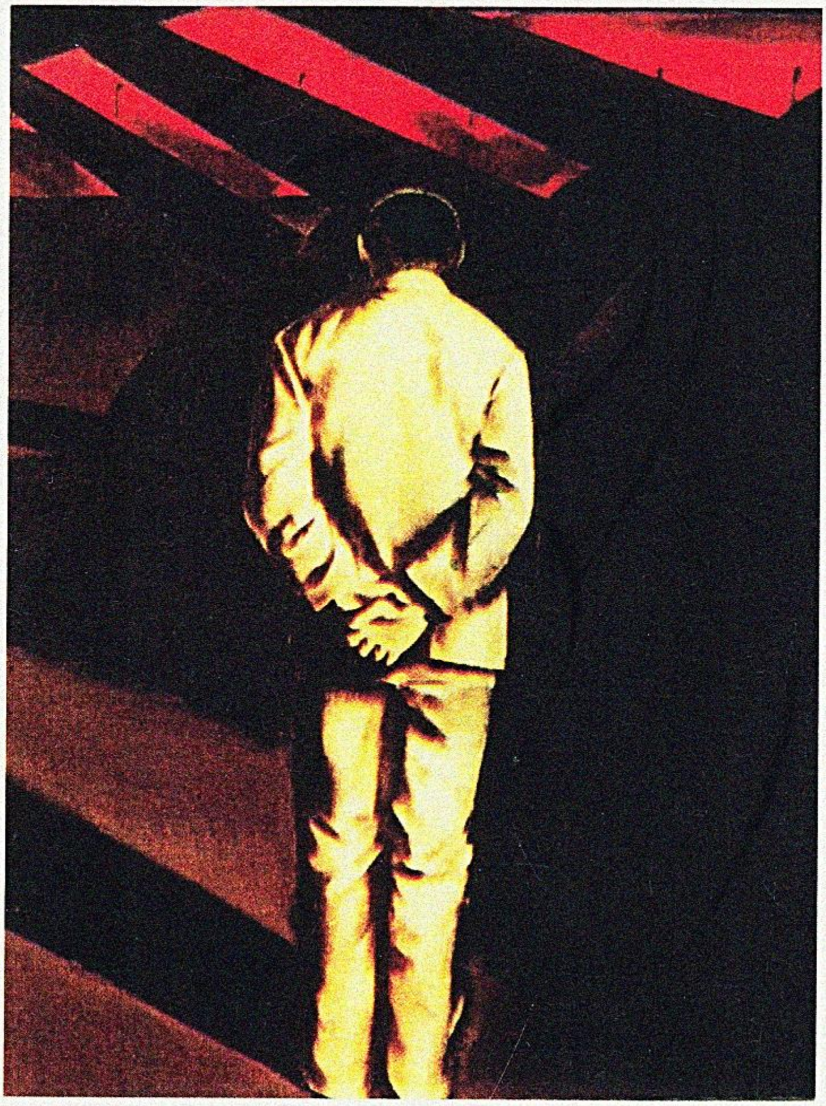
أمين معلوف

التائهون

رواية



الفارابي

علي مولا

أمين معلوف

من الأكاديمية الفرنسية

التائهون

رواية

ترجمة: نهلة بيضون

دار الفارابي

AMIN MAALOUF

de l'Académie française

LES DÉSORIENTÉS

roman

BERNARD GRASSET

PARIS

التائهون

الكتاب: التائهون
المؤلف: أمين معلوف
الترجمة: نهلة بيضون
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2013
ISBN: 978-9953-71-919-1

إلى جاكلين دو رومي

2010 – 1913

كل ما تمسّه القوة ينحطّ قدره أياً كان التماس..
فاللطخة هي نفسها سواءٌ اعتدى المرء أم تعرّض للاعتداء.

سيمون فايل (1909 – 1943)

قبل يومين من وقوع المأساة، سيدوّن آدم في مفكرته: أحمل في اسمي ولادة البشرية، غير أني أنتمي إلى بشرية تندثر.

لم أعرف أبداً لماذا اختار لي والداي هذا الاسم. في بلدي الأم، كان اسماً نادراً، لم يحمله قبلي أي فرد من أفراد أسرتي. أذكر أني طرحت يوماً على أبي هذا السؤال، فاكتفى بالقول: «إنه أبونا جميعاً!»، وكأن بوسعي أن أجهل ذلك. كنت في العاشرة من العمر، واكتفيت بهذا التوضيح. ربما كان يجدر بي أن أسأله، وهو على قيد الحياة، ما المقصود أو المرجو من هذا الاختيار.

يبدو لي أن الأمر كذلك. ففي ذهنه، كان يفترض بي أن أنتمي إلى جماعة المؤسسين. أما اليوم، وقد بلغت السابعة والأربعين، فلابد لي من التسليم بأنني لن أنجز مهمتي. لن أكون أول سلالة، بل سأكون آخرها، آخر أهلي، والمؤتمن على أحزانهم المتراكمة، وخيباتهم، بل وعارهم وخزيهم. ولقد أنيطت بي المهمة المقيتة التي تقتضي التعرف على ملامح أحبتي، ثم الإيماء برأسي لرد الغطاء عليهم.

أنا المكلّف بالاندثارات. وحين سيأتي دوري، سأتهاوى كما

يتهاوى جذع شجرة، دون أن ينحني، مردداً لمن يشاء أن يسمعني: «لقد أصبتُ، وأخطأ التاريخ!».

تتردد تلك الصرخة المتعجرفة والسخيفة باستمرار في ذهني، لا بل بوسعها أن تكون عبارة منقوشة على هذا الحج غير المجدي الذي أقوم به منذ عشرة أيام.

لدى عودتي إلى أرضي الغريقة، ظننت أني سأنقذ بعض أطلال ماضي الشخصي وماضي أهلي. إلا أني لم أعد أتوقع شيئاً بهذا الشأن. فالذي يسعى لتأخير الغرق، يجازف بتعجيله... هذا، ولستُ نادماً على أنني قمت بهذه الرحلة. لا ريب أنني أعيد كل مساء اكتشاف السبب الذي دفع بي إلى الابتعاد عن وطني الأم؛ إلا أني أعيد أيضاً كل صباح اكتشاف سبب عدم انسلاخي عنه أبداً. وفرحتي العارمة أني وجدت، وسط المياه، جُزيرات من الكياسة المشرقية والمودة الصافية، مما يجدد حبي للحياة، في الوقت الحاضر على الأقل، ويمنحني أسباباً جديدة للمواجهة، بل وربما يمنحني ارتعاشة أمل.

وماذا في المدى الطويل؟

في المدى الطويل، كل أبناء آدم وحواء محكوم عليهم بالهلاك.

اليوم الأول

1

يوم الخميس، حين خلد آدم للنوم، لم يخطر بباله أن الطائرة ستقله في اليوم التالي إلى الوطن، بعد سنوات من الاغتراب الطوعي، ولزيارة شخص كان قد أقسم ألا يكلمه بعد اليوم.

ولكن زوجة مراد عرفت أن تختار الكلمات المفحمة:

«صديقك يُحتضر، ويريد أن يراك».

رن الهاتف الساعة الخامسة فجراً. قبض آدم على هاتفه عشوائياً، وضغط على أحد الأزرار المضاءة، ورد قائلاً: «كلا، أؤكد لك، لم أكن نائماً»، أو تفوَّه بكذبة أخرى من هذا القبيل.

قالت له محدثته فيما بعد: «سيكلمك».

اضطر أن يحبس نَفَسَهُ للإصغاء إلى نَفَس المحتضر. وحتى في هذه الحالة، خمَّن كلامه أكثر مما سمعه بالفعل. كان الصوت النائي يلوح مثل حفيف أقمشة. اضطر آدم أن يردد مرتين أو ثلاث مرات: «بالتأكيد» و«أدري»، بدون أن يدري أو يتيقن على الإطلاق. وحين سكت الشخص على الطرف الآخر من الخط، قال له بحذر : «إلى

اللقاء!»؛ أصاخ السمع لثوان معدودة أخرى متحققاً من أن زوجته لم تتناول منه السماعة؛ ثم أنهى المكالمة.

التفت إلى صديقته دولوريس التي أشعلت النور وجلست في الفراش، مستندة إلى الحائط. كان يبدو أنها تدرس الوضع، ولكنها قد حسمت رأيها.

«صديقك يحتضر، وهو يناديك، ليس بوسعك التردد، إذهب إليه».

«صديقي؟ أي صديق؟ لا أحد منا يكلم الآخر منذ عشرين عاماً!».

في الواقع، ومنذ سنوات عديدة، كلما ذكر أحدهم أمامه اسم مراد وسأله إذا كان يعرفه، أجاب على الدوام: «إنه صديق قديم». وغالباً ما ظن محدثوه أنه يريد القول:

«قديم العهد». ولكن آدم لم يكن يلقي الكلام على عواهنه. فقد كانا صديقين ثم افترق دربهما. ولذا، فعبارة «صديق قديم»، من وجهة نظره، كانت الصيغة الوحيدة الملائمة.

وعندما يستعملها أمام دولوريس عادة، تكتفي بابتسامة متعاطفة. ولكنها لم تبتسم في ذلك الصباح.

«لو تخاصمت غداً مع شقيقتي، هل ستصبح شقيقتي «القديمة»؟ وشقيقي، شقيقي «القديم»؟».

«الأمر مختلف مع الأهل، فنحن لا نملك الخيار...».

«وأنت كذلك لا تملك الخيار في هذه الحالة. إنه صديق الصبا،

وأخ بالتبني. قد تكون نادماً على تبنيه إنما لم يعد بوسعك أن تتخلى عنه».

كان بوسع آدم أن يشرح لها مطولاً ما يجعل روابط الدم من طبيعة أخرى، ولكنه سيغامر بالخوض في أرض موحلة. فلا رابطة دم تربطه بصديقته في نهاية المطاف. فهل هذا يعني أن بوسع أحدهما، مهما توثقت بينهما عرى الإلفة، أن يصبح غريباً عن الآخر في يوم من الأيام؟ وأن يجابه بالرفض طلب أحدهما، وهو على فراش الموت، لحضور الآخر؟ إن مجرد التفكير بمثل هذا الاحتمال ينطوي على الكثير من الدناءة، فآثر أن يلزم الصمت.

في جميع الأحـوال، لا فائدة من الجدال. فعاجلاً أم آجلاً، سيضطر إلى الإذعان. لا ريب أن لديه أسباباً كثيرة لإلقاء اللوم على مراد، والتخلي عن صداقته، بل، ومهما قالت صديقته، التخلي عنه بعد أن تبناه؛ ولكن كل هذه الأسباب لا تساوي شيئاً حين تقترب ساعة المنون. ولو رفض الذهاب لرؤية صديقه على فراش الموت، فسينهشه الندم حتى آخر يوم في حياته.

اتصل بمكتب السفريات للحجز على أول رحلة مباشرة، أي في اليوم نفسه، بعد الظهر، الساعة الخامسة والنصف؛ وسيصل إلى هناك الساعة الحادية عشرة ليلاً. كان يتعذر عليه أن يصل أسرع من ذلك.

2

بعضهم لا يفكر إلا وهو يكتب، وآدم من ذلك الصنف، وهذه ميزة ونقيصة لديه على السواء.

فما دامت يداه في وضعية الراحة، كان عقله يسرح، عاجزاً عن كبح جماح أفكاره أو بناء تحليل متسلسل. ولا بد له من الشروع في الكتابة لكي ينتظم حبل أفكاره؛ فالتفكير عنده بمثابة نشاط يدوي.

كانت خلاياه العصبية، إذا جاز التعبير، مستقرة في أطراف أصابعه. ولحسن حظه، كانت هذه الأصابع متعددة المواهب، تنتقل دون أيما صعوبة من القلم إلى راقنة الحاسوب، ومن الورقة إلى الشاشة. ولذلك، فهو يحتفظ دوماً في جيبه بمفكرة سميكة طرية الغلاف، وبحاسوب محمول في محفظة الأستاذ. وحسب المكان الذي يجد نفسه فيه، وطبيعة ما ينوي كتابته، يفتح تلك أو ذاك.

في ذلك اليوم، كان دور المفكرة في مستهل الرحلة. فأخرجها، وبحث عن الصفحة البيضاء الأولى، ثم تريث لحين انطفاء الإشارة الضوئية قبل أن يفتح المنضدة الموضوعة أمامه.

الجمعة 20 نيسان

منذ أن أقلعت الطائرة، أتهيأ للمحنة التي تنتظرني، وأتخيل ما بوسع مراد أن يقوله لي لتبرير سلوكه، وكيف يجدر بي أن أرد عليه؛ ما كنت سأقوله له في الأوقات العادية وما بوسعي أن أقوله له في حالته؛ كيف أدعه يرحل عن هذا العالم بسلام دون الغلو في الكذب؛ كيف أهوّن عليه دون أن أتنصل لأحكامي.

لست على يقين من وجوب الصفح عن جميع المحتضرين. فمن السهل للغاية، حين يقترب أجل أحدهم، أن نصفّر العدادات، وأن نقيس بتسامح قساوة البعض وجشعهم، وشفقة الآخرين وتضحيتهم، بمقياس الخسائر والأرباح. أفيعني ذلك أن القتلة والضحايا، والطغاة والمقهورين، سيجدون أنفسهم أبرياء بالقدر نفسه ساعة يحينَ أجلهم؟ ليس عندي في أي حال. فالإفلات من العقاب، من وجهة نظري، لا يقل انحرافاً عن الظلم؛ والحق يقال إنهما وجهان لعملة واحدة.

يحكى أن الأشراف في القرون الأولى بعد الميلاد كانوا يتدبرون أمرهم، مع انتشار الدين الجديد في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، لإرجاء اعتناقهم ما أمكن. ألم يقولوا لهم إن جميع آثامهم سوف تمحى لحظة العمادة؟ فاستمروا في حياة الفسق ولم يُعمَّدوا إلا على فراش الموت.

لا أدري ما هي قيمة هذه التوبات المتأخرة بنظر الدين. أما بنظري، فلا قيمة لها على الإطلاق. لا توبات الرومان القدامى، ولا توبات أبناء عصري.

بيد أن ساعة المنون تحتم اللياقة. وتلك اللحظة التي ينقلب فيها مصير الإنسان يجب أن تحافظ على المهابة لو شاء المرء أن يحافظ على إنسانيته، أياً كان حكمنا على المحتضر وأفعاله. أجل، ولو تعلق الأمر بأسوأ المجرمين.

وأسارع إلى القول إن تلك ليست حالة مراد. ألومه على أفعال كثيرة اقترفها، وبعضها عندي بمثابة الجرائم، إنما لا داعي للشطط في الكلام. فقد يحدث أن يقترف المرء جريمة دون أن يستحق لأجل ذلك أن ينعت بالمجرم. وبقدر ما أستنكر الإفلات من العقاب، أرفض أن أضع جميع السيئات في الخانة نفسها، متجاهلاً نيأتها أو جسامتها أو ظروفها. فبوسع هذه الظروف أن تكون «تخفيفية»، كما تنص القوانين، بدون أن تكون «تبريئية».

لا شك عندي ولو للحظة واحدة بأن سلوك صديقي القديم أثناء سنوات الحرب يمثل خيانة للقيم المشتركة التي كنا نؤمن بها، وأرجو ألا يسعى لإنكار ذلك. ولكن ألم يخن بسبب ولائه؟ فبدافع التعلق بالوطن، رفض الرحيل في بداية الأحداث؛ ولأنه قرر البقاء، اضطر لإيجاد بعض التسويات، والقبول، على مر الأحداث، ببعض التنازلات التي ستقوده إلى ارتكاب المحظور. لربما تصرفت مثله لو بقيت في

البلد. فعن بعد، بوسعنا أن نرفض ونفلت من العقاب؛ أما عن قرب، فنحن لا نتمتع دوماً بتلك الحرية.

وخلاصة القول إن فضائله ضللته؛ وإن تخلفاتي أنقذتني. فللدفاع عن أهله، ولصون ما ورثه عن أجداده، حارب كالوحش الضاري. لم أفعل ذلك. ففي أسرة الفنانين التي ترعرعت في كنفها، لم أتشرب الفضائل نفسها، ولا تلك الشجاعة البدنية، ولا ذلك الإحساس بالواجب، ولا ذلك الولاء. فمنذ بداية أعمال القتل، رحلت، لذتُ بالفرار؛ ولم ألطخ يدي. ذلك امتيازي الرعديد بأني كنت فاراً شريفاً.

مع اقتراب موعد هبوط الطائرة، يتبين لي أن ذهني أكثر تشوشاً مما كان عليه ساعة إقلاعها. يتراءى لي مراد الآن مثل شخصية ثانوية وخائبة، مثيرة للشفقة، تائهة وسط مأساة تتجاوزها. لست مستعداً بعد لأن أسامحه على ما ارتكبه من أخطاء، غير أني ألوم بالقدر نفسه سائر العالم، وكذلك ألوم نفسي.

سأذهب إليه دون أن أبدي استياء، سأؤدي لاحقاً دوري إلى جانبه كمعرِّف علماني، وسأصغي إليه، وأحتضن يده، وأهمس له كلمات غفران لكي يسلم الروح مرتاح الضمير.

3

لم يكن أحد ينتظره في المطار. ذلك التفصيل المزعج إنما السخيف الذي كان يجدر بآدم بالتأكيد أن يتوقعه لأنه لم يخطر أحداً بمجيئه أثار في نفسه فيضاً من الحزن وبلبلة ذهنية عابرة. اضطر إلى أن يبذل جهداً لكي يتذكر بأنه قد حط توّاً الرحال في مدينته الأم، في بلده.

20 نيسان، تتمة

اجتزت الجمارك، ناولت جوازي، استرجعته، وخرجت أجيل نظرة طفل تخلى عنه أهله وسط الناس. لا أحد. لا أحد يخاطبني، لا أحد ينتظرني. لا أحد يتعرف إلي. جئت للقاء شبح صديق، وها قد أصبحت بدوري شبحاً.

يعرض عليّ سائق تاكسي خدماته. أوافق بنظرتي وأدعه يحمل حقيبتي إلى سيارته الدودج العتيقة المركونة بعيداً جداً عن الصف النظامي. من الواضح أنه تاكسي جوال، بدون لوحة حمراء أو عداد. لا أحتج. تزعجني تلك الممارسات عادة، ولكنها تنتزع مني ابتسامة هذا المساء. تعيد إلى ذاكرتي بيئة مألوفة، وردود فعل يمليها الحذر. أسمع

نفسي أسأل الرجل بالعربية وباللهجة المحلية، كم ستكلفني التوصيلة، فقط لأتجنب عدم لياقة اعتباري من السواح.

في الطريق، كدتُ أتصل ببعض الأقارب والأصدقاء. كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل، أو قبيل ذلك بخمس دقائق تقريباً، ولكني أعرف أن بعضهم لن يمتعض، وسوف يصر على دعوتي للمبيت عنده. وفي نهاية المطاف، لم أتصل بأحد. اجتاحتني فجأة الرغبة بالبقاء لوحدي، لا يعرفني أحد، مثل المتسلل خفية.

بدأ هذا الإحساس الجديد يروق لي. الإحساس بالتخفي في بلدي، وسط أهلي، في المدينة التي ترعرعت فيها.

كانت غرفتي في الفندق فسيحة، والأغطية نظيفة، ولكن ضجيج الشارع يعلو حتى في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وكذلك الخرير العنيد لمكيِّف لم أجرؤ أن أطفئه خوفاً من الاستيقاظ والعرق يتصبب مني. لا أظن أن الضجيج سيمنعني من النوم. فقد كان النهار طويلاً، ولن يلبث جسدي أن يتخدر، وكذلك ذهني.

جلست على السرير، ولا ضوء في الغرفة سوى ذلك المنبعث من المصباح الموجود جانباً، ومراد لا يفارق بالي. أحاول أن أتخيله كما من المفترض أن يكون الآن. في لقائنا الأخير، كان في الرابعة والعشرين، وأنا في الثانية والعشرين. أذكر أنه كان ميسور الحال، شرس الطباع، كثير الزعيق. ومن المؤكد أن المرض أوهنه منذ ذلك

الحين. أتخيله الآن جالساً في بيت أسرته القديم، في الضيعة، في كرسي المقعدين، ممتقع السحنة، وعلى ركبتيه غطاء صوفي. ولعله في المستشفى، على سرير معدني، تحيط به أنابيب المصل، والأجهزة الوامضة، والضمادات؛ وبقربه الكرسي الذي سيدعوني للجلوس عليه.

غداً، سأعرف.

اليوم الثاني

1

اتصلت زوجة مراد بآدم فجراً على هاتفه الخليوي. قالت له بجفاء ظناً منها أنه لا يزال في باريس، بدون مقدِّمات، بل بدون أن تمهد لكلامها بعبارة «آلو«:

«لم يستطع أن ينتظرك».

كانت العتمة لا تزال تلف الغرفة. أطلق آدم صفير شتيمة، ثم أبلغ محدثته بأنه قد وصل منذ البارحة وهرع، نزولاً عند طلبه، لرؤيته.

غير أنها رددت بالاندفاعة نفسها:

«لم يستطع أن ينتظرك».

الجملة نفسها، حرفياً، إنما بنبرة مختلفة، خالية من العتب هذه المرة، يشوبها الأسى والغضب وربما شيء من الامتنان لآدم. فتمتم عبارة معهودة.

وأعقبت ذلك، على هذا الطرف وذاك من الخط، ثوانٍ من الصمت. ثم قالت له الأرملة ببساطة: «شكراً!»، وكأنها ترد بتهذيب على تعزيته. ثم استفسرت عن المكان الذي يبيت فيه.

«سأرسل لك سيارة. لن تعرف أن تصل بمفردك».

لم يعترض آدم. كان يدرك أنه لم يعد يعرف أن يهتدي السبيل في

هذه المدينة التي لا توجد في شوارعها لوحات بأسمائها، ولا أرقام، ولا أرصفة، وأحياؤها تحمل أسماء عمارات، والعمارات أسماء أصحابها...

السبت 21 نيسان

كانت تانيا قد لبست الحداد. وسُجي مراد بهدوء على ملاءات ليست فيها ثنية واحدة، وسُدَّ منخراه بالقطن. خُصِّص له جناح كامل – غرفتان متاخمتان، وصالون، وشرفة. المستشفى من رخام وكافور. المكان المناسب للموت كالكلب الأصيل.

أقف عند أسفل السرير ولا أبكي. أحني رأسي أمام الجثمان، وأغمض عيني، لا أحرك ساكناً، وأنتظر. يفترض بي أن أتأمل، ولكن في ذهني خواء. سأتأمل لاحقاً، سأستحضر ذكرياتي عن صداقتنا الراحلة، وفيما بعد سأحاول أن أتخيل مراد السابق. أما هنا، أمام الجثمان، فلا شيء يحضرني.

حالما أسمع خلفي وقع خطى، أنتهز الفرصة لأفسح المجال لغيري. أتوجه نحو تانيا، أعانقها باقتضاب، ثم أمضي للجلوس في الصالون الذي لم يكن صالوناً بكل معنى الكلمة. ثلاث أرائك جلدية، آلة لصنع القهوة، قناني مياه معدنية، وتلفاز مكتوم الصوت. ولكن ذلك من قبيل الترف في مستشفى. كانت أربع نساء متشحات بالسواد بالإضافة إلى رجل مسن لم يحلق ذقنه قد جلسوا قبلي. ألقي عليهم التحية بإيماءة من رأسي، وأتهاوى في المقعد الوحيد الشاغر. لا أتأمل

بعد، لا أفكر في شيء. أحاول فقط أن أرسم على وجهي التعبير الملائم لهذه المناسبة.

ألمح أشخاصاً آخرين يصلون، كما في وفد، فأنهض وأقف مرة أخرى أمام الجثمان، وأقبل ثانيا مجدداً وأهمس لها: «أراك لاحقاً!».
أخرج من المستشفى أحث الخطى، وكأن زمرة من الكلاب تقتفي أثري.

حين أجد نفسي في الشارع، وحيداً وسط المارة، هادئاً وسط الضجيج، ترتد أفكاري أخيراً نحو ذاك الذي فارقته على فراش الموت.

أستحضر نتفاً من أحاديث، وضحكات، وصوراً. أفكر بأشياء كثيرة متبعثرة ولا أتوقف عند أي منها فيما أمضي قدماً. يعيدني بوق سيارة إلى أرض الواقع. أومئ برأسي، وأفتح الباب، وأذكر للسائق اسم الفندق الذي أنزل فيه. يخاطبني الرجل بالإنكليزية، فأبتسم وأتضايق في آن واحد. أجيبه بلغتي التي هي لغتي الأم، إنما بلكنة خفيفة دون شك. ولكي يعتذر لأنه جرح كبريائي كمغترب، يروح يشكو أحوال البلد وزعماءه، وينطلق في مدح استفزازي للأشخاص الذين تحلوا بما يكفي من الذكاء لكي يرحلوا.

اكتفى آدم بأن أومأ برأسه تهذيباً. في ظروف أخرى، كان سيشارك في الحديث، فالموضوع يعنيه. ولكنه كان مستعجلاً للاختلاء بنفسه، والانزواء في غرفته، والبقاء فيها على انفراد مع ذكرياته عن ذاك الذي لن ينطق بعد اليوم. .

فور عودته إلى غرفته، تمدد على السرير وظل مستلقياً على ظهره وقتاً طويلاً. ثم نهض، وتناول مفكرته، وخربش فيها بضعة سطور، ثم قلبها، كما ليدشن، من الجهة الأخرى، مفكرة ثانية، جديدة.

على الصفحة البيضاء الجديدة، في أعلاها، في الموضع الذي يدوِّن فيه عادة التاريخ، كتب: «في ذكرى»، بمثابة نقش أو ربما بمثابة صلاة. ولم يكتب فيها شيئاً آخر. ثم انتقل إلى الصفحة التالية.

مراد، الصديق الذي تخليت عن صداقته.

فرقنا الموت قبل أن يصالحنا. والذنب ذنبي قليلاً، وذنبه قليلاً، وهو كذلك ذنب الموت. بالكاد بدأنا بوصل ما انقطع حين أخرسه فجأة.

ولكن المصالحة حصلت عملياً. لقد أعرب عن رغبته برؤيتي، فركبت أول طائرة، ولكن الموت سبقني. ولدى التفكير في الأمر، ربما من الأفضل أن الأمور جرت على هذا النحو. فللموت حكمته الخاصة، ولا بد في بعض الأحيان من تفويض أمرنا إليه عوضاً عن تفويضه لأنفسنا. ماذا كان سيقول لي صديقي القديم؟ أكاذيب، وحقائق زائفة. ولكنت تظاهرت بأني أصدقه وأغفر له لئلا أبدو عديم الشفقة مع شخص يُحتضر.

ما القيمة التي كان سيكتسبها، في هذه الظروف، لقاؤنا المتأخر وغفراننا المتبادل؟ في الحقيقة، لا قيمة على الإطلاق. ويبدو لي ما جرى أكثر لياقة ومهابة. لقد شعر مراد، في ساعاته الأخيرة، بالحاجة

لرؤيتي، فسارعت بالمجيء، وسارع هو بالرحيل. وفي ذلك شيء من اللباقة التي تشرّف صداقتنا الغابرة، وهذه الخاتمة ترضيني.

ولاحقاً، إذا كانت هناك حياة ما بعد اللحد، فسيكون لدينا الوقت للمصارحة. أما إذا لم يكن هناك سوى العدم، فلن تعود لخصومات كائنين محكومين بالفناء، في جميع الأحوال، أهمية تذكر.

في ذلك اليوم الذي شهد وفاته، ماذا بوسعي أن أفعل من أجله؟ فقط ما تمليه عليّ اللياقة: أن أستحضر ذكراه بسكينة، فلا أدينه ولا أغفر له ذنوبه.

لم نكن صديقي طفولة. ترعرعنا في البلد نفسه، وفي الحي نفسه، إنما ليس في المحيط نفسه. تعارفنا فقط في الجامعة – إنما بسرعة فائقة، منذ مطلع السنة الأولى.

في بداية صداقتنا، كانت تلك السهرة. كنا، على ما أظن، حوالى خمسة عشر شخصاً، والشباب يفوقون البنات عدداً بقليل. لو طلب إلي أن أستحضر قائمة بأسمائهم، لنسيتُ بالتأكيد بعضهم. هو وأنا؛ وتانيا، بالطبع، تانيا التي لم تكن قد أصبحت زوجته بعد ولكنها سرعان ما ستصبح كذلك؛ وألبير، ونعيم، وبلال، وسمي الجميلة؛ ورمزي ورامز، «الشريكان» و«المتلازمان»، أو بكل بساطة «الرمزان» كما كنا نلقبهما... كنا ندخل إلى الحياة الطلابية، بيدنا كأس، وفي قلوبنا تمرد، ونظن أننا ندخل إلى حياة الراشدين. كان أكبرنا سناً يشارف على الثالثة

والعشرين؛ وبسبعة عشر عاماً ونصف العام، كنت الأصغر سناً؛ ومراد يكبرني بعامين.

كان ذلك في تشرين الأول ١٩٧١، على شرفة بيته، وهي شرفة فسيحة يرى منها المرء البحر في النهار، وأضواء المدينة التي تتلألأ في الليل. أذكر نظرته في ذلك المساء - نظرة منبهرة، مترعة. فذلك البيت ملك له، وكان من قبل ملكاً لأبيه وجده، وجد جده، بل جدوده، فقد شيِّد في مطلع القرن الثامن عشر.

وكانت أسرتي بدورها تملك فيما مضى منزلاً جميلاً في الجبل، ولكنه كان بيتاً عائلياً وبياناً معمارياً بالنسبة إلى أهلي، أما بالنسبة إلى أهله، فكان بيتهم وطناً. وقد شعر فيه مراد على الدوام بشيء من الامتلاء، بامتلاء الناس الذين يعرفون أن البلد ملك لهم.

أما أنا، فلطالما تملكني الشعور، منذ بلغتُ الثالثة عشرة، وأينما حللتُ، بأني ضيف. غالباً ما يستقبلني الآخرون على الرحب والسعة، وأحياناً بالكاد يتقبلونني، ولكني لا أقطن في أي مكان لأن ذلك من حقي. كنت على الدوام مختلفاً، غير متأقلم - اسمي، نظرتي، هيئتي، لهجتي، انتماءاتي الحقيقية أو المفترضة. غريباً كنت على نحو لا براء منه. على تراب الوطن، ولاحقاً، في أرض المنفى.

في تلك الأمسية، رفع مراد صوته، في لحظة من اللحظات، وهو يسرِّح نظره بعيداً.

«أنتم أعز أصدقائي. وهذا البيت بيتكم. إلى الأبد!».

علت بعض الدعابات، والضحكات، إنما فقط لإخفاء التأثر.

ثم رفع كأسه، وأسمع رنين مكعبات الثلج فيها. فرددنا بدورنا: «إلى الأبد!». بعضنا بأعلى صوته، وبعضنا الآخر همساً. ثم ارتشفنا مشروبنا معاً.

رقرقت عيناي بالدموع. وحين أفكر بذلك اليوم، ترقرقان بالدموع من جديد، وما بيدي حيلة. تأثراً، وحنيناً، وحزناً، وغضباً. كانت لحظة الأخوة تلك الأجمل في حياتي. ومنذ ذلك الحين، مرت الحرب من هنا، ولم يسلم منها بيت أو تسلم منها ذكرى. لقد فَسَدَ كل شيء، الصداقة، والحب، والإخلاص، وصلات القربى، والإيمان، كما الوفاء. وكذلك الموت. أجل، اليوم، حتى الموت نفسه يبدو لي ملطّخاً، مشوّهاً.

لا أكف عن القول «تلك الأمسية»، على سبيل الإيجاز فحسب. فقد كانت هناك سهرات لا عد ولا حصر لها في الفترة التي تعارفنا فيها، تنحصر الآن في ذاكرتي بسهرة واحدة. ويبدو لي أحياناً أننا كنا دوماً متلازمين، مثل زمرة مشعثة الشعر، لا نعود إلى كنف أسرنا إلا لاستراحات وجيزة. لم تكن تلك هي الحال حقاً، ولكن ذلك هو الانطباع الذي خلفته لدي، لا ريب لأننا كنا نعيش معاً اللحظات المؤثرة والأحداث الكبرى، لنفرح بها، ونستنكرها، وبالأخص لنتشاجر بشأنها. يا الله كم كانت تحلو لنا المناقشة والمجادلة! كم كنا نزعق! كم كنا نتخاصم! ولكنها كانت مشادات نبيلة. كنا نعتقد بكل صدق أن بوسع أفكارنا تغيير مجرى الأحداث.

في الجامعة، وللتهكم من مجادلاتنا المتواصلة، أطلق علينا لقب: «البيزنطيون»، على سبيل الاستخفاف؛ وبغرض التباهي، اعتمدنا هذا اللقب، بل لقد خطر ببالنا أن نؤسس «أخوية» تحمل ذلك الاسم. ولكثرة ما طال نقاشنا للأمر، لم تبصر هذه الأخوية النور قطّ، وراحت، بالضبط، ضحية «بيزنطيتنا». كان بعضنا يحلم بأن تتحول شلتنا إلى مجمع أدبي؛ وبعضنا الآخر يفكر بحركة سياسية، تبدأ في

صفوف الطلاب ثم تنتشر في المجتمع بأسره؛ وفريق ثالث كان يداعب تلك الفكرة الجذابة التي أوضحها بلزاك على طريقته في «قصة الرجال الثلاثة عشر»، ومفادها أن بعض الأصدقاء القلائل إنما المخلصين لقضايا مشتركة، والحاملين طموحاً مشتركاً، حفنة من الأصدقاء الشجعان والأكفاء، ولا سيما المتلاحمين التحاماً وثيقاً، بوسعهم أن يغيروا وجه العالم. وأنا بدوري، كنت أؤمن بذلك. وفي الحقيقة، يحدث لي أحياناً، حتى اليوم، أن أداعب وهم الطفولة ذاك. ولكن أين أجد مثل تلك الزمرة؟ عبثاً بحثت ونقبت، فلا شيء على هذا الكوكب سوى الخواء.

وفي نهاية المطاف، لم تتحول شلتنا، شلة الأصدقاء، لا إلى أخوية ولا إلى مجمع، ولا إلى حزب ولا إلى جمعية سرية. وظلت لقاءاتنا غير رسمية، ومفتوحة، عامرة بالشراب، عابقة بالدخان، صاخبة. لا تعرف التراتبية، وإن كنا نلتقي دوماً بمبادرة من مراد، وعادة، في بيته، في الضيعة، على شرفة بيته القديم.

من ذلك الموقع المعلق بين الساحل والجبل، سنشهد نهاية العالم. «العالم ؟» عالمنا، على أي حال، نهاية بلدنا كما عرفناه. وأجرؤ على القول : نهاية حضارتنا. الحضارة المشرقية، وهو تعبير ينتزع ابتسامة من الجهلة وصرير أسنان من أنصار الهمجيات المنتصرة، وأتباع العشائر المتغطرسة التي تتناحر باسم الإله الواحد، والتي لا تعرف عدواً أسوأ من هوياتنا المعقدة.

كان أصدقائي ينتمون إلى جميع الطوائف، وكل واحد منهم يرى أن من واجبه، ومن قبيل الغنج والدلال، أن يسخر من طائفته – ثم بشكل لطيف، من طوائف الآخرين. كنا صورة تخطيطية للغد، ولكن الغد ظلّ صورة تخطيطية. فسيترك كل منا نفسه يساق، تحت حراسة مشددة، إلى سجن عقيدته الإيمانية الملزمة. كنا ندعي بأننا أتباع فولتير وكامو وسارتر ونيتشه أو السورياليين، فرجعنا مسيحيين أو مسلمين أو يهوداً، وفق مذاهب محددة، وسجل يضم وفرة من القديسين، وما يرافق ذلك من ضغائن ورعة.

كنا شباباً، وكان ذلك فجر حياتنا، وكذلك غروبها. فالحرب تقترب، تزحف نحونا، مثل السحابة الإشعاعية؛ ولم يعد بوسعنا أن نوقفها؛ بل بوسعنا فقط أن نلوذ بالفرار. بعضنا لم يشأ قطّ أن يسميها باسمها، ولكنها كانت حرباً بالفعل، «حربنا»، تلك التي ستحمل اسمنا في كتب التاريخ. كانت مجرد نزاع محلي آخر بالنسبة إلى سائر العالم، وبمثابة الطوفان بالنسبة إلينا. كان بلدنا بآليته الهشة يغرق، وقد بدأ يصيبه الخلل؛ وسوف نكتشف، على مر الطوفانات، أن من الصعب إصلاحه.

ومن الآن فصاعداً، سترتبط السنوات في ذاكرتنا بالمآسي. وبالنسبة إلى حلقة أصدقائنا، برحيلنا الواحد تلو الآخر.

نعيم أول من رحل، مع جميع أهله، أبيه وأمه وشقيقتيه وجدته. لم يكونوا آخر اليهود في البلد، ولكنهم ينتمون إلى القلة القليلة منهم

التي كانت حتى ذلك الحين تريد البقاء. ولقد شهدت الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين نزفاً صامتاً. فقطرة تلو الأخرى، وبدون ضجيج، اضمحلت هذه الطائفة. بعض أبنائها رحل إلى إسرائيل عبر باريس، أو اسطنبول، أو أثينا، أو نيقوسيا؛ وبعضهم الآخر اختار الاستقرار في كندا، أو الولايات المتحدة، أو إنكلترة، أو فرنسا. وقد اختار نعيم وأسرته الاستقرار في البرازيل، إنما في فترة متأخرة نسبياً، عام 1973.

انتزع منه والداه وعداً بعدم الكشف عن مخططهما، ولا حتى لأصدقائه المقربين، وقد وفى بوعده، فلم يسرَّ بذلك إلى أحد ولم يلمِّح إليه حتى تلميحاً.

وعشية رحيله، اجتمعت شلتنا، كدأبها كل مساء تقريباً، عند مراد وتانيا، في الضيعة، لاحتساء النبيذ الساخن. حدث ذلك في أواخر كانون الثاني، أو مطلع شباط، كان البيت القديم بارداً، وقد التصق الواحد منا بالآخر حول موقد في الصالون الصغير.

أتخيل أننا تناقشنا في شتى المواضيع ، كما كنا نفعل كلما التقينا؛ تحدثنا عن الأشخاص الذين نحبهم أو لا نحبهم، وعن الأحداث السياسية، وبعض المتفرقات، وعن مخرج سينمائي أو أديب رحل مؤخراً... لا أذكر بالطبع ما كان يغذي نقاشاتنا، في ذلك المساء. وبالمقابل، أعلم علم اليقين، لأن المسألة استوقفتني حينذاك ولأني غالباً ما أمعنت فيها التفكير منذ ذلك الوقت، أن لا أحد منا ذكر في أي

لحظة من اللحظات الهجرة، أو النزوح، أو الفراق. وفقط حين علمنا برحيل نعيم، مساء اليوم التالي، تراءى لنا، فيما بعد، بأن سهرتنا إنما كانت سهرة وداعية.

غير أن حادثة غريبة حصلت. كنا نتجاذب أطراف الحديث وإذ بتانيا تنفجر بالبكاء. لم يكن في حديثنا ما يبرر هذه الدموع؛ فشعرنا جميعاً، وكذلك شعر خطيبها مراد، بالارتباك. سألتها عما أصابها، فلم تقوَ على الرد لشدة ما كانت تنتحب. وعندما استعادت هدوءها، قالت: «لن نجتمع أبداً بعد اليوم». لماذا؟ لم تكن تعرف. «اجتاحني ذلك الإحساس على حين غرة مثل اليقين، فصرت أبكي».

اقترح مراد، لتهدئة روعها، وفكِّ السحر نوعاً ما، أن نجتمع كلنا في الغد، وفي الساعة نفسها والمكان عينه. لم يعترض أحد على هذا الاقتراح. لن أقسم أن الجميع قالوا، دون استثناء، «إلى الغد»، ولكن ذلك كان مفهوماً.

افترقنا مع طلوع الفجر. كنت قد اشتريت سيارتي الأولى، وهي خنفساء لونها بيج، ولقد أوصلت نعيم إلى بيته. لم يصارحني بمشاريعه. وحتى عندما كنا وحدنا، نمضي في طرقات قليلة الإنارة وخالية من المارة، لم يقل لي شيئاً.

ولاحقاً، بعد مرور سنوات عديدة، سيخبرني في رسالة أن والديه انتظرا عودته في تلك الليلة بقلق. كانا يخشيان أن يكون قد عدل عن مرافقتهما للبقاء مع شلة أصدقائه، ويتساءلان إذا كانا سيضطران

للرحيل بدونه، أم سيؤجلان رحيلهما إلى موعد لاحق. وعندما عاد إلى البيت، لم يوجه إليه أي فرد من أفراد أسرته الكلام.

ولكنه رحل أخيراً مع أهله، وإلى الأبد. الهروب الأول في صفوفنا.

وبعده، كان دور بلال. ولكنه رحل بأسلوب آخر: الموت.

حين تتملكني الرغبة بصبٍّ اللعنات على جميع الذين حملوا سلاحاً أستحضر ذكرى بلال، فتساورني الرغبة بأن أستثني من لعناتي شخصاً أو شخصين.

كان شخصاً نقياً.

لا أحد بوسعه أن يعلم علم اليقين ما يعتمل في نفس إنسان، ولكني عرفت بلال عن كثب، ولا أعتقد بأني أخطأت الظن بشأنه. كان كائناً مضطرباً، ولكنه نقي، أجل، وأبعد ما يكون عن الخسة.

جمعتنا الصداقة والمودة وجمعنا شيء من التواطؤ؛ بل لقد أصبح، لبضعة أشهر، أقرب الرفاق إلي - كانت فترة قصيرة ولكنها محتدمة، نلتقي فيها كل يوم، فإما يمر بي ويصطحبني، أو يواعدني في أحد المقاهي بوسط المدينة؛ ثم نمشي في الشوارع، لساعات طويلة، ونعيد بناء العالم.

كنا نتحدث عن فيتنام، والمقاومة البوليفية، وحرب إسبانيا، والمسيرة الطويلة؛ ونتحدث، بشيء من الحسد، عن الشعراء الملعونين،

والشعراء المغتالين، عن غارثيا لوركا، والمتنبي، وبوشكين، وكذلك عن جيرار دو نرفال ومایاكوفسكي، وإن كان هذان الأخيران قد انتحرا؛ وكنا نتحدث أيضاً عن غرامياتنا.

وفي أحد الأيام، باغتنا المطر أثناء سيرنا. للوهلة الأولى، وبدافع اللهو، والتباهي الطفولي، أردنا التظاهر باللامبالاة، ومواصلة السير بالوتيرة نفسها، منتصبي الرأس. إلا أننا تبللنا في ثوان معدودة. فهرعنا، وقد ضربنا بالخجل عرض الحائط، للاحتماء تحت شادر. وجلسنا على إفريز حجري. ذكر اسم فتاة في حديثنا - وهي صديقة مشتركة. تحدثنا عنها بتواطؤ وصراحة يثيران حتى اليوم اضطرابي فترتعش أصابعي. لزمنا الصمت لدقائق مديدة، وكأننا شئنا إخماد ما اعتمل في أحشائنا من هيجان. ثم سألني بلال:

«ألا تظن أننا ولدنا في الزمن الرديء؟».

«ومتى كنت تريد أن تولد؟».

«بعد قرن أو قرنين. البشرية تتحول، وأرغب بمعرفة ما سيؤول إليه مصيرها».

شعرت أمام نزقه الصبياني بأنني شيخ حكيم.

«أتظن أن هناك خط وصول يمكنك أن تذهب وتنتظرنا عنده؟ لا تنخدع! ففي مسيرة الزمن، سيكون هناك دوماً، وأينما كنت، قبل وبعد، أشياء صارت خلفك، وأشياء سترتسم عند خط الأفق، ولن تأتي إليك إلا ببطء، يوماً بعد يوم. ليس بوسعك أن تشمل بنظرتك كل الأمور، إلا إذا كنت الله...».

قفز بلال من مكانه، عندما سمع هذه الكلمات، ثم ذهب ووقف مباشرة تحت وابل المطر، وهو يصرخ كالممسوس:

«الله! الله! يا لها من مهنة جميلة!».

وبعد ثمانية أيام على حديثنا، توارى عن الأنظار. لم يعد يتصل بي، وانقطعت أخباره عن جميع أصدقائنا. كنا جميعاً نعتقد أنه مع حبيبته.

صادفته مرة واحدة في مكتبة الجامعة. جاء لينسخ بعض الأوراق.

همست معاتباً: «ما عدنا نراك».

فوضع إصبعاً على شفتيه وقال: «صه! إنني أتدرب! فلو شاء المرء أن يكون الله، عليه أن يتخفى!».

وضحكنا معاً للمرة الأخيرة.

في ذلك اليوم، جاء لنسخ منشور أو ملصق. وحين اقتربت منه، أخفى كل شيء. لم ألح عليه. اقترحت عليه أن نخرج لشرب فنجان قهوة، ولكنه تهرّب متذرعاً بحجة ما. ولن أراه حياً بعد ذلك اليوم.

وفي أحد الأيام، في أواخر تشرين الثاني، وكان الثلاثين أو التاسع والعشرين من ذلك الشهر، تلقيت اتصالاً هاتفياً من مراد، في ساعة مبكرة.

«لدى نبأ سيء، لا بل نبأ مشؤوم».

في اليوم السابق، حصل تبادل لإطلاق النار في أحد شوارع

العاصمة بين مجموعتين مسلحتين. تكاثرت هذه الحوادث، فصرنا لا نعيرها أهمية تذكر، إلا حين يقع عدد كبير من الضحايا. وفي ذلك الحادث، جرح مقاتل واحد. وسمعت الخبر على الإذاعة، ولكنه لم يستوقفني. كان خبراً من بين أخبار أخرى.

توفي ذلك المقاتل متأثراً بجراحه، وكان بلال.

سألت مراد: «أكنت تعرف أنه حمل السلاح؟».

أجابني: «كلا. لم يخبر أحداً، ولكن الأمر لم يفاجئني. وأنت كذلك، على ما أظن...».

كان لا بد لي من الاعتراف بأني لم أعرف شيئاً من جهتي، ولم أفطن إلى شيء، ولم ينبئني حدسي. فأن يكون أحد أصدقائي المقربين، وهو شاعر، ومثالي، وزير نساء، قد رغب بالانضمام إلى ميليشيات الليل، وبيده رشاش، لإطلاق النار على الحي المقابل، لا، صدقاً لم يخطر ذلك ببالي.

بعد ستة أشهر على موت بلال، سيحصل هروب آخر في صفوفنا: هروبي.

2

كان آدم مستغرقاً في ذكرياته، حين رن الهاتف في غرفته. كان المتصل ابن أخ تانيا، يتصل به من طرفها ليسأله إذا كان يود أن يلقي كلمة في مأتم مراد، «باسم أصدقاء الطفولة».

أمام تردده، رأى الآخر أنه من المفيد تعداد أسماء الشخصيات التي ستتعاقب على المنصة للكلام. ولدى سماع كل اسم تقريباً، كانت ترتسم على وجه آدم تكشيرة، إنما لم يجد في نفسه وقاحة الرفض القاطع نظراً للظروف. كان يبحث عن الكلمات الملائمة حين أضاف الشاب: «سيكون الموعد يوم الأربعاء الساعة الحادية عشرة صباحاً!». فانقض آدم فوراً على هذا التوضيح العابر كخشبة خلاص وقال إنه يستحيل عليه للأسف البقاء في البلد حتى ذلك التاريخ نظراً إلى أنه مرتبط بامتحانات طلابه في ذلك اليوم بالذات.

وسيعترف في ذلك المساء في مفكرته: «إنها كذبة محضة. فمنذ شباط الماضي، أنا في نصف سنة سابعة ولست مرتبطاً بمحاضرات أو امتحانات قبل شهر تشرين الأول. غير أني لن ألقي كلمة تأبينية في مأتم مراد لقاء أي شيء.

لأي سبب؟ لم يكن بوسعي القول في لحظتها. فلقد باغتني الطلب، وبدر مني أول جواب تفوّه به فمي.

أثق عادة باندفاعي لا لأنه لا يخطئ، بل لأني لاحظت، على مر السنين، أني كنت أخطئ في الأغلب حين أطيل التفكير، وأحاول أن آخذ المسببات والنتائج في الحسبان، أو الأسوأ من ذلك، حين كنت أستعرض في ذهني، في عمودين متناظرين، الحجج المؤيدة والحجج المعارضة.

ولذلك، أميز اليوم بين أسلوبين في التفكير. في الأسلوب الأول، رأسي يعمل مثل القدر؛ يحيط بكل العوامل في آن واحد، «يحتسبها» بدون علم مني، ثم يسلمني دفعة واحدة النتيجة النهائية. وفي الأسلوب الآخر، يعمل رأسي مثل أي سكين مطبخ عادي، ويعمد إلى تقطيع الواقع بواسطة مفاهيم تبسيطية مثل «المحاسن» و«المساوئ»، و«العاطفة» و«العقل»، فيزيدني فوق حيرتي حيرة.

كم من مرة اتخذت قرارات مفجعة لأسباب وجيهة! أو على العكس، أفضل القرارات رغم أنف المنطق السوي!

فتوصلت إلى القول إنه من الأفضل أن أقرر أولاً، في لمح البصر، ثم أخوض بأناة وروية في قرارة نفسي لأفهم هذا الخيار.

وفي ما يتعلق بالمأتم، لم يطل بي الأمر حتى أبرر، لنفسي على الأقل، رفضي العفوي، وبالتالي، تخفيف ندمي.

نظراً إلى سلوك مراد خلال السنوات الأخيرة، لا سبب لدي

للمشاركة في ما سيقدم له من تكريم، ولو كان ذلك بعد رحيله. فتقديم التعازي كما تقتضي اللياقة لدى وفاة شخص عرفناه أمر مختلف عن الإيحاء بأن المرء قدم من باريس خصيصاً للكلام في مأتمه، وسط حلفائه السياسيين، وشركائه في أعماله التجارية، وعرابيه والمدينين له على السواء. فكل هؤلاء الأشخاص الذين لا بد أن صديقي السابق عاشرهم في حضيض الحرب أعرف حق المعرفة بأي أساليب أصبحوا من أصحاب النفوذ والأثرياء. ولا أريد أن أتبعهم أو أن أسبقهم في الكلام على المنصة، ولا أرغب حتى بمصافحتهم.

وإذا كنت قد رحلت عن البلد، فبالضبط لئلا أضطر لمصافحة تلك الأيادي!

بعد دقائق معدودة، اتصلت الأرملة بنفسها، لكي تلح عليه. ألا يستطيع إرجاء سفره حتى نهاية الأسبوع؟ فأكد رفضه، مكرراً الكذبة نفسها، بصورة قاطعة، بل وفظة بعض الشيء، تجنباً لأي ابتزاز عاطفي.

«آسف! أنا مضطر للسفر. فطلابي بانتظاري».

خيَّم صمت ثقيل. خانت تانيا الكلمات لإقناعه، وخانته الكلمات للاعتذار. وأخيراً، قالت، وقد سلَّمت بالأمر على ما يبدو: «أتفهَّم ذلك...وعلى أي حال، لن أنسى أبداً أنك ركبت في أول طائرة لكي تأتي وتراه».

وسرعان ما تأججت حرقة الندم لدى آدم بسبب هذا الموقف

اللطيف، لا إلى حد إقناعه بالعدول عن رأيه، إنما بما يكفي ليشعر بالحاجة لتعويض غيابه عن المأتم بمبادرة ودية.

«أنوي الكتابة إلى أصدقائنا المشتركين لإخطارهم بما جرى. وأنا على ثقة أنهم سيرغبون بالتعبير لك عن مودتهم. ألبير، ونعيم، وغيرهم...».

فوافقت أرملة مراد: «أجل، أكتبْ لهم! انقطعت أخبارهم عني منذ سنوات. أعتقد أنهم سيحزنون حين يعرفون».

«بالتأكيد!».

«من المستحب أن يتسنى لنا جمع شمل جميع الأصدقاء القدامى إحياءً لذكراه. في نيسان المقبل مثلاً، بمناسبة الذكرى السنوية الأولى. أتظن أنهم سيأتون؟».

«ولم لا؟».

«بل بوسعنا أن ننظم هذا اللقاء في موعد أبكر. بمناسبة ذكرى الأربعين مثلاً».

وفقاً لتقليد قديم توارثته مختلف الطوائف المشرقية، يجري إحياء لذكرى الميت بعد أربعين يوماً على وفاته. تراءى لآدم أن الموعد يبدو قريباً للغاية لاستدعاء الأصدقاء، ولكنه لم يشأ معارضة الأرملة.

«إذا كانت هذه رغبتك، بوسعي أن أقترح عليهم ذلك».

«وأنت، هل ستعود عندئذ؟».

«ستسنح لنا الفرصة بعد للتكلم في الموضوع».

«أنت تتهرب!».

«كلا، تانيا، لا أتهرب. ولكننا لن نقرر كل شيء في هذه اللحظة. أولاً، سأكتب إلى الأصدقاء لاستمزاجهم، ثم، نقرر ما سنفعل».

كررت على مسمعه: «أنت تتهرَّب! غداً، سترحل، وسيصبح المشروع في خبرِ كان. كان بودِّ صديقك حقاً أن...».

واختنق صوتها.

«أقترح أن أمر بك هذا المساء، فنتحدث بهدوء عن جمع شملنا ليتسنى لي تقديم اقتراحات محددة للأصدقاء. أيناسبك ذلك؟».

لم يكن آدم يحاول فقط اختصار مكالمة تربكه. كان حريصاً بالفعل على رؤيتها قبل رحيله. يتملكه الإحساس بأنه لم يبق طويلاً إلى جانبها. ففي نهاية المطاف، لقد قام بهذه الرحلة نزولاً عند طلب تانيا، وبالكاد كلَّمها. واكتفى بتلك الزيارة المقتضبة إلى المستشفى، وذلك العناق الصامت تقريباً. وقال لنفسه إنه يجدر به أن يمضي معها بعض الوقت، لا سيما إذا كان يعتزم السفر قبل المأتم.

«قولي لي متى تكونين لوحدك، في المساء! سآتي لرؤيتك».

خيَّم صمت طويل جداً. ولولا الأصوات التي كانت تنبعث في الخلفية، لخال المرء أن الخط انقطع.

وعندما ردَّت أرملة مراد أخيراً، استشف محدثها في صوتها بحة متهكمة.

«مسكين آدم، لقد أصبحت بالفعل مغترباً. تسألني متى أكون

لوحدي؟ لوحدي، في هذا البلد، في مثل هذا اليوم؟ إعلمْ أنني في الضيعة، في البيت القديم، وأن من حولي نحو مئة شخص، بل لنقل مئتين، من الجيران والأقارب والمعارف، وكذلك أشخاصاً لم أرهم من قبل في حياتي. إنهم منتشرون في كل مكان، في الصالونات، وفي المطبخ، وفي الأروقة، وفي الغرف، وعلى الشرفة الكبيرة، وسوف يظلون هنا طوال الليل وفي الأيام القادمة. لوحدي؟ هل تظن أنني كنت سأبقى لوحدي؟ إذهبْ، سافرْ، بدون أن يعتريك الندم. إركبِ الطائرة، وعُدْ من حيث أتيت، عُدْ إلى باريس، وسنلتقي فيما بعد، في ظروف أخرى».

لم يكن بوسع آدم الرد على تانيا بالنبرة نفسها، في اليوم الذي فقدت فيه زوجها. فاكتفى بالقول مع أنه تضايق من كل هذه العدائية: «وهو كذلك! نلتقي لاحقاً. الله يخليك بصحتك!

قبل أن ينهي المكالمة.

لم أستحق هذا الهجوم!كنت أحاول أن أعرب لها عن مودتي واهتمامي. كنت أحاول أن أجاري ما تتمناه. لا شيء يبرر هجومها عليّ بهذا الشكل.

لعلّي أخطأت حين سألتها إذا كانت ستكون بمفردها. لا بد أنها استشفت في سؤالي استخفافاً أو شفقة. لم أقصد سوى القول إنني سأنتظر قبل زيارتها أن يغادر زوارها، وأن تكون لوحدها مع المقربين منها. ولكن ما قلته لها كان مجرد ذريعة لها. والسبب الحقيقي لغضبها

أنني رفضت إلقاء كلمة في مأتم مراد، وربما، في الأصل ما شاب علاقتنا من خصام طويل كان بوسعي أن أضع له حداً نهائياً لو قبلت بالضبط إلقاء كلمة تأبينية عنه. ولكن لا أحد سيرغمني على القيام بذلك، لا بالتملق ولا بممارسة الضغط، فكيف بهذه النوبة من العدائية.

وعبثاً حاولت التفكير بتعقل، فلم أفلح في استعادة هدوئي! إنني أشعر بالإستياء!

أكثر ما جرحني في هجوم تانيا أنها طلبت إلي «العودة إلى بلدي». ربما أصبحت أعتبر باريس مثل «بلدي». ولكن ألا يجوز لي القول بأنني كذلك في بلدي في مدينتي الأم؟ لا شيء يجيز لشخص ما، أكان صديقاً أم لا، في حداد أم لا، أن يذكرني على هذا النحو بوضعي كغريب.

بما أن هناك رغبة بطردي، فسأبقى! وأنا وحدي سأختار، على راحتي، موعد رحيلي.

3

في الحقيقة، لم يكن آدم يرغَب قطّ مغادرة البلد بهذه السرعة.

عندما اضطر للتذرع بالتزاماته الجامعية لتجنب المشاركة في جوقة الكلمات التأبينية، أحس بأنه وقع في فخ. لا شيء يرغمه على السفر في الغد، ولا في الأيام التالية. كان قد بدأ بالكاد يستدل على طريقه، ولا يشعر بعد بالإعياء على الإطلاق.

لقد حرَّرته عدائية تانيا عملياً. فلو اكتفت بالإعراب عن مودتها، كان سيندم على الأرجح لبقائه في البلد دون حضور المأتم، وسيرحل. رغماً عنه، بالتأكيد، إنما ليس باليد حيلة.

أما الآن فقد صمَّم على البقاء.

اختمرت بباله خطة، فاتصل على الفور بدولوريس، صديقته، ليصارحها بما عقد عليه العزم. سيمدد إقامته في البلد، ولكنه سيعمد إلى تمويه أثره.

وحالما استقر على هذا الرأي، بدأ تحركاته. اتصل بموظف الاستعلامات في الفندق وطلب تهيئة فاتورته، واستفسر كذلك عن الوقت الذي يستغرقه الوصول إلى المطار. كان يريد التأكد، في حال

سعى أحدهم للاتصال به، من أن الجواب سيكون أنه قد ركب الطائرة وغادر.

ولهذا السبب نفسه، تجنب أن تقله إحدى سيارات التاكسي الكثيرة التي تنتظر الزبائن لدى خروجه من الفندق. وحين فتح له سائق أول سيارة تاكسي تقف في الصف الباب، ادعى أنه بحاجة إلى شراء بعض الأغراض من محلات الحي، وابتعد سيراً على الأقدام، وهو يجرُّ حقيبته وراءه.

مشى لبضع دقائق، ثم سلك منعطفاً، فمنعطفاً آخر، قبل أن يوقف سيارة تاكسي كانت تحوم. أعطى السائق اسم قرية، برتايل، واسم فندق، نزل سميراميس.

وعندما بدأت السيارة تخرج أخيراً من زحمة السير في المدينة وتسلك طريق الجبل، اتصل آدم بصاحبة الفندق. كان اسمها بالضبط سميراميس، وهي من شلة أصدقائهم أيام الجامعة. انقطعت عنه أخبارها في الفترة التي أعقبت سفره إلى فرنسا. ولكنهما عاودا الاتصال منذ ذلك الحين؛ وفي السنوات الأخيرة، زارت باريس مرتين، ودعاها لتناول العشاء في بيته؛ وقدم لها دولوريس، وانتزعت منه «سمي الجميلة» وعداً بأن يزورها حين يعود إلى البلد.

فاتصل برقم هاتفها، وقال لها، بدون أن يعرِّف عن نفسه:

«إنني في سيارة تاكسي. وخلال نصف ساعة، أكون عندك».

«آدم!».

لفظت اسمه في ما يشبه الصراخ.

«لم أكن حتى على علم بأنك في البلد».

«وصلت البارحة. أعندك غرفة لي؟».

«يجب أن تعرف أن بوسعك المجيء في أي وقت، حتى في عز الصيف، وسيكون لديك دوماً غرفة عندي. ولو شئت الصدق، فأنا لا أسدي لك خدمة باستقبالك اليوم، فالفندق يكاد يكون خالياً من الزبائن».

«أحسن!».

«أتعتقد ذلك؟ محاسبي لا يتفق معك».

وضحكت، فشعر آدم بضرورة الاعتذار منها، وضحك بدوره.

«قصدت القول إنني أبحث بالضبط عن الهدوء. لم أخبر أحداً بأنني وصلت، ولم أقابل أحداً إلا تانيا، ولكنها تعتقد أنني أهمُّ بركوب الطائرة. أظن أنك تعرفين...».

«بالنسبة إلى مراد؟ أجل، أعرف، بالطبع».

«هل التقيتيه في الفترة الأخيرة؟

«أحياناً. وأنت؟ أعلم أنك كنت متخاصماً معه. فهل تصالحتما؟».

«نعم ولا... سأحكي لك فيما بعد. هل ستذهبين لحضور المأتم؟».

«أجل، بالطبع. وأنت، ألن تحضره؟».

«لا أظن».

«أنت مخطىء. لا أحد يرفض الذهاب إلى مأتم».

«لدي أسبابي. سأشرح لك. أفضل ألا يعرف أحد بأنني في البلد. أود التواري عن الأنظار لبضعة أيام عندك. إنني بحاجة لذلك فعلاً. ولا أريد أن أرى سواك».

«لن تقابل أحداً، اطمئن! ولن يفطن أحد إلى أنك في الفندق. سأحبسك في غرفتك وأحتفظ بالمفتاح».

«لن يصل بنا الأمر إلى هذا الحد!».

وانطلقت ضحكتان مقتضبتان، ثم خيم صمت. فسألته من باب اللياقة فقط:

«هل أتيت برفقة دولوريس؟».

«لم تستطع المجيء. فقد تقرَّر الأمر في اللحظة الأخيرة. إنها تعمل. هل تستقبلينني رغم ذلك؟».

«أتشوَّق للقائك...».

حين سلك التاكسي الطريق الصغير المشجَّر الذي يقود إلى الفندق، كانت سميراميس تنتظر قرب البوابة المشرعة، وبقربها ثلاثة من موظفيها، حارس عجوز، وموظف استعلامات يرتدي بدلة رسمية، وحمال شاب فتح صندوق السيارة لحظة توقفت، وأخرج منه الحقيبة بهمَّة ونشاط.

أمرته مديرته: «الغرفة رقم 8».

أخرج آدم محفظته ليدفع أجرة التاكسي، ولكن السائق رفض أن

يأخذ منه المال بل أخذ الورقة النقدية التي ناولته إياها صاحبة الفندق عبر نافذة السيارة المفتوحة.

قالت له بثقة لكي تقمع لدى الزائر أي نية بالاحتجاج: «لقد عشت طويلاً في الغربة، وصرت تجهل عادات البلد».

أهكذا حقاً يجب أن تجري الأمور في بلده الأم؟ لم يكن آدم متيقناً من ذلك، ولكن الحجة كانت مفحمة. فكل مغترب يخشى أن يرتكب هفوة، ومن السهل على الذين لم يفارقوا البلد أن يثيروا لديه شعوراً بالهزء والخجل لكونه أصبح مثله مثل أي سائح، فأرجع النقود إلى جيبه.

ولهذا السبب، حين ترجل من السيارة، تردد في احتضان صديقته بين ذراعيه، كما كان سيفعل عفوياً في فرنسا. فأمام نظرات السائق وموظفي الفندق، ألا يجدر به بالأحرى أن يصافحها؟ فبادرت هي بمعانقته وضمه إلى صدرها، باقتضاب، قبل أن ترافقه نحو المدخل الذي كانت تعلوه خيمة مصنوعة من الزجاجيات الملونة التي تذكر بطراز «الحقبة الجميلة».

بعد ساعة، كان يجلس مع سميراميس إلى المائدة، في الطابق الأخير من الفندق، على شرفة مؤطرة بثلاث واجهات زجاجية تعكس في الليل كالمرآة هيئتهما وهيئة المصابيح.

أحضر لهما حوالى عشرة أطباق صغيرة، ثم عشرة أخرى، فعشرة أو خمس عشرة، من المازات الساخنة أو الباردة التي كانت ستشبع بسهولة جوع حشد من السياح.

«أمتأكدة أن ذلك سيكفينا؟».

فقالت له، بدون أن تبتسم: «هذه لك أنت، فأنا سبقتك وتعشيت».

فسارع آدم بالتوضيح، خشية أن تكون قد أساءت فهم ملاحظته: «كنت أقول ذلك على سبيل المجاز».

فقالت له مضيفته، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة قرصان: «وأنا كنت أجيبك على سبيل الاستعارة»، قبل أن تضيف قائلة: «في الماضي، تذكر أنك كنت تقول عني إنني خفيفة الدم. كان كل منا يفهم الآخر على الطاير، وكنا نتبادل الغمزات. لا تشعر بنفسك مضطراً إلى أن تقول لي في أي لحظة من النكتة يجدر بي أن أضحك».

«لا تلوميني يا سمي! ليس من السهل العودة إلى الوطن بعد كل هذه السنوات. لا بد لي من أن أكون حذراً ورصيناً ومتبصراً، لا ريب لأني فقدت معالمي. وأخشى دوماً أن أجرح مشاعر من أخاطبهم، وإن تعلق الأمر بأصدقاء قدامى. لا أدري إذا كان بوسعي أن أكلمهم بالنبرة نفسها التي كنت أعتمدها فيما مضى. فالناس لا يبقون على حالهم، كما تعلمين».

«أنا لم أتغير يا آدم. إنني أقل شباباً، وأقل رشاقة، ولكني لم أتغير في قرارة نفسي. لست مجرد أي سيدة ولن تكون أبداً عندي مجرد أي رجل. يا الله كم أكره الزمن الذي يمضي ويحولنا جميعاً إلى أشخاص عاديين مثيرين للشفقة! فأمثل أنا دور صاحبة الفندق، وتمثل أنت دور الأستاذ المرموق».

وقالت وهي ترفع كأس الشمبانيا: «ولكن ليس هذا المساء».

وكرر آدم كما لو أن الأمر يتعلق بقسم : «ليس هذا المساء».

وقرع كل منهما كأسه بكأس الآخر، ثم قرَّبه ببطء من شفتيه. بالفعل لم تتغير «سمي الجميلة» كثيراً – لا بل لقد تغيرت أقل مما زعمت. لم يظهر في بشرتها السمراء أي تغضن بارز للعيان وعيناها الزمرديتان تتمتعان حتى الآن بذلك العمق البحري؛ ربما لم تعد رشيقة، كما سلَّمت، ولكنها لم تكن كذلك أبداً كما يذكر صديقها. كانت أطول قامة من معظم نساء البلد، وبالأحرى «بصحة جيدة»، لا بل «مكتنزة»، ولم ينقص ذلك أبداً من جاذبيتها، لا في السابق، ولا في هذا اليوم.

اقترب النادل من مائدتهما بهدوء، وقد حمل بيده زجاجة ملفوفة بفوطة. فملأ الكأسين، ثم سأل مديرته: «هل ترغبان بالمزيد من الإضاءة؟».

«كلا، فرنسيس، الشموع تكفي».

فأومأ الرجل برأسه وعاد إلى مكانه.

استأنفت سميراميس كلامها: «أشتاق إلى تلك الفترة، أكثر مما تشتاق إليها، بلا شك. ستقول لي إنه أمر عادي للغاية أن تتحسر سيدة في الثامنة والأربعين على ذلك الزمن الذي كانت تبلغ فيه الثامنة عشرة... ولكن في هذا البلد، في هذه المنطقة من العالم، ثمة شيء آخر. يبدو لي أنني أسلك طريقاً، وكلما تقدمت خطوة إلى الأمام، يتفتت الموقع الذي تطأه قدماي. بل، وفي بعض الأحيان، تبدأ الطريق بالانهيار تحت قدمي، وعليّ أن أستعجل لئلا أهوي معها».

اليوم الثالث

1

كتب آدم في مفكرته، لدى استيقاظه، بتاريخ 22 نيسان:

أدركت صباح هذا الأحد، وأنا أعبُّ الهواء، كم فطمت عن جبلي طوال تلك السنين، وكم أرغب بأن ألقى فيه عناية أمومية.

بوركت سمي، فقد خصصت لي غرفة تطل على الوادي، وفيها طاولة صغيرة قرب النافذة؛ حيثما أجيل بصري، لا أرى سوى أشجار الصنوبر البري، وأتنشق النسيم الذي يداعبها، وأود أن أبقى في هذا المكان حتى نهاية الأزمنة. أقرأ، وأكتب، وأسرح بخيالي، معلقاً بين قمم الجبال المكوَّرة وسعة البحر.

في رأسي صوت يهمس لي باستمرار بأنني سأشعر قريباً بالملل، وبأن جسارتي ستأمرني غداً بالرحيل كما تأمرني اليوم بالبقاء، وبأنه سيتملكني حينها إلحاح الهروب كما يتملكني اليوم إلحاح الانغماس. ولكن يجدر بي أن أطلب من عرافتي الباطنية التزام الصمت.

خرج ببطء من خدره اللذيذ وراح يتصفح مفكرته بحثاً عن القصة التي شرع في سردها البارحة، قبل أن يقطع الاتصالان الهاتفيان لتانيا وابن أخيها حبل أفكاره ويرغمانه على الهروب من العاصمة والبحث

عن ملاذ لدى سميراميس. كانت آخر جملة تقول: «بعد ستة أشهر على موت بلال، سيحصل هروب آخر في صفوفنا: هروبي».

نقل هذه الكلمات على صفحة جديدة، كما ليحسن التقاط حبل الذكريات بين أصابعه مجدداً.

لطالما اعتقد أصدقائي أنني رحلت بسبب نزوة. ولا شيء أبعد عن الحقيقة من هذا الاعتقاد. لقد آمنت، أنا نفسي، بهذه الفرضية مطولاً لئلا أضطر إلى تبرير تصرفي. وحين يلح الآخرون عليّ بالسؤال، أقول إنني أعلنت بهدوء في إحدى الأمسيات لجدتي التي كنت أعيش عندها في ذلك الوقت، بأنني سأركب في الغد الباخرة المتوجهة إلى جزيرة بافوس، ومن هناك، ستقلني الطائرة إلى باريس. لم أكن أكذب، حين كنت أقول ذلك، أو أتفوه بمعلومات مغلوطة، ولكني كنت أغفل قول حقيقة ما جرى. وهذه الحقيقة هي أن القرار الذي أعلنت عنه في ذلك اليوم لم يكن وليد اللحظة بل لقد اتخذته بعد طول تفكير. غالباً ما كنت أحبس نفسي في غرفتي لساعات مع كتاب، ثم أضعه جانباً، وأتمدد على السرير، بعيني المفتوحتين على اتساعهما، وأحاول أن أتخيل ما سيحل ببلدنا وبالمنطقة التي يقع فيها بعد سنوات الحرب، مستشرفاً بذهني خط الوصول ذاك الذي كان يريد بلال أن يصل إليه لمعرفة «عبرة التاريخ».

لم تكن تلك «العبرة» تعجبني. وعبثاً فكرت في المسألة وقلبتها في ذهني، فلم أكن أرى من حولي سوى العنف والتخلف. في ذلك

المحيط المشرقي الذي يدلهم ويكفهر، لم يعد لدي موقع، ولم أعد حريصاً على انتزاع موقع لي.

بعد مرور أشهر عديدة من التأمل الصامت، والاستشراف البارد، والحلم المستيقظ، تكوَّن قراري. في يوم من الأيام، انبثق، ولكنه كان قد اختمر ببطء. وجدتي لم تستغرب أصلاً ولم تحزن. لم يكن لديها سواي في هذا العالم، ولكنها كانت تحبني لشخصي، لا لنفسها، وتريد أن تطمئن على أنني أعيش بأمان، وبأنني لست مختبئاً فقط. فباركت قراري لكي أرحل مطمئن البال، بدون أن يعتريني الندم.

فور وصول باخرتي إلى الجزيرة، قصدتُ قنصلية فرنسا التي اشترطت لمنحي تأشيرة الحصول على رسالة توصية من قنصلية بلدي. أجل، كانت تلك الفترة لا تزال متحضرة! لم أضطر لغمس إبهامي في الحبر وترك بصمة متثاقلة على السجل، فرسالة قنصل بلدي كافية. ولقد دبجها بأجمل أسلوب فيما كنت أرتشف فنجان قهوة جالساً في إحدى زوايا مكتبه؛ وسرعان ما حملتها إلى قنصل فرنسا، حيث قدموا لي فنجان قهوة آخر.

لعلِّي أجمِّل الأمور، فلم أعد أذكر التفاصيل؛ إلا أني أذكر المشاعر التي اجتاحتني، والمذاق الذي خلفته لدي تلك الحادثة. لا مرارة على الإطلاق. فالرحيل عن الوطن هو سُنة الحياة؛ وأحياناً تفرضه الأحداث؛ وإلا، فيجب أن نخترع له عذراً. لقد ولدت على كوكب، لا في بلد. أجل، بالطبع، ولدتُ أيضاً في بلد، في مدينة، في طائفة، في

أسرة، في حضانة، في فراش... ولكن المهم عندي، وعند جميع البشر على السواء، أنني جئت إلى هذا العالم. إلى هذا العالم! فالولادة هي المجيء إلى العالم، لا إلى هذا البلد أو ذاك، لا إلى هذا البيت أو ذاك.

وهذا الأمر لم يستطع مراد أن يفهمه أبداً. كان على استعداد للتسليم بأن على المرء الابتعاد لبعض الوقت عن بلده الأم بحثاً عن الأمان حين تستعر الحرب. أما أن يرغب بالعيش سنة تلو الأخرى في بلد غريب، متخفياً في حاضرة مترامية الأطراف، فلم يكن ذلك بالنسبة إليه تخلياً عن الأرض الأم فحسب بل إهانة للأجداد، وتشويهاً للروح نوعاً ما.

لم أكف عن متابعة كل مايجري في البلد عن كثب، إلا أني أقلعت نهائياً عن التفكير في العودة إليه. لم أكن أقول أبداً: «لن أعود إليه»؛ بل كنت أقول: «فيما بعد»، «ليس هذا الصيف»، «ربما السنة القادمة». وفي أعماقي، كنت أعلِّل النفس، بشيء من الخيلاء، بألا أعود للاستقرار في البلد إلا حين يعود كما عهدته من قبل. كنت أدري أن هذا الأمر مستحيل، ولكن هذا الشرط لم يكن قابلاً للمساومة، ولا يزال كذلك.

ذلك هو أسلوبي في الوفاء، ولم أشأ أن أتبنى أسلوباً آخر على الإطلاق.

وأدرك أصدقائي مع مرور الوقت بأني لن أعود. وكتب لي بعضهم، منهم لاستصواب قراري، ومنهم لاسماعي المواعظ.

2

ترك آدم الطاولة لتناول ملف أزرق سماوي سميك من حقيبته كان قد أحضره معه. كتب عليه بالقلم الأسود الثخين، «رسائل الأصدقاء». وضعه على السرير، واستلقى جانباً، وفكَّ المطاطة، وأخرج رزمة من المغلفات، وراح يقرأ الرسائل.

ولم ينهض إلا بعد ساعة، وبيده أوراق، لكي يمضي وينسخ بضع فقرات على مفكرته.

«يقولون في البلد إنك رحلت إلى غير رجعة...».

مقتطف من رسالة لمراد، مؤرخة 30 تموز 1978، وصلتني إلى باريس بفضل عناية أحد المسافرين.

«كلما ردد أحدهم ذلك أمامي، أتظاهر بأنني أستشيط غضباً، فيعفيني ذلك من المجادلة، فبيني وبينك، لم أعد أدري ماذا أقول. السنة الماضية، انتظرناك طوال الصيف، ولم تأت. كنت تعمل على ما يبدو. ظننت أن الناس في فرنسا يأخذون إجازة في الصيف، إما في آب أم في تموز، أو في أيلول. أما أنت فلا! كنت تعمل! فصرخت في أصدقائنا: «أظننتم أنه سيصبح مثل الناس هناك الذين يتظاهرون طوال السنة بأنهم يعملون فيما لا يكفون عن النظر خلسة إلى روزنامة

الإجازات؟ اطمئنوا، آدم لم يتغير، ولن يتغير! إنه يشقى مثل المغتربين، ليل نهار، مثل مغترب حقيقي من عندنا، تحت الشمس، تحت المطر، في كل الفصول...».

ولكن حبل الكذب قصير، كما يقول المثل. فهذا الصباح، أعلنت جدتك أنك تأخذ شهر عطلة مثل الجميع وأنك استأجرت بيتاً في جبال الألب. كانت تبدو فخورة، الله يسامحها، وقد أطلعتني على الرسالة التي بعثتها لها، فقررت أن أكتب لك في الحال.

لا أسعى للضغط عليك، ولكن لو كان صحيحاً أنك لم تعد تريد أن ترجع، فعلى الأقل، قل لي ذلك يا محتال، لكي أكف عن التحول إلى أضحوكة وأنا أحاول الدفاع عنك! إذا كنت تفضل جبال الألب على الجبل هنا، فلتكن لديك على الأقل الشجاعة لكي تكتب لي ذلك!

لقد تغنى الكتاب المقدس بجبلنا حين كانت جبال الألب عندكم مجرد تضريس جيولوجي، «ثنية» لا تذكر. لم تدخل جبال الألب في التاريخ إلا حين اجتازها سلفنا هنيبعل بفيلته للهجوم على روما. وهذا ما كان يجدر به أن يفعل في الواقع، الهجوم مباشرة على المدينة، واحتلالها قبل أن تأتي هي لاحتلالنا. ولكني أفترض أن كل هذه الأمور لا تعنيك، ولا ريب أنك لم تعد تعرف من يكون هنيبعل.

بيت في جبال الألب، يا خائن؟ فيما تنتظرك هنا بيوت كثيرة، وأولها بيتي؟ يا عيب الشوم عليك! [...]

تانيا تقول لي إنها ترسل لك قبلاتها. هي، ربما، أما أنا فلا! لم أعد أعرفك!»

كان المغلّف نفسه يضم رسالة ثانية.

في البداية، حين لمحت تلك الورقة المائلة إلى اللون الوردي، التي تكاد تكون شفافة، المطوية على شكل مربع، وتعرفت على خط تانيا الناعم، ظننت أنها وضعتها خلسة بغير علم من مراد. ولكني سرعان ما أدركت أن هذا الأخير لم يمانع على ما يبدو أن تضم زوجته كلماتها إلى كلماته. ففي الحقيقة، كانت هي التي تلومني أشد الملامة ، مع أنه يبدو أنها تصحح الرماية.

«آدم الغالي،

لا شك أنك سترى في الرسالة التي يوجهها إليك مراد بادرة مودة تتوارى، بسبب حياء الرجال، خلف فظاظة التأنيب والتقريع.

هل من داعٍ للقول إنك خلفت في حياة أصدقائك فراغاً لم يأت أحد أو أي شيء ويملأه؟ وإننا نشعر بقسوة غيابك أكثر في سنوات الضياع هذه؟ لو كنت أمامي، لتصنعتَ الدهشة، ولما كنت صدقتك. لطالما اعتبرت تواضعك الظاهر من علامات التربية الفاضلة عوضاً عن التواضع الأصيل. فخلف مظهرك الودود والمهذب والخجول، أنت أكثر من عرفتهم تعجرفاً.

لا تحتج! أنت تعرف أن هذا صحيح، وتعرف أنني أقول لك ذلك مثل أخت محبة. أنت أكثر الأشخاص تعجرفاً، أجل، وكذلك، - وسوف يتعاظم احتجاجك - أكثرهم افتقاراً إلى التسامح. ماذا تفعل

حين يخيِّب صديق أملك؟ لا يعود صديقك. ماذا تفعل حين يخيِّب البلد أملك؟ لا يعود بلدك. وبما أنك تصاب بخيبة الأمل بسهولة، سوف تصبح في نهاية المطاف بلا أصدقاء، وبلا بلد.

لوددتُ أن يكون لكلماتي تأثير عليك. لوددت أن تفلح كلماتي في إقناعك بأن تتسامح مع هذا البلد، أن تتقبله كما هو. سيكون دوماً بلد الأحـزاب، والفوضى، والمحسوبيات، والمحاباة، والفساد. ولكنه كذلك بلد العيش الرغيد، والدفء الإنساني، والكرم، وبلد أعز أصدقائك.

ومن الصفات الحميدة الأخرى لبلدنا أن بوسع المرء فيه العيش في واحة من اللامبالاة. فحتى حين تشتعل جميع أحياء المدينة، تبقى ضيعتنا، ودارنا العتيقة، وشرفتها الفسيحة كما عرفتها؛ يوافينا بعض الأصدقاء إليها بين الحين والآخر، كما في الماضي. وبعضهم الآخر كفَّ عن المجيء؛ وسنظل نشتاق إليهم، وضعفي يوحي لي بأنهم يشتاقون قليلاً إلينا كذلك.

لا يفتأ مراد يردد على مسمعي أنك أصبحت مجرد نكرة بالنسبة إليه، أي العكس تماماً. ويقول لي كذلك إنك أصبحت غريباً وإن غربتك ستتعاظم مع الوقت، وهو ليس مخطئاً تماماً في تقديره على الأرجح. ولكني أقبّلك رغم ذلك، مع خالص مودتي...».

حرصت على الاحتفاظ بهاتين الرسالتين، ولكني لا أذكر أنني أرسلت رداً عليهما.

كانت عملية تلقي الرسائل من البلد شائكة في تلك الفترة، إلا أن إيصالها إليه كان أخطر. فبما أن البريد توقف عن العمل، صار يلزم اللجوء إلى خدمات أحد المسافرين، لكي يوصله باليد، وهي مهمة قد يكون ما دونها المهالك. فكان على حامل الرسائل أحياناً أن يقصد منطقة الاشتباكات؛ وإذا لم يشأ أن يعرض نفسه للخطر، وطلب إلى المرسل إليه الحضور بنفسه لتسلم المغلف الذي يخصه، فهذا الأخير سوف يكون مهدداً بملاقاة حتفه.

ولذلك، توقفنا عن الكتابة لمن بقوا هناك. كنا نتصل بهم هاتفياً. أو، على الأقل، نحاول أن نتصل بهم، فنخفق في تسع من أصل عشر محاولات، ولكن الخط يعلَّق في بعض الأحيان. فنهرول لقول أهم ما نريد قوله، منذ الثواني الأولى للمكالمة، لأن الخط قد يعود فينقطع، فنطمئن على صحة الأقارب؛ وندون بعض الطلبات الملحة – ولا سيما، الأدوية التي أصبحت مفقودة في البلد؛ ونشير إلى الرسائل التي تلقيناها، أو التي أرسلناها؛ ونذكر الأقارب الذين سافروا، أو يتأهبون للسفر. ومن ثم، إذا أبدت الآلهة التي تتحكم بمصير الهاتف بعض الرأفة، ولم ينقطع الخط، نستمتع بترف التحدث في مواضيع أخرى.

كان مراد يدعي أنني قلت له في إحدى أحاديثنا رداً على عتاباته: «أنا لم أرحل إلى أي مكان، بل لقد رحل البلد». لعلِّي قلت ذلك. في تلك الفترة، كنت أقول ذلك أحياناً، فالصيغة كانت تروق لي. ولكنها مجرد مزحة. فبالطبع، أنا رحلت، وقررت الرحيل كما كان بوسعي أن أقرر البقاء.

ولا يعني ذلك أن الحق عليّ، إذا كان ثمة من حق. فلكل امرئ الحق في الرحيل، وعلى وطنه أن يقنعه بالبقاء - مهما ادعى رجال السياسة العظام. «لا تسأل ماذا يمكن لوطنك أن يفعل لك، بل اسأل نفسك ماذا يمكن أن تفعله لوطنك». من السهل قول ذلك حين يكون المرء مليارديراً، وقد انتخب للتو، في الثالثة والأربعين من العمر، رئيساً للولايات المتحدة الأميركية! أما حين لا تستطيع في بلدك إيجاد وظيفة، ولا تلقّي الرعاية الصحية، ولا إيجاد المسكن، ولا الاستفادة من التعليم، ولا الانتخاب بحرية، ولا التعبير عن الرأي، بل ولا حتى السير في الشوارع على هواك، فما قيمة قول جون كينيدي؟ لا شيء يذكر!

فعلى وطنك أن يفي إزاءك بعض التعهدات. أن تعتبر فيه مواطناً عن حق، وألا تخضع فيه لقمع، أو لتمييز، أو لأشكال من الحرمان بغير وجه حق. ومن واجب وطنك وقياداته أن يكفلوا لك ذلك؛ وإلا فأنت لا تدين لهم بشيء. لا بالتعلق بالأرض، ولا بتحية العلم. فالوطن الذي بوسعك أن تعيش فيه مرفوع الرأس، تعطيه كل ما لديك، وتضحي من أجله بالنفيس والغالي، حتى بحياتك؛ أما الوطن الذي تضطر فيه للعيش مطأطئ الرأس، فلا تعطيه شيئاً. سواءٌ تعلق الأمر بالبلد الذي استقبلك أو ببلدك الأم. فالنبل يستدعي العظمة، واللامبالاة تستدعي اللامبالاة، والازدراء يستدعي الازدراء. ذلك هو ميثاق الأحرار، ولا أعترف بأي ميثاق آخر.

فأنا من رحل ، بملء إرادتي أو تقريباً. ولكني لم أخطىء إذ قلت لمراد إن الوطن رحل بدوره، وأبعد بكثير مني. ففي باريس، لا تفصلني، في نهاية المطاف، عن مدينتي الأم سوى خمس ساعات من الطيران. وما فعلته أول من أمس، كان بوسعي أن أفعله في أي يوم خلال السنوات الماضية: اتخاذ القرار، في الصباح، بالعودة إلى البلد، وإيجاد نفسي فيه بالفعل في مساء اليوم نفسه. فشقة جدتي ظلت لفترة طويلة بتصرفي، وكنت سأستقر فيها مجدداً، ولن أفارقها مجدداً. لا في اليوم التالي، ولا في الأشهر التالية، ولا حتى في السنة التالية.

لماذا لم أقدم على ذلك أبداً؟ ألأن مشهد طفولتي تغير ؟ لا، ليس ذلك هو السبب، إطلاقاً. فأن يضمحل عالم الأمس هو من سُنة الحياة. وأن يشعر المرء نحوه بشيء من الحنين كذلك من سُنة الحياة. إننا نجد بسهولة العزاء لفقدان الماضي؛ ولكن ما من شيء يعزينا لفقدان المستقبل. فالبلد الذي يحزنني غيابه ويؤرقني، ليس ذاك الذي عرفته في شبابي، بل ذاك الذي حلمت به، والذي لم يُقدَّر له أن يبصر النور أبداً.

لا يكف الآخرون يرددون على مسمعي أن تلك هي حال المشرق، وأنه لن يتغير، وأنه ستكون هنالك دوماً عصابات، وتجاوزات للقانون، ورشى، ومحاباة صارخة، وأن لا خيار آخر سوى التكيف مع هذا الوضع. وبما أني أرفض كل ذلك جملة وتفصيلاً، يتهمونني بالتعجرف، لا بل بعدم التسامح. أيكون المرء متعجرفاً لو تمنى أن

يكون بلده أقل رجعية، وأقل فساداً، وأقل عنفاً؟ أيكون متعجرفاً أو غير متسامح لو رفض عدم الاكتفاء بديمقراطية تقريبية وبسلم أهلي متقطع؟ إذا كان هذا هو الحال، فأنا أجاهر بخطيئة التعجرف، وألعن قناعتهم الفاضلة.

غير أني أعيد، في ضيافة سمي، اكتشاف ذاك الفرح المحسوس بأني في وطني الأم.

أكتب تلك الكلمات الأخيرة كما لو أني بحاجة إلى تلقنها من جديد. أرضي الأم. بلدي. وطني. لا أجهل عيوبه، ولكن في هذه الأيام التي تجمعني به، لا رغبة لدي بأن أتذكر على الدوام بأن زيارتي إليه عابرة، وبأن في جيبي بطاقة العودة. أحتاج أن أصدق بأنني أقيم فيه لمدة غير محددة، وبأن أفقي ليس مزدحماً بالمواعيد والقيود، وبأنني سأبقى في هذه الغرفة، في هذا الفندق الجبلي، كل الوقت اللازم.

أعلم أنه ستحين لحظة – خلال يومين، أسبوعين، أو شهرين – سأشعر فيها من جديد بأنني مدفوع نحو الرحيل، إما بسبب سلوك الآخرين، أو بسبب نفاد صبري. إلا أنني سأمتنع في الوقت الحاضر عن التفكير في الأمر. فأنا أحيا، وأتنفس، وأتذكر.

3

أفرغ آدم على السرير محتوى ملفه الأزرق السماوي متعجباً لما أمكنه أن يجمع فيه من وثائق على مر السنين. لم تكن رسائل فحسب، كما يدل ما كتبه على الغلاف، بل كذلك قصاصات جرائد، وصورة هوية، وصوراً جماعية، وكذلك بطاقة إقامته الأولى في فرنسا.

أي مسالك سلكها تفكيره وجعله يحفظ هذه الوثيقة في ملف يحمل عنوان «رسائل الأصدقاء»؟ لم يعد لديه أدنى فكرة؛ لكأنه يكتشف هنا شخصاً آخر يشبهه ويصعب عليه بعد الآن إدراك عقلانيته.

لا بد من الاعتراف بأن الحصول على الإقامة في بلد آخر غير بلدي بالنسبة إلى المهاجر الذي كنت في تلك السنوات لم يكن مجرد معاملة إدارية، بل خياراً وجودياً؛ وكلمات أصدقائي لم تكن عندي مجرد آراء، بل هواتف داخلية. واليوم، على الرغم مما أبذله من جهود، لا يسعني أن أستحضر المشاعر التي كانت تعتمل في نفسي وقتذاك، ولا أن أتخيل نفسي مكان المهاجر الشاب الذي كنت.

يفترض بالمؤرخ أن يعرف بأن العقلانية مسألة تواريخ. أكتفي بذكر هذه المسألة دون التوقف عندها، قبل العودة إلى ذكرياتي.

كم من مرة كتبت لي تانيا تقول إنها بمثابة «أخت»، «أخت بكر»، أو «أخت محبة»! كان ذلك أسلوبها في التعبير لي عن مودتها مع حرصها على تجنب سوء التفاهم. وأنا أتحدث بالطبع عن الماضي البعيد. منذ الخلاف الذي حصل بين زوجها وبيني، قلما تحدثنا، وبدون حماس شديد. لا سيما في هذه الأيام الأخيرة...

كان لا مفر من ذلك، ولكني آسف لذلك بعض الشيء. فمنذ لقائنا الأول، - في مقصف الجامعة -، شعر أحدنا بالصداقة نحو الآخر. أكثر من الصداقة؟ ربما، لا أدري... يصعب عليّ أن أجزم بعد مرور كل هذه السنوات. بوسعي دوماً شحذ ذاكرتي لأتذكر إذا ما كان في نظرتي إليها، وأنا في السابعة عشرة، شيء آخر. ولا أرى فائدة ترجى من هذا الاستبطان. فالحب ليس خيطاً أحمر يجب فصله عن الخيوط البيضاء، أو السوداء، أو الذهبية، أو الوردية، التي قد تحمل أسماء مثل «الصداقة»، و«الرغبة»، و«الشغف»، أو الله أعلم. لا ريب أن جملة من المشاعر المتشابكة كانت تعتمل في قلب المراهق الذي كنت. غير أني لطالما عرفت تانيا مع مراد، ولم أتخيل نفسي قطّ «معها»، ولم يعترني بسبب ذلك أي شعور بالاستياء.

هذا، وكنت أشعر نحوها في تلك الفترة بعاطفة عميقة لم أشأ إعادة النظر فيها، رغم كل ما جرى مع زوجها. ألأني أعتبرها بريئة؟ ليس بالفعل. فالمرء لا يكون بريئاً تماماً من أفعال الأشخاص الذين يحبهم. ولكن هل يتحتم عليه أن يتنكر لهم بسبب ذلك؟ أكان يجدر

بتانيا أن تبتعد عن مراد حين بدأ يتصرف بشكل مشين؟ لا أظن. كان من واجبها أن تبقى بجانبه. ومع ذلك، فهذا الإخلاص لزوجها جعل منها متواطئة بالضرورة. أجل، إن خيوط الضمير كذلك تستعصي على الفصل شأنها في ذلك شأن خيوط المشاعر.

لكانت الأمور سهلة لو اضطررنا فقط، على دروب الحياة، للاختيار بين الخيانة والإخلاص. ففي أغلب الأحيان، نجد أنفسنا مضطرين للاختيار بالأحرى بين إخلاصين يستعصي التوفيق بينهما؛ أو، والأمر سيان، بين خيانتين. لقد اضطررت، في يوم من الأيام، تحت وطأة الأحداث، أن أختار، واضطر مراد أن يختار بدوره، وكذلك فعلت تانيا. ومحصلة خياناتنا هي: منفي، ومتهم، ومتواطئة. ولكنها كذلك، بالطبع، محصلة إخلاصاتنا.

أصبحت تانيا متواطئة مع مراد ببقائها إلى جانبه، ولكنها كانت ستكون وضيعة لو تخلت عنه. هذا ما في الأمر. فأحياناً، لا يعود بالوسع التنكر للالتزامات التي نتعهد بها ونحن في العشرين، والأشرف لنا أن نحترمها. لا أدينها، ولا أبرئها كذلك. وعلى أي حال، لستُ محكمة.

ألا أصدر أحكاماً؟ بلى، إنني أصدر أحكاماً، وأمضي وقتي أصدرها. يثير غيظي للغاية أولئك الذين يسألونك، وفي عيونهم هلع مصطنع: «أتصدر عليّ حكماً؟» أجل، بالطبع، أصدر عليكم حكماً، ولا أكف عن الحكم عليكم. ولكن الأحكام التي أصدرها لا تؤثر في حياة «المتهمين». أمنح احترامي أو أسحبه، أحدِّد جرعة دماثتي، أعلِّق

صداقتي بانتظار الحصول على المزيد من القرائن، أبتعدد، أقترب، أنتحي جانباً، أمهل، أعفو عما مضى، - أو أتظاهر بذلك. ومعظم المعنيين بالأمر لايتنبهون حتى لذلك. لا أعلن أحكامي، لست واعظاً، وتأمل الدنيا لا يثير لديّ سوى حوار داخلي، مناجاة مع نفسي لا نهاية لها.

أما ثانيا، فكنت سأصدر عليها حكماً أقسى بكثير لو قامت بخيارها الأول لدوافع سيئة. وأعني بذلك لو كانت أغرمت وهي في العشرين برجل كريه - أغرتها ثروته، واسمه، أو الأسوأ من ذلك، قبضته، وطبعه «الرجولي». أعترف بأنني لا أتسامح كثيراً مع هذا الضلال. ولكن لم يكن ذلك هو الحال. أتفهم تماماً أن تكون قد أغرمت بمراد الذي عرفته في شبابي. فقد كان رجلاً مضيافاً، وكان بيته مفتوحاً دوماً للزوار، وكان يستمتع باستقبال أصدقائه وإشاعة الإحساس لديهم بأن البيت بيتهم.

كان كريماً، ويتحلى كذلك بروح النكتة وبذكاء مرهف، وإن لم يكن ذلك يتجلى للوهلة الأولى. كان يروق له أن يوحي بأنه فلاح جلف من الجبل، ولكنها مجرد لعبة. فقد كان ذلك يتيح له التعبير عن كل مايجول بخاطره بدون تحفظ. كم من مرة خرجت من فمه حقائق فظة لو جاءت من شخص آخر - مثلي على سبيل المثال -، لتراءت فجة أو خبيثة، بحيث قد تهدم سنوات من الصداقة. أما منه، فمقبولة، ولايعاتب عليها، بل يقال «هذا مراد!»، ويصفح عن ثلثي الغلطة تقريباً.

والشخصية التي كوّنها كانت تمنحه كذلك المزيد من الحرية. وحين أقول «كوّنها» قد يدعو كلامي للظن بأن سلوكه ينجم عن حسابات بارعة. وهذا صحيح بهذا القدر أو ذاك. كانت تلك فطرته، ولكنه يتلاعب بها بمهارة، على غرار أولئك الممثلين الكبار الذين يستغلون طبعهم الحقيقي لإضفاء المزيد من القوام على الشخصية التي يتوجّب عليهم تجسيدها على خشبة المسرح.

أتفهم أن تكون تانيا قد انبهرت به، فقد انبهرنا به جميعاً، وربما انبهرتُ به أكثر بقليل من الآخرين.

كان يبهرني لدى مراد حين تعرفت إليه في الجامعة ذلك الانطباع الذي يخلفه لدى المرء بأنه قد عاش كثيراً. في شلتنا الصغيرة، كان بعضهم أصغر منه وبعضهم الآخر أكبر منه سناً، ولكنه كان بالنسبة إلينا جميعاً الأخ الكبير، وكان يتخذ باسمنا القرارات اليومية. هل كان زعيمنا؟ لا، لم نكن نرغب بزعيم، كنا نرفض أشكال السلطة والتراتبيات، ولكنه كان يتمتع بنوع من الغلبة.

اضطر أن يضطلع بمسؤوليات الرجال في مرحلة مبكرة للغاية فأكسبه ذلك نضجاً. توفي والده في الرابعة والأربعين بنوبة قلبية. وكان مراد آنذاك في السابعة من العمر، وولداً وحيداً، وأمه في الثامنة والعشرين، وهي لم تتزوج ثانية قطّ. كانت تعيش حتى ذلك الحين في ظل زوجها، وقد شاءت من الآن فصاعداً أن تعيش في ظل ابنها.

كانت تستشيره في الشاردة والواردة، وترجع إليه في كل قرار. وسواء تعلق الأمر باختيار مدرسته، أو بشراء سيارة، أو بأجر البستاني، أو ببيع قطعة أرض، أو بإصلاح سقف أو سياج، كانت تشرح له الفوائد والمساوىء، وتدبر لقاءه بالأشخاص المعنيين، ثم تطلب إليه أن يقرر بنفسه.

كان مثل أبناء الملوك الذين يعتلون العرش أطفالاً، ويرغمون على التصرف كالبالغين. كانت أمه بمثابة الوصية على العرش نوعاً ما.

حين تعرفت إلى مراد، كان في التاسعة عشرة والاحترام الذي تكنه له والدته قد يفهم على أنه من مظاهر التربية الحديثة. كنا خارجين تواً من ستينيات القرن العشرين، ويحلو لبعض الآباء الظهور بمظهر أصدقاء أولادهم. وسرعان ما أدركت أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق مع والدة مراد، لا بل كان عكس ذلك - نوعاً من الرجعية المستفحلة عوضاً عن الحداثة السابقة لأوانها. ولو كانت لديها ابنة وحيدة عوضاً عن ابن وحيد، أظن أنها كانت ستقمعها. أما أمام ابنها، رجلها الصغير، فقد كانت في عبادة. لم تكن تعامله مثل «الرفيق» بل السيد، وهي مقتنعة بأنها تضطلع على هذا النحو بالدور الذي حُدِّد لها منذ الأزل.

وبتصرفها على هذا النحو، منحته منذ نعومة أظفاره ثقة بالنفس، واعتداداً بهويته وبما يملك، وإحساساً لا ينكر بالواجب - على الأقل نحو أهله. ولقد أسهمت كذلك، بغير علم منها، بشقائه.

كان اسمها عايدة. تتشح دوماً بالسواد وكأن زوجها توفي توّاً، ولكنها لطيفة، بل ومرحة في أغلب الأحيان، ولا ينقصها الظرف. أظن أنها كانت تكن لي مودة، على الأقل طوال الفترة التي كنت فيها أعز صديق لابنها.

قال لي مراد يوماً إنه يتجنب اطلاع أمه إذا ما اختلف مع أحدهم، لأنها سوف تستشرس على الفور ضد الآخر، فتستحيل المصالحة. وأفترض أنها كرهتني في هذه السنوات الأخيرة.

هل لاتزال على قيد الحياة؟ لا أدري. الأرجح لا، وإلا، لكنت لمحتها البارحة في المستشفى.

4

جاءت سميراميس تدق باب آدم لتحضر له صحناً من الفواكه فيه كرز أسود، ومشمش، وخوخ أبيض، ومانجو مصري. شكرها وطبع على جبينها قبلة، بدون أن يحاول استبقاءها.

ولكي تظهر له أنها تحترم رغبته بالبقاء على انفراد، اكتفت بأن همست له:

«حين ترغب بتناول العشاء، اتصلْ بي!».

فأومأ برأسه وعينيه؛ ثم وبدون أن ينتظر ريثما تغلق الباب خلفها، عاد للغوص في أوراقه القديمة.

في آب 1978، بعيد أيام فقط على تلقي الرسالة المزدوجة من مراد وزوجته، وصلتني رسالة من صديق آخر، هو ألبير، أحضرها كذلك مسافر يمر بباريس مروراً عابراً، وهي تناقض الأولى. كنت قد جمعتهما معاً منذ ذلك الوقت بمشبك كبير للورق. ولكن هذا المشبك أصابه الصدأ، وبصمته الداكنة ترتسم الآن على وجه إحداهما وظهر الأخرى.

«العزيز الغالي آدم،

يردد مراد، ذلك النصف أخوت، أنه كتب لك «أشياء يجدر بك أن تسمعها قبل أن تطرش بالمرة». لا أدري ماذا قال لك، ولكني أفطن لذلك قليلاً، وأرى من واجبي أن أسمعك رأياً مختلفاً.

دعني في البداية أطلب منك ألّا تلوم صديقنا المشترك، مهما كتب لك. فأنا وأنت لم نعاشره قطّ لرهافته، أليس كذلك؟، ولا لثقافته – فالأمور القليلة التي يعرفها، تعلمها بطريقة خاطئة، إذا فهمت قصدي. إننا نحبه لأنه «ضيعجي» جلف، يتحدث بصوت أعلى من مستوى تفكيره، ولأن شتائمه مفعمة بالمودة. ونحبه أيضاً بسبب تانيا... هذا، وإذا قررتَ أن ترد عليه، فلا تسايره!

إليك الآن حقيقة واقعنا اليومي، وهي حقيقة حرص صديقنا المشترك على إخفائها عنك.

هذه السطور القليلة، أكتبها لك على ضوء الشمعة. فنحن لا نحصل على التيار الكهربائي سوى ساعتين في اليوم، ولا أمل في الحصول عليه هذه الليلة. وعلى أي حال، لا أدري بعد كيف سأبعث لك هذه الرسالة بعد أن أنتهي من كتابتها. يعتزم خليل، أحد جيراني، السفر إلى فرنسا خلال بضعة أيام، فسأعهد إليه بهذه الأوراق؛ إلا إذا غير رأيه، وفي هذه الحالة، عليَّ أن أترصد مسافراً آخر...

في بلد عادي، تكتب الرسالة، تلصق عليها الطابع، وتضع المغلف في صندوق البريد. أما هنا، فهذا السيناريو المبتذل الذي يتكرر ملايين المرات يومياً في جميع أنحاء المعمورة أصبح مستحيلاً.

هذا حالنا! بالنسبة إلى البريد، وإلى الكهرباء، كما بالنسبة إلى كل شيء. حركة الطيران تعمل بصورة متقطعة، حين لا تحدث عملية خطف على طريق المطار. والبنايات أصبحت حواجز، والشوارع ممرات للقنص، وناطحات السحاب مراكز للمراقبة من الباطون المسلح. ومجلس النواب لم يعد مجلس نواب، والحكومة لم تعد حكومة، والجيش لم يعد جيشاً، والأديان لم تعد أدياناً، بل طوائف وأحزاب وميليشيات...

هناك أشخاص يبدون إعجابهم بهذا البلد غير الاعتيادي. أما أنا فلا أجد ما يثير الإعجاب في ذلك، ولا ما يضحك، ولا ما يدعو للفخر والاعتزاز. إنني أحلم بغباء ببلد مثل أي بلد آخر. تضغط على زر، فيشعل النور. تفتح الحنفية الزرقاء، فيجري الماء البارد؛ تفتح الحنفية الحمراء، فيجري الماء الساخن. ترفع السماعة، ويا للأعجوبة! تسمع الخط. يقول لي جيراني إنني لو تحليت بالصبر، ولو ألصقت السماعة على أذني، وحبست أنفاسي، فسأسمع صوتاً ضعيفاً، إشارة إلى أن الخط آت.

لن أتحلى بما يكفي من الصبر... لا شك أن أجدادي عاشوا طوال قرون دون بريد، أو هاتف، أو ماء، أو كهرباء، وأن لا شيء يحول نظرياً دون أن أحذو حذوهم. ولكنهم عاشوا بلا مصعد، ولم يسكنوا، مثلي، في الطابق السادس – حيث أنعم بطلةٍ لا مثيل لها على الأسهم النارية!

باختصار، أحسنتَ بالرحيل، وأنت محق ألف مرة بقضاء الإجازة

في جبال الألب. بالطبع، يرغب أصدقاؤك برؤيتك، ولكن الشخص الوحيد الذي يهتم بالفعل لمصيرك، هو جدتك. وهي تقول لي، كلما زرتها، إنها سعيدة لأنها تعرفك بعيداً، بأمان، وإن كانت لا تراك.

وسأقول لك، من جهتي، الشيء نفسه بالضبط: «إبقَ حيث أنت! تمتعْ بالصحة والعافية! استمتعْ بالحياة! واشربْ بين الحين والآخر نخب صديقك الوفي،

ألبير».

أرجع آدم الرسالة إلى مغلفها الذي وضعه على الطاولة. كانت تحمل اسمه، بخط أنيق، وعنوانه في تلك الفترة.

ثم ذهب وتناول من على السرير مغلفاً آخر كان قد أخرجه من الملف، ووضعه قرب المغلف الأول. الخط نفسه، المرسل إليه نفسه، العنوان نفسه. المغلفان متطابقان مع اختلاف بسيط: كان المغلف الأول لا يحمل طابعاً بريدياً، أما المغلف الثاني فيحمل طابعاً عليه صورة لماريان، وقد ختم في مطار أورلي الباريسي، حيث أرسل في كانون الأول 1979.

بين المغلفين ستة عشر شهراً بالكاد، ولكن الاختلاف بينهما شاسع. فبقدر ما كانت الرسالة الأولى مرحة، ومتمردة، ومقاتلة، بقدر ما كانت الثانية بكماء وصاغرة؛ لا تحوي سوى بطاقة من الورق المقوى لونها أبيض جليدي، تتوسطها خمسة سطور صغيرة:

«ألبير ن. ڤيثار
فارقنا البارحة
بملء إرادته
فليغفر له أصدقاؤه،
وليذكروه في حياته».

حرص آدم إذ نقل على مفكرته هذه الكلمات التي خطت وطبعت منذ عشرين عاماً على رصفها بالطريقة نفسها. أعاد قراءتها المرة تلو الأخرى. ثم مطّ جسده، إنما توقف في نصف الطريق، وظل هكذا، بذراعيه المعلقين في الهواء، مثل عصفور متجمد بات عاجزاً عن الطيران.

لم يضع مرفقيه على الطاولة ليعاود الكتابة إلا بعد انقضاء دقيقة مديدة.

أن يمسك المرء بين أصابعه برسالة تعلن أن أحد أحبته انتحر من أسوأ المحن التي يمكن أن يختبرها. قرأت عنها في الكتب، وشاهدتها في الأفلام السينمائية، ولكن الأمر ويختلف تماماً حين عشتها شخصياً. أذكر أن يدي كانتا ترتعشان طوال الوقت. حاولت تهدئتهما، ولم أفلح. حاولت الاتصال بصديقتي التي كانت تدعى باتريسيا. كانت بقربي، في الحمام، ولكن صوتي لم يفلح في الوصول إليها. وأخيراً، لم أفلح سوى في إطلاق نواح مخنوق. فهرعت، مرعوبة، ظناً منها أنني أصبت بوعكة. فناولتها النعوة، ولم تكف يداي عن الارتعاش إلا حين انتزعتها منهما.

والذكرى الأخرى التي لا تزال حاضرة في ذهني عن تلك الحادثة المقيتة هي الشعور بالعجز الشديد. لا ذاك العجز الذي يرتبط دوماً بالفعل الذي لا سبيل لتعويضه وبالبعد. فقد شعرت في ذلك اليوم بعجز إضافي، مرتبط بالأحداث التي كان يعيشها البلد.

حاولت الاتصال بتانيا ومراد، ثم بأصدقاء آخرين، ثم بجدتي، بدون جدوى. فالاتصالات كانت مستحيلة. وتناوبنا، أنا وباتريسيا، لساعات طويلة، النهار بحاله، وحتى حلول المساء. كان الخط الهاتفي غير موجود بكل بساطة. وفي أفضل الأحوال، يسمع المرء صوتاً بعيداً، يعقبه صمت مدوٍّ، ثم يليه «توت توت توت»، وهو صوت الخطوط المشغولة؛ وإلا فالصوت الأنثوي المسجل الذي يعتذر عن عدم توافر الخط، ويطلب إلينا معاودة الاتصال لاحقاً، الاتصال لاحقاً، لاحقاً...

وحين عاد الخط أخيراً، لسبب غامض غير معروف، وسمع صوت تانيا، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

«أرجو أنني لم أوقظك. حاولت الاتصال من قبل...».

«لا تعتذر، فنحن لا ننام قبل الثانية فجراً. يسرني أن أسمع صوتك. سأمرر لك مراد».

كانت نبرة الكلمات الأولى التي تفوه بها زوجها تهكمية.

«دعني أحزر يا آدم. تتصل بي لتعلن لي بأنك ستعود للعيش بيننا، أهذا هو سبب اتصالك؟».

كنت أجيبه عادة بالنبرة بالأسلوب نفسه. ولكني بقيت في ذلك اليوم جدياً، وفاتراً بعض الشيء.

«مهلاً يا مراد... كنت أريد فقط أن أعرف إذا كان كل شيء على ما يرام».

«هنا في الضيعة، ماشي الحال. أما في المدينة، فلا يزال هناك تبادل لإطلاق النار، وبعض الانفجارات في المساء، واشتباكات محدودة بين هذا الحي وذاك. مثل العادة. لا شيء يدعو للقلق...».

«أعندك أخبار عن ألبير ؟».

«كلا، ولا أريد أن أعرف أخباره».

كنت أهم بذكر النعوة، ولكني أحجمت عندما سمعت رد فعله. لم يتلق، على ما يبدو، الرسالة التي وصلتني، ففضلت أن أدعه يتكلم قبل أن أعلن له النبأ.

«إذا فهمتك، لقد تشاجرتما...».

«صار لا يطاق! لا يكف عن التذمر : «الكهرباء مقطوعة عندي»، «تلفوني معطل»، «ليس لدي ماء ساخنة»، «لا أنام بسبب الانفجارات»، كأنه الوحيد في هذه الحالة، كأن الحرب موجهة ضده شخصياً... كلما جاء لزيارتنا، يئن ويشكو، «لماذا نبقى هنا؟»، «كيف يمكن العيش في هذا البلد؟»، - أصبح متعباً. لم تكن تانيا تكف عن البكاء وهو معنا. والوضع محبط بما فيه الكفاية، والأصدقاء من واجبهم تعزيتك، والترفيه عنك، لا الإمعان في تحطيم معنوياتك. وآخر مرة، ضقتُ ذرعاً به، وقلت له إنني لا أريد أن أراه في بيتي بعد اليوم!».

«أخطأت يا مراد! ما كان يجدر بك أن تفعل ذلك أبداً!».

«بيستاهل».

قرأت على مسمعه نص النعوة. فتمتم ثلاث أو أربع مرات متتالية: «يا الله! يا الله!» وتبدَّل صوته. شعرتُ بأن وجهه امتقع. سمعت تانيا بقربه تستفسر منه عما حدث. مررها لي مراد. فقرأت لها السطور الخمسة المشؤومة. وبدورها، تمتمت: «يا الله!»، ثم أردفت قائلة: «الله يسامحنا!».

شعرت بالحاجة إلى التخفيف قليلاً من تأثير الخبر الذي عاجلتهما به وسط الليل، فقلت لهما بدون أن أكون مقتنعاً بكلامي:

«ربما لم يفت الأوان بعد. عندما أرسل لي ألبير هذه الرسالة، كان لا يزال حياً، وليس من المؤكد أنه أقدم على فعلته. ليس من السهل أن ينتحر المرء، فالانتحار فعل عنيف، ويمكن للمرء أن يتردد في اللحظة الأخيرة. لقد اتصلت بكم لأقدم التعازي، وظننت أنكما على علم بوفاته، وأنكما منهاران لما جرى. وكونكما لم تسمعا بذلك حتى الساعة يطمئنني قليلاً. فربما لم يحصل شيء بعد، ربما عدل عن ذلك».

«أجل، ربما»، قالت تانيا التي لم يكن يبدو أنها تصدق ذلك أكثر مني.

اتصل بي مراد صباح اليوم التالي ليخبرني بأنه خلع باب شقة ألبير، وبأنه لم يجده فيها. لا حياً، ولا جثة هامدة. لم يصادفه جيرانه منذ بضعة أيام، ولا أحد يعرف أين هو.

ولم تكن جدتي بدورها تعرف عنه شيئاً. لقد استفسرت منها بحذر وروية، متجنباً أي تلميح إلى وفاته، مدعياً أنني أريد أن أنقل له رسالة، وأنني لم أفلح في الاتصال به لإبلاغه بها. كنت أرجو أن تجيبني بأنه مرّ بالفعل لزيارتها. أعرف أن ألبير كان يزورها، منذ رحيلي، بانتظام شديد. كان من بين أصدقائي أكثرهم مراعاة لها، والمفضّل لديها. ودوماً، حين تراه يصل برفقتي، تنفرج أساريرها؛ ولو مرّ أسبوعان بدون أن يأتي، تسألني لماذا لم نعد نراه. «هذا الصبي وحيد في هذه الدنيا»، كانت تقول لي أحياناً وكأنها تعتذر عن هذا الحنان الأمومي الذي تشعر به نحو شخص غريب.

وفي الواقع، كان ألبير مقطوعاً من شجرة. فلا تستحضر ذكرياتي – وأحدنا يعرف الآخر منذ الطفولة! – إلا أنه كان وحيداً على الدوام. كان والده يعمل في أفريقيا، ووالدته قد أدخلت إلى مصح في سويسرا؛ ثم توفي الواحد منهما والآخر، هي بداء السل، كما قيل، وهو، مقتولاً. ولو شئت أن أتوخى الدقة، لكان يجدر بي أن أضيف «يقال» أو «قيل» بعد كل جملة، فألبير لم يكن يتحدث قطّ عن والديه، إلا بتلميحات مبهمة. وحتى عندما أصبحنا صديقين حميمين، لم أشعر البتّة أن بوسعي التطرق إلى هذا الموضوع بحرية معه.

كل ما كنت أعرفه، أو ما أظن أنني أعرفه، كان أساسه أقاويل تسري في المدرسة. كنا قد ترافقنا في كل سنوات الدراسة، عند الآباء

اليسوعيين. ولا بد من أنني صادفته للمرة الأولى ، وأنا في السادسة، وهو في السابعة. وهذا لا يعني أننا كنا صديقين منذ الطفولة. كان تلميذاً داخلياً، وكنت تلميذاً خارجياً، وهاتان «القبيلتان» قلما تتخالطان؟ كنا نركب في نهاية الدوام المدرسي الحافلات المدرسية التي ترجع كل واحد منا إلى كنف أسرته. أما هم، التلاميذ الداخليون، فكانوا يبقون في المدرسة، معاً.

وبمعنى ما، لم يكن وضع ألبير خارجاً عن المألوف. فحين يعيش تلميذ في المدرسة، فذلك لأن والديه غائبان. ولكن هناك غياباً وغياباً بالطبع، والأقاويل ليست متطابقة. فالأمهات الغائبات لسن جميعاً مصابات بداء السل، والآباء الغائبون ليس مصيرهم جميعاً الموت قتلاً. أكان والده مهرباً؟ في المدرسة، سرت هذه الإشاعة. لعله كان تاجراً شريفاً، وكومسيونجياً متهوراً، ومقاولاً لبناء الطرقات، أو حتى موظفاً في الإدارة الكولونيالية. ولكن أقاويل التلاميذ كانت تتردد فيها تلك الكلمة المشرقية، نصف العربية نصف التركية، «مهربجي»، التي تعني مهرب. أما أنا فلم أشأ قطّ إحراج الابن بالأسئلة. ولدى التفكير في الأمر، أظن أن تكتمي ساعد على تقاربنا، وعزز صداقتنا لاحقاً. فبرفقتي، لم يكن بحاجة إلى توخي الحذر.

والشيء الأكيد أن ألبير لم يعش يوماً مع والديه، وأن والده توفي بصورة عنيفة حين كنا في الصف الخامس الابتدائي.

عادة، حين يفقد أحد التلامذة قريباً، يذهب لقضاء بضعة أيام لدى

أسرته. لم يذهب ألبير إلى أي مكان. وفي البلد، لا يبدو أن لديه أقارب. فظل في المدرسة، وأعفي فقط من حضور الصفوف ليوم أو يومين.

ولقد خصص قداس لذكرى والده الراحل. «فكِّروا برفيقكم ألبير الذي فقد والده!»، هذا ما قاله لنا الأب الذي احتفل بالقداس، وناشد كذلك التلميذ ألا يدع الحقد يجتاح قلبه، بل أن يفوض أمره لعدالة الله ويفوض للبشر مهمة معاقبة الفاعلين. وهكذا علمنا أنه قد حصلت جريمة قتل.

فتوجهت جميع العيون تلقائياً نحو المعني بالأمر الذي لم يكن ينتحب كما كنت أتوقع أن أراه. ولا ريب أنه لم يفقد ذلك الأب تواً، بل فقده منذ زمن طويل - بل بوسعنا القول إنه لطالما فقده.

ترعرعت صداقتنا ببطء. في البداية، كان ألبير بالنسبة إليّ مجرد رفيق بين مئات الرفاق الآخرين، بل وحين كنا نجتمع أحياناً في بعض السنوات، في الصف نفسه، لا يجلس أحدنا إلى جانب الآخر على الإطلاق.

أذكر المرة الأولى التي أثار فيها انتباهي. كان أحد الأساتذة الذين يفتقرون إلى الخبرة قد أعلن أنه ينظم رحلة، وتهور فطلب إلى التلاميذ أن يقتربوا ويسجلوا أسماءهم على ورقة وضعها على طاولته، موضحاً أنه لن يكون بوسعه الموافقة إلا على الأسماء العشرة الأولى. فهرع جميع رفاقنا، الأمر الذي تسبب على الفور بهرج ومرج، وتدافع،

وشجار، وزعيق. أما أنا فلم أبرح مكاني، وسمعت بوضوح صوتاً خلفي يقول: «الهمج!» فالتفت، وتلاقت نظراتنا، وتبادلنا ابتسامة. وفي تلك اللحظة ولدت صداقتنا.

أفترض أن الكلمة نفسها كانت على لسان ألبير يوم أخبروه بمقتل أبيه؛ وكذلك، لاحقاً، حين لابد أنه تأمل، من نافذة شقته في الطابق السادس، «الأسهم النارية» للحرب.

«الهمج!».

كان الوقت ليلاً، في يوم الأحد ذاك، حين دقت سميراميس على باب آدم، بتكتم أقل مما فعلت خلال النهار.

«بوسعي أن أحضر لك صينية لو شئت، ولكني أعتقد صدقاً أنه يجدر بك التوقف قليلاً. أنت تعمل منذ الفجر. ألا ترغب بمرافقتي إلى المطعم؟».

«مثل البارحة؟».

«مثل البارحة. المازات نفسها. والشمبانيا نفسها، وبدرجة الحرارة نفسها. والمضيفة نفسها، بالطبع...».

ورافقت كلماتها بابتسامة مغرية كان من غير المجدي مقاومتها.

بعد عشر دقائق، كانا جالسين إلى المائدة في المكان نفسه مثل البارحة. وكان بوسع مضيفته أن تضيف: النادل نفسه، والشموع نفسها.

تركت صديقها يتناول بضع لقمات، ويرتشف بضع جرعات، قبل أن تبادره بهدوء:

«أفترض أنه من غير اللائق أن تسأل صاحبة فندق الزبون عن العمل الذي يشغله إلى هذا الحد. أنت لا تخرج أبداً، وبالكاد تتكلم، ولو لم أرغمك، لما جئت لتتناول الطعام. وأنت مشعث الشعر، كذلك، ويبدو عليك الإعياء، وكأنك خرجت من «خناقة»...».

فاكتفى آدم بأن ابتسم لها، ورافق ابتسامته بتربيت لطيف على ذراعها. ثم مرر أصابعه في شعره، مثل مشط عريض. فانتظرت. وتواصل الصمت. وبعد دقيقتين ثقيلتين، وفيما كانت صاحبة النزل تستعد لتغيير الحديث بعد أن يئست من الحصول على جواب، أجابها «زبونها»، بنبرة آسفة مصطنعة:

«لدى عيب منتشر كثيراً بين المؤرخين: فأنا أهتم بالقرون الغابرة أكثر مما أهتم بعصري، وبحياة شخصياتي أكثر من حياتي. إسأليني عن الحروب القرطاجية، عن حرب بلاد الغال، أو عن الغزوات البربرية، ولن يكون بوسعك أن تنتزعي مني الصمت. حدثيني عن الحروب التي عشتها شخصياً، في بلدي، وفي منطقتي، والمعارك التي كنت أحياناً شاهد عيان عليها، والتي فقدت فيها أصدقاء، والتي كدت أن أكون بنفسي في عداد الضحايا، ولن تنتزعي مني أكثر من جملتين أو ثلاث جمل. إسأليني عن شيشرون، أو عن أتيلا، فأصبح ثرثاراً. حدثيني عن حياتي، عن حياة أصدقائي، فينعقد لساني».

«لماذا؟»

«السبب الأول يتعلق بمهنتي، كما قلت لك. عندما يقول أحد المؤرخين «عصري»، لا يخطر بباله عفوياً العصر الذي أبصر فيه النور ولم يختره، بل ذاك الذي قرر أن يكرِّس له حياته – وهو العصر الروماني في ما يتعلق بي. هذا، ولست مخدوعاً، ولا أرغب في «الاختباء وراء إصبعي الصغير»، كما يقال. فلا يوجد أي «قسم هيرودوتوس» يرغم المؤرخ أن يقتصر على حدود اختصاصه. والحقيقة أنني شعرت دوماً بالحرج، بالحرج بصورة مرضية، كلما رغبت بالحديث عن نفسي، وعن بلدي، وعن أصدقائي، وعن حروبي. ولكني أسعى جاهداً منذ يومين، منذ أن وصلت إلى هنا، للتغلب على هذه الصعوبة، إن لم نقل الإعاقة».

«وهل تنجح في ذلك؟».

«ليس تماماً. ففي بعض الأحيان، أتوصل إلى تجميع ذكرياتي لسرد حادثة. غير أني أتوه، في أغلب الأحيان، وسط أحلام اليقظة، والذكريات، واجترارات الندم...».

ولزم الصمت، كما ليوضح ما قاله توّاً، وسرحت نظرته بعيداً. تركته صديقته يهيم لثوان مديدة قبل أن تعيده إلى أرض الواقع بسؤال آخر:

«وهل تفكر في ذلك منذ وقت طويل؟».

«في هذه الإعاقة الذهنية؟ أجل، منذ سنوات. ولكني كنت

أتعايش معها، ولا أسعى للتغلب عليها. كانت لدي مشاريع محددة لسنتي السابعة. ثم اجتاحت حياتي أطياف شبابي. على غير انتظار! منذ اثنتين وسبعين ساعة، لم أكن أفكر بعد بالقيام بهذه الرحلة. وحتى البارحة، لدى وصولي إلى هنا...».

ومن جديد، لزم الصمت، ومن جديد، هامت نظرته بعيداً. من الواضح أنه كان يسترسل في شرحه، إنما لنفسه، وشعرت محاورته أنه لم ينتبه حتى إلى أنه كفَّ عن مخاطبتها.

لم يرجع إليها إلا ليقول بنبرة مهزومة:

«من المفروض أن أتقدم في سيرة أتيلا الضخمة التي ينتظرها ناشري منذ خمسة عشر عاماً».

وجاء دور سميراميس لتضع يداً عطوفة على ذراع صديقها.

«يبدو عليك الإعياء مجدداً. لا تقلْ شيئاً! سنعاود الحديث عن ذلك فيما بعد، لاحقاً!».

اليوم الرابع

1

في اللحظة التي فتح فيها آدم عينيه، عاود الكتابة.

وجده النادل الذي جاء يحضر له ترويقته جالساً إلى طاولته، منكباً على مفكرته. كان سريره مبعثراً، ولكنه لم ينل من الرقاد نصيباً وفيراً كما تدل سحنته.

الاثنين 23 نيسان

طوال الليل، كانت تحوم في رأسي أسماء وأصوات وظلال ووجوه مثل اليعاسيب اللجوجة.

في حالة نصف اليقظة التي كنت أعيشها، اختلطت الذكريات الحقيقية بالاستيهامات والأحلام. ولشدة ما اختلطت، كان ذهني مشوشاً لدى استيقاظي وفي حالة من الهشاشة.

لا يجدر بي أن أشرع في الكتابة على الفور، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من القيام بذلك. أعوّل على القهوة الثقيلة لتمنحني من جديد الإحساس بالأشياء.

على خلفية اضطرابه الليلي، هذه المأساة التي وقعت قبل عشرين عاماً، والتي راح يسردها في اليوم السابق.

كانت إعادة تركيبها بأمانة واتساق تتطلب منه أن يبذل جهداً استحضارياً هائلاً، وكذلك أن يحدد منظورها. وإذا كان من البديهي أن رحيل صديق الطفولة من فصول الحروب التي كان بلده يتخبط فيها، فلم يكن بالإمكان اعتبار مصير ألبير شبيهاً بمصير جميع أولئك المساكين الذين ذبحوا على يد عناصر ميليشيات دمويين، أو مزقوا أشلاء بسبب غارات عشوائية، أو قتلوا على يد قناصة مختبئين على أسطح البنايات. وبما أنه أعرب بوضوح عن عزمه على الانتحار، فقد كانت فعلته تكتسب دلالة أخرى - دلالة التمرد على هذا الجنون القاتل.

أما نحن، أصدقاؤه، فكان ما يقض مضجعنا تحديداً أن نعرف ما حل به، وهل انتحر بالفعل كما كانت توحي به النعوة الغريبة. كان من بقي منهم في البلد، لا سيما مراد وتانيا، ينشطون في البحث عنه. فلا بد من القول إنه لم يعد بمقدورنا على الإطلاق الاعتماد على السلطات العامة التي فقدت سيطرتها على البلد، ولا، بالطبع، على أسرة «المفقود»، فلم تكن لديه أي أسرة.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلت، كنا ننزلق كل يوم أكثر في العتمة. فبعد عدم العثور عليه في شقته، واستجواب جميع جيرانه بدون الحصول على أي معلومات مفيدة، لم نكن قادرين على الجزم بالمكان

الذي أمكنه أن يرتكب فيه فعلته اليائسة، وبأي طريقة نفذها، وبسبب عدم عثورنا حتى الآن على أي أثر لجثته.

كانت فترة أعياد نهاية السنة، وقد جرت مشاورات لا تنتهي بين جميع الذين عرفوا ألبير، ولا سيما رفاقه في المدرسة والجامعة. كان لدى كل منهم تفسيره الخاص للحادث الذي يعبر عموماً عن شواغله وهواجسه عوضاً عن حقيقة الأمور. ولقد تلقيت شخصياً اتصالات هاتفية كثيرة، إلى جانب سيل من الرسائل حرصت على الاحتفاظ بها. ومنها هذه الرسالة من أحد أساتذتنا السابقين الذي درّسنا مادة التاريخ، وهو الأب فرانسوا – كزافييه، الذي كان يدير آنذاك مدرسة في مولوز، في منطقة الألزاس.

«العزيز آدم،

أرجو أن تجدك هذه السطور وتجد أهلك بصحة وعافية.

الأخبار التي تأتي من بلدك مؤلمة دوماً بالنسبة إلى من يسمعها ممن عرفوه وأحبوه مثلي. وهذا الصباح، وصلتني أخبار عن مأساة على صعيد آخر، وفاة تلميذي السابق ألبير قيثار، الذي أكدوا لي أن لا علاقة لها، بصورة مباشرة على الأقل، بأعمال العنف السياسي [...].

كان ألبير، في الفترة التي درست خلالها في الكلية، فتى صعب المراس لكنه ودود. لا أظن أنه أصغى كثيراً إلى ما كنت أجهد لشرحه لرفاقه. لا أزال أذكره، جالساً في آخر الصف، وقد أخفض بصره، غارقاً في قراءة كتاب – عادة رواية استباقية، إذا لم تخني ذكرياتي. ومع ذلك،

كان أقل لامبالاة وشروداً مما يوحي به شكله. وحين يصدف أن أتناول موضوعاً يهمه، أدخل على الفور في مجاله البصري.

أذكر درساً كنت أتحدث فيه عن بنجامين فرانكلين. تناولت مطولاً أفكاره، ودوره في المعركة من أجل استقلال الولايات المتحدة، وإقامته في فرنسا عشية اندلاع الثورة. وطوال حديثي، كان ألبير يبدو شارد الذهن. كنت أراقبه على الدوام خلسة مثلما يفترض بالراعي أن يسهر على الخرفان الهاربة. ثم تطرقت إلى اكتشاف الكهرباء. فانتصب التلميذ؛ وأصبحت نظرته، الهاربة عادة، مباشرة ومستغرقة. كنت أعتزم المرور سريعاً على هذا الجانب من نشاط بنجامين فرانكلين. ولكني قررت في نهاية المطاف أن أخصص بضع دقائق للتحدث بالتفصيل عن تجربة الصاعقة واختراع مانعة الصواعق لشدة ما فرحت بأنني عرفت، ولو لمرة واحدة، أن أجتذب انتباه ألبير. وأسهبتُ الحديث، على ما أذكر، في فورة الحماس عن نظرية وليدة الساعة حول العلاقة بين اكتشافات فرانكلين في ميدان الكهرباء وإيمانه بفلسفة عصر الأنوار.

وأحتفظ، كما ترى، بذكرى متأثرة عن تلك الفترة التي أصبحت بعيدة نائية. لا أستطيع بعد اليوم ألا أبالي بمصير بلدكم، ولا تحديداً بمصير شبابه الواعدين الذين عرفتهم هناك.

وأرجو ممتناً أن تطلعني على تبعات هذه القضية المحيرة التي آمل ألا تنتهي بصورة أليمة [...]

المخلص لك،

الراهب اليسوعي فرانسوا – كزافييه.

بعد أسبوع، انجلت الحقيقة أخيراً.

جرت الأحداث تقريباً كما يلي: يوم الثلاثاء في 11 كانون الأول/ ديسمبر، بعد الظهر، ذهب ألبير سيراً على الأقدام عند أحد رفاقه السابقين في المدرسة كان سيسافر إلى فرنسا في اليوم التالي. وعهد إليه بثلاثة مغلفات، تحتوي في ما يبدو على «النعوات» المشهودة - ومن بينها تلك الموجهة لي -، راجياً منه أن يرسلها بالبريد فور وصوله إلى مطار أورلي. ظل واقفاً على الباب مع أنه دُعي للدخول وانصرف بعد دقيقة، مؤكداً أن عليه العودة إلى بيته قبل أن تعتِّم. لم يلح عليه رفيقه، فالتوتر في العاصمة كان على أشده في ذلك اليوم. حصلت بعض الاشتباكات في اليوم السابق، وكانت تسمع، بين الحين والآخر، أصوات طلقات متفرقة. والأشخاص القلائل الذين يغامرون بالخروج إلى الشوارع يتجنبون البقاء فيها لساعة متأخرة.

كان ألبير قد عقد العزم على الانعزال في شقته، وترتيبها قليلاً، وربما إضافة حاشية إلى رسالته الوداعية إلى أصدقائه الذين سيعثرون عليه، وابتلاع جرعة كبيرة من المهدئات، ثم التمدد في السرير، ببدلة داكنة، وقد أرسل ذراعيه على طول جسده. كان لا يبالي كثيراً بالأمن في الشوارع، ويتلهف بالأخص لتنفيذ ما خطط له، ولا يكف عن تكرار الحركات التي يعتزم تنفيذها في ذهنه.

وفجأة، عندما قفز شبان مسلحون، عند زاوية شارعين مقفرين،

من سيارة فرملت، لم يرمقهم ولو بنظرة واحدة، مكتفياً بالابتعاد إلى جهة اليسار للسير أكثر بمحاذاة الجدار. كان مستغرقاً في أفكاره، فلم يفهم أن عناصر الميليشيات كانوا يسعون وراءه في الواقع. ليس هو، ألبير فيثار، شخصياً، بل عابر السبيل المجهول الذي كان. كان هؤلاء المسلحون يريدون إلقاء القبض على أحد سكان الحي، أياً كان، والشوارع خالية من أي عابر سبيل بوسعهم القبض عليه.

جرّه خاطفوه من ذراعيه وسحبوه إلى سيارتهم التي انطلقت بسرعة جنونية. وحذروه، ظناً منهم أنهم سيخيفونه، بأنه لو صرخ، أو قاوم، أو حاول الفرار، فسوف يطلقون رصاصة في رأسه.

وعندما رد على تهديداتهم بزمجرة ضاحكة، وكأنه سمع تواً مزحة موفقة، قالوا لأنفسهم إنهم إما وقعوا على أبله أو على أشجع رجل في البلد.

وصلوا إلى مخبئهم وحبسوا فريستهم في كاراج للسيارات، بعد أن أوثقوا يديه خلف ظهره وعصبوا عينيه. وظل ألبير يبتسم مثل الأبله. جاء رجل قصير وسمين وجلس قبالته وقال له، بنبرة تبدو في الظاهر حقودة، ولكنها تلوح كالاعتذار:

«لقد خطفوا ابني».

كف المخطوف عن الابتسام. واكتفى بالقول بنبرة محايدة:

«أرجو أن يرجع سالماً معافى!».

رد الآخر: «من مصلحتك أن ترجو ذلك. فإذا لم يرجع ابني، سأقتلك!»

أجاب ألبير أنه لا يكترث لحياته. وللتعبير عن ذلك، تفوه بعبارة مألوفة تعني «لا يهمني الأمر!».

«كيف لا يهمك الأمر ؟ ألا تهمك حياتك؟ دعك من العنتريات! كف عن الابتسام للعصافير مثل المجنون! الأفضل أن تصلي ليرجع ابني، إذا كنت حريصاً على حياتك!».

فأصر الرهينة قائلاً: «لست حريصاً على حياتي!»

فطلب عندئذ من سجانه أن يضع يده في الجيب الداخلي لسترته، حيث توجد بطاقة هويته، ونعوة مطابقة لتلك التي أرسلها لي، وكذلك المسودة الأخيرة لرسالته الوداعية التي تتضمن عبارات صريحة: «حين تكتشفون هذه الرسالة، أكون قد أقدمت على ما قررت الإقدام عليه... لا أريد أن يشعر أي منكم بالمسؤولية عن موتي، ولا يتصور أحدكم أنه كان بوسعه الحيلولة دون حدوثه لو تدخل أبكر من ذلك بقليل. قراري ليس وليد الأمس. فلقد فات الأوان منذ وقت طويل...».

استغرق الرجل الوقت الكافي ليقرأ الرسالة ويعيد قراءتها، محركاً شفتيه أحياناً، قبل أن يقول، غير مصدق:

«كنت راجعاً إلى بيتك لكي... لكي تنتحر، أليس كذلك؟»

فأكد ألبير ذلك بإيماءة من رأسه.

«ومنعناك من الإقدام على ذلك؟».

وأكد ألبير ذلك من جديد.

انقضى صمت وجيز. ثم أطلق الرجل قهقهة جنونية طويلة، وراح

الرهينة، بعد ثوان معدودة، وعلى الرغم من الحبال التي تشد وثاقه والعصابة على عينيه، يضحك بدوره، وقد أرجع رأسه إلى الخلف.

استرجع السجان رصانته أولاً وسأل، بنبرة مستنطقة، إنما خالية من العداء:

«لماذا؟».

كان يهدد الرهينة، قبل لحظة، بقتله دون أن يرف له جفن، وها هو الآن يبدو جزعاً وهو يتصور أن هذا الشاب الذي يرتدي ثياباً لائقة، ويبدو رصيناً، كان يستعد للانتحار.

«لماذا؟»:

لم يكن ألبير يرغب بالبوح، ولا سيما لرجل مجهول الهوية. ولكنه، في ذلك النهار، وربما لأنه في الساعة التي اختطف فيها كان يستعيد في ذهنه الجمل الواردة في رسالته الوداعية؛ ربما لأنه بعد أن هيأ لكل شيء، وأخرج كل شيء، ونظم كل شيء تنظيماً معصوماً عن الخطأ، فقد فجأة السيطرة على مصيره، وتزعزع جراء ذلك؛ ربما لأن محاوره الأخير كان سجاناً بائساً، وأن هذه الخاتمة تتلاءم مع عبثية الأمور في هذه الدنيا – راح يتكلم.

لم يكن فيضاً ولا بوحاً. كان ألبير من ناحية أخرى عاجزاً عن إلقاء الضوء، بفضل الكلمات، على الذبذبات المظلمة التي قادته إلى عتبة الانتحار؛ فلم يقل لمعرِّفه سوى الأمور في غاية البداهة التي تقال في هذه الظروف، أي إن الحياة فقدت طعمها، وإنه يشعر بنفسه غريباً في

هذا العالم، وإن الحرب الدائرة من حوله تخنقه... ولكن الرجل لم يدعه وشأنه. تحدث بنبرة حازمة، ووضع يديه على كتفي أسيره -بدون أن يفكر بفك وثاقه أو نزع العصابة عن عينيه -، وراح يعظه بالعبارات الجاهزة للآباء اليائسين:

«فكِّر بأبيك وأمك اللذين ربياك حتى ترعرعت وكبرت، وحلما بأن تحمل شهادة، وتطلعا إلى رؤيتك عريساً! أما وقد أصبحت شاباً وسيماً، وعوضاً عن البحث عن خطيبة حلوة، لا تفكر سوى بتدمير نفسك! يا عيب الشوم! يا حرام! يا حيف عليك! فيما لديك الحياة كلها أمامك!».

«الحياة كلها أمامي، تقول؟».

كانت نبرة ألبير بالكاد متهكمة، ولكنه أرفقها بتململ مضحك بكل أطرافه الموثقة ورأسه المعصوب، فكان ذلك كافياً لكي يغرق خاطفه أولاً ثم هو نفسه في نوبة هستيرية من الضحك مثل سابقتها.

2

في تلك السنوات، صدف أكثر من مرة أن بادرت عائلات خطف أحد أفرادها إلى خطف شخص أو عدد من الأشخاص الذين يُفترض أنهم ينتمون إلى المعسكر الآخر، واستخدامهم كعملة مقايضة.

ولكن الأسلوب المعهود في حالة الخطف لم يكن كذلك. فعادة، حين لا يعود شخص إلى بيته، وتحوم الشكوك حول تعرضه للخطف، يلجأ أهله إلى زعيم محلي يتصل بدوره بوسيط. فيحاول هذا الأخير أن يعرف هوية الخاطفين، ودوافعهم، ومطالبهم، والجهة التي بوسعها أن تتفاوض معهم؛ وكان يتأكد بأن الرهينة على قيد الحياة، وبأنهم يحسنون معاملته؛ ثم يحاول التفاوض على إطلاق سراحه. وكان هؤلاء الوسطاء، المتطوعون دوماً، منزهين عادة عن أي غاية، وبمنتهى الفعالية حين لا تلتمس وساطتهم بعد فوات الأوان.

يمكن لعمليات الخطف، لو نظر إليها المرء من مسافة، أن تبدو متشابهة؛ أما عن كثب، فلا تشبه الواحدة منها الأخرى، بالنسبة إلى العين الخبيرة. في بعض الأحيان، إنما نادراً، كان دافعها الحصول على المال. فيختطف شخص يكون عادة ثرياً ويطلب إلى عائلته دفع فدية، وهي جريمة درجت العادة على نعتها بالجريمة «الشنيعة»، وهي صفة

تتضمن دلالة منحرفة إلى حد ما، بما أنها توحي بأن الجرائم الأخرى تتصف بشيء من النبل. فهل هذا يعني أن ذبح الأبرياء لأسباب سياسية أو دينية لن يكون شنيعاً بحجة أنه لا يهدف إلى ابتزاز المال؟ وهل يعني أن الجريمة التي تقوم على اختطاف رجل، وتعذيبه، وقتله، ثم إلقاء جثته في الشارع، لا تستحق أن توصف بالجريمة «الشنيعة» إذا كانت تتعلق بخطة تصعيد أو ترهيب؟ كل إنسان يحتجز إنساناً آخر ويعذبه ويهينه، يستحق أن يوصف بالخسيس، سواء أكان قاطع طريق، أم مناضلاً، أم ممثلاً للقانون، أم رئيس بلد.

غير أن اختطاف صديق آدم لم يكن لا بدافع الخسة السياسية، في ما يبدو، ولا التعصب، ولا إغراء المال.

الشخص الذي كان يحتجز ألبير في كاراجه لم يكن يشبه، مسبقاً، محتجز الرهائن في شيء. ففي زمن السلم، لما كان ارتكب أي جريمة؛ لا بل كان ظل مواطناً صالحاً. كان ميكانيكياً أمضى حياته يعمل، ويخوض بيديه في الشحوم والزيوت، ويتطلع فقط إلى رؤية ابنه يتخرج مهندساً. وهو حلم تحقق قبل ثلاث سنوات. وللاحتفال بهذه المناسبة، أهدى الخريج الجديد سيارة كبيرة فارهة لكي يركنها متباهياً أمام الشركة التي توظف فيها، في الجهة الأخرى من المدينة؛ ولم يكن الوالد قد امتلك في حياته سوى سيارات أصلحها بيديه الاثنتين.

عثر على السيارة الفارهة مهملة، في يوم من أيام شهر كانون الأول، في شارع قريب من الشارع الذي يقطن فيه ألبير. وقبل التمكن

من تحديد هوية الخاطفين، قام عناصر ميليشيا من أقارب صاحب الكاراج بعملية اختطاف في الحي المتهم، ووضعوا يدهم على أول عابر سبيل صادفوه. وكان يجدر بأهل صديقنا، وفقاً لقواعد هذه اللعبة الوضيعة، الاتصال بوسطاء، لكي ينتهي كل شيء بعملية مقايضة ويعود كل مخطوف إلى كنف أهله.

ولكن المخطوف في هذه المرة كان بلا أهل، وليس لديه الكثير من الأصدقاء. ولم يكن لدى هؤلاء أصلاً أي سبب لاتباع مثل هذا الإجراء. فلماذا يخطر ببالهم أنها عملية خطف ولديهم الإثبات الخطي بأن ألبير قرر الانتحار؟

اتصل تانيا ومراد، بعد ثلاثة أسابيع على اختفاء صديقهما، إذ استغربا عدم العثور على جثته، بوسيط محتمل كان نائباً سابقاً. وأعطوه اسم تعيس الحظ، ومواصفاته، والتاريخ الذي فقد من بعده.

وبعد يومين، رن الهاتف في بيتي الباريسي وقيل لي ببساطة:

«إنه على قيد الحياة».

أعلن لي مراد ذلك بدون أي حماس، وليس على الإطلاق كما يجدر الإعلان عن خبر غير متوقع مثله. ولم أشعر حتى أن بوسعي الإعراب عن ارتياح ما. فسألت، بنبرة مرتابة، ولمجرد استثارة الجملة التالية:

«ولكن...؟».

«ولكنه محتجز رهينة عند صاحب كاراج للسيارات اختطف ابنه».

«طلباً للتبادل؟».

«أجل، بالضبط، ولكن الابن مات».

«يا الله!».

«يعتقد الأب حتى الساعة أن ابنه على قيد الحياة، ويأمل بحصول تبادل».

خيّم صمت طويل في هذا الطرف وذاك من الخط، وسمعت تنهدات صاخبة مديدة، بينما كنا نتخيل، أنا ومراد، كيف سيتصرف الرجل إذا عرف الحقيقة.

ثم، قلت معلناً عن حقيقة بديهية:

«يجب أن يفرج عن صديقنا قبل ذلك».

«هناك مفاوضات جارية، ونرجو أن تتكلل بالنجاح قبل فوات الأوان».

ومن جديد، ران صمت طويل.

«وكيف أنا وأنت نعرف أن الابن مات، والأب يجهل ذلك؟».

قال لي مراد: «أظن أن هذا الرجل سمع، في الآونة الأخيرة، إشاعات متضاربة، وهو لا يزال متمسكاً بأن ابنه على قيد الحياة وبأنه سيرجع. أرجو أن يوفق الوسطاء في مسعاهم. وإلا، فحين يكتشف الحقيقة، سيجن جنونه، وسينتقم من سجينه».

«مسكين ألبير! أتتخيل غرابة هذا الموقف؟ يقرر الانتحار بهدوء، وبصورة نظيفة، بدون تداعيات، وبدون ألم شديد. وعوضاً عن ذلك، يختطف، وهو معرَّض لخطر التعذيب، والتشويه، وقد يرمى بجثته في مزبلة. لقد سلبوه موته!».

ثم تابعتُ بعد لحظة صمت:

«حين أفكر بأن ألبير هو الوحيد من بين أصدقائنا القدامى الذي لم يهتم قطّ بهذه الحرب!»

أكد مراد:

«عندما دخلت إلى شقته، لم أعثر على جريدة واحدة، جديدة أو قديمة. لا شيء سوى كتب خيال علمي تشغل حيطاناً بحالها، وقد رتبت بعناية ترتيباً أبجدياً حسب أسماء مؤلفيها، ثم واجهات زجاجية يحتفظ فيها بصناديق موسيقية. هل كنت تعرف أنه يهوى تجميعها؟».

«أجل، أراني إياها في يوم من الأيام. كان يشتريها عند تجار الخردوات، ويعيد طلاءها، ويصلح آلياتها. كان يكفي أن يرى واحدة منها ليعرف من صنعها، وفي أي عصر».

«لديه العشرات منها. لابد أن بعضها يساوي الكثير، لو شاء إعادة بيعها».

«لم تكن تلك غايته. ولمن كان سيبيعها أصلاً؟ فمن غيره كان سيخطر بباله أن يشتري صناديق موسيقية في خضم الحرب؟».

ضحكنا، ثم توقفنا عن الضحك. وكان مراد يشعر بالذنب.

«حين يخطر ببالي أنني طردته من بيتي! لا أكف عن التفكير بذلك! يتراءى لي أنني دفعت به في الفراغ. أشعر بالذنب!».

وأردفت، وفي نيتي التخفيف من ندمه: «وأنا كذلك ألوم نفسي لأنني رحلت بدون أن أكترث لمن بقوا».

«إذا خرج حياً من هذه المحنة، سأشجعه على الرحيل، هو بدوره. لا مكان له في هذا البلد...».

«وأنت، مراد؟ هل تظن حقاً أن مكانك لا يزال فيه؟».

رد بنبرة وضعت حداً للمناقشة: «مكاني ليس في مكان آخر».

وخيّم صمت آخر. ثم سألني:

«ألست أنت من قال لي يوماً: «حتى لو لم تهتم بالسياسة، فالسياسة ستهتم بك؟».

«هذا القول ليس لي. لا بد أنني قرأته في مكان ما. لا أذكر اسم قائله...».

في مجال الاستشهادات، لطالما تناولت بجدية فائقة مسألة اقتفاء أسماء قائليها. وكان أصدقائي في مرحلة الشباب يعرفون ذلك، ويتسلون أحياناً برمي كرة باتجاهي، مثلما يرمونها إلى كلب صيد، فلا أقوى على عدم الركض خلفها: «هل تعرف من قال...» فيما مضى، لم تكن هنالك تلك «المحركات» العظيمة التي تحضر لنا النتيجة بلمح البصر.

فلم يكن أمامي من خيار آخر سوى البحث والتنقيب، لا سيما

في دواوين الأقوال المأثورة الكثيرة التي كانت تشغل، ولا تزال، رفوفاً عديدة من مكتبتي. وكنت أعثر على جواب في نهاية المطاف، ولكنه قلما يكون شافياً. وبصفة عامة، لا يوجد قول مأثور قاله الشخص الذي ينسب إليه كما هو بالضبط. فيوليوس قيصر لم يقل قطّ لبروتوس: «حتى أنت يا ابني ؟»؛ وهنري الرابع لم يقل البتّة: «باريس تستحق قداساً!». – ولو خطر بباله ذلك بصورة لا يرقى إليها الشك –؛ وحفيده لويس الرابع عشر لم يقل قطّ: «أنا الدولة!».

أما في ما يتعلق بالقول الذي ذكره مراد، فسرعان ما اكتشفت أنه قيل كما يلي:

«حذار: فإذا لم تهتموا بالسياسة، سوف تهتم السياسة بكم»، وهو منسوب، بالطبع، حسب المصادر، إلى مؤلفين مختلفين، من معاصري الثورة الفرنسية: الأول هو روابيه – كولار، والثاني هو الأباتي سيياس.

والصياغة الأصلية أكثر ملاءمة من تلك التي حفظها مراد. وتقول: «إذا لم تهتموا بالسياسة»، وليس «حتى لو ..». وبعبارة أخرى، لا يتعلق الأمر بالقول بصورة مبتذلة إن السياسة تؤثر في أي كان، حتى من لا يهتمون بها؛ فالقائل يقصد أن العواقب السياسية تؤثر ،في المقام الأول، على أولئك الذين لا يهتمون بها.

ولقد صدق بالفعل! فألبير لم يختطف رغم كونه لم يكترث لتلك الحرب المشؤومة، إنما بسبب عدم اكتراثه بها. فهل هذه مفارقة؟ إنها كذلك في الظاهر فقط.

عندما كانت تصفية حسابات تحصل بين عصابتي ميليشيا، وبين حي وآخر، وبين طائفتين، كان المقاتلون من جميع الجهات يختبئون. وأولئك الذين شاركوا في معارك أو في مجازر لا يجازفون بالخروج من «منطقتهم»؛ وإذا ما تعرضت هذه المنطقة لخطر الاجتياح، يذهبون للتمركز في مكان بعيد عنها.

من كان، على العكس، لا يشعر بأي حاجة على الإطلاق للاختباء والفرار؟ من كان يواصل اجتياز خطوط التماس ببراءة؟ من كان يرفض مغادرة حيِّه أو ضيعته رغم غارات «الآخرين»؟ فقط أولئك الذين كان سجلهم نظيفاً، أولئك الذين لم يشاركوا في أي معركة، أو في أي عملية خطف، أو في أي مجزرة. وفي نهاية المطاف، كان أولئك الأبرياء تحديداً يتعرضون للتنكيل!

أجل، وفي القطيع الكبير للأشخاص غير المسيَّسين، كانت «مينوتورات»(*) الحرب الأهلية تختار كل يوم فرائسها! لم يكن اختطاف ألبير ناجماً عن تضافر ظروف تعيسة، بل المثال المأسوي الساخر على مفارقة قائمة.

ثم أعقب ذلك أسابيع مضنية من المفاوضات كنت أتابع تفاصيلها عن كثب بفضل ما يطلعني عليه مراد يومياً من تقارير.

(*) Minotaure: المينوتور في الميثولوجيا الإغريقية مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور (المترجمة).

قال لي يوماً: «وصلنا إلى طريق مسدود. لم أعد أجرؤ على التقدم خطوة واحدة خشية التسبب بكارثة».

ثم أوضح لي معضلته:

«الآن، يعلم الخاطف علم اليقين أن ابنه لن يعود. ويمضي في القول إنه يعتزم إعدام صديقنا، ولكنه لم ينفذ وعيده، ويبدو لي أنه سيتعذر عليه قتله، مع مرور الوقت، بدون أن يرفَّ له جفن. إنه يحتفظ به مشدود الوثاق دوماً، ولكنه لا يعذبه، ولا يجوِّعه. نصحني بعضهم باقتراح دفع فدية، ولم أفعل. قد أفعل ذلك فيما بعد، ولكني لا أعتقد في الوقت الحاضر أنه الحل الأسلم. أخشى أن يستاء الرجل. لقد أعطاني الوسيط رقم هاتف ذلك المسكين. كل يومين أو ثلاثة أيام، أتصل به، وأدعه يتكلم. أصغي إليه بصبر، وأعرب له عن مودتي وتقديري. أقمت معه علاقة ثقة ولا أود إفسادها بدعسة ناقصة. ولكن لا يسعنا كذلك أن نجازف ببقاء ألبير إلى ما لا نهاية تحت رحمة ذلك الشخص وأقاربه. يبدو لي أنني واقف بين هاويتين، عاجز عن التقدم إلى الأمام أو الرجوع إلى الخلف. كم من الوقت سيدوم ذلك بعد؟ الله أعلم».

وفيما كنت أمعن التفكير لإيجاد حل، طرح عليّ مراد مشكلة ثانية، أكثر تعقيداً من الأولى:

«لا أخفي عليك أن ثمة أمراً آخر يقض مضجعي. وأصارحك به لأنه لا بد من أن الشعور نفسه يخالجك. لم تنسني حادثة الاختطاف

فكرة الانتحار. وبما أن صديقنا على ما هو عليه، قلبي يحدثني بأن حياته ستكون أكثر عرضة للخطر لو كان طليقاً مما لو ظلّ في الأسر».

«لو تعلق الأمر بأي شخص آخر، لكان همي الوحيد أن أعمل على إطلاق سراحه، وأعيده بهدوء إلى بيته. أما في ما يتعلق بألبير، فلست متأكداً. لا يسعني إلا التفكير بما سيحدث منطقياً: سنرجعه إلى شقته، وفي اليوم التالي، سنعثر عليه ميتاً في فراشه، وقد وضع على المنضدة، رسالة وداعية أخرى».

أحس آدم الذي أنهك بسبب هذا الجهد الاستحضاري، بالحاجة إلى استراحة، لإراحة رأسه وعينيه، وكذلك لترتيب أفكاره.

كان يعمل منذ الصباح، بدون انقطاع، ولم يعد قادراً على الكتابة. ولكنه كان كذلك عاجزاً عن التوقف، لشدة ما غرق في ذكرياته. فقرر أخيراً أن يتمدد على السرير، مصمماً على النهوض بعد خمس دقائق.

كانت الشمس قد انخفضت، ولكن بما أن غرفته وجهتها البحر، أي الغرب، فلا يزال يغمرها ضياء وردي خفيف، لطيف إنما حاد. فبدأت الرغبة بالنعاس تجتاحه، ولم يعد يقوى على مقاومتها.

أيقظته بعد ساعات عديدة يد ودودة كانت تمسح بلطف على كتفه، وعلى وجهه، وعلى جبينه. فتح عينيه، فتبين له أن الليل أقبل.

قال صوت سميراميس الضاحك: «أيها العقل الخالص، أنا ضميرك الحسي».

فابتسم وأغمض عينيه مجدداً.

فواصلت الكلام: «العشاء جاهز».

«كلا، شكراً، إنني نعسان جداً، وأظن أنني سأواصل النوم».

ولكن زائرته رفضت أن يرق قلبها.

«لا، آدم. لم تأكل شيئاً منذ الظهر، وأمضيت سحابة نهارك تكتب، لا أرغب بأن تمرض في ضيافتي. ستنهض، وأصلاً أنت ترتدي ثيابك، وتغسل وجهك، وتنزل».

كان من الواضح أن الجدل لا ينفع.

«حسناً، هيا، يا سيدة القصر، سأتبعك. اسمحي لي فقط بعشر دقائق».

أضحكها ذلك اللقب الذي أسبغه عليها توّاً صديقها بين النوم والصحو، ولكنه لم ينل من عزيمتها. فخرجت وأغلقت الباب خلفها، ولكنها لم تنس أولاً أن تشعل كل الأنوار.

3

كانت المائدة جاهزة، والأطباق مغطاة بصحون مقلوبة لكي لا تبرد.

كان آدم يأكل قليلاً، ويتحدث أقل، لأنه لم يكن بعد صاحياً. وبعد مرور دقائق طويلة، أحس بأنه مضطر للقول:

«لم أكن في حياتي كثير الكلام، ولكني أشارف الفظاظة هذا المساء... أعذريني! فعذري الوحيد أن المكان الذي أنا موجود فيه منذ يومين يساعد على التركيز. وحين أتوقف عن الكتابة على ورقة، أتابع الكتابة في ذهني».

«الصمت، والجبل، والضياء، والبحر الذي يرتسم في الأفق، والهواء العليل بفضل أشجار الصنوبر الثمري...».

«.... والشعور بأني سجين إلاهة ودودة».

وضعت يدها على يده.

«لا تتخيل كم تسعدني بقولك هذا!».

«بأنني أشعر بنفسي سجيناً؟».

«أجل، حتى ذلك! .لقد بذلت كل ما بوسعي لكي يكون هذا

المكان واحة من السكينة والماء العذب، وأنت تؤكد لي أنني نجحت في مسعاي».

«عوضاً عن الماء العذب، لديك شمبانيا بالأحرى».

«هذا مفهومي للماء العذب».

وارتفع كأساهما، وتلامسا، على مقربة من الحافة، ثم أفرغا معاً. وحالما استراحا على المائدة، اقترب النادل وأترعهما. ونظرت سميراميس إلى ساعتها.

«فرنسيس، يمكنك الانصراف، لقد انتصف الليل، وسأطفىء الأضواء بنفسي، ولكن دع لنا الشمبانيا جانباً!».

فقرب الرجل الزجاجة بسطلها المرتكز إلى قائمة، ثم ألقى التحية على مديرته وضيفها بانحناءة قبل أن يتوارى عن الأنظار.

قالت المضيفة حين بقيا لوحدهما: «أول ذكرى لي عنك حين عرضت عليّ مرافقتي إلى البيت، في نهاية سهرة مشهودة. أتذكر ذلك؟».

«كما لو كانت بالأمس».

في تلك الأمسية ، كانت شلة أصدقائهما قد تناولت العشاء في مطعم صغير للطلاب، يقع على مقربة من كلية الحقوق، واسمه يلائم موقعه، *Le Code Civil* أي «القانون المدني». وفي نهاية العشاء، سألت سميراميس إذا كان بوسع أحدهم أن يوصلها إلى بيتها. فتطوع آدم في الحال. وخرجا معاً إلى الشارع. ثم سارا وسارا.

«في الدقائق الخمس الأولى، كنت متأكدة أننا نتجه إلى سيارتك. وكنت أتساءل فقط عن السبب الذي دفعك إلى ركنها بعيداً. واستغرق بي الأمر بعض الوقت لأفهم أنك تريد مرافقتي سيراً على الأقدام».

«طوال العشاء، كنت أتأملك، مفتوناً. ولما طلبت أن يوصلك أحدنا إلى بيتك،لم أتردد لحظة واحدة، لم أفكر لا بالسيارة ولا بشيء آخر، وعرضت نفسي على الفور، مثل الأطفال الذين يصرخون «أنا!» قبل غيرهم حالما يسمعون: «من يريد...»بدون أن يعرفوا حتى ما في الأمر. وفي هذه الحالة، في ذلك المساء، كنت أعرف ما في الأمر، وأخشى أن يسبقني إليه أحدهم».

«في البداية، كنت مغتاظة. كان لدى مراد سيارته بالتأكيد، وتانيا سيارتها، ولا أدري من غيرهم بعد. كانوا أوصلوني خلال خمس دقائق، وبسببك، سأتعرض للتأنيب. ولكني استمتعت شيئاً فشيئاً بالمشوار. كانت أمسية تتميز بطراوة لذيذة، واكتشفت المدينة بإضاءة لا أعرفها، وما تحكيه لي يسليني. لاحقاً، اكتشفت أنك مقل في الكلام، ولكنك كنت ثرثاراً في تلك الأمسية. ولا بدّ أنك كنت متوتراً...».

«شعرت بالخجل! أذكر ذلك الشعور وكأنه انتابني البارحة. حين خرجنا من المطعم، أدركت أنه قد حصل بيننا سوء تفاهم. فمن الواضح أنك كنت تظنين بأنني أصطحبك إلى سيارتي، وأنا لم أكن أملك سيارة بعد. ولكن ما العمل؟ هل أعتذر منك، ثم أهرع وأحاول اللحاق بشخص آخر يكون «عنده سيارة»؟ لكنني شعرت بالمذلة. فتصرفت كما لو أنني كنت أنوي أصلاً مرافقتك سيراً على الأقدام».

«في باريس، كان الأمر سيكون عادياً، على ما أظن. ولكن الأمر كان يلوح غريباً جداً، هنا. فلا أحد كان يتنقل سيراً على الأقدام من حي إلى آخر...».

«وخصوصاً في الليل! فبالكاد هناك أرصفة، وحتى لو لم يكن هناك عناصر الميليشيا بأسلحتهم، وحواجز التفتيش والسيارات المفخخة، فهناك بكل بساطة الحُفَر في الشارع، حيث يمكن للمرء أن يكسر ساقه».

«كنت متأكدة أنك ستودعني وستقبّلني في أسفل بناية أهلي، حين سنصل إلى الزاوية المعتمة قبل السلم».

«هذا بالضبط ما كنت أود القيام به! ولكني لم أجرؤ. كان في رأسي صوت بائس يهمس لي: «لا تفسد هذه اللحظة الجميلة بتصرف غير لائق! هذه البنت وضعت ثقتها بك، فلا تنتهز الفرصة! تصرف مثل الجنتلمان!». اجتمعت كل حجج تربيتي الرفيعة المزعومة لتعطل إرادتي. ومع ذلك، كنت قد قررت، في لحظة، أن أتجاوزها. كان في الشارع حفرة كبيرة، وقد مددت لك يدي لمساعدتك على الالتفاف حولها. ثم «نسيت» أن أحررها. كنا قد خطونا بضع خطوات، وقد تشابكت أيدينا، ثم حررت أنت يدك».

«لا أذكر ذلك على الإطلاق!».

«أنا لا أزال أذكر ذلك، لأني اجتررت ذلك مطولاً. وحين تركت يدك يدي، استنتجت بأنك تريدين أن تقولي لي بألا أتمادى وأتسرع.

فعلتِ ذلك بلطف، بدون مباغتة، وبدون أن تجرحي شعوري، ولكنها كانت رسالة».

«لو فكرت على هذا النحو، فقد أخطأت الظن. لا أذكر كل هذه التفاصيل، ولكني على يقين من أمر واحد، أنني لم أكن أسعى قطّ لإحباط عزيمتك. وعلى العكس، كنت أرغب بأن تقبلني عند مدخل البناية، كنت على ثقة بأنك ستفعل ذلك، وقد خاب أملي حين أحجمت، ولم أنسَ ذلك».

«أشعر في صدري بحسرة الندم.

أتصدقين ذلك؟ بعد كل هذه السنوات؟».

«لا داعي لاحتساب السنوات! لم تكن هناك سنوات فقط، بل حيوات، حيوات متتالية...».

ما لم يقله الصديقان، وكان حاضراً رغم ذلك في ذهن الواحد منهما والآخر، هو أن فرصة تبادل قبلة لم تسنح أبداً فيما بعد. ومع ذلك، فقد كانا في مطلع سنتهما الجامعية الأولى، يتابعان الصفوف نفسها، وينتميان إلى شلة الأصدقاء نفسها، ولا بد من أن الفرصة سنحت لآدم عشرات المرات لمرافقة سميراميس إلى بيتها، ولكي يودعها في المكان نفسه حيث أغفل تقبيلها المرة الأولى. ولكن تلك المرة الأولى كانت المرة الأخيرة.

وعندما اجتمعت شلتهما مجدداً، بعد بضعة أيام، وصلت سميراميس مع أحد أصدقائهما. كانت كل حركاتهما تنم على أنهما

«مع بعض». لم يفلح آدم في عدم النظر إلى أيديهم المتشابكة. ولئلا يتعذب، حاول أن يقنع نفسه في لحظتها بأنها برفقة «الآخر» منذ بعض الوقت، وأنه كان مصيباً بعدم محاولة تقبيلها لأن محاولته كانت ستقابل حتماً بالصدّ. ولكن الواقع لم يكن كذلك. فالحقيقة أن «الآخر» تحلى بالشجاعة الكافية واحتضنها بين ذراعيه، فيما لم يجرؤ هو على القيام بذلك.

وحتى بعد انقضاء كل هذه السنوات، وكل تلك «الحيوات المتتالية»، كان آدم لا يزال يشعر بالندم وبالخجل. وقد حمله ذلك على القول، للاعتذار بعض الشيء من مضيفته «سيدة القصر»، وتعزية نفسه بعض الشيء:

«لطالما كنت أعاني من خجل يشلُّ حركتي. وإذا كنت قد أفلحت في إخفائه مع الوقت، وسنوات التدريس، فلم أنجح إطلاقاً في استئصاله. وفي مؤتمرات المؤرخين، على سبيل المثال، قلما آخذ الكلمة، وأطلبها بدون إلحاح، وأشعر بالارتياح بكل بساطة حين ينسى الآخرون أن يعطوني إياها. ولو كنت برفقة شخص ثرثار، بوسعي أن أبقى ساعات بحالها دون أن أنبس ببنت شفة. في شبابي، كان الوضع أسوأ من ذلك، كنت على الدوام مشلولاً بسبب الخوف من التعرض للمهانة، وفقدان ماء الوجه. وكنت أحاول إقناع نفسي بأن عدم الثقة بنفسي موقف يعبر عن ذروة الكبرياء: وإذا كنت لا أطلب شيئاً، فلأني لا أطيق أن أقابل بالرفض؛ وعوضاً عن خوض هذه المجازفة، كنت أفضل الإحجام».

وأفصحت سميراميس وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة: «فأحجمتَ عن تقبيلي».

قال آدم وعلى وجهه الابتسامة نفسها: «أجل، هذا ما حصل. وسأظل نادماً طوال حياتي».

وضحك الاثنان من كل قلبهما، إنما بدون إحداث ضجة. ثم وزعت سميراميس ما تبقى في زجاجة الشمبانيا على كأسيهما، وأرجعتها إلى السطل، وقد أنزلت عنقها إلى الأسفل.

واقترحت عليه: «هلا نتمشى في الهواء الطلق؟».

«يبدو لي اقتراحاً سديداً. ثم، سأوصلك».

«سيراً على الأقدام، مثل المرة السابقة؟».

ردد آدم: «أجل، وهو كذلك، مثل المرة السابقة»، مبتهجاً بهذا الإلغاء للسنوات والعقود.

4

لم تكن سميراميس تقطن في الفندق الذي يحمل اسمها؛ على الأقل ليس في المبنى الرئيسي، إنما على بعد خطوات من هنا، في بيت ملحق بالفندق تحيط به أشجار وارفة.

«تحميني هذه الأمتار القليلة، وإلا دق بابي كلما كان هناك حجز، أو إلغاء حجز، أو تسرب ماء. في بيتي الصغير، بوسعي أن أقرأ، كما ترى». قالت ذلك وهي تدعو ضيفها للدخول إلى بيتها، وتشعل الأضواء، فكشفت بذلك عن جدران من الكتب.

«ليس صغيراً إلى هذه الدرجة، بيتك الصغير».

«لا شيء فيه سوى ما تراه. هنا، مكتبتي؛ وفي الطابق العلوي، غرفتي، وحمامي، وشرفة».

«حيث تتشمسين في الصيف، لا تسترك سوى ورقة دالية...».

«بل أفعل أفضل من ذلك، على سبيل الاستيهام. فلقد جهزت الشرفة بمصعد كهربائي للأطباق. وكل صباح، يحضرون لي ترويقتي، ويضعونها في كوَّة، فأضغط على زر، وتصعد الصينية إلى الشرفة. إنها سعادة لن أملَّها».

خيَّم الصمت. كانا لا يزالان واقفين عند المدخل، ومضيفته لم

تدعه للجلوس. نظر إلى ساعته، وخطا خطوة نحو الباب الذي لم يكن قد أغلق بعد.

«لو قبلتني قبل أن تنصرف، لن أصرخ طلباً للنجدة».

فالتفت. كانت سميراميس قد أغمضت عينيها، وأرسلت ذراعيها على طول جسدها، وارتسمت على شفتيها المشقوقتين ابتسامة عابثة. فاقترب منها وطبع قبلة على خدها الأيمن، ثم قبلة أخرى على خدها الأيسر، ثم، بعد لحظات من التردد، قبلة ثالثة، أسرع من السابقتين، على شفتيها.لم يتحرك شيء فيها، لا الذراعان، ولا الجفنان، ولا عضلة في وجهها. فخطا آدم خطوة إلى الوراء، وتهيأ للانصراف؛ ولكنه عاد فخطا نحوها خطوة حين رآها لا تحرك ساكناً؛ وطوقها بذراعيه، وضمها بلطف إلى صدره في معانقة أخوية. لم تحرك ساكناً. فضمَّها أكثر إلى صدره، فالتصقت به، أو تركت نفسها تلتصق به.

ظلا على هذه الحال متعانقين، وقد التصق جسداهما، بدون أن ينبسا ببنت شفة، بدون جموح ظاهر، كل منهما يحاول تنشق حرارة الآخر ورائحته. ثم ابتعدت عنه سميراميس وقالت، بنبرة محايدة:

«يجب التأكد من أن الباب مغلق بإحكام».

انحنت، إذ قالت ذلك، وخلعت فردتي حذائها، وأمسكت بهما، وراحت تصعد السلم إلى غرفتها بدون أن تنظر إلى الخلف.

حين وصل آدم إلى الباب، خامره الشك، «كما في المرة السابقة». هل يجدر به أن يغلق الباب من الداخل، أم من الخارج؟ ظلَّ محتاراً،

وخجلاً بعض الشيء. ولكنه كذلك مستمتعاً بأنه لا تزال لديه ، في سنه، المبادئ نفسها والتساؤلات عينها كما في فترة المراهقة. هل ستستغرب صديقته حين تراه يصعد إلى غرفتها؟ أم أنها على العكس ستشعر بالخيبة والقنوط لأنها لاحظت أنه لم يوافها؟

وأخيراً، أغلق الباب، وأدار المزلاج، وأطفأ النور، وتوجه نحو السلم مستهدياً بالنور في الطابق الأول.

ولما وصل إلى عتبة غرفة «سمي الجميلة»، لم يمسك نفسه عن القول، بصوت متردد:

«لم أنصرف...». لم يسمع، رداً على ما قال، سوى صوت دش رتيب.

بعد ثلاث دقائق، ظهرت صديقته مجدداً، تلفها منشفة بيضاء فضفاضة.

قالت له: «لا تتكل عليّ لكي أطردك».

تلاقت نظراتهما، ولمح كل منهما في نظرة الآخر شرارة الترقب.

«ألديك منشفة أخرى مثل هذه؟».

«لدي كومة منها! ولقد تركت لك بعض الماء الساخن».

حين خرج آدم من الحمام، كانت الأنوار مطفأة، ولكن ضياءً آتياً من الخارج قد تسلل إلى الغرفة. تحرر من المنشفة ورماها على الهيئة السوداء لأريكة قريبة. ثم اندس سريعاً تحت الغطاء. ارتعشت

سميراميس حين لامس جسدها البشرة الباردة «للدخيل»؛ ولكنها ضمته بقوة إلى صدرها لكي تمنحه دفئها، بدلاً من الابتعاد عنه.

ظل كل منهما ملتصقاً بالآخر وقتاً طويلاً، لا يحركان ساكناً، وكأنهما ينتظران أن يصبح جسداهما دافئين وجافين، وأن يتآلف الواحد مع الآخر. ثم نهض الرجل على ذراعه اليسرى، مبعداً الأغطية، ليمرر ببطء راحة يده اليمنى على بشرة المرأة. أولاً على الكتفين، ثم على الجبين، ثم من جديد على الكتفين، ثم على الردفين، ثم على النهدين، بلطف، بصبر، بدقة، وكأنه يجري مسحاً طوبوغرافياً.

وراح يهمس، بصوت خفيض جداً، وهو مثابر على عمله:

«التمهل لزيارة معالم جسدك. الهضاب، والسهول، والأحراج، والوديان...».

لم تحرك سميراميس ساكناً. كان يبدو أنها تتابع، مغمضة العينين، بكل انتباهها وجوارحها اليد الصديقة التي تكتشف بشرتها، وتعيد رسمها، وتكرِّمها.

ثم انحنى آدم عليها لكي يطبع شفتاه على المساحات التي قامت راحة يده بتمهيدها. على الجبين، والكتفين، والثديين، وكذلك على الخدين، والشفتين، والجفنين، إنما بدون إلحاح، بدون ضغط، بدون أن يعطي الانطباع كثيراً بأن الأمر يتعلق بتمهيد إيروتيكي، وكأنه يجري، هنا أيضاً، مسحاً. وبأناة ورصانة وخشوع، رافقت أنفاسه كلمات مهموسة لم تكن صديقته تسمعها بوضوح، ولكنها تفهمها.

ثم نهضت هي، وتمدَّد هو، ساكناً. واستعادت الحركات نفسها التي قام بها وكأن بشرتها حفظتها. أولاً براحة اليد، ثم بالشفتين.

ومن ثم التفت بكل أطرافها حوله، وقلبته إلى ناحية، ووجدت نفسها فوقه، ثم تحته، إلى أن أفقدته الإحساس بالفضاء. لم يعد الفراش الذي تجرد من غطائه ووساداته، سوى مساحة بيضاء وعارية يدور فيها جسداهما في كل الاتجاهات مثل عقارب ساعة غير مضبوطة.

لم يكن أي منهما يرغب بليلة مقتضبة، تبدأ سريعاً وتنتهي بأسرع مما بدأت. كانا يرغبان، على العكس، بأن تطول ليلة غرامهما وأن تدوم، كما للانتقام من كل الوقت الذي مضى، كما لو أن الغد مجرد خدعة، وكما لو أن ليس أمامهما سوى ليلة، في حياتهما كلها، سوى ليلة، ليلة واحدة، تلك الليلة، فعليهما أن يبذلا ما بوسعهما لكي تشرق الشمس في ساعة متأخرة أكثر ما يمكن، وعليهما أن يجدا الإيقاع الملائم بين الشغف والمثابرة.

وفي وسط الليل، لم يكن بوسعه إلا أن يسأل عشيقته، وهو يداعب جبينها وكتفيها:

«حين قبلتك، في الطابق السفلي، لم تعانقيني حتى بذراعيك. لشدة ما كنت متصلبة ولا تحركين ساكناً، تساءلت إن لم يكن من الأفضل أن أنصرف».

«هذا بالضبط ما كنت أرغب به».

«أن أنصرف؟».

قالت له سميراميس: «لا، يا غبي![*] ولكني أردت أن تطرح على نفسك السؤال، وأن تتخذ قرارك بنفسك».

«ولو جازفت بانصرافي؟».

«أجل، ولو جازفت بانصرافك. لكنت كرهتك لو انصرفت، وألقيت اللوم على نفسي. ولكني كنت قد تماديت...».

«تماديت؟».

«اجتذبتك إلى بيتي، في وسط الليل، وقلت لك إنني لن أصرخ طلباً للنجدة. لن أمسكك من يدك، فضلاً عن ذلك، وأجتذبك إلى مخدعي. كانت الكرة في ملعبك: وعليك أنت أن تقرر إذا شئت أن تحتضني بين ذراعيك، وتقبلني، ثم ترتقي هذه الدرجات القليلة حتى تصل إلى غرفتي. أو إذا كنت تفضل أن تهرب كما فعلت المرة السابقة».

«كما في المرة السابقة». ردَّد مبتسماً، وهو يحاول أن يقلد صوت عشيقته.

وتعانقا، بمزيد من الحنان، وقد اشتعل فيهما شبق جديد.

وحين غالبهما النعاس أخيراً، مرتاحين، منهكين، كان الفجر ينبلج.

كان الليل ملكاً لهما لوحدهما، لهما فقط، حتى طلوع الفجر.

(*) .No, stupid : (بالإنكليزية في النص الأصلي) (المترجمة).

اليوم الخامس

1

حين استيقظ العشيقان، كانت تسمع في الأشجار المجاورة سمفونية عصافير بهيجة. وتسمع كذلك، من بعيد، أبواق السيارات، ومن الفندق، قرقعة الأطباق.

«لا بد أن الصينية في الكوَّة. هل نتناول بعض القهوة، أم نغفو من جديد؟».

«قهوة»، تمتم الرجل الذي لم يكن يبدو أنه قادر بعد على تشكيل جملة مكتملة.

وبعد حفنة من الدقائق، كان جالساً في الشرفة، وقد لفَّ جسده بمنشفة حمام، صاحياً تماماً، ومتضوِّراً. ارتدت سميراميس ثوباً خفيفاً. كان الوهج حاداً، فاستعار منها آدم نظارات شمسية.

قالت صديقته على حين غرة، بدون أيما سبب ظاهر: «باريس مدينة خلابة».

التفت نحوها، مستغرباً. فأكملت جملتها: «... ولكن لا يمكن أبداً تناول الترويقة فيها على شرفة».

أومأ آدم برأسه موافقاً. فأضافت:

«ولا نصادف فيها أبداً هذه الشمس الصافية».

ووافقها أيضاً. إلا أن مجرد ذكر مدينته بالتبني أيقظت في ذهنه غصة الندم.

«هذه الليلة، أطفأت هاتفي بكل جبن. لا ريب أن دولوريس حاولت الاتصال بي».

خيَّم صمت، ثم أضاف، كأنه يخاطب نفسه:

«ولم تجدني، فلا بد أنها اتصلت باستعلامات الفندق».

قالت سميراميس وهي تبتلع رشفة قهوة ممزوجة بالحليب: «كلا، لا أظن».

«حقاً؟ وهل يقدم لك موظف الاستعلامات تقريراً عن الاتصالات الهاتفية التي يجريها الزبائن؟».

«كلا، على الإطلاق، فالزبائن يفعلون ما يحلو لهم. ولكني أعرف أن دولوريس لم تكن تنوي الاتصال بك ليلة الأمس».

«وكيف تعرفين ذلك، يا عزيزتي السيدة ماربل؟».

«هذا ليس استنتاجاً، بل لقد قالت لي ذلك البارحة، حين اتصلت بها».

ردد آدم بدون أن يضفي على كلماته أي نبرة استفسارية: «حين اتصلت بها».

«اتصلت بها البارحة لأستأذنها أن ننام معاً».

«بالطبع، من المؤكد أنك فعلت».

حاول الرجل أن يغتصب ضحكة، إنما لم تخرج منه سوى قرقرة.

«هل تمزحين دوماً في الصباح؟ أنا معجب بك! فحسُّ الدعابة عندي يستيقظ بعدي بساعتين».

«حين يستيقظ، أخطرني، لكي أحكي لك...».

«تحكين لي ماذا؟».

«حديثي مع صديقتك».

وضع فنجان قهوته لتفحص وجه سميراميس. كان من الصعب استقراء ابتسامتها. فلم يجد أمامه خياراً آخر سوى أن يسألها صراحة إذا كانت قد اتصلت بدولوريس حقاً. فهزت رأسها مؤكدة ذلك.

«أصبحنا صديقتين، كما تعلم، حين ذهبت لتناول العشاء عندكما. ومنذ ذلك الحين، نتحدث أحياناً عبر الهاتف. أقدِّرها كثيراً، ولم أشأ أن ينشب بيننا خلاف».

تأملها بنظرة ريبة، متوقعاً أن يراها تضحك مثلما يضحك القرصان. ولكنها استأنفت، بعد لحظة صمت، بنبرة أصبحت فجأة في منتهى الرصانة:

«قلت لنفسي إنني لو عشت معك مغامرة، فسوف تعترف لها بكل شيء في نهاية المطاف، وسوف تنقم هي عليّ، ولن تجرؤ أنت أبداً على التحدث إلي. لم أرغب بفقدان صديقين عزيزين بسبب ليلة غرام، فاتصلت بها».

امتقعت الآن سحنة العشيق. تثاقلت أنفاسه، وعجز عن ابتلاع ريقه، فيما استأنفت سميراميس الكلام بالنبرة نفسها وبدون أن تلتفت إليه.

«دولوريس على علم بتلك النزهة الليلية حين كنا شباباً». قلت لها: «في ذلك المساء، تمنيت أن يقبلني آدم، ولم يفعل. وحين رأيته ثانية، شعرت فجأة برغبة في أن يرافقني إلى بيتي سيراً على الأقدام، وأن يجرؤ هذه المرة على تقبيلي». فضحكت، ثم قالت لي: «أنتما تحت سقف واحد، وأنا موجودة على بعد خمسة آلاف كيلومتر، وبوسعكما القيام بما يحلو لكما، ولن يكون بوسعي أن أمنعكما». فأجبتها: «هذا مجرد ظاهر الأمور. والحقيقة، كما أشعرها، أنني في بيتك، وأمام خزانتك، وهناك بدلة تروق لي، فإما أن أختلسها، مثل السارقة، وإما أن أتصل بك وأطلب أن تعيريني إياها». فلزمت دولوريس الصمت لبرهة ثم سألت: «هل بدلتي بخير؟» فأجبتها: «بألف خير! بالطبع، لا يعرف أنني اتصل بك، ولا يشك بما أخطط له. وإذا قلت لي أن أتخلى عن مخططي، فلن يعرف أبداً ما جرى بيننا من حديث». ومن جديد، سمعت في الطرف الآخر من الخط ضحكة عصبية مقتضبة، أعقبها صمت طويل. ثم قلت: «دولوريس، فلننسَ كل ذلك! كانت مجرد رغبة عابرة. منذ وصوله، توليت رعايته، ويبدو أنه ضائع بدونك، مثل عصفور صغير هوى من العش، وقد يموت جوعاً إذا لم يأت أحدهم ويطعمه. لقد أيقظ ذلك في قرارة نفسي حناناً أمومياً، ورغبات قديمة... وفي نهاية المطاف، المسألة بالغة التعقيد، فلننس الأمر، اتفقنا؟ وخيم الصمت ثانية، ثم قالت لي دولوريس: «إذا أعرته لك، هل ترجعينه لي؟» فقلت لها: «أعدك، برحمة أبي! سأرجعه لك كما وجدته. هذا ما جرى آدم، أنت تعرف الآن كل شيء».

حين انتهت سميراميس من سرد ما جرى، اختلست نظرة إلى صديقها. هل سيستنكر، أم يستغرب، أم يكذب؟ وقبل أن يتفوه بالكلمة الأولى، أدركت أنه يشعر بالامتعاض أكثر من أي شيء آخر.

«وكل ذلك جرى من وراء ظهري، وكأن المسألة لا تعنيني! ألا تظنين أنه كان يجدر بك استشارتي قبل أن تتصلي بصديقتي؟».

«بالطبع لا! لو رفضت دولوريس، لما كنت حتى اصطحبتك إلى بيتي. بعد العشاء، كنت قبلتك على خدك، مثلما فعلت البارحة، ثم تركتك تعود إلى غرفتك».

«برافو! تستعملانني، أنت وهي، ورأيي ليس مهماً!».

«بالطبع، رأيك مهم. لا يتملكني الشعور بأنني أرغمتك. لقد عرضت نفسي بلباقة، وتركت لك مخرجاً مشرفاً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكي تكون حراً في الانصراف، حتى في اللحظة الأخيرة. ولكنك اخترت البقاء معي...».

كان ذلك صحيحاً. فوضع آدم يداً مهادنة على ركبة صديقته.

«أجل، هذا صحيح! لقد اخترت بملء إرادتي أن أصعد إلى غرفتك، وأنا أتحمل المسؤولية، وكنت سأندم طوال حياتي لو لم أفعل ذلك. ولكن مؤامراتكما النسائية تزعجني. «تعيريني إياه، أرجعه لك...». يبدو لي أنني لعبة، أو لو استعدت تشبيهك، بدلة موضوعة على علّاقة».

«لقد شئت فقط أن أكون صادقة. مع دولوريس ومعك على

السواء. أتظن أنه كان سيكون من المشرف أن أنتهز فرصة وجود شريكها في بيتي لإرضاء رغبة مراهقة قديمة؟ أتظن أنه كان سيكون بوسعي أن أكلمها أو أقبلها مثل أخت، لو زرعتُ بيني وبينها الكذب والرياء؟ وأنت، هل سيكون من المشرف أن أدعوك إلى فراشي، وأن أدعك لاحقاً تتخبط في تأنيب الضمير؟ أن ألقي بعبء ليلتنا الغرامية على كاهلك كأنها الخطيئة الأولى؟ أن أزرع الريبة والخداع لسنوات لاحقة بين شريكتك وبينك؟ كلا، لستُ من هذه الطينة. أنا العشيقة التي لديها قلب صديقة، أحرص على أن تكون تلك اللحظة من اللذة الفائقة ضوءاً صغيراً في حياتنا، وليس ظلاً. وأتوقع منك أن تقدرها».

لزم آدم الصمت، وظلت يده على ركبة سميراميس وكأنه نسيها هناك. وارتسمت على شفتيه ابتسامة حائرة. فأردفت عشيقته:

«وإذا لم تقتنع بحججي، فبوسعك أن تقول لدولوريس إنني أغويتك، وإنك سعيت لصدِّي بشجاعة. ولن أكذِّبك».

التفت صوبها، وقد بدا على وجهه أنه يوازن بين هذا الحل وذاك، قبل أن يخلص إلى ما يلي:

«لا أظن أنها ستصدقني».

«كلا، لن تصدقك. ولو صدقتك أصلاً، فسوف أستاء أشد الاستياء».

انقضت بينهما لحظة صمت. ولكنه لم يكن ذاك الصمت نفسه. كان صمت سميراميس ساكناً ولعوباً، أما صمت آدم فكان متثاقلاً وحائراً.

قالت له صديقته: «وإياك أن تشعر بنفسك مضطراً للاتصال بدولوريس في الحال لتحكي لها ليلتك الغرامية. فسيكون ذلك تصرفاً غير لائق، لأن ما من شخص سليم العقل يرغب بسماع ذلك. لم أفعل ما فعلته لأرغمك على التحدث عنه، بل على العكس لتجنب الحديث عنه. إنها تعلم، وأنت تعلم أنها تعلم، وهي تعلم أنك تعلم أنها تعلم... فلا داعي للتطرق إلى الأمر، والتوضيح، والتبرير، أو أي شيء آخر. لا سيما على الهاتف. لاحقاً، بعد انقضاء بضعة أسابيع، أو بضعة أشهر، ستشعران بالحاجة إلى الحديث عن ذلك، في الليل، وسط العتمة. وسيقول كل منكما للآخر السبب الذي دفعه إلى الاستجابة لطلبي... وبوسعي منذ هذه اللحظة أن أقول لك إن توضيح دولوريس، في تلك الليلة، سيكون الأطول والأكثر تعقيداً. أما أنت، فستكون لديك أفضل حجة، وحجتك هي أنا».

وأغمضت عينيها، إذ تفوهت بتلك الكلمات الأخيرة، وفتحت ثوبها قليلاً، ثم قدمت شفتيها إلى آدم لكي يطبع عليهما قبلة مصالحتهما وتواطئهما المتأخر.

2

بعد أن عاد آدم إلى غرفته، خطر بباله رغم ذلك الاتصال بصديقته، لا لكي يحدثها عن الليلة السابقة، وهذا سيكون بالفعل من قلة الذوق، إنما لأنه اعتاد الاتصال بها كل صباح، وأنه لا يوجد سبب يدعوه إلى عدم الاتصال بها هذا الصباح.

فاتصل بالرقم، إنما بوجل.

«وصلت إلى المكتب؟».

«وصلت في الحال، ولم أجلس بعد».

«ألستِ في اجتماع...».

«ليس بعد، بوسعنا أن نتكلم. ولكن أمهلني عشرين ثانية، لأضع أغراضي!».

وتركت للحظة هاتفها، ثم استعادته.

«ها أنا ذا، كلي آذان صاغية. أخبرتني سمي أنك تعمل بحماس. ربما أكثر من اللازم».

«هذا صحيح، أعمل بحماس».

«على السيرة؟».

«كلا، وضعت أتيلا جانباً. إنني أعمل على موضوع آخر».

«إذا عملت دوماً على شيء آخر، لن تنجزها أبداً، تلك السيرة».

«انغمست في جو البلد، فتملكتني رغبات أخرى، أتفهمينني؟».

«عن ذلك أيضاً، وصلتني أصداء...».

وضحكت، ولام آدم نفسه لأنه استعمل، باستخفاف، عبارة تحمل في طياتها دلالات غامضة. وسارع يوضح لها:

«بوفاة مراد، تملكتني الرغبة بأن أسرد قصة أصدقائي، وشبابنا، وما فعلت بنا الأزمنة الحديثة».

«أتفهم ذلك، من الطبيعي أن تطفو أشكال الحنين على السطح في مثل هذه اللحظة. ولكن يبدو لي أنك تتوه... أعرفك يا آدم. ستملأ مئات الصفحات عن أصدقائك، إنما سيبقى كل ذلك إلى الأبد قابعاً في الدروج... إفهمني جيداً، لا أقول لك ألا تفعل ذلك. إنه علاج مفيد لصحتك العقلية أكثر مما تود الاعتراف به. ولكن لا تخدع نفسك، فلن تنشر ذلك أبداً. على الأقل بسبب زملائك...».

«زملائي؟».

لم يكن استغراب آدم صادقاً. فما تقوله دولوريس هو الحقيقة بعينها. كان يتمتع، في مجتمع المؤرخين، بسمعةٍ يجب أن يحافظ عليها، ترسخت على مدى عقود عديدة. وحتى أكثر أقرانه مشاكسة يقدرون دقته في تقديم الحجج، وتحليله النقدي للمراجع، ونبرته الموضوعية، وحرصه الدائم على أن يكون معصوماً عن الخطأ... فكيف بوسعه أن يوفق بين هذه الصفات التي تجعل منه مؤرخاً موقراً،

ورغبته بسرد المحن الوجودية لشلة من الطلاب؟ كيف سيكون رد فعل زملائه المبجلين؟ إنه يسمعهم بالفعل يهزأون...

«أتنصحينني بالتوقف في الحال، والعودة للعمل على سيرة صديقي القديم أتيلا؟».

«كلا، صدقاً، لا أنصحك بذلك. فحيث أنت موجود، وفي الظروف التي أنت موجود فيها، ليس بوسعك المضي في العمل على سيرة فاتح من القرن الخامس وكأن شيئاً لم يكن. أكتب ما تشعر أنه يجدر بك أن تكتبه، بصدق، وكأن الأمر يتعلق بتذكير حميم. ولكن قلْ لنفسك إن الأمر يتعلق بفاصل اعتراضي، وفور عودتك إلى باريس، غُصْ من جديد في سيرة أتيلا وأنجزها وانشرها، لكي يتسنى لك الانتقال إلى موضوع آخر. وبعبارة أخرى، اسمحْ لنفسك بأن تتوه قليلاً، إنما ليس أكثر من اللازم، ولا تنسَ بيت القصيد...».

كان آدم يتهيأ للقول إنه يوافقها الرأي تماماً، ولكن صديقته لم تدع له فرصة القيام بذلك.

قالت همساً: «إنهم يقرعون بابي. ها هم قد وصلوا».

قطعت المكالمة على الفور. نظر إلى ساعة يده، كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف بالضبط، أي التاسعة والنصف في باريس، وهي الساعة التي تعقد فيها صديقته، كل يوم، اجتماعاً مع معاونيها.

جازفت دولوريس التي وظفتها مجموعة إعلامية أوروبية لإدارة مجلة علمية شهرية موجهة للجمهور العريض فقررت أن تراهن رهاناً

محسوباً وحولتها إلى مجلة أسبوعية. ولشدة ما نجحت في الدفاع عن خيارها، توصلت إلى إقناع رؤسائها الذي وضعوا بمتناولها وسائل هائلة. إلا أنه كان من الواضح، بالنسبة إليها وإليهم، أنها ستتحمل هي المسؤولية إذا لم يؤت المشروع ثماره. ومنذ ذلك الحين، صارت تمضي وقتها في المجلة؛ وحين لا تكون فيها، لا تكف عن التفكير فيها، والتحدث عنها مع صديقها. وكان لا ينزعج لذلك على الإطلاق، بل على العكس؛ كان يروق له أن يجسد إلى جانبها دور «كانديد»، أي دور مستشار صديق، لا تسيِّره نيّات مبيتة، ولا علاقة له بالمجلة ولا بالمحيط العلمي.

فتح آدم مفكرته، بعد مكالمتهما الهاتفية في ذلك الصباح، للتفكير، وبين أصابعه قلم رصاص، في الحالة الغريبة التي زجَّ نفسه فيها.

الثلاثاء 24 نيسان

يستفحل قلقي، مع أن دولوريس بدت مدهشة ومثالية في سلوكها، برقيها الأخلاقي ورهافة إحساسها على السواء.

لا إشارة منها إلى ما جرى الليلة الماضية، إنما لا إشارة كذلك تحيد عنه تماماً. لا أدري إذا كانت كل دلالة مبطنة قد درست مسبقاً؛ ولعل بعض التلميح تراءى لي حيث انتفى. غير أن ذلك لا يقلل من وضوح الرسالة: لقد قبلت الحادثة المعترضة ما دامت ستظل حادثة معترضة.

تناسبني هذه القاعدة المسلكية، ويجدر بي أن أطمئن لأن دولوريس أعلنتها. ولكن خشيتي تأتي من مصدر آخر - من تلك الحكمة المبتذلة، المستبدة، التي تفرض عليّ الظن بأني ارتكبت انتهاكاً، وبأنني سأدفع ثمن هذا الانتهاك، لا محالة، لأسباب تتعلق بالطبيعة البشرية والنواميس السماوية على السواء.

إن الجيل الذي أنتمي إليه، جيل النساء والرجال الذين كانوا في العشرين من العمر في سبعينيات القرن العشرين، كان يضع في صلب اهتماماته تحرر الجسد. في الولايات المتحدة، وفي فرنسا، كما في بلدان أخرى، ومنها بلدي. ومع الوقت، اقتنعت بأننا كنا على صواب تماماً. فأشكال الاستبداد النفسي تقيد عقولنا بتقييد أجسادنا أولاً.. وهذا ليس سلاحها الوحيد لممارسة الرقابة والهيمنة، ولكنه أثبت أنه الأنجع على مر التاريخ. ولذا، فانعتاق الجسد يبقى، في الإجمال، فعلاً تحريرياً، بشرط ألا نستخدمه، مع ذلك، لتبرير جميع إبتذالات مسلكنا.

يكتسب ما عشته توّاً مع سمي دلالة لأنه يمثل تمرداً متأخراً على أشكال حياتي في أيام المراهقة. ولذلك، فعناقنا كان مشروعاً. ولكنه سرعان جداً ما قد يصبح مثيراً للشفقة، في حال قررنا أن نعيشه، أنا وشريكتي، مثل علاقة عادية، على مستوى الفراش، عوضاً عن اعتباره تلميحاً إلى مراهقتنا.

أتكون الليلة التي أمضيتها مع سمي قوساً معترضاً؟ بلا شك.

وهي نفسها لا تنظر إلى الأمور بصورة مختلفة. والكلمة التي قالتها دولوريس ليست، بحكم ذلك، لا مهينة ولا خسيسة.

وهل يكون بمثابة القوس المعترض أيضاً كل ما أشعر بحاجة إلى سرده عن صباي، وعن أصدقائي ؟ أجل، بلا شك، تلك هي العبارة الملائمة. غير أنني لا أنوي إغلاق هذا القوس على الفور. ولو انتهى الأمر بهذه الصفحات التي أخصصها لذكرى أصدقائي المشتتين في قعر درج، أو في قبو مظلم، فلن ينفي ذلك علة وجودها بالنسبة إليّ. قد لا تمثل حياتي، وكذلك حياة الأشخاص الذين عرفتهم، شيئاً يذكر بالمقارنة مع حياة فاتح شهير. ولكنها حياتي، ولو اعتبرت أنها لا تستحق سوى النسيان، فهذا يعني أنني لم أستحق العيش.

3

حين جاءت سمي «تخطفني» البارحة مساء، كنت أحكي بالضبط حادثة خطف ألبير وما اعترى الأشخاص الذين سعوا لفكِّ أسره من هواجس عديدة.

هل شكل الخطف والأسر بالنسبة إلى صديقنا صدمة خلاصية؟ هل ردا له الرغبة بالعيش؟ لا شيء يجيز لي تأكيد ذلك.

كان مراد يتساءل عبر الهاتف: «ألا تقتضي الحكمة أن ندعه لبعض الوقت في سجنه؟ ففي الحقيقة، ما دام لا يتعرض لسوء المعاملة، لست مستعجلاً لأراه طليقاً».

كنت أتفهم مخاوفه تماماً، بل لقد خطر ذلك في بالي بالفعل حين علمت أن ألبير محتجز كرهينة. هل نسلمه، إذ نفك أسره، إلى الموت، بقدر ما أنقذ خاطفوه حياته؟ كانت غرابة الوضع مضحكة، ولكن الهاجس كان حقيقياً بالنسبة إلينا.

وأثناء حديثنا، ارتسم حل في ذهني، اقترحته في الحال على مراد.

«إذا نجحت في إطلاق سراحه، فإياك أن تصطحبه إلى بيته. اصطحبه ليومين أو ثلاثة أيام إلى بيتك في الجبل. ثم أرسله إلي، إلى باريس. ومن ثم، سأهتم بالأمر. أتظن أنه سيقبل بذلك؟».

«يجب أن يقبل! إنه الحل المنطقي الوحيد. ولو رفض، فسأخطفه أنا، وسأكتِّفه، وأرسله لك».

«اتفقنا، سأستلمه».

وأظن أن حديثنا انتهى بقهقهة صاخبة غير عابئة بمأسوية الوضع.

حسب ما ورد في ملاحظات آدم وذكريات تانيا، سيطبق هذا السيناريو بخطوطه العريضة، إنما لم يخلُ الأمر من بعض الإخلالات في اللحظات الأخيرة.

فحالما أفرج الخاطف التعس عن ألبير، نقل هذا الأخير إلى مشارف حيه؛ وكان مراد وزوجته ينتظرانه في سيارتهما على مسافة أمتار قليلة من ذلك المكان، فتلقفاه على الفور، واصطحباه مباشرة إلى بيتهما، في الضيعة. كان الناجي في حالة من السكينة، وكأنه لم يفكر يوماً بالانتحار، ولم يحتجز يوماً كرهينة. كان مقلاً في الكلام، إنما بشوشاً.

في الأيام التالية، استحصل له مراد على صور هوية، وجواز سفر من الأمن العام، وتأشيرة من القنصلية الفرنسية. ثم اشترى له بطاقة سفر بالطائرة إلى باريس، بطاقة ذهاب فقط.

غير أنه حصل موقفان محرجان. الأول حين طلب الرهينة السابق، غداة الإفراج عنه، الذهاب إلى شقته. فقد خشي صديقاه أن يكون قد احتفظ برغبته في الانتحار، إنما لم يكن بوسعهما أن يرفضا

له هذا الطلب. ناوله مراد المفاتيح الجديدة للشقة، فقد استوجب الأمر تغيير القفل بعد خلع باب الشقة. واصطحبته تانيا إلى المدينة، وأعربت عن رغبتها بمرافقته إلى الشقة؛ فأجاب بحزم أنه يفضل دخولها بمفرده، فلم تلح عليه؛ ولم تكن متحمسة جداً لارتقاء الطوابق الستة للوصول إليها؛ وقالت في سرها إنه ليس بوسعهم، على أي حال، أن يحولوا إلى الأبد دون إقدام ألبير على الانتحار، إذا كانت لديه تلك النية. فانتظرته تحت البناية، طوال ثلاثة أرباع الساعة، وهي تسبِّح بمسبحة، وتطلق عنان مخيلتها لأسوأ الاحتمالات. ولكنه عاد في نهاية المطاف، مكفهر السحنة، وبيده حقيبة سفر صغيرة.

ويذكر آدم في مفكرته أن الموقف الآخر المثير للهلع حصل في اليوم الذي كان يُفترض أن يركب فيه الرهينة السابق الطائرة.

أعلن ألبير بهدوء أنه يحرص أشد الحرص قبل الذهاب إلى المطار على المرور بخاطفه لوداعه. فقد وعده بذلك، ومن غير الوارد ألا يفي بوعده. قرر مراد وتانيا مرافقته، إذ لم يفلحا في إقناعه بعدم الوفاء بوعده.

كان بيت صاحب الكاراج يقع في آخر طريق زقاق مسدود المنفذ؛ والوصول إليه يكون عبر طريق ترابية موحلة بسبب الأمطار التي هطلت قبل يوم. لاتزال الحيطان فيها بلون الباطون، كما لو أن لا أحد خطر بباله طلاءها، والباحة الصغيرة مكتظة بالإطارات القديمة.

«كان الرجل وزوجته بانتظارنا. إنهما من الأشخاص الأوادم

الذين تتمحور حياتهما على ما يبدو حول كاراج السيارات. وكذلك، بالطبع، حول وحيدهما الذي تنتشر صوره في كل مكان، بعضها مؤطر، وبعضها الآخر على ملصقات حديثة العهد كانت تستعمل للبحث عنه في فترة كان الأمل بالعثور عليه لا يزال حياً. والصالون في بيتهما أشبه بمعبد شيد لإحياء ذكرى الابن الذي فجعا به».

«قدمنا لهما تعازينا، أنا وتانيا. فردا علينا بتهذيب ووقار، مثلما يفعل المحزونون عادة. ثم تمتم الأب، وقد سرت رجفة في شفتيه: «أنتم لا دخل لكم في ما جرى!» وحين اقترب ألبير منه... كان يجب أن ترى هذا المشهد! طوقه الرجل بذراع، والمرأة بذراع آخر، وضماه إلى صدرهما. «إنتبه لحالك!»، «أرجو أن تعدنا بعدم ارتكاب الحماقات بعد اليوم!»، «الحياة غالية!» وراحا يبكيان. فانفجر ألبير باكياً. ثم بكيت أنا وتانيا».

«وعندما نهضنا للانصراف، كررا وصيتهما: «لا تتأخرْ علينا!»، ومن جديد، «انتبه لحالك!» وألبير يعدهما ويقسم لهما أغلظ الأيمان. كان أكثرنا تأثراً، وفي السيارة، على طريق المطار، ظل يكفكف دموعه».

«وهل سافر؟».

«أجل، سافر. الحمد لله! بقينا في المطار إلى أن أقلعت الطائرة. ثم عدنا للاتصال بك. من المتوقع أن يصل إلى باريس حوالى الثالثة والنصف بعد الظهر».

«عظيم. سأتناول الغداء بسرعة، وأذهب لاستقباله».

أذكر أنني سمعت، من الطرف المشرقي للخط، تنهد ارتياح مديد جداً.

«لسنا مستائين من أننا سلمناه إليك. نتمنى لك التوفيق!».

حين أستحضر كلام مراد، وصوته، وضحكته، وتفانيه لإنقاذ ألبير، وشدة تفاهمنا، لا يسعني إلا التفكير بأنه يرقد في هذه اللحظة في نعشه، ريثما يوارى الثرى. فتدوين حديثنا يبدو لي فجأة مثل تكريم للصديق الذي رحل.

أبوسع هذا التكريم المتواضع، المذكور في حميمية هذه الصفحات، أن يخفف إحساسي بالذنب، أو يؤجج على العكس، فيدفعني إلى تغيير موقفي بشأن حضور مأتمه؟

كلا، لا أرغب على الإطلاق الذهاب لحضوره. ولو كان من المقدر أن تحصل بيننا مصالحة بعد رحيله، فلن تحصل على الملأ، وأمامي ميكروفون، إنما وسط خشوع النفوس وهمساتها.

4

بعد أن حسم آدم أمره وقرر ألا يذهب في الغد لحضور مأتم صديقه القديم، استعاد على الفور حبل سرده.

وصلني «الطرد» بأفضل حالة. وعبثاً بحثت في عينيه وكلماته عن آثار حادثة الخطف ومحاولة الانتحار، فلم أجد شيئاً. كان ألبير قد عاد إلى نفسه، كلياً. وهذا هو الانطباع الذي أحتفظ به في جميع الأحوال عن إقامته في باريس في شهر شباط 1980.

في البداية، في اللحظات الأولى، في الساعات الأولى، كنت أشعر بالحرج. استضفته في بيتي، في غرفة الأصدقاء، وكنت أراقبه على الدوام خلسة، وأمتنع عن قول بعض الأمور. ثم استرخيتُ شيئاً فشيئاً بل رحت أضحك من كل شيء، حتى من المصادفة الغريبة التي شاءت أن يختطف لحظة عقد العزم على الانتحار. وبين الحين والآخر، كانت صديقتي آنذاك باتريسيا المحللة النفسية، توجه لي لوماً: «إنتبه، إنه هش، لا يغرنَّك مزاجه الرائق في الظاهر!». لم أوافقها الرأي؛ كنت أشعر غريزياً بأن أفضل أسلوب في التصرف معه هو عدم مراعاته، وعدم التعاطي معه على أنه ناج، ولا حتى على أنه في فترة نقاهة، إنما

على أنه الصديق اللمَّاح كعهدي به، القادر على السخرية من كل شيء، حتى من عيوبه. ولم يخبْ ظني. فبعد وصوله بيوم، أيقنتُ أننا ربحنا المعركة.

كان يوم سبت. وقد نهض الواحد منا والآخر في ساعة مبكرة جداً، حوالى الخامسة فجراً، وحرصاً على عدم إيقاظ صديقتي، لذنا في المطبخ، في الطرف الآخر من الشقة. كنت قد بدأت إعداد القهوة، ولكن ضيفي أعرب عن رغبات أخرى.

بادرني قائلاً: «تعال، إلبسْ ثيابك، ولنخرج. منذ وقت طويل، أحلم بتناول الترويقة في مقهى باريسي. جاءت المناسبة، هيا بنا، وأنا أدعوك. ومن ثم، لدي ما أقوله لك».

كانت السماء تمطر، والطقس بارداً، والفجر لم ينبلج بعد، ولكن السعادة العارمة تغمرنا لأننا نسير في شوارع باريس معاً.

اجتذبنا مطعم، فجلسنا فيه وسط تجار السوق، وطلبنا وليمة صباحية - شوكولا ساخناً، وكرواسانات بجميع أنواعها، ومربيَّات، وأجباناً، وبيضاً، وعصائر، وفواكه، وحبوباً، بل وفطائر مع شراب القيقب...

بادرني ألبير قائلاً: «الذي إعلان سأدلي به أمامك... إعلان يقع في أربع نقاط...».

كانت النبرة مهيبة، تكاد تكون رسمية، مع أن ابتسامة ساخرة خففت من وقارها، وكذلك كرواسان أمسك به وقد قضم منه قضمة.

«أولاً، لن أقدم بعد اليوم على ما كنت أهم بالإقدام عليه منذ أسابيع خلت، وقد طويت هذه الصفحة نهائياً. ولن يصل بي الأمر إلى حد القول إنني نادم على أي شيء. فلنقلْ بالأحرى إنني لست نادماً على أن بعض الأمور جرت مثلما جرت، وإنني خرجت منها سالماً».

أومأت له برأسي عدة مرات، بدون أن أقاطعه. ثم شاب نظرته الحزن.

«ثانياً، لن أعود أبداً إلى البلد. بعد التفكير ملياً – وسترى أن الأمر سخيف ولكن لا تشعر بنفسك مرغماً على قول ذلك! – بعد التفكير ملياً، أرى أن الحياة لم تكن تنوء بوطأتها عليّ، بل يبدو لي أنني كنت أبحث فقط عن مخرج. لم يعد باستطاعتي العيش في ذلك البلد، ولم أكن قادراً كذلك على مغادرته. لم أجد في نفسي القوة اللازمة للخروج من شقتي، وبلغ بي الأمر أنني اعتقدت بأن الحل الأمثل هو أن أنام للمرة الأخيرة وسط أثاث بيتي، محاطاً بكتبي وصناديقي الموسيقية، وألا أستيقظ أبداً، أو أستيقظ... في مكان آخر. وشاء القدر خلاف ذلك، وأنا أحيط علماً بقراره، وأنحني أمام مشيئته».

تهدَّج صوته تهدجاً سارع وسعل لإخفائه، قبل أن يتابع الكلام:

«ما دمت هناك، لم أكن قادراً على الرحيل. أما وقد أصبحت بعيداً، فلم يعد بوسعي العودة. إنني أشبه بشخص نجا من الغرق. كان يتعذر عليّ القفز من السفينة التي تغمرها المياه، أما وقد غادرتها، فلا يخطر ببالي أن أعاودَ الصعود إلى متنها. لقد طويت تلك الصفحة

بالنسبة إليّ أيضاً. لا بالنسبة إليّ فقط، أصلاً... فلن أطلعك على شيء جديد إذا قلت لك إن مشرقنا ميؤوس من شفائه».

لم أكن بالفعل في أفضل موقع لمجادلته، أنا الذي فارقت الوطن قبله. ولكن الحكم الذي أصدره ألبير كان قاسياً للغاية، ومبرماً للغاية؛ فشعرت بنفسي مضطراً للإعراب عن اعتراض مبهم، مع الحرص، رغم ذلك، على عدم تحويل مجرى الحديث، لكي يتسنى لصديقي متابعة كلامه.

«ثالثاً، لن أبقى في فرنسا. سأسافر إلى الولايات المتحدة. مع أنني أحب باريس، وأشعر فيها بالراحة. فبفضل السنوات التي أمضيتها لدى الآباء الأخيار، لا شيء في فرنسا غريب عني تماماً، وعنك أيضاً، كما أتصور... أما في ما يتعلق بما أعتزم القيام به، فعليّ أن أكون هناك، في أميركا، للقيام به. إنني أتردد فقط بين الاستقرار في نيويورك وكاليفورنيا. وسأحسم أمري لدى وصولي إلى هناك...».

لزم الصمت، وكأنه في مشاورة مع نفسه، بادرت أخيراً إلى مقاطعتها.

«ورابعاً؟».

«رابعاً، أظن أنني أعرف، بالضبط، وللمرة الأولى منذ ولادتي، ما أريد السعي لتحقيقه في هذه الحياة. وقد تطلب الأمر... كل ما جرى».

انتظرت. لم يضف شيئاً. فسألته، كما في أيام مراهقتنا:

«وما هو؟ ماذا تريد أن تصنع بحياتك؟».

«هذا لن أبوح لك به اليوم. ستعرف يوم أحققه».

كدت ألح عليه بالسؤال، ولكني عدلت عن ذلك. لم أشأ أن يتعهد ألبير أمامي بإنجاز أمور عظيمة، ومن ثم يتملكه الإحساس بأنه لم يكن على مستوى تطلعاتي. كان من الأجدى أن أدعه يرتقي المنحدر بهدوء، دون ضغوط، بوتيرته الخاصة.

أغلق آدم مفكرته، ونظر إلى ساعته. الساعة السابعة مساء، إلا دقيقتين. قرر الاتصال بسميراميس. أخبرته أنها ستمضي النهار في المدينة وتتصل به لدى عودتها، ولكنه كان يحرص على الاتصال بها أولاً.

سألها وهو يكلمها على هاتفها الخليوي إذا كانت قد عادت إلى بيتها.

«ليس بعد. أنا في الطريق. ولكن بوسعنا التحدث، فأنا لا أقود السيارة. هل تقدمت في عملك؟».

«أقل من الأيام السابقة، كنت أقل تركيزاً...».

«هذا بسببي، لقد شتتُّ تركيزك».

كان هذا صحيحاً على الأرجح، إنما سيكون من غير اللائق أن يعترف لها بذلك.

فاحتج قائلاً: «كلا، إطلاقاً».

ولكنها أضافت، كأنها لم تسمعه:

«كنت تتقدم في عملك، ثم جئت أنا وأقلقت راحتك. لا بد من أنك تحقد عليّ».

«حتى الموت!».

وضحك، وترك لعشيقته الوقت لتضحك بدورها قبل أن يضيف:

«عشنا لحظة رائعة لن ننساها. وهذا أهم ما في الأمر».

«رغم تأنيب الضمير؟».

«أجل، رغم تأنيب الضمير...».

«فهل نتعشى معاً هذا المساء أيضاً؟».

«هذا المساء أيضاً».

«وبعد ذلك، نتفارق؟

«كلا، لا نتفارق».

«أنعقد جلسة أخرى؟».

استعملت هذه الكلمة على الأرجح لأنها ليست وحدها في السيارة، وليس بوسعها أن تقول «ليلة أخرى». أما آدم، فلم يكن مضطراً من جهته إلى توخي الحيطة مثلها لأنه لوحده، في غرفته، بمأمن من الآذان الفضولية؛ ولكنه اختار التزام اللغة المشفَّرة نفسها.

«كلا، ليس جلسة ثانية، بل سنستأنف الجلسة الأولى. فالجلسة لم ترفع، على حد علمي...».

اليوم السادس

1

في الصباح، التقى العشيقان، مثل اليوم السابق، على الشرفة.

استيقظ آدم قبل سميراميس، ولكنه انتظر أن توافيه وتضغط بنفسها على الزر الذي يسمح بصعود صينية الترويقة إلى الطابق العلوي.

قالت: «اليوم دفن مراد»، وهي تتهيأ للإلحاح عليه من أجل العدول عن مقاطعته للمأتم. ولكنها فهمت، من نظرته، أن مسعاها لن ينفع. ففضلت أن تسأله إذا كان قد كتب إلى أصدقائهم القدامى لإعلامهم بنبأ الوفاة.

«هذا ما اعتزمت أن أفعله اليوم. خلال وجودك في المأتم، سأحرر ما يشبه النعوة إلى معارفنا المشتركين، وكذلك رسائل تتسم أكثر بطابعها الشخصي إلى صديقين أو ثلاثة أصدقاء مقربين، سأحدثهم فيها عن مشروع جمع الشمل الذي ترغب به تانيا».

ضغطت يد العشيقة بحنان على يده.

«لا بأس. على هذا النحو، تكون قد شاركت في المأتم، عن بعد».

خيَّمت لحظة صمت.

«وهل تعرف بمن ستبدأ؟».

أغمض آدم عينيه وهو يومئ إيماءة خفيفة برأسه، مسترجعاً على هذا النحو، بعد سنوات كثيرة من الفراق، الحركات المشرقية.

«أجل، أعرف».

كان من الواضح أن سميراميس تنتظر اسماً، فلم تحصل منه إلا على ابتسامة غامضة. فما كان منها إلا أن رفعت فنجان القهوة الذي تحمله، مثل البنت الشاطرة، لتقرعه بفنجانه وكأنما حلَّ المساء وهما يحتسيان الشمبانيا من جديد.

قالت له: «بصحة أصدقائنا المشتتين!».

أجابها آدم: «بصحة من بقي منهم على قيد الحياة!».

لم تكن عبارته موفقة. فشاب نظرة صديقته ظلٌّ حزين. ولكنها تمالكت نفسها على الفور، ورفعت فنجانها من جديد لتقول، بمزيج من المرح والحنان:

«بصحة من رحلوا!».

فتح آدم، لدى عودته إلى غرفته، النافذة التي تطل على الوادي على مصراعيها. واستغرق الوقت الكافي ليتنشق مطولاً ملء رئتيه العطر النفاذ لأشجار الصنوبر، قبل أن يجلس إلى طاولته ويرفع غطاء حاسوبه ليبدأ تحرير رسالته الأولى.

«العزيز الغالي ألبير،

أنقل لك عبر هذه الرسالة الإلكترونية نبأ مشؤوماً. يتعلق الأمر

بمراد. لقد توفي يوم السبت «على إثر مرض عضال»، كما يقال عادة. كان في التاسعة والأربعين، واليوم مأتمه.

في المرات الأخيرة التي تحدثنا عنه، لم نذكره بالخير. ولن يبدِّل موته رأينا، على ما أظن؛ ولكنه يرغمنا على تغيير موقفنا[...].

سيكون من دواعي سرور تانيا أن تتلقى منك رسالة. وهي تود أيضاً أن يجتمع أصدقاء الأمس لبعض الوقت إحياءً لذكراه. يبدو لي أن حفلاً يضم كلمات على شرف الميت سيكون غير مناسب ومحرجاً؛ وفي المقابل، ففكرة جمع شمل شلتنا القديمة من الأصدقاء بعد كل هذه السنوات تروق لي تماماً. فكر في الأمر! وسنعاود الحديث...

مع خالص مودتي

آدم».

بعد أن أرسل آدم هذه الرسالة، استعرض مفكرة عناوينه الإلكترونية فعثر على عدد من الأشخاص الذين كان على اتصال بهم في السنوات الأخيرة، «المعارف المشتركة» الذين ذكر أسماءهم توّاً أمام سميراميس. كانوا جميعاً «في المهجر»، كما يقول باقتضاب أولئك الذين لم يغادروا البلد.

أمضى وقتاً في صوغ النعوة التي كان يريد إرسالها لهم. وسعى لإيجاد النبرة الملائمة، التي تتراوح بين الهمس الحميم والبيان. وأخيراً، اكتفى، بدافع الإعياء، أو بدافع الكسل، باستعادة الفقرة الأولى حرفياً من رسالته إلى ألبير، ثم الجملة الأولى من الفقرة الثالثة، «سيكون

من دواعي سرور تانيا أن تتلقى منك رسالة» قبل أن يختتم قائلاً: «أرجو أن يكون حديثنا المقبل في ظروف أقل حزناً». ولم يضف أي تفاصيل أخرى. وضغط على زر «إرسال»!

نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الحادية عشرة تماماً، وهي الساعة المحددة للمأتم. فخشع لبضع ثوان، ثم عاد إلى بريده لئلا يطلق العنان لتأنيب ضميره. وكم كانت مفاجأته عظيمة إذ اكتشف أن ألبير قد ردَّ على رسالته، مع أنها الثالثة فجراً على الأرجح في ولاية إنديانا، أو من هذا القبيل.

«العزيز الغالي آدم،

طالعتني رسالتك لدى نهوضي من الفراش بسبب قلق يؤرقني.

تلقيت بمزيد من الأسى الخبر الذي نقلته لي، وسأرسل اليوم رسالة إلى تانيا. لم أكنّ لها سوى المودة والصداقة؛ أما مراد، فحتى إذا كان رأيي فيه يشبه رأيك بسلوكه في الحياة العامة، فلن أنسى أبداً ما فعله لأجلي إبان المحنة التي تعرفها. ولو لم يتصرف بحنكة، لما كنت خرجتُ منها حياً. ولهذا السبب، سيكون من اللائق أن أنحني – ولو بالفكر طبعاً – أمام جثمانه. وفي جميع الأحوال، لست حاقداً عليه في قلبي؛ ولا أندم سوى على تخبطه المعنوي الذي عانى منه في نهاية المطاف أكثر منك ومني.

أما عن فكرة جمع شمل أصدقاء الأمس، فهي بكل بساطة

تسعدني. لا تهم الظروف والذرائع. وأتساءل أصلاً عن السبب الذي دعانا إلى عدم التفكير في ذلك من قبل. وفيما أكتب لك هذه الكلمات، تتجلى الإجابة أمام ناظري. كان ذلك بسبب مراد. فالاجتماع به أصبح غير وارد، والاجتماع بدونه بلا معنى. ولو تابعت تحليلي، فسأقول إن وفاته هي الظرف المثالي الذي سيسمح أخيراً بلقائنا. إطمئن، لن أخبر تانياً شيئاً من هذا القبيل. فإذا كانت بحاجة إلى الاعتقاد أن ذكرى مراد هي التي ستجمع شملنا، فلندعْ لها أوهامها وما يواسيها!

فأنا موافق على جمع شملنا، وببالغ السرور. ولكن لا يمكن أن يحصل ذلك في «بلدنا». فبصفتي مواطناً أميركياً، لا يفترض بي أن أسافر إليه، كما تعلم. وبما أن المعهد الذي أعمل فيه لديه صلات بالبنتاغون، فالزيارة الخاصة ليست غير مستحبة فقط بل محظورة تماماً. آسف! لو شئت أن أنضم إليكم، فيجب أن يحصل اللقاء في بلد آخر. ويبدو لي أن باريس الخيار الأمثل، ولكني أرحب باقتراحات أخرى.

أما في ما يتعلق بالموعد، فأنا، في المقابل، مرن جداً، وسأتقيد بالموعد الذي تحدده، بشرط أن تعلمني به قبل بضعة أسابيع.

أرجو أن تحدده في القريب العاجل، لأني أتوق إلى لقاء أصدقاء الأمس، فقد انقطعت صلتي بمعظمهم منذ سنوات عديدة..

المخلص لك،

أ.».

أجابه آدم على الفور، بفقرة مقتضبة:

«شكراً ألبير لأنك تجاوبت بهذه السرعة! وأتفهم ظروفك. وبما أنه من غير الوارد أن نجتمع بدونك، فيلكن اللقاء في باريس إذن! وهو حل يناسبني تماماً، كما بوسعك أن تتصور. سأكلم الآخرين بهذا الشأن، وأقترح بعض التواريخ...مع المودة. آ».

وبعث الرسالة، ثم رد غطاء حاسوبه وفتح مفكرته عند الصفحة التي توقف عندها في اليوم السابق.

لطالما عرفت أن المعهد الذي يعمل فيه ألبير «مجمع فكر» هام، منذ عقود عديدة، للعسكريين الأميركيين، مع أنه لم يحدثني عن ذلك بصراحة قبل هذا اليوم. وهذه المسألة من قبيل المفارقة، بالنسبة إلى صديقي الذي لم يكن مسيَّساً، بما لا يرقى إليه الشك، إن لم أقل الغرابة. ولم يصل إلى ذلك الموقع إلا بالتفافة، إنما بالتفافة منطقية.

عندما أسرّ لي في باريس، منذ أكثر من عشرين عاماً، خلال ترويقتنا العرمرمية، بأنه يعرف من الآن فصاعداً ما سيفعله في حياته، كان قد سمع توّاً باختصاص علمي جديد لطالما استهواه، وهذا الاختصاص هو علم المستقبليات. لا العرافة، ولا التنجيم، أو قراءة الكف التي لم تثر اهتمامه قطّ؛ ولا الخيال العلمي فقط، الذي كان يروقه كقارىء، والذي لم يكن يستبعد أن يخوض غماره يوماً كمؤلف، إنما اختصاص

حقيقي، يعهد به إلى «باحثين رأسهم في النجوم وأقدامهم على الأرض»، كما سيصفه لي بنفسه.

وخلال الفترات الأولى من إقامته في الولايات المتحدة، كانت أخباره قليلة. بعث إليّ رسالة لدى وصوله إلى هناك؛ واتصلت به على رقم هاتف في نيويورك أعطاني إياه؛ ومن ثم، انقطعت أخباره. استأنفت مسار حياتي، وانهمك هو في بناء مسار حياته.

ولم أعرف سوى في عام 1987 ما آل إليه. كنت أقرأ مقالاً عن «مستقبل النفط» في مجلة مرموقة متخصصة في السياسة الدولية حين اكتشفت، في إحدى الحواشي، إشارة تشيد بأبحاث ألبير ن. ڤيثار عن مفهوم «البقعة العمياء». ولحسن الحظ، ذكرت الحاشية اسم المعهد الذي نشر هذه الأبحاث، ومقره في ولاية إنديانا. فبعثت على الفور، على العنوان المذكور، رسالة إلى صديقي، بدون أن أكون متأكداً من أنها ستصله. ولكنه تلقاها بسرعة نسبياً، على ما أظن، لأنني تلقيت جوابه بعد أسبوعين.

«العزيز الغالي آدم،

لا يسعك أن تتصور اللهفة التي فتحت بها رسالتك، ومدى تأثري بأن بعضاً من أصداء أبحاثي قد تناهى إلى مسمعك.

لا تخطئ الظن، فأنا لم أخترع أي نظرية بارزة، ولم أصبح من المشاهير. فمفهوم «البقعة العمياء» أو blind spot، مجرد أداة تفكير،

أدعوه بمصطلحاتنا digging tool، أي أداة للتنقيب. وهي ليست أكثر من ذلك، وليس في الأمر ما يثير العجب، كما سترى.

خطرت ببالي هذه الفكرة أيام المدرسة. كنا نتحدث في الصف عن «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» الذي أقر إبان الثورة الفرنسية. وسأل أحد التلاميذ إذا كانت النساء مشمولات به، وفي هذه الحالة، كيف يمكن تفسير عدم حصولهن على حق التصويت في فرنسا إلا غداة الحرب العالمية الثانية؟ فأجاب الأستاذ بأنهن في الواقع غير مشمولات بهذا التأكيد للمساواة أمام القانون، إنما ليس بوسعنا الاستنتاج بأن القرار اتخذ عمداً بإقصائهن. فهذا الجانب من الواقع، كما قال لنا، كان لا يعقل بكل بساطة، و«يخفى» على البشر في ذلك العصر.

أثـارت هذه المسألة فضولي، وحين بدأت أهتم عن كثب بالاستشراف وعلم المستقبليات، أدركت أنه من الجوهري أن يتذكر المرء على الدوام بأن البشر يعجزون، في كل عصر من العصور، عن رؤية بعض الأمور، ويشمل ذلك عصرنا، بطبيعة الأحوال. إننا نرى أموراً لم يرها أسلافنا؛ ولكن ثمة أموراً كانوا يرونها ولم نعد نراها؛ وثمة على وجه الخصوص أمور كثيرة سيراها أسلافنا ولا نراها نحن بعد، بما أننا لدينا، نحن أيضاً، «بقعنا العمياء».

والتلوث من بين مئات الأمثلة التي أسوقها لتوضيح فكرتي. فمنذ بداية الثورة الصناعية، عجز البشر كلياً عن الإدراك بأن وجود المصانع قرب الأحياء الحضرية قد يشكل خطراً جسيماً على الصحة؛ فقد كانت

لديهم هواجس وأولويات أخرى حينذاك. ولم تدخل تلك المسألة حقلنا البصري إلا منذ نحو أربعين عاماً. والمثال الآخر على ذلك، في الميدان نفسه، الفكرة التي مفادها أن الموارد البحرية محدودة، وأنها قد تستنفد، وأنه لا بدَّ من صونها. ومنذ بضع سنوات، كانت مثل تلك الفكرة «خفية»، إلا لقلة قليلة جداً من «الاستشرافيين»، تحديداً، ولذلك فأصواتهم لم تكن مسموعة لدى معاصريهم.

وأسارع فأضيف بأنني لست من اخترع مفهوم «البقعة العمياء»، فهناك مؤرخون وعلماء نفس وعلماء اجتماع يتحدثون عنها منذ أمد بعيد. ومساهمة صديقك ألبير محددة للغاية، ومتواضعة. فمنذ أربع سنوات - لم يكن معهدنا قد انتقل بعد إلى إنديانابوليس -، طلبت مني جامعة في ولاية نيويورك أن أتولى حلقة دراسية للتعريف بعلم المستقبليات. وفي نهاية الفصل الدراسي، طرحت على الطلاب سؤالاً واحداً كان يُفترض أن يشكل موضوع أطروحتهم. وبادرت إلى صوغه كما يلي تقريباً:

لدى جميع العصور بقعتها العمياء، وعصرنا لا يشكل استثناء لهذه القاعدة. ثمة جوانب من الواقع نعجز عن رؤيتها، ولا مفر من أن يتساءل كل منا، بعد عدد من السنوات: «كيف أمكنني ألا أرى ذلك؟» وسأطلب منكم على وجه التحديد أن تستشرفوا المستقبل، وأن تحدثوني عن «بقعة عمياء» يتعذر علينا للغاية رؤيتها اليوم، وسوف تبدو لنا بديهية بعد ثلاثين عاماً.

ولم تخلُ أطروحات الطلاب من الإجابات المثيرة للاهتمام؛ وأذكر أن أحداها ذكرت أن الأجيال القادمة لا بد من أنها ستعرب عن استهجانها حين تعرف بأن ملايين الحيوانات في عصرنا كانت تذبح في المسالخ، وأن معظم أبناء جنسنا كانوا يعتبرون ذلك الأمر طبيعياً - وأظن أنها رؤية متفائلة أكثر من اللازم، عن مستقبل جنسنا البشري...

إلا أن هذا النهج راق لبعض المديرين في معهدنا. بل لقد أصبح الامتحان الإلزامي خلال مقابلات توظيف الباحثين الجدد. «قل لي كيم! إنني متأكد بأن لدي، أمام ناظري، مسألة هامة تخص مستقبل آسيا - أو أوروبا، أو النفط، أو المجال النووي، الخ. - ليس بوسعي أن أتبينها. هل يمكن أن تقول لي ما هي؟». من المستحيل الرد على الفور، ولا بد بالضرورة من البحث الدقيق لاستشراف ما بوسعنا رؤيته من النظرة الأولى. ومن هنا جاءت عبارة «أداة تنقيب»...

هذا ما أتسلى به منذ بضع سنوات، فيما يظن الجميع أنني أعمل!

وأنت، ما هي أخبارك؟ لم تخبرني شيئاً يذكر عن حياتك، وعملك، ومشاريعك، الخ. وستضطر إلى كتابة رسالة ثانية.

المخلص لك،

ألبير».

منذ تبادلنا هذه الرسائل، بقينا على اتصال. في زمن الرسائل التي عليها طوابع، كنا نتراسل مرة في السنة؛ ثم، وفي عصر البريد

الإلكتروني، تسارعت وتيرة مراسلاتنا إلى حد كبير. وقلما تنقضي أسابيع حالياً ولا نتبادل الرسائل عبر الحاسوب. في بعض الأحيان، يكون هذا التبادل في منتهى الاقتضاب، مجرد مقال قرأه توّاً أحدنا، وأراد أن يطلع الآخر عليه، مرفقاًبكلمة - أجل، كلمة واحدة، «مذهل»، أو «مقلق»، أو بكل بساطة «مع مودتي»؛ وموقعاً بحرف وحيد. «أ»، وهو الحرف الأول لاسمي واسمه.

احتفظت بأثر مراسلاتنا الورقية بصورة منهجية حين تعلق الأمر بالرسائل التي تلقيتها، وبصورة أقل مثابرة بالنسبة إلى رسائلي التي لم أحتفظ عنها جميعاًبنسخة قبل أن أرسلها بالبريد. أما البريد الإلكتروني، فالاحتفاظ به أصعب. فالمراسلات محفوظة بصورة منهجية مبدئياً؛ وفي الواقع، كلما لفظ أحد حواسيبي أنفاسه، واضطررت لتغيير «عنوان المراسلة»، ضاعت وثائق كثيرة.

ولكن القلق لا يساورني بسبب ذلك. أفلست مضطراً على الدوام، بصفتي مؤرخاً للعصور القديمة، للعمل على أجزاء وأطلال؟ وبالمقارنة، يتسم ما لدي لإعادة تشكيل الماضي الخاص بي بوفرة مذهلة، سواءٌ تعلق الأمر بذكرياتي الشخصية أو بالوثائق التي احتفظت بها. ولكن مأساتي تكمن على صعيد آخر -إنها تكمن في تلك الإعاقة الذهنية التي تستبعد عالمي الحميم عن كتاباتي العامة وكأن ليس بوسعه سوى التقليل من شأنها.

2

بعد أن نقل آدم على النحو الواجب في مفكرته مقتطفات طويلة من رسالة صديقه القديمة، عاد فاستلقى على سريره للخوض مجدداً في مراسلاته الماضية، متنقلاً من مغلف إلى آخر. كان يستمتع بهذه القراءة، ويرغب بالغوص فيها ونسيان الوقت. ولكن تأنيب الضمير كان يطغى في نهاية المطاف. فحالما يحيد قليلاً عن العمل الذي يُفترض به أن ينجزه، يبادر إلى تقريع نفسه.

وفي هذا اليوم، انتزع نفسه بسرعة شديدة، بأسرع مما ينبغي، من خدره اللذيذ، ليعود فيجلس أمام شاشة حاسوبه ويشرع في كتابة الرسالة الهامة التي كان يعتزم كتابتها في يوم العزاء هذا.

«العزيز الغالي نعيم،

أكتب هذه الرسالة لأنقل إليك خبراً حزيناً: لقد توفي مراد بداء السرطان. واليوم كان مأتمه [...].

لا أدري إذا كنت قد بقيت على اتصال به. أما عن نفسي، فلم أعد أكلمه منذ سنوات عديدة، كما سبق لي أن أخبرتك؛ ولكنه اتصل بي هو وزوجته يوم الجمعة الماضي، لإبلاغي بأنه في النزع الأخير، ويرغب

برؤيتي. وقد سافرت في مساء اليوم نفسه، ولكنه توفي في الليل بدون أن تسنح لنا فرصة الكلام.

أعتقد أن تانيا ستسر بتلقي رسالة منك. وهي تود أيضاً أن يجتمع شمل أصدقاء الأمس بهذه المناسبة. وهي فكرة رائعة بحد ذاتها، بصرف النظر عن الظروف. فما رأيك؟ وهل لديك اقتراحات بخصوص المكان والزمان؟ إنني أفضل باريس، ولكني أرحب بجميع الاقتراحات.

مع خالص المودة،

آدم».

استرجعت اتصالاتي بنعيم، مثلما فعلت مع ألبير، من باب المصادفة؛ فخلال بضع سنوات، ظلت مراسلاتنا فصلية؛ ثم صار تدفقها متواصلاً بفضل البريد الإلكتروني.

أما في حالته، فقد حصل ذلك في مرحلة متأخرة، منذ عشر سنوات لا أكثر؛ وبالأسلوب نفسه تقريباً، إلا أنني لم أعثر على أثره، بل هو الذي عثر على أثري.

كنت قد نشرت تـوّاً مقالاً عن أتيلا في مجلة تاريخ شهرية خصصت عدداً لموضوع «الغزوات البربرية»، ولم أتوقع أن يقرأني أحدهم خارج حدود فرنسا. فلكم كانت مفاجأة سارة لي حين أحال لي ناشر المجلة رسالة من أحد القراء تحمل طابعاً برازيلياً. ولم يكن

ظهر مغلفها يحمل سوى الأحرف الأولى لمرسلها، ومطلع الرسالة لا يشي بشيء كذلك.

«سيدي البروفسور،

أكتب أولاً لأشكرك على ما أطلعني مقالك من معلومات عن شخصية أتيلا. يظن المرء أنه يعرف شخصية تاريخية، ويكون لديه فكرتين أو ثلاث أفكار جاهزة عنها، بل ويجيز لنفسه أحياناً أن يتخذ منها مثالاً على آرائه. وعلى حين غرة، وفي معرض إحدى القراءات، يكتشف بأنه لم يكن يعرف شيئاً عن شعب الهون ولا عن عصره. والأسوأ من ذلك أنه يعلم بأن المعلومات القليلة التي يعرفها تقريبية للغاية، وشديدة الإبهام، فيضطر للتسليم بأنها مغلوطة بكل بساطة.

ألم يخطر ببالك يوماً، سيدي البروفسور، أن تكتب سيرة هذه الشخصية؟ بصفتي قارئاً، أشجعك على القيام بذلك بشدة. وإذا راق لك اقتراحي المتواضع، وقبلت بتأليف هذا الكتاب، فأرجو ممتناً أن ترسل لي نسخة مهداة منك على العنوان التالي:

Naim E.,[...] Avenida Ipiranga, Sao Paulo, Brasil.

ملاحظة: كلا، هذا ليس مجرد تشابه أسماء».

كنت أود بالطبع أن أعانقه للإعراب عن فرحتي بالعثور عليه، وللسؤال عن أحواله. ولكني تريثت. فاحتراماً لذهنية شلتنا القديمة، كان من واجبي أن أرد عليه بالنبرة التي اعتمدها. فحين يخوض أحدنا

في إخراج متفنّن، يجدر به أن يحافظ على رصانته أطول وقت ممكن، وأن يعزز اللبس بصبر وأناة لدى الآخرين، وأن يدع الغموض يسود، وأن يحرص أشد الحرص على عدم الانفجار ضاحكاً لدى مخاطبة الآخرين. وفي هذه اللعبة، كان الفائز بيننا من يضحك أخيراً.

فجاء ردي على النحو التالي:

«صديقي القارىء،

سررت للغاية برسالتك. لا ريب أن أتيلا من أكثر الشخصيات التاريخية التي يجهلها الناس. وحين يحدث لي أن أقول، في حلقة دراسية، – وأعترف أنني أفعل ذلك بدافع الاستفزاز قليلاً – إنه جد أوروبا الحديثة، يتخيل بعض المستمعين أنني أنا المشرقي أحاول إهانتهم.

ما أغرب اقتراحك لي بأن أكتب سيرته! فلقد تحدثت في الأمر توّاً مع ناشر باريسي، قبل أسبوع من تلقي رسالتك، ولقد أعطاني موافقته. لدي كل الوثائق، ومخطط الكتاب جاهز، ويجدر بي تأليف الكتاب في غضون أشهر قليلة. وسأكون حريصاً على إرسال نسخة منه لك فور صدوره.

والحل الآخر هو أن تأتي بنفسك لاستلامه من عندي، على العنوان التالي:

Adam W.,[...] rue du Cherche-Midi, Paris Ve.

ملاحظة: بمناسبة زيارتك، وحتى لو لم يكن الكتاب قد صدر بعد، أدعوك لتناول الطعام الذي سيتبعه فنجان قهوة تركي».

باختيارنا وصل ما انقطع على هذه الشاكلة بعد ستة عشر عاماً من الفراق، استرجعنا في الحال انسجامنا على المستوى الذي كان عليه أيام الجامعة، قبل اندلاع الحروب المحلية الأربع أو الخمس الأخيرة، قبل تشتتنا المشؤوم.

وفيما بعد، قلما تراسلنا ورقياً. فقد تبادلنا العناوين، كذلك أرقام الهواتف، وتكالمنا أحياناً. ولكن الهاتف خبيث، مخادع. يضع بين المتكلمين قرباً زائفاً؛ يشجع الآنية والسطحية؛ والأسوأ، عند مؤرخ مثلي، أنه لا يترك أي أثر.

ولحسن الحظ، خلال السنوات الثلاث الأخيرة، قررنا، أنا ونعيم، اعتماد المراسلة الإلكترونية. ومنذ ذلك الحين، ومثلما حصل مع ألبير، نتراسل بانتظام.

سألني مرة أو مرتين أين وصلت في إعداد سيرة أتيلا. واضطررت للإجابة بأنها لا تزال في المرحلة نفسها – أي في طور الإعداد، أي تراوح مكانها بعبارة أخرى.

أكانت فكرة غير موفقة منذ البداية؟ لا أظن. حين كتبت المقال الذي أشار إليه نعيم، كان يتملكني حقاً الشعور بأن الكتاب في أطراف أناملي. كنت أشعر بأنني قادر على سرد حياة أتيلا من المهد إلى اللحد

بدون حتى أن أرجع إلى ما دونته من ملاحظات. كنت أعرف أسماء زوجاته ومسار مختلف مستشاريه. ولا يجدر بي أصلاً أن أتكلم عنه بصيغة الماضي، فلم أنس من ذلك شيئاً. ولكن تبين لي أن الانتقال من النص الموجز إلى النص الطويل مسألة شائكة.

يكفي لكتابة مقال أن يكون لدى المرء بعض الأفكار القوية؛ أما في كتابة السيرة، فيجب أن يظهر المرء استفاضة، وألا يلقي بالاً لانتقادات أهل الاختصاص. فحين أقول، على سبيل المثال، إن الخصم الرئيسي لأتيلا، قائد القوات الرومانية، فلافيوس إيتيوس، لم يكن مجهولاً بالنسبة إليه، بل صديق الطفولة، وذلك لسبب منطقي وهو أن «وباء الله» قد أمضى فترة المراهقة في إيطاليا نفسها، في البلاط الإمبراطوري، وليس في سهوب آسيا الوسطى؛ أو حين أزعم بأن تردده في شن هجوم على روما يعزى إلى أنه لم يكن يتطلع إلى تدمير المدينة ولا نهبها بل إلى أن يتوج امبراطوراً، كما سيصبح، بعد أربعة مئة عام، قائد آخر خرج من رحم الغزوات البربرية، وهو شارلمان – وقد يحدث ذلك وقعاً مذهلاً في مقال، أو في مؤتمر. أما لكتابة سيرة بكل ما للكلمة من معنى، فلابد من التوسع في كل من هذه التأكيدات بواسطة مستندات داعمة، وتحليل مقنع، وشهادات معاصرة، وهذه ليست بالمهمة اليسيرة بعد انقضاء ألفية ونصف على الوقائع.

لن أعدل عن كتابة تلك السيرة، ولا أزال عاقد العزم على كتابتها!

3

على غرار ألبير، ردَّ نعيم بسرعة فائقة على رسالة النعوة التي أبلغته فيها بوفاة مراد. فبما أنهما يعيشان في الأميركتين، الأول في الولايات المتحدة، والثاني في البرازيل، فقد تلقيا الرسالة في الصباح الباكر، قبل الذهاب إلى عملهما؛ ولكن قلما تمر ساعات في النهار ولا يكون البريد الإلكتروني فيها أمام ناظري المرء، أو في جيوبه.

«العزيز الغالي آدم،

أغرقتني رسالتك في حزن غير متوقع. لم أظن بأني سأفجع على هذا النحو برحيل شخص لم أفكر فيه منذ سنوات عديدة. ولكني أفترض أن الأمر لا يتعلق به بقدر ما يتعلق بالمرحلة التي يعيدني إليها ذكر اسمه، وهي أكثر مراحل حياتي سعادة.

أحتفظ حتى اليوم بذكرى آخر سهرة أمضيتها في البلد – كل أولئك الأصدقاء المجتمعين في بيت مراد القديم، حول الموقد، والذين كانوا يتعاهدون بأنهم لن يفترقوا، فيما كانت دروبهم قد تباعدت، والأحداث قد بدأت بالفعل تشتتهم في جميع أنحاء المعمورة...

وأنا أخط هذه الكلمات، يخيل لي أنني أرى وجوههم ثانية، وجهاً

وجهاً [...]. وأعيش مجدداً معضلتي في تلك الليلة: أكان يجدر بي أن أصارحكم بأنني سأرحل في الغد إلى غير رجعة، في حين وعدت والدي بعدم إفشاء مخططاتهما؟ ولكني حكيت لك كل ذلك من قبل...

سأكتب إلى تانيا اليوم. أحسنت بإرسال عنوانها لي. منذ رحيلي عن البلد، لم يحصل أن اتصلت بها، ولا بمراد، بدون أن يكون قد وقع بيننا أي خلاف أو خصام. فقد انقطع الاتصال بكل بساطة، بين عشية وضحاها. وعادة نقول إن الحياة فرقت دروبنا. وفي غياب تعبير أفضل، فهذا ما سأقوله ...

أما بالنسبة إليك، أعرف أن الأمر كان مختلفاً. قلت لي يوماً إن أخبارهما انقطعت، وإنك لا تعتزم رؤيتهما مجدداً، فاستنتجت على الفور بأنكم متخاصمون. ولكنك لم تذكر أي تفاصيل أخرى... بلى، أذكر الآن أنك لمحت مرة أو مرتين إلى «أفعال» مراد، بدون إعطاء المزيد من التوضيحات. لوددت لو توضح لي يوماً ما حصل بينكما، وما تلومه عليه؟ لست في عجلة من أمري، ولكني أرغب بمعرفة ذلك بدافع الفضول؛ فأنا أذكر أنكما كنتما من أعز الأصدقاء! صحيح أن ذلك كان منذ... دعني أحسب...سبعة وعشرين عاماً. يا إلهي، كم يثير ذلك الإحباط! لا بأس، فنحن أحياء نرزق، وبوسعنا استحضار الذكريات، والانسياق وراء مشاعر التأثر [...]

قبلاتي الأخوية،

نعيم».

بعد أن قرأ آدم الرسالة، وأعاد قراءتها، شرع في الإجابة عنها في الحال، بشيء من الحماس المحموم.

«ألف شكر يا نعيم على جوابك الفوري! لقد أحيا ما تقوله عن البيت القديم في نفسي كذلك ذكريات كثيرة. الموقد، والنبيذ الدافئ، وكذلك الشرفة، تذكر! أجل، وبالأخص الشرفة التي كنا نشعر فيها بأننا نشرف على الأرض بأسرها، ونتحكم بالمستقبل. فسأجيب بدون مماطلة عن تساؤلك المشروع للغاية بشأن مراد، وموقفي منه، وأسباب خصامنا.

منذ وقت بعيد، اعتدت الحديث عن «أفعاله»، وعن «تصرفاته»، وعن «أخطائه التي لا تغتفر»، بدون أن أكرس أبداً الوقت الكافي للقيام بما كان يجدر بي القيام به، بصفتي مؤرخاً، لو تعلق الأمر بشخصية من «حقبتي» الرومانية، أي صوغ اتهاماتي المحتملة بإنصاف، وبسكينة، وإن كان رأيي قد استقر في قلبي.

فسأبدأ من البداية، وأعتذر مسبقاً لو استفضت في الحديث عن تفاصيل لا تخفى عليك.

على هذا النحو، أنت لا تجهل، على ما أظن، بأن هذه الدار الفسيحة والقديمة التي نتحدث عنها حتى اليوم، أنت وأنا، وقد اغرورقت عيوننا بالدموع، لطالما كانت موضع منازعات كثيرة، يعود بعضها إلى العهد العثماني. فوالد جد مراد، ثم جده، ثم والده، أمضوا حياتهم من دعوى

قضائية إلى أخرى. ولن أخوض في التفاصيل، فسيبعث الأمر على الملل، ولن يسعني القيام بذلك في جميع الأحوال. وسأكتفي بأن أقول لك ما يلي: لقد اشتروا، على مر السنين والأجيال، أراضي شاسعة في ضيعتهم وحولها؛ وأكثر من مرة، اكتشفوا، في مرحلة لاحقة، أن الشخص الذي عقدوا معه الصفقة لم يكن مخولاً البيع، وأن قطعة الأرض تخص في الواقع أحد الجيران، أو أن البائع لم يكن المالك الوحيد، وأن لديه إخوة وأخوات وأقارب، أحياناً كثيري العدد، يجب أن يحصلوا على نصيبهم من مبلغ الصفقة، وأن بعضهم لم يكن ينوي البيع على الإطلاق. فأعقب ذلك دعاوى لا نهاية لها...

ومن بين جميع المنازعات التي ورثها صديقنا، كانت هناك واحدة تخص البيت القديم، على وجه التحديد. وأعفيك من التفاصيل وأصل إلى بيت القصيد، إلى ما كان يسمم حياته منذ أن عرفته: كانت هناك عائلة في الضيعة تؤكد أن جناحاً من بيته – ذلك الذي توجد فيه بالتحديد «شرفتنا» – قد شُيِّدَ بصورة غير مشروعة على أراضيها، بل لقد حصلت على قرار من القضاء بهذا المعنى.

أتذكر يا نعيم ذلك المبنى القبيح المبرقش على مدخل الضيعة، بحديده المطروق الفستقي وأشرطة المصابيح الزاهية الألوان التي تزينه، وبعض الصبية المرتابي النظرات الذين يلعبون بالكرة وسط الطريق، ولا يفسحون المجال لكي تمر سياراتنا إلا بتباطؤ شديد! كانوا هم الأعداء اللدودين الطامعين بالبيت القديم!

على الـورق، هم من عائلة مراد، ولكن فرعهم يلقب باسم «الزنود»،وهو تلميح، على ما أظن، إلى قوتهم البدنية؛ وكان يحلو لصديقنا أن يدعوهم بالفرنسية:

.les fiers-a-bras

وكان لديه نحوهم موقف ازدرائي، لا بد من اعتباره شعوراً بالطبقية. ففي الضيعة، كان الجميع مرتبطين بصلة الرحم، ولكن الفرع الذي ينتمي إليه مراد يعتبر نفسه أرفع مكانة. ولطالما صدمتني هذه المسألة. وحتى في الفترة التي كان صديقنا يجاهر بأنه يساري ويتحدث عن المساواة، لم يجد حرجاً من الإعراب عن ازدرائه نحو أولئك الأقارب الفقراء.

كلا، «فقراء» ليست على الأرجح الصفة المناسبة. فبعض «الزنود» اغتنوا، ولكن مركزهم لم يتغير بسبب ذلك جذرياً – لأنهم لم يستقروا في المدينة؛ ولأن الآباء لديهم ليسوا محامين، أو أطباء، أو مهندسين، أو مصرفيين؛ ولأن أبناءهم لم يدرسوا في الجامعة؛ الخ. ولكن مراد لم يقبل الإقرار بأن ذلك هو الفرق الأساسي. كان يبرر عداءه لهم بأنهم يزوجون بناتهم في سن السادسة عشرة؛ وبأنهم يبيعون أصواتهم في الانتخابات لمن يدفع أكثر؛ وبأنهم يعيشون من السرقات والاختلاسات.

ابتسمت، وأنا أقرأ مجدداً ما كتبت. لقد سمحت لنفسي بأن أسخر من سوء نية صديقنا وعقليته الطبقية، في حين استرسلت، لدى وصفي

لأولئك الناس، في أحكام مسبقة مماثلة. فبما أن أبي مهندس معماري وأمي مصممة ديكور،، أعرب عن ازدرائي لأولئك الناس بعبارات جمالية، هازئاً من بيتهم المبرقش وحديدهم المطروق الفستقي، إخفاءً لحقيقة لطالما تسببت لي بالإحراج، وهي أن لدي، بدوري، ومهما قلت، عقليتي الطبقية. لطالما شعرت بالنفور من الأغنياء والفقراء على السواء. ووطني الاجتماعي يقع في منزلة بين المنزلتين. لا منزلة المنعَّمين ولا منزلة السائلين. إنني أنتمي إلى تلك الطبقة الوسطى التي بوسعها أن تنظر إلى العالم نظرة متبصرة، بما أنها لا تعاني من قصر نظر الأثرياء ولا عمى الجائعين».

توقف آدم عن الكتابة، مضطرباً لا شك بسبب استطراده، وأغمض عينيه، لينتقل بفكره إلى ضيعة مراد في ذلك النهار الجنائزي وليتخيل النعش، وأكاليل الزهور، والحشود، والمقبرة، والقبر المحفور، والتدافع، والنساء المتشحات بثياب الحداد. ثم كشح تلك الصور ليتذكر صوراً أقدم عهداً، على الشرفة الكبيرة، أو في البهو الصغير، حول الموقد، في الماضي، في حياة سابقة، حياة ولَّت.

فحمله ذلك إلى شاشته، إلى الرسالة التي كان يكتبها.

«ولكني أكتفي بهذا القدر من الاعترافات المخزية للرجوع إلى صديقنا المسكين، وإلى تلك المنازعة التي لم تكن تفارق ذهنه قطّ.

أما أنا فكنت أمتنع عن سؤاله بشأنها. كنت أعرف أنه سيقضي بقية

النهار، لو سألته أبسط سؤال، وهو يتذكر ويجتر. وكنت أدرك أيضاً أن لا فائدة ترجى من أي حديث عن هذا الموضوع، لا بل أن ذلك سيكون بمثابة مشاكسة تقريباً. أين أصبح منها؟ لم يصل إلى أي حل، حُكْماً. فعندنا، كما لا يخفى عليك، في مثل هذه القضايا، لا تحسم الأمور نهائياً على الإطلاق؛ وتظل الأمور تتعقد، وتتكاثر المستندات وتتناقض، وتتكثف الملفات وتزداد سماكة. ثم يموت المرء، ويترك الدعوى لورثته...

كان مراد مقتنعاً بأن قلب والده توقف عن الخفقان في سن الرابعة والأربعين بسبب هذا الهم الجاثم أبداً فوق صدره، وهو همٌّ اضطر أن يحمله بدوره، منذ الطفولة. ولو شاء بدوره إزاحته عن صدره، فلم يكن يعرف كيف يتصرف. كان البيت القديم بالنسبة إليه أكثر من مجرد عقار يملكه، كان يجسِّد مركزه، وسمعته، وشرفه، وولاءه لأهله – أي أي باختصار، علة وجوده. ولم يكن بوسعه أن يقبل بخسارته. ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ به إلا بعد معركة مضنية.

ومن الواضح أن تلك الدعوى كانت دوماً الصدع في درعه. وبالفعل سيتسلل الشؤم والعار من خلال هذا الصدع.

ولا بد من القول إن الحرب اندلعت في تلك الأثناء. وبدونها، لكان الوقت انقضى بالبطء العثماني نفسه، وظلت الخصومة القروية خصومة قروية.

وعوضاً عن ذلك، منذ بداية الحرب، تداخلت المنازعة المحلية،

إذا ما جاز لي القول، بالمنازعات الأوسع نطاقاً. فتسلح خصوم مراد، وانتسبوا إلى حركة سياسية كانت رائجة، وفي يوم من الأيام، انتهزوا الفوضى المستشرية في البلد، واحتلوا البيت القديم.

كان رئيس العشيرة شاباً في الخامسة والعشرين، أهوج، وشرس الطباع، مع أنه مجاز في الحقوق. كان يدعى شامل، إذا لم تخني الذاكرة، ويلقب نفسه «جاغوار»، في إشارة لا للفهد، بل للسيارة التي اشتراها – أو ربما «استولى» عليها.

وليس من الصعب عليك أن تتخيل بأن مراد جُن جنونه. وراح يقول لمن حوله بأنه سيقتل ذلك الأرعن بيده. فقد كان الأمر بالنسبة إليه بمثابة نهاية العالم. فلا مجال للتراجع، أو المهادنة، أو حتى التريث. كلمته هاتفياً بعض الأحيان في تلك الفترة، لمحاولة تهدئته، وإقناعه بعدم ارتكاب حماقة، إنما عبثاً حاولت. وعندما رأى أنني ألح عليه، قال لي بكل بساطة، بالفظاظة التي كانت تبدر منه أحياناً، إن كل هذه المسألة ليست من شأني، وإن الأمر يتعلق ببيته هو، وبإرثه، وبممتلكات عائلته، وإنني مجرد مغترب، لا صلة لي بالوقائع على الأرض. فتوقفت عن المناقشة، وقلت له إنني لن أزعجه بعد اليوم.

لم أعرف ما كان مراد يخطط القيام به لاسترجاع بيته...».

توقف آدم عن الكتابة بسبب رنين هاتفه المحمول. كانت سميراميس تتصل به تحديداً من البيت القديم.

«انتهى المأتم، ولكن لا يزال يوجد الكثير من الناس. ثانيا لا

تتوقف عن مصافحة الأيدي، وأنا بدوري. يراني الناس بجانبها، فيظنون أنني من أفراد العائلة. ولم أفلح في الانسحاب قليلاً إلا في هذه اللحظة، قليلاً، للاتصال بك. وفي هذه اللحظة بالذات، أنا متكئة على حافة الشرفة، في الزاوية التي كنا نجلس فيها».

«ربما كان يجدر بي مرافقتك في نهاية المطاف...».

«لا تندم يا آدم! لم تكن ستتحمل ذلك. الموكب، والمأتم، والكلمات، والأكاذيب، والصف الطويل من المعزين، والجثمان الذي يوارى الثرى في المدافن تحت شمس الظهيرة... إنه عذاب حقيقي! وصلت منذ أكثر من خمس ساعات، ولم أتحرَّر بعد. حين وصلت، قلت لنفسي: سأقبِّل تانيا، ثم أتوارى عن الأنظار في أول فرصة سانحة. ولكنها عانقتني، حالما لمحتني، ولم تتركني. لعلّي أذكرها بأجمل فترة في حياتها. فحين تعرفت إلى مراد، كانت شلتنا متحمسة، ساذجة، ومتضامنة. عندما كنا نذهب لتناول العشاء والمناقشة في مطعم «القانون المدني». عندما كانت الأحلام كلها مسموحة... بالطبع، لم تتعلق بي إلا لأنك ولأن الآخرين غير موجودين. ولذلك أتصل بك. لقد أحسنت بتجنب المأتم، إنما يستحسن أن تأتي ولو لزيارة مقتضبة».

«الآن؟».

«كلا، ليس في الحال، فالبيت لا يزال يغص بالمعزين. بل تعال قرابة الثامنة والنصف مساء، فسيكون البيت قد فرغ منهم تقريباً. وستسر تانيا لرؤيتك».

«ألا تظنّين أنها ستكون مصابة بالإعياء، بعد هذا النهار؟»

«بلى، ستكون مصابة بالإعياء والإرهاق. وهي كذلك بالفعل. ولكنها ستشعر بالتعزية إذا رأتك».

«سأفكر في الأمر».

«كلا، لا تفكر. لدى شقيق فرنسيس، مدير الندلاء، سيارة، وهو يشتغل عليها تاكسي بين الحين والآخر، عندما يريد أحد النزلاء توصيلة. سأتصل به، واسمه كيوان، وسيمر لاصطحابك. فلنقل حوالى الثامنة مساء، أيناسبك ذلك؟».

لم يكن ذلك سؤالاً حقاً. فما كان من آدم إلا أن رد عليها بتنهيدة طويلة، ولكنها كانت تنهيدة استسلام.

وعلى الفور، عاد للجلوس أمام شاشة حاسوبه.

«فيما كنت أكتب لك، عزيزي نعيم، هذه الرسالة المطولة، اتصلت بي سمي التي ذهبت لحضور جنازة مراد – من الشرفة، أجل من «شرفتنا»!– لتطلب مني أن أبقى بضع دقائق مع تانيا هذا المساء. وستمر سيارة لتصطحبني.

أشعر بشيء من الغرابة أن أحكي لك قصة هذه المنازعة حول البيت القديم في اللحظة التي أتهيأ لزيارته للمرة الأولى منذ ربع قرن، وقد ووري صديقنا المسكين الثرى.... ولكني سأغض النظر عن الظروف الحزينة للعودة إلى الحكاية، وسأرسلها لك قبل أن أغادر.

لم أعرف ما كان مراد يخطط القيام به لاسترجاع بيته إلا بعد فوات الأوان...

في تلك الفترة، لم يعد في البلد عملياً سلطة مركزية. فظهر في أحياء العاصمة وأحياء الجبل زعماء محليون، غالباً ما يحملون ألقاباً غريبة؛ فإلى جانب المدعو «جاغوار»، أذكر أني سمعت عن «رامبو»، وعن «زورو»، وعن «كيلر» وعن «ترميناتور»، وكذلك عن «كلاشن» – وهو تصغير لكلمة «كلاشنكوف»... كان يوجد من هؤلاء الزعماء العشرات في تلك الفترة، إنما لم يكن يتمتع بالنفوذ من بينهم سوى قلة قليلة خارج حيهم، وطائفتهم، أو ضيعتهم. كانت من عيار آخر تلك الشخصية الغامضة الملقبة «المفوض السامي» – لعلك سمعت به، نظراً إلى أنه نال نصيباً من الشهرة في وقت من الأوقات [...].

كان ذلك اللقب الموروث من العهد الاستعماري يلمح إلى علاقة عضوية مع قوة أجنبية، وذلك الرجل نجح بالفعل في أن يثبت فائدته، بل وأن يكون أحياناً لا غنى عنه، للقوى الإقليمية التي أرسلت قواتها، في مرحلة أو أخرى، إلى بلدنا المسكين.

لا يخفى عليك أنه كلما تعرضت أراضينا للاجتياح، وجد أشخاص، من بين أبناء بلدنا، يهرعون لملاقاة الغازي، وتمهيد طريقه، والالتحاق بخدمته، والسعي لاستخدامه ضد خصومهم المحليين. ستقول لي إن هناك خونة ومتعاملين مع العدو بالضرورة في جميع البلدان المحطمة. لا شك في ذلك، إنما يبدو لي أن بعضهم يتحالف

في بلدنا بترحاب أكثر من اللازم مع المنتصر الآني وكأن لا غضاضة في ذلك.

والعذر منذ الأزل هو أن «العين لا تقاوم المخرز»، كما يقول المثل . لطالما كان الهم الأول لمختلف الطوائف في البلد البقاء، البقاء مهما كان الثمن، مما شكل ذريعة لجميع التنازلات. وبما أني قررت الابتعاد، والبقاء بمأمن من ذلك، فلست في موقع يخولني إعطاء الدروس إلى الذين بقوا في البلد. وهذا لا يمنعني من أن أستهجن، وأن أشمئز أحياناً. وأنت كذلك، كما أتصور...

وفي فن التعامل مع العدو، كان ذلك «المفوض السامي» موهوباً. فقد استطاع أن يضع نفسه في خدمة ثلاثة غزاة متعاقبين، مقنعاً كل واحد منهم بأنه حليفه الموثوق ومحصلاً من الثلاثة السلطة والنفوذ.

بما أن تكوينك الفكري كان مشابهاً لتكويني الفكري، لن يصعب عليك أن تفطن إلى الكلمات التي تخطر ببالي لدى ذكر أولئك الأشخاص... وستفهم غضبي، وحنقي، يوم علمت أن مراد قصد «كيسلينغ» المحلي ملتمساً تدخله ضد الذين احتلوا بيته.

كان الآخر منتشياً بالطبع. هو الذي يمضي وقته في إثارة النزاعات بين الأحزاب لكي يؤدي دور الحكم، ها هو ذا أحد الوجهاء المحترمين، سليل عائلة عريقة في الجبل، يقصده من تلقاء نفسه ليرجوه أن يعيد له عقاره. فأعرب عن سعادته وتشرفه باستقبال مراد، ووعده بأن يرضيه في أقرب وقت. وبصورة خرقاء، اقترح صديقنا الذي لم

يكن يعرف إذا كان الآخر يريد مالاًلقاء تدخله: «قل لي إذا كان بوسعي أن أفعل شيئاً من جهتي!». فاستاء الوغد المحترم. ماذا؟ أيقبل المال لقاء إحلال العدل؟ لمساعدة مواطن محترم على استرجاع ملكيته؟ هذا من المحال.

وفقاً للحكمة المشرقية، إذا لم يقبل رجل يسدي لك خدمة مالك، فلأنه يرجو أن يسترد ما تكبده من عناء بطريقة أخرى. كان مراد يعرف ذلك، ولكن لشدة ما كان مصير بيته يعمي بصيرته، فقد فقد كل قدرة على التمييز بين الأمور.

وغداة اللقاء بينهما، شنت مفرزة لجيش الاحتلال هجوماً على البيت القديم، وأطلق جنودها النار في كل الاتجاهات. واستسلم المقاتلون القرويون الذين أخذوا على حين غرة بدون أن يخوضوا معركة حقيقية. ولكن المهاجمين لم يكتفوا بتجريدهم من سلاحهم وطردهم من البيت. فلقد أوقفوا المدعو «جاغوار» قرب حائط، وأعدموه «ليكون عبرة لمن اعتبر». ثم اتصل «رئيس المتعاملين» بمراد ليعلن له بنبرة منتصرة أنه قد أفرج عن بيته، وصار بوسعه أن يعود إليه مع عائلته، وأنه لن يخشى شيئاً بعد اليوم، نظراً إلى أن خصومه قد لقنوا درساً لن ينسوه في حياتهم.

أقسم لي صديقنا بأنه لم يخطر بباله ولو مرة واحدة أن أحدهم سيقتل، وأنا أصدقه، مع أنه كان يجدر به أن يفترض، لدى التماس تدخل مثل هذا الشخص، بأن الدم قد يسفك. ولقد أكد لي أيضاً أنه لم يعرف

الظروف التي رافقت مقتل جاغوار إلا في فترة لاحقة. وفي البداية، كان يظن أنه قتل وهو يقاتل أثناء الهجوم؛ الأمر الذي كان سيعتبر شديد الخطورة أصلاً، وكافياً لكي يثير لدى «الزنود» رغبة جامحة بالانتقام. أما أن يكون قد أعدم بقلب بارد أمام إخوته وأنسبائه، فتلك مأساة من عيار آخر. فالقتال المباشر يفترض قدراً معيناً من الاحترام المتبادل، حتى لحظة يردي أحدهما الآخر قتيلاً؛ وعلى العكس، فالغاية من الإعدام هي القتل والإذلال.

أثناء مأتم «جاغوار»، ارتدت نساء عائلته اللون الأحمر، للإشارة إلى أنهن لن يعلن الحداد إلا حين يثأر لبطلهن.

فرجع مراد للاستقرار في بيته الفسيح والعريق، ولكن شيئاً ما قد تسمَّم نهائياً في أجواء الضيعة كما في ذهنه. وعبثاً ردد لنفسه أنه ليس أول شخص يلجأ إلى العنف، وأنه لم يفعل سوى الاسترجاع بقوة السلاح ما أخذ منه بقوة السلاح، فقد شعر بالذنب، وكان مذنباً بالفعل. فقد أذنب إذ لجأ إلى قوة مسلحة غريبة عن الضيعة – والغريبة أيضاً، من قبيل المصادفة، عن البلد، ولكن ذلك كان أقل خطورة؛ وهو يتحمل المسؤولية عن الإعدام الفظيع، مع أنه لم يأمر به ولا رغب به. ولقد أكد لي أنه وجه بهذا الخصوص تنديداً شديد اللهجة إلى «المفوض السامي» الذي اتهم بعض رجاله، ووعده مراد بأنهم سينالوا جزاءهم، ومتعهداً بأن يؤمن بنفسه، ليلاً نهاراً، حماية مراد وبيته.

من المرجح أن بادرة «التعويض» تلك هي التي كانت الدافع وراء

إعدام «جاغوار»، والحملة برمتها. فغاية «كيسلينغ» المحلي كانت أن يعتمد صديقنا عليه لتأمين حمايته، وأن يبقى، على هذا النحو، تحت سيطرته. أفترض أن مراد فطن إلى ذلك، إنما بعد فوات الأوان. فالرغبة بالثأر لدى المعسكر الخصم لن تهمد بسرعة، ولم يعد هو قادراً على المجازفة بالتخاصم مع حاميه.

وبما أن مراد أصبح من الآن فصاعداً يدين للمدعو «المفوض السامي» لحمايته، بل لبقائه، فقد راح يظهر أكثر فأكثر بمظهر الشخص الذي يضع فيه ثقته، لا بل زلمته. ونظراً للظروف التي أطلعتك عليها توّاً، ستقول لي إن صديقنا لم يكن أمامه خيار آخر. ربما، ولو أنني أرى، من وجهة نظري، أنه كان من الأفضل له أن يختار المنفى عوضاً عن العيش في البلد ملطخ اليدين. ولكن هذا سيدخلنا في نقاش آخر... ففي الفترة التي كنا لا نزال نتواصل، لم يكن مراد يقول لي: «ليس لدي خيار آخر.» كان يمدح حاميه، ويثني على ذكائه، و«صدقه»، مؤكداً لي أنه يفكر «مثلنا بالضبط»، ومصراً على أن آتي للتعرف عليه. وفي نهاية المطاف، أغاظته أجوبتي غير المجاملة - ماذا تعني بقولك «مثلنا»؟ وعن أي صدق تتحدث؟ - فتباعدت علاقتنا، قبل أن تنقطع نهائياً.

وحين تقرر في يوم من الأيام تشكيل حكومة وفاق تضم ممثلين عن زعماء الحرب الرئيسيين، اختار «المفوض السامي» صديقنا ليمثله فيها. أجل، بهذا الأسلوب المشرف، أصبح مراد وزيراً. وبقي كذلك

لسنوات كثيرة، متنقلاً من حكومة إلى أخرى، ومن حقيبة وزارية إلى أخرى: الأشغال العامة، والصحة، والاتصالات، والدفاع...

ليست قوانين المجتمع هي قوانين الجاذبية، وغالباً ما يسقط المرء نحو أعلى عوضاً عن السقوط نحو أسفل. ولقد كان الصعود السياسي لصديقنا النتيجة المباشرة للخطأ الجسيم الذي اقترفه. ومنذ ذلك الحين، اقترف أخطاء كثيرة أخرى، بالضرورة...

فالمبادئ هي بمثابة الركائز، أو المراسي؛ حين يقطعها المرء، يتحرر، إنما على نسق كرة ضخمة ممتلئة بغاز الهليوم، ترتفع، وترتفع، وترتفع، موحية بأنها ترتفع نحو السماء، فيما هي ترتفع نحو العدم. وقد ارتفع صديقنا، وارتفع؛ وأصبح نافذاً، ومشهوراً، ولا سيما ثرياً، ثرياً بصورة شنيعة.

أعيش منذ عقود في فرنسا، أحد آخر معاقل أخلاق المساواة بين البشر، ومع ذلك، لم أضمر، صدقني، أي عداء لأصحاب الثروات. لقد اغتنى عدد من أصدقائي، في السنوات الأخيرة، كما تعرف، وموقفي منهم لم يتأثر - لا بهذا الاتجاه، أو بذاك. أما حين علمت بأن مراد اشترى، لقاء بضعة ملايين من الدولارات، مصرفاً متعثراً، فقد صدمت صدمة شديدة، لأني كنت أعرف تماماً حالته المادية قبل أن يصبح وزيراً. كنا متلازمين جداً، ولم يكن كتوماً، ولدي فكرة واضحة عن ممتلكاته. لم يكن فقيراً، ولكنه كان يجد صعوبة في تعهد بيته، بل لقد اضطر لبيع بعض الأراضي لإصلاح السقف الذي كانت قطع القرميد

فيه بحالة سيئة. فبأية معجزة تيسر له، بعد أن كان وزيراً في الحكومة لبضع سنوات، أن يدخر ما يسمح له بشراء مصرف؟ لا داعي لإجراء تحقيقات وافية للتيقن من أن هذا المال حرام، وأن مصدره، في أفضل الأحوال، الرشى والعمولات غير المشروعة. وهذه هي الفرضية الأقل مدعاة للخزي. وبكل صراحة، إنني أشك بأن صديقنا القديم كان، في الأعمال التجارية كما في السياسة، الاسم المستعار، والوجه المقبول «للمفوض السامي» المريع، وأنه قد قبض حصة من عائدات صفقاته الكثيرة: ابتزاز، نهب، تجارة مخدرات، تبييض أموال - وما أدراني ؟

وللأسف، أبناء بلدنا متساهلون، متساهلون بشكل يبعث اليأس، تجاه هذه الممارسات. هكذا تسير الأمور، يقولون لك، بل إنهم يمتلئون إعجاباً بشطارة أولئك الذين «يصلون»، أياً كانت الوسائل التي وصلوا بها. ويبدو أن الشعار المحلي هو - إذا ما اقتبست مثلاً إنجليزياً عن روما - «حين تكون في الغابة، إفعل ما تفعله الضواري!».

في لغتنا الأم، ألا يشار إلى «محدثي النعمة» باسم «أغنياء الحرب»؟ وتعميماً، يجدر بنا الحديث عن «وجهاء الحرب»، و«سياسيي الحرب»، و«مشاهير الحرب». لا تكتفي الحروب بالكشف عن أسوأ غرائزنا، بل تصنعها، وتقولبها. كم من الأشخاص تحولوا إلى مهربين، وسارقين، وخاطفين، وقتلة، وجزارين، وكان بوسعهم أن يكونوا أفضل الأشخاص على وجه البسيطة لو لم يتقوض مجتمعهم...

لا أطيق أن يكون أحد أصدقائنا المقربين قد بلغ هذا الدرك. ويقول لي البعض أحياناً في معرض الدفاع عنه: لم يفعل أكثر من كل هؤلاء الأشخاص الذين ازدهرت أحوالهم أثناء سنوات الحرب. لعله فعل مثل الآخرين، ولكنه كان منا. لقد تطلعنا معاً إلى وطن مختلف، إلى عالم مختلف. لن أغفر له أي شيء. وكونه كان صديقي لا يمثل على الإطلاق ظرفاً تخفيفياً عندي، لا بل، إنه ظرف تشديدي. فالأفعال الشنيعة التي يقترفها صديق لك تلطخك وتهينك؛ ومن واجبك أن تصدر بشأنها حكماً لا يعرف الرأفة.

لم أوجه الكلام إطلاقاً إلى مراد - حتى عشية وفاته.

هل استطعت أن أمحو بشطبة قلم سنوات صداقتنا؟ أجل، هذا بالضبط وتحديداً ما فعلت. لقد شطبت بقلم سنوات صداقتنا. وعندما كان يذكر اسمه أمامي، أقول، بنبرة فاترة: «إنه صديق قديم». لم أكلمه قطّ، ولم أفكر فيه على الإطلاق، إلى أن اتصل بي، يوم الجمعة الماضي، ليخبرني بأنه يحتضر.

ولكني أكثرت الكلام، هذا يكفي، سأتوقف عند هذا الحد. ففي هذا اليوم الذي يوارى فيه الثرى، لن أثقل كاهله. سأكتفي بالقول: فليرقد بسلام! وليتغمده الله بواسع رحمته!

هذا ما جرى، عزيزي نعيم... أرجو أن أكون قد أجبت كما ينبغي عن سؤالك. وأود فقط أن أضيف، لأجلك، ما كررته في أغلب الأحيان عن صديقنا القديم: لقد اضطررنا، أنت وأنا، إلى الابتعاد عن المشرق

لنحافظ على نظافة كفنا. وليس لدينا ما نخجل منه، ولكن الدعوة إلى سلوك طريق المنفى كحلٍّ وحيد لمعضلاتنا الأخلاقية سيكون منافياً للمنطق. ويجب أن نجد، يوماً ما، حلاً هناك - لو كان ثمة حل، فلم أعد واثقاً من ذلك على الإطلاق...

«ولكن تأخر الوقت، فإلى اللقاء!

أقبلك بشوق،

آدم».

وضغط على زر الإرسال. ثم نظر إلى ساعته، كانت الثامنة مساءً والدقيقة الأربعين.

عقد سريعاً ربطة عنق غامقة اللون، ثم هرع إلى السيارة التي كانت تنتظره.

4

وصل آدم حوالى التاسعة والنصف مساءً إلى بيت المرحوم. كانت سميراميس تنتظره قرب الباب المفتوح، جالسة وسط جمهرة من الكراسي الشاغرة. نهضت، وقبلته على خديه، وشكرته لأنه عمل بنصيحتها، ثم أخذته من ذراعه للقاء تانيا.

كانت أرملة مراد في الطابق العلوي، جالسة في حجرة صغيرة محاذية لغرفة النوم. كانت بمفردها، في ثوب الحداد، ممددة، وقد خلعت حذاءها، ووضعت قدميها على أريكة. من الواضح أن لا أحد أبلغها بمجيئه. فهمَّت بالنهوض، ولكنه وضع يده على كتفها ليثنيها، وانحنى فوقها ليطبع قبلة على جبينها. فاحتضنته وعادت تذرف الدمع الذي كان قد جف توّاً.

حين استكانت، قالت له:

«ظننت أنك عدت إلى فرنسا».

«غيرت فكري في اللحظة الأخيرة».

«ولم تكن تفكر بالمجيء إلى هنا يوم المأتم، ولكنك غيرت فكرك في اللحظة الأخيرة».

وارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة وسط دموعها.

التفتت نحو سميراميس وقالت : «آدم يصل دوماً متأخراً بعض الشيء».

ولكنها أضافت على الفور، وهي تخاطب الزائر، كما للتخفيف من عتابها:

«أنا سعيدة بمجيئك. ولو رآك صديقك، هنا، في بيته، كما في الماضي...».

نظرت من حولها، ثم إلى أعلى، وكأن بوسع مراد أن يكون موجوداً هناك، خفياً، فوق رؤوسهم.

«كم كان يرغب من كل جوارحه أن يكلمك، ويشرح لك، ويبدد سوء التفاهم . كان مقتنعاً بأنك لو جئت للجلوس قربه، وأصغيت إليه، فلن تعطيه سوى الحق. أنا لم أكن متأكدة من ذلك مثله. فلقد تباعدتما كثيراً الواحد عن الآخر...».

لزمت الصمت فجأة، وبدا عليها أنها استغرقت في ذكرياتها. وأضافت بعد ثوان معدودة:

«بوسعي القول الآن إنه تعذب في كل يوم من حياته بسبب ما حصل بينكما من خصام وقطيعة».

تفرست في وجه آدم بحدة، وكأنها تسبر مشاعره. فشعر بنفسه مرغماً على القول:

«في كل ما جرى، لا مذنب سوى الحرب».

ولكن نظرة ثانيا زادت إصراراً واستنطاقاً:

«أجل، أنت على حق، لا مذنب سوى الحرب، ولكن كل الناس لم يتفاعلوا معها بالطريقة نفسها، أليس كذلك؟».

عند هذا الحد من الحديث، كان آدم لا يزال يتساءل إذا كانت أرملة صديقه القديم تسعى إلى استفزازه، أو تريد فقط أن تنتزع منه عبارات التعزية التي كان زوجها يرجو سماعها قبل رحيله. فاختار أن يظل في العموميات، بمنأى عن أي جدل.

«لم تكن أوضاعنا متشابهة. لو بقيت في البلد...».

«... كنت تصرفت مثله».

لم يكن ذلك ما ينوي آدم أن يقوله.كانت تجول في خاطره صيغة أوضح من قبيل:

«لو بقيت في البلد، لواجهت خيارات لا تقل عن خياراته صعوبة»، أو أيّ شيء من هذا القبيل. غير أنه عدل عن تصويب كلامها، راجياً على هذا النحو أن يضع حداً لمناقشة يبدو له أن من غير المناسب خوضها في بيت مراد، ويوم دفنه. فأومأ برأسه، وارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة، ولم يواصل الكلام.

ولكن تانيا لم تشأ أن تعتقه.

«وبالتالي، لو بقيت في البلد، لكنت تصرفت مثله. أنت تعترف بذلك بصدق. ولكن هل تساءلت يوماً ما كان ليحدث لو تصرف صديقك مثلك؟ لو قرر الرحيل بدوره؟ هل تساءلت ما كان ليحدث لو قرر صديقك، وأنا، وسمي، وجميع أهلنا وأصدقائنا، لو اعتبرنا أن

الحرب هي بالفعل شديدة القذارة، وأنه من الأفضل الرحيل للحفاظ على نظافة كفنا؟».

وصمتت للحظات، فتمنى زائرها أن تكون قد أفرغت ما في جعبتها. ولكنها استأنفت حديثها، وبالنبرة نفسها:

«المسألة ليست في معرفة ماذا كنت ستفعل لو بقيت. المسألة في معرفة ما كان سيحل بالبلد لو رحل عنه الجميع، مثلك. لكنا حافظنا جميعاً على نظافة كفنا، إنما في باريس، ومونريال، وستوكهولم، أو في سان فرانسيسكو. أولئك الذي بقوا لطخوا أيديهم لكي يحافظوا من أجلكم على وطن، لكي يتسنى لكم أن تعودوا إليه يوماً، أو على الأقل أن تزوروه بين الحين والآخر».

لزمت الصمت لوهلة وجيزة، ثم استأنفت، مثل الأغنية المكرورة:

«الأذكى هم الذين رحلوا. تذهب إلى بلاد جميلة، تعيش، تعمل، ترفِّه عن نفسك، تكتشف العالم. ثم تعود بعد الحرب. وطنك ينتظرك. لم تكن بحاجة لإطلاق رصاصة واحدة، أو لإراقة قطرة دم واحدة. بل بوسعك حتى أن تسمح لنفسك بعدم مصافحة الأيدي التي تلوثت. أليس كذلك آدم؟ أجبني! لو كنت مخطئة، قلْ لي!».

«تانيا، اليوم، أنت على حق في كل ما تقولين. ومهما قلت، لن أناقشك، فلا هو اليوم ولا المكان للقيام بذلك. رحم الله مراد ورحمنا جميعاً».

قال ذلك، ثم نهض وهو ينظر بوضوح إلى ساعة يده.

«تأخر الوقت، ولا بد من أنك مرهقة. سأرجع إلى الفندق. نلتقي لاحقاً، في ظروف أخرى».

فانتصبت تانيا بحركة مباغتة، لا لوداعه إنما لاستبقائه.

قالت له: «لن تذهب هكذا، بدون أن تتعشى معنا».

لشدة ما كانت تبدو مستاءة بالفعل، تساءل آدم إذا كان لم يخطىء فهم كل ما قالته. أيكون اعتبر تهجماً لفظياً ما لا يعدو كونه تأملاً بصوت عال بين صديقين قديمين؟ التفت صوب سميراميس للتحقق منها. فأومأت له بأن يلزم الهدوء، ويجلس ثانية، ثم أضافت، بأكثر النبرات واقعية وحسماً:

«لقد طلبت من السائق أن ينصرف، سترجع برفقتي. سنأكل لقمة مع تانيا، ثم ندعها تخلد للنوم».

لم يكن بوسعه سوى الامتثال لها. فجلس من جديد. كلا، بالطبع، لا يترك المرء بيت ميت صافقاً الباب، وإن تفوهت الأرملة بكلمات غير لائقة. ففي مثل هذا اليوم، يجب أن يتحمل، ويجيز بعض العصبية التي تعزى إلى الإرهاق والحزن، وكذلك تلك الحاجة للتبرير التي أعرب عنها مراد في آخر حياته، والتي تعتبر تانيا الآن أنها مؤتمنة عليها. وعلى أي حال، فقد جرى الحديث في أجواء حميمة، بين ثلاثة أشخاص تربط في ما بينهم صداقة قديمة العهد.

تبدل سلوك الأرملة بالفعل لحظة غادرا الحجرة الصغيرة للذهاب

إلى غرفة الطعام. فتأبطت ذراع آدم، وقدمته للجميع على أنه أعز صديق لزوجها، مؤكدة بأنه جاء خصيصاً من باريس للمشاركة في هذا الظرف الأليم. وهذا ما أكده المعني بالأمر بإيماءة من رأسه - فهل باليد حيلة؟

كان لا يزال نحو ثلاثين شخصاً حاضرين. لا بد من أنهم من الأقارب البعيدين، وأهل الضيعة، وبعض المحازبين السياسيين - لم يتعرف آدم على الوجوه. ولدى وصوله، تراءى له أن البيت كان خاوياً. فالكراسي الشاغرة تصطف على طول الحيطان، في الصالونات، وفي الممرات، وعلى الشرفات، مئات الكراسي، لا بد من أن الزوار تناوبوا عليها النهار بحاله، وسوف تصلح غداً وبعد غد. بقي بعض الأشخاص، في الزوايا، يكفي عددهم لملء غرفة الطعام الفسيحة حيث أعد عشاء سخي لا شيء يميزه عن ولائم الاحتفالات إلا النبرة الخافتة للمدعوين، وغياب الضحكات، وتلك العبارة التي تتكرر باستمرار على الألسن، «الله يرحمو!»، كلما سكب أحدهم صنفاً من الطعام، ثم حين يقوم عن المائدة، «الله يرحموا»، لاستمطار رحمة الله على المرحوم.

أجلست تانيا آدم إلى يمينها، وحرصت على أن تسكب له بنفسها. كان الحديث يدور حول الشخصيات التي حضرت المأتم، وتلك التي لم تحضر، والتي قد تأتي غداً، أو بعد غد. كان الزائر «القادم من باريس» يصغي، باهتمام، وإن لزم الصمت.

وفي لحظة من اللحظات، همست له الأرملة:

«سامحني لما قلته لك! فالكلام خرج من فمي بدون تفكير. إنه التعب، على ما أظن، كما قلت...».

«لا عليك! فقد حصل الكلام بين أصدقاء!».

«أجل، بالتأكيد. لو لم أعتبرك أخاً لي، لما خاطبتك مثلما فعلت اليوم».

«أعلم... ولكن، لا تفكري بالأمر، ارتاحي، وادخري قواك، أمامك أيام صعبة!».

«سترجع لزيارتي، أليس كذلك؟ أود أن أحدثك بعد عن جمع شمل الأصدقاء. ليتنا نجتمع كلنا، على الشرفة، مثل الماضي. صديقك...».

كان يشق عليها، في ما يبدو، أن تذكر زوجها خلاف ذلك. وأثناء كلامها، أدرك آدم على حين غرة أنها لم تلفظ مرة واحدة منذ يوم السبت اسم «مراد». لا شك أنها تخشى أن تغص لو بذلت جهداً للفظ اسمه.

«قال لي صديقك يوماً، في آخر أيامه، حين كان صوته يسمع بالكاد: «كانت الحياة ستكون جميلة لو واصلنا الالتقاء هنا، على الشرفة، مع جميع أصدقائنا، مثل أيام الجامعة! لو لم يتغير شيء!» وانهمرت دموعه».

عاودت الأرملة البكاء لدى تلفظها بهذه الكلمات.

اكتفى الضيف بترداد كلامها مثل الصدى:

«لو لم يتغير شيء!».

5

لم يفصح آدم عما كان يريد أن يقوله للصديق الراحل إلا في طريق العودة، حين انفرد بسميراميس، في سيارتها:

«بلى، مراد، كانت الحياة ستكون جميلة لو لم تندلع الحرب، لو ما زلنا في العشرين عوضاً عن الخمسين، لو لم يمت أي واحد منا، لو لم يخن أي واحد منا، لو لم يتغرب أي منا، لو ظل بلدنا لؤلؤة الشرق، لو لم نصبح أضحوكة العالم وهاجسه وفزاعته وكبش فدائه، لو، ولو، ولو، ولو...».

أطلقت السائقة تنهداً طويلاً أعربت به عن موافقتها. ثم تركت بضعة كيلومترات من الطرقات المعتمة تمضي قبل أن تقول:

«تانيا حريصة جداً على فكرة جمع الشمل. لقد حدثتني عنها عشر مرات منذ صباح هذا اليوم».

«ولقد حدثتني عنها أيضاً على المائدة. وكررت لها أنها فكرة جيدة برأيي، وأنني سأبذل ما بوسعي لكي تتحقق. لم أسعَ لإثباط عزيمتها، فهي تحتاج، على ما يبدو، إلى التعلق بهذه الفكرة للهروب قليلاً من حدادها. ولكني لا أريد كذلك أن أثير لديها آمالاً قد تخيب».

«أتعتقد أن ذلك لن يحدث؟ إنني على ثقة بأن معظم أصدقائنا

سيرغبون بأن يجتمع شملهم، ولو لمرة واحدة قبل أن نمضي جميعاً لموافاة مراد... وعلى أي حال، فسيسعدني أن يتحقق ذلك».

«وأنا بدوري سأغتبط لذلك. وأنا على ثقة بأن الرغبة نفسها موجودة لدى معظمهم مثلما هي موجودة لديَّ ولديك. ولكنهم تبعثروا في جميع أنحاء المعمورة، ولكل منهم عمله، وأسرته، وقيوده...».

«هل تسنى لك أن تهتم بذلك اليوم؟».

«أجل، كتبت لألبير ونعيم، وأجاب كلاهما بعد دقائق معدودة. والأول موافق على اللقاء، ولكنه يفضل أن يحصل ذلك في باريس. فكونه مواطناً أميركياً، لا يجوز له المجيء إلى هنا...».

«كلام فارغ! في الصيف، نصف زبائن الفندق يحملون الجواز الأميركي. وحتى لو كان أصلهم من هنا، فيكفي أن يستخدموا جوازهم الآخر».

«بالنسبة إلى ألبير، الموضوع أكثر تعقيداً، فشركته تعمل أحياناً لحساب البنتاغون، مما يضطره إلى احترام هذا الحظر».

«إنها مجرد ذريعة! فمنذ أن رحل عن البلد، لم يشأ أبداً أن تطأه قدماه مجدداً، وقبل أن تصدر السلطات الأميركية أي قرار. لقد تأثر بصدمة يصعب عليه تجاوزها، فراح يختبىء وراء الممنوعات. ولو كان يرغب بالمجيء حقاً، فسيأتي».

«أصدقك، ولكني لا أقدر أن أرغمه على ذلك. فإذا كانت حادثة اختطافه قد أثرت فيه إلى هذا الحد، لماذا نجبره على مواجهة كابوس آخر؟».

فهزت كتفيها.

«ونعيم؟».

«الوضع مختلف بالنسبة إليه».

«ماذا يعني ذلك؟».

«أجاب على الفور بأنه سيأتي. ولكني فكرت، منذ أن قال ذلك، وأنا الذي أتردد».

«ألأنه يهودي؟».

«ألا تظنين أنه قد يتعرض لخطر؟».

«أي خطر؟ لا نعيش هنا في غابة! يأتي بشر من كل صنف ولون إلى هذا البلد، ومنذ خمسة عشر عاماً، لم يتعرض أحدهم للخطف! أتشعر بأنك في خطر، منذ أن وصلت؟».

«أنا، بالتأكيد لا».

«لا أنت، ولا غيرك. أنظر، نحن نقود السيارة ليلاً، في الجبل، على طرقات مهجورة وسيئة الإنارة. ألديك الانطباع بأننا سنذبح أو نتعرض للسرقة؟».

فاضطر للتسليم بأن ليس لديه هذا الانطباع، وبأنه يشعر بالأمان إلى حد معقول، بل وأكثر مما لو كان في معظم بلدان العالم الأخرى.

ومضت بهما السيارة بضع دقائق بدون أن يتبادلا الكلام. ثم أخبرت سميراميس التي كانت قد هدأت راكبها بأنه قد حصلت حادثة خلال المأتم:

«كنت أظن أن أحدهم سيذكرها خلال العشاء، ولكن تانيا لم تقل شيئاً، والآخرون فضلوا عدم ذكرها مراعاة لها. ربما تعلم أن هناك عائلة في مدخل الضيعة لم يكن مراد متفاهماً معها».

لم يستطع آدم أن يمنع نفسه من الابتسام:

«هذا أفضل تلطيف للكلام أسمعه هذا العام يا سمي! أعرف هذه القصة جيداً. كان بين صديقنا وأولئك الأشخاص حقد أعمى، فهم يتهمونه بأنه أمر بإعدام ابنهم».

«كان يُفترض أن تمر الجنازة أمام بيتهم في طريقها إلى المدافن. وفي اللحظة التي اقتربت، خرجت نسوة من البيت، نسوة من كل الأعمار، أحصيت منهن إحدى عشرة. أفترض أن والدة المغدور كانت من بينهن، وأرملته، وشقيقاته، وزوجات أشقائه وبناتهن... اتشحن جميعاً بالسواد ، ولكنهن عقدن ، بلا استثناء، حول عنقهن شالاً أحمر فاقعاً، بلون الدم، وكأنهن أمضين الشتاء في حياكة هذه الشالات لهذه المناسبة».

«مرت الجنازة أمامهن. كنا جميعاً نشعر بالحرج الشديد. ولا بد من أن ذراعي لا تزال تحمل آثاراً لشدة ما ضغطت عليها تانيا. لقد خيَّم بالضبط ما يعرف بصمت الموت. كانت أولئك النسوة مصطفات هنا، قرب الحائط، صامتات، لا يرتسم أي تعبير على وجوههن، وربما ارتسمت على وجه الواحدة أو الأخرى ابتسامة خفيفة ساخرة. كن

حاسرات الرأس والوجه، فلا يلمح المرء سوى تلك الشالات الحمراء التي تبرزها أثوابهن السوداء بمزيد من الحدة».

«وفي الموكب الجنائزي أيضاً، خيَّم الصمت. ولم تسمع كلمة واحدة. بالكاد سمع تنفس الناس. وبصورة لا شعورية، حثثنا الخطى. ولكن اجتياز تلك الأمتار القليلة كان يبدو طويلاً لا نهاية له.

«وبعد الدفن، عاد الموكب فسلك الطريق نفسها، ولكن النسوة اختفين. إلا أن كل العيون اتجهت إلى المكان الذي كن يقفن فيه، وشعرنا من جديد بالضيق، بسبب تواريهن تحديداً».

«والغريب في الأمر أن لا أحد ذكر الحادثة بعد أن انتهت مراسم الدفن. ليس أمامي، على أي حال. أفترض أن الناس تهامسوا كثيراً بهذا الشأن، ولكن لا أحد ذكر ذلك أمامي، أنا الغريبة عن الضيعة. أما صديقتنا، فتصرفت كأن شيئاً لم يكن. ولكني متأكدة بأنها ستبصر أولئك النسوة في أحلامها، وليس فقط هذه الليلة».

«كان يجب أن أخبرك، ولكن لا تحدث تانيا تحديداً عن ذلك! وحتى لو قررت أن تحدثك عنه، فتصرف كأن لا علم لك بما جرى!»

هز آدم رأسه، ثم سأل السائقة كيف تفسر تصرف أولئك النسوة.

«كان المشهد فظيعاً، ولكن رسالتهن واضحة: فالرجل الذي أمر بقتل «شهيدهن» مات بدوره؛ وهن لم يمانعن الاتشاح بالسواد مراعاة لحداد تانيا، ولكنهن لن ينسين حدادهن».

ولقد شعرت سميراميس بأن موقف النسوة المحتجات يمثل

تحذيراً للأرملة، وبأنه سيكون تمهيداً لتجدد الصراع بين العائلتين حول ملكية البيت القديم. ولكنها لم تكن ترغب على الإطلاق بالتعليق على تلك الحادثة.

اقترحت فجأة، بمرح متكلف بعض الشيء: «أنسمع بعض الأغاني؟».

كان سؤالها شكلياً، ففي اللحظة نفسها كان إصبعها يضغط زراً، ويحرر أغنية عراقية قديمة:

طالعة من بيت أبوها
رايحة لبيت الجيران
فات ما سلم عليّ
يمكن الحلو زعلان...

ورفعت عقيرتها على الفور بالغناء مع ناظم الغزالي الذي كان صوته غالباً ما يرافق أمسياتهم في الماضي.

وبعد دقائق معدودة، أخفضت الصوت لتسأل راكبها:

«هل وضعت قائمة نهائية بأسماء جميع الذين يجب دعوتهم إلى لقاء جمع شمل الأصدقاء؟».

«حددت حوالى عشرة أسماء، ولكني لا أزال متردداً بالنسبة إلى بعضهم. فعلى سبيل المثال، بعد الظهر، خطر ببالي نضال...».

تساءلت سميراميس، باستغراب كما لو أنها لا تعرف بمن يتعلق الأمر: «نضال...؟».

أجابها آدم، بدون تفكير: «شقيق بلال...».

رددت: «شقيق بلال...».

واختنق صوتها حين انتهت من لفظ الاسم.

كتب آدم في مفكرته لاحقاً: في اللحظة نفسها التي لفظت شفتاي هذا الاسم، أدركت أنه ما كان يجدر بي أن أتلفظ به. فقد اكفهر وجه صديقتي. ولم تنبس ببنت شفة بعد ذلك، مكتفية بهمهمة أغنيتها العراقية، شاردة الذهن. بلال هو جرحها الذي لم تفلح السنوات والعقود في بلسمته. لم أستطع أن ألتمس لنفسي عذراً لأني كنت أعرف ذلك. وإذا كان هناك اسم لا يجدر بي أن ألفظه على مسمعها، فهو ذلك الاسم. ولكني كنت أفكر به باستمرار، ولا مفر بدون شك من أن يفلت مني في لحظة أو في أخرى.

في أيام الجامعة، غداة نزهتي الليلية مع سمي والتي كدنا نتبادل أثناءها قبلة، لم يكن الشاب الذي ظهر بيننا، وتجرأ على احتضانها بين ذراعيه، سوى بلال.

خلفت لدي تلك الحادثة جرحاً تبين لي مدى عمقه منذ عودتي إلى البلد. ولكنه لا يذكر، حقاً لا يذكر، بالمقارنة مع الصدمة الدائمة التي خلفها لدى سميراميس الموت العنيف لحبيبها الأول.

عندما اجتمعت شلتنا، بعد يومين أو ثلاثة أيام من الحادثة المضحكة لذلك المشوار الليلي، ورأيت الشاب والشابة يصلان معاً، وقد تأبط أحدهما ذراع الآخر، تأثرت بالضرورة. إلا أنه لم يكن من حقي التعبير عن تأثري، والاستياء من الحبيبين. ففي نهاية المطاف، بلال «لم يسرق صديقتي»، بل أنا لم أعرف كيف أجتذبها.

في ذهن المراهق الذي كنت، نسجت حول سمي الجميلة سيناريو رومنسياً. فكنت أتخيل نفسي أمشي معها، وقد تشابكت أيدينا، على شاطئ، حفاة الأقدام. وتخيلت شتى المواقف التي أحميها فيها، وأواسيها، وأبهرها. ولكني لم أفعل سوى أن أتخيل كل ذلك، تحديداً، وخيل لي، بسبب ابتسامة ارتسمت على وجهها، أن أحلاماً من هذا القبيل قد تراودها. لم تكن سمي مذنبة، ولا بلال. لو توجب عليّ أن أحدد مسؤولاً عن فشلي، فلن يكون سوى تربيتي التي جعلت مني ذلك الكائن الشديد التهذيب، الشديد الحرص على عدم إثارة استياء الآخرين، الشديد الانصراف إلى الكتب وأحلام اليقظة – ذلك الكائن الرعديد!

ومع مرور الوقت، وممارسة مهنة التعليم، انتهى بي الأمر أن تجاوزت أخطر مكبوتاتي، وإن احتفظت حتى اليوم ببقايا خجل. غير أنه لم يكن بوسعي في تلك السنوات ألا أتأمل بحسد الزوجين الاثنين اللذين تشكلا داخل شلتنا الصغيرة من الأصدقاء – واللذين شاءت المصادفة أن يكونا أبعد شبهاً عما يمكن أن يتصوره العقل . فمن جهة،

تانيا ومراد - مركب شراعي على بحر من زيت؛ ومن جهة أخرى، سمي وبلال - زورق يبحر وسط شلال.

كان الأولان حاضرين في جميع سهراتنا، دون استثناء؛ بل كانت شلتنا تجتمع أساساً حولهما. أما الثانيان فيحضران أو لا يحضران؛ ويوماً، يفترقان منتحبين؛ وفي الغد، نراهما متعانقين. ولا يحتاج المرء أن يكون منجماً لكي يتنبأ بالطاقم الذي سيدوم، ومن منهما سيتحطم بسرعة فائقة جداً.

لطالما تساءلت إذا كان قرار بلال بالانخراط في ميليشيا مسلحة مبرّراً بتطوره السياسي، أو بعلاقته العاصفة بسمي. ولم أعرف قطّ كذلك إذا كانا، لحظة لقي حتفه، لا يزالان معاً أم في مرحلة جفاء أو قطيعة. في ذلك الوقت، كان من غير اللائق إطلاق التكهنات بهذا الشأن، مخافة إظهار الشابة وكأنها مسؤولة عن المأساة التي وقعت. ورغم كل الوقت الذي انقضى منذ ذلك الحين، من الواضح أنه لا يمكن إثارة هذا الموضوع معها إلا بمنتهى الحذر والحيطة.

واليوم، لدي الدليل على ذلك. فحالما رأيت رد فعلها، لزمت الصمت، ولم أعاود الحديث عن هذا الموضوع أو عن أي موضوع آخر. أحسست بأنه ليس بوسعي لا الاعتذار، ولا استئناف الحديث، ولا الانتقال إلى موضوع آخر. لم يكن بوسعي سوى الانتظار، وبصمت، استحضار بعض الذكريات التي تبرر موقف صديقتي.

فعلى سبيل المثال، تذكرت أن سمي اتشحت بالسواد لدى وفاة

بلال. وطوال أشهر عديدة، لبست ثوب الحداد، وكأنها أرملته الشرعية. ثم غرقت في هاوية من اليأس.

لزما الصمت من جديد، والسيارة تمضي بهما، منذ دقائق مديدة، وقد استغرق كل منهما في ذكرياته عن بلال، وفي حسرتهما، حين سألت سميراميس صديقها على حين غرة:

«هل صادفته مؤخراً؟».

انتفض آدم. نظر إليها بثبات، وكأن مساً أصابها. فأوضحت في الحال، بدون أن تبتسم، وهي تتنهد تنهداً نزقاً:

«كنت أحدثك عن الأخ».

«نضال؟ كلا، لم ألتق به البتّة. منذ سنوات عديدة، وأنت؟

«أنا بلى، صادفته في بعض الأحيان. لقد تغير كثيراً. لن تتعرف إليه. والآن، صار من أصحاب اللحى».

«إذا توقّف الأمر على ذلك...».

«لم أقل ملتحياً، بل قلت من أصحاب اللحى».

«فهمت يا سمي. لقد أصبح عشرات ملايين الأشخاص اليوم من أصحاب اللحى، كما تقولين. ويمكن بصعوبة اعتبار هذا الأمر مجرد ظاهرة تثير الفضول. نضال يواكب هذا العصر، للأسف! ونحن أصبحنا مفارقة تاريخية».

استأنفت كلامها، كأنها لم تسمعه: «اللحية، والخطاب الذي

يرافقها... إذا دعوته إلى لقاء جمع الشمل، قد يشعر بعض أصدقائنا بالضيق».

«هذا لا يخيفني. أيعرف أن يناقش بدون أن يشهر مسدساً؟».

«أجل، يعرف ذلك، لا بل هو لبقٌ نسبياً. ولكن مضمون خطابه...».

«رجعي؟».

«أكثر رجعية من الطالبان، وأكثر راديكالية من الخمير الحمر! إنه مزيج من الاثنين معاً!».

«إلى هذا الحد؟».

«كلا، إنني أبالغ قليلاً، إنما بالكاد. إنه محافظ بصورة مَرَضية – ويرفض مثلاً مصافحة سيدة. وحين يتحدث عن أميركا، تخاله ماوياً من السبعينيات...».

«أرى من أي نوع هو. ولكن هذا أيضاً يواكب العصر. لا أزال على رأيي بأن الاستماع إليه لن يضيرنا».

«ولو شعر بعض أصدقائنا بأنه يهاجمهم؟».

لم يفكر آدم سوى لحظة وجيزة.

«أجل، ولو شعر بعضنا بأنه يهاجمهم. إننا جميعاً راشدون، وقد تخلينا عن أوهام شبابنا، فلماذا علينا أن نكون في جو معقَّم؟ إذا كان لشقيق بلال خطاب متسق، وإذا كان قادراً على أن يدع الآخرين يعربون عن رأيهم، فأنا أرغب بالاستماع إليه، ومن ثم بالرد عليه».

«إفعلْ ما شئت، فأنت مدير الاحتفال. لقد حذرتك. وإذا ما تسمم جمع الشمل، فلا تلمْ سوى نفسك...».

«اتفقنا. سأتحمل المسؤولية».

كانا قد سلكا الطريق الخاص الذي يفضي إلى الفندق. وكان آدم على يقين أن سميراميس ستركن أمام بيتها الصغير، ولكنها توقفت بالأحرى أمام البوابة الكبيرة.

هل ستخضعه لتجربة جديدة، لكي يعرب بوضوح عن رغبته بقضاء ليلة ثالثة معها؟

كلا. كانت في عالم آخر، مستغرقة في الذكريات التي استثارها بتهور راكبها. كان آدم يرغب بالاعتذار، ولكنه عدل عن القيام بذلك، معتبراً بلا شك أن اللياقة تستوجب عدم الإفصاح عن الأمور أكثر من اللازم.

ففتح الباب؛ ثم انحنى عليها ليطبع قبلة سريعة على خدها بعد أن تأكد من أن لا أحد في الجوار. لم تستجب، لا لتصده، ولا لتقترب منه. فلم يلح عليها. وترجل من السيارة ليدعها تكمل طريقها، ثم صعد إلى غرفته.

هذه الليلة، لن يمضيانها معاً.

اليوم السابع

1

سيدوِّن آدم في مفكرته في مستهل يوم الخميس 26 نيسان: الليلة الماضية، رأيت في المنام حلماً متوقعاً ومحيراً في آن واحد.

كنت في بيت مراد الذي غص بالزوار كما كان على الأرجح البارحة. ولكني لم أفعل سوى اختراق جمهرة الناس والبحث عن ملاذ في قاعة ينتظرني فيها أصدقائي. كان هناك مراد، تحديداً، وتانيا، وسمي، وكذلك بلال، متدثراً برداء فضفاض مذهب، واقفاً بإجلال، مثل جوبيتر على جبل الأولمب، وقد ازدان وجهه بلحية كثة وصهباء. وهمس لي صوت أنثوي: «كم تغير!» فأجبت بتفاخر: «لقد أعلمني بذلك!» ثم خاطبت رفاقي ضاحكاً: «كل هؤلاء الناس في الخارج يظنون أنه قد وافتنا المنية».

كان حلمي، بالطبع، أكثر تشتتاً من ذلك. وحين حكيته، رتبته، وعقلنته. وبطريقة ما، أعدت تشكيله بالمواد التي تعرفت عليها فيه - الأماكن، والوجوه، والكلمات، والألوان. تنبثق جميعاً من مشاهد عشتها، وانطبعت بها ذاكرتي: زيارتي المتأخرة إلى بيت المرحوم؛ حديثي مع سمي على طريق العودة؛ ثم ذلك الحديث الآخر منذ ربع

قرن مع بلال، في الفترة التي كنا فيها متلازمين، قبيل أن يحمل السلاح ويقضي نحبه.

لقد ذكرت تلك النزهات الطويلة المهذارة التي كنا نقوم بها، ولا سيما إحداها، الأخيرة إذا لم تخني الذاكرة، التي انتهت تحت وابل من المطر الغزير، وهتف فيها بلال متحدثاً عن الله: «يا لها من مهنة جميلة!».

قبل ذلك، ذكر اسم فتاة في حديثنا. لدى إشارتي إليها، منذ أيام، اكتفيت بالكتابة «صديقة مشتركة». لم أذكر اسم سمي. لو فعلت، لكنت مضطراً إلى توضيح هويتها، وسبب حديثنا عنها، وسرد نزهتي الليلية معها ومكبوتاتي المضحكة - وذلك كان يبدو لي حينئذ بمثابة استطراد لا طائل منه. ولحظة كتبت هذه السطور عن دائرة أصدقائنا، لم أفكر بسمي كما لم أفكر بغيرها، ولم أكن أفكر بلقائها في القريب العاجل. كنت على ثقة بأني سأركب الطائرة على وجه السرعة عائداً إلى باريس، اعتباراً من يوم الاثنين، أو يوم الأربعاء على أبعد تقدير بما أن الشخص المحتضر الذي جئت لتلقي كلماته الأخيرة لم ينتظرني.

يبدو لي الآن أن ثمة شيئاً ما تبدل في قرارة نفسي حين كنت أدون تلك الفصول من شبابي. وبعد ساعتين، أرجأت سفري، وغادرت العاصمة، وأتيت للإقامة هنا، في نزل سميراميس.

حين نكتب، تتعاقب السطور، مع الفواصل نفسها، ومن يرونها أمام ناظريهم لا يدركون بأن اليد التي خطتها جرت على الورقة في بعض الأحيان، وأنها توقفت في أحيان أخرى. على الصفحة المطبوعة،

وحتى على الصفحة المكتوبة بخط اليد، تنتفي لحظات الصمت، وتستوي المساحات الفارغة.

أذكر ذلك لأني توقفت عن الكتابة تحديداً، يوم السبت الماضي، وبعد أن ذكرت سريعاً تلك الصديقة المشتركة، توقفت للحظة طويلة جداً. لوددت قول المزيد، ذكر اسمها، وتوضيح السبب الذي جعل هذا الحديث حولها يترك في نفسي أثراً لا يمحى. ثم عدلت عن ذلك لئلا أنحرف بمسار حكايتي.

والآن، ها أنا أعود إليها. فتلك «الفتاة» لم تعد مجهولة الهوية، ولقائي الجديد بها يلقي إضاءة مختلفة على ما تبادلناه أنا وبلال، من كلام وقتذاك، والسياق الذي تحدثنا فيه عن الله.

تضيع ذاكرة الكلمات، إنما ليس ذاكرة الانفعالات. ما أذكره من حديثي مع الصديق الذي رحل عن هذا العالم سيكون تقريبياً بالضرورة، ولكني لا أشك لحظة واحدة في فحواه العاطفي، ولا في مغزاه.

باغتني بلال بالقول، متحدثاً عن سمي:

«أنت أيضاً غازلتها في السابق... صارحتني بذلك».

«لا أنكر أنها كانت تروق لي، ولكن لم يحصل شيء بيننا».

«بالتالي، عندما تعرفت عليها، لم تكونا معاً...».

«لم نكن في حياتنا معاً. هل قالت لك العكس؟».

«كلا، ولكني مسرور لأنك تؤكد لي ذلك. أريد أن أكون على ثقة بأني لم أسرق خطيبة صديق».

«إطمئن، لم يكن بيننا شيء، لم تكن خطيبتي، وبالتالي لم «تسرقها» مني. ولكنك تسألني الآن؟».

كانت المسألة تعود إلى نحو أربع سنوات!

«من قبل، كنتَ مجرد معرفة، أما الآن فأنت صديق مقرب، وكنت حريصاً على عدم جرح مشاعرك بدون علم مني».

«كلا، إطمئن، لم تجرح مشاعري».

«ألم تحقد عليّ أبداً؟ ألم تصب لعناتك عليّ؟ حتى عندما رأيتنا معاً للمرة الأولى؟».

شعرت بالحرج وقد لاحظ ذلك. وزاده حرجي لجاجة.

«أنت لا ترغب بالحديث عن ذلك... أنت مخطىء! يجب أن يتحدث المرء عن غرامياته! يجب أن يجرؤ على التحدث عنها بحرية مع أصدقائه المقربين! النساء يتحدثن عنها أحياناً في ما بينهن؛ أما الرجال فأبداً لا يفعلون، أو يفعلون فقط للتباهي، كأن عواطفهم ليست جديرة بهم. لوددت لو عشت في عصر بوسعي أن أحكي فيه لأصدقائي آخر ليلة غرام عشتها بدون أن يبدو ذلك من قبيل التبجح وخدش الحياء».

مع بلال، غالباً ما كنت أجد نفسي ألعب دوراً جاحداً للغاية، وهو دور ناقل الكلام المألوف، والأفكار الملقنة. وعبثاً حاولت التهرب من هذا الدور، فكنت أؤديه دوماً.

وفي ذلك اليوم، أجبته قائلاً:

«وألا تظن أن العاطفة ستتبدد لو كان بوسعنا أن نتناول تلك المواضيع الحميمة بدون أي شعور بالعيب؟».

هز صديقي كتفيه.

«تلك هي الحجة الدائمة لإرغامنا على السكوت. في مجتمع مثل مجتمعنا، العيب أداة الاستبداد. الإحساس بالذنب والعيب، هذا ما اخترعته الأديان لكي تقيد حركتنا! ولكي تمنعنا من الاستمتاع بعيشنا! لو تسنى للرجال والنساء الحديث بصراحة عن علاقاتهم، وعن مشاعرهم، وعن أجسادهم، لكانت البشرية جمعاء أكثر ازدهاراً وإبداعاً. أنا على ثقة بأن ذلك سيحصل يوماً!».

كنا في أواسط السبعينيات، وما يقوله بلال يتماشى مع روح العصر. ولكن كلامه كان مفعماً بالحدة، مترعاً بالإلحاح! ومن جهتي، لزمت الصمت. فلشدة ما كان ذلك الحياء الشديد الذي يدينه صديقي متأصلاً في شخصيتي، لم يكن بوسع أي مناقشة، مهما بلغ حماسها، أن تقتلعه. فالدرع يحمي بقدر ما ينوء بوطأته على الكاهل، وليس بوسعنا التخلص منه بدون أن نتعرى. وكان هو نفسه يتكلم، حكماً، مثل المسلوخ حياً. وحين بدأ يحكي لي عن لقائه بسمي، وعن الكلمات الأولى التي تبادلاها، وقبلتهما الأولى، والزر الأول الذي حل، والمعانقة الأولى - كان ذلك عاطفياً، وصاخباً، ومحرجاً في آن واحد.

والغريب في الأمر أنه لم يخطر لي ولو للحظة واحدة أن بلال كان يسعى إلى أن يهزأ بي. كان بوسع ذلك أن يخطر ببالي. ففي نهاية

المطاف، ذلك الشاب أقدم على ما كنت أتوق إليه، ولم أجرؤ على القيام به. ولكني كنت أتفهم بأي ذهنية كان يتحدث عن الأمر. لم يكن يسيِّره نحوي، أي تهكم، أو غطرسة، أو تبجح. فقط الرغبة بتواطؤ الصداقة الذي يزعزع اللياقات وأشكال التزمت. ولو أحسست بأن يداً تزعزعني، فهي يد صديقة.

في لحظة ما، خلال حديثنا، قال:

«أنا سعيد لأننا غازلنا الفتاة نفسها».

أجبته لمسايرته أكثر مما كنت أعتقد ذلك فعلاً: «أجل، إنها مصادفة حلوة...».

فصحح كلامي بنبرة أصبحت فجأة رصينة: «كلا، ليست مصادفة، بل مشاركة. كما لو أننا جئنا من الضيعة نفسها، وشربنا من النبع نفسه».

كنا جالسين على إفريز حجري، عند مدخل عمارة، في زقاق تعلوه قنطرة، والمطر لا يزال ينهمر من أفواه القرب، ولكني كنت أصغي بكل جوارحي إلى كلام صديقي.

«ألا تظن يا آدم أننا لم نولد في العصر الصحيح، أنا وأنت؟».

«وفي أي عصر كنت تريد أن تولد؟».

«بعد مئة عام، أو مئتي عام. البشرية تتحول وتتبدل، وأود أن أعرف ماذا سيكون مصيرها».

أجبته:

«ألأنك تعتقد أن ثمة خط وصول يمكنك أن تنتظرنا عنده؟ لا

تخطئ الظن! لا يمكن أبداً الإحاطة بجميع الأمور بنظرة واحدة، إلا إذا كنت الله».

وفي هذه اللحظة نهض، وصرخ، وقد مدَّ ذراعيه نحو المطر:

«الله! الله! يا لها من مهنة جميلة!».

2

عندما بلغ آدم هذا الحد من ذكرياته، أحس بالحاجة إلى الاتصال بسميراميس. حين تفارقا البارحة، شعر بأنها غاضبة.

فأكدت له: «كلا، بل كنت ساهمة فقط».

«أعذريني، نقصتني اللباقة».

«تقصد بحديثك عن بلال؟ لا بأس، إنها من ذكريات الماضي».

لم تكن كذلك تماماً، بما أن صمتاً ثقيلاً أعقب كلماتها. وسرعان ما سلَّمت:

«كلا، هذا غير صحيح، أنا أكذب. لن يكون بلال أبداً من ذكريات الماضي، ولن أكون عديمة الإحساس أو لامبالية أبداً، حين يلفظ اسمه على مسمعي. ولكن هذا ليس مبرراً لعدم التحدث عنه. لا أريد أن تراعيني، لا أريد أن تلصق بي صفة «هشة». فالشيء الوحيد الذي قد يجرح مشاعري هو بالضبط الإحساس بأن صديقاً مثلك يرى نفسه مضطراً لتجنب المواضيع التي قد تضايقني. وحتى لو فكرت بأنني قد أتألم، فأنا أطلب إليك ألا تعاملني مثل امرأة في حالة دائمة من النقاهة. أتعدني بذلك؟»

قال لها آدم، كما ليظهر لها بأنه يحيط علماً بما قالته:

«هناك سؤال لطالما قض مضجعي. هل فهمت لماذا حمل بلال السلاح؟ لم يكن مولعاً بالسياسة، وكان يلعن الحرب، ولم يكنّ الكثير من الاحترام لمختلف الأحزاب».

سمع في الطرف الآخر من الخط تنهّداً مديداً، أعقبه صمت جديد، فتساءل آدم إذا كان قد أخطأ إذ فهم تطمينات صديقته حرفياً. غير أنها أجابته في نهاية المطاف:

«أصبت بطرحك هذا السؤال عليّ. ولكن الجواب ليس سهلاً...».

«أترغبين بأن نتحدث عن ذلك في وقت آخر؟».

«كلا. هل أنت في غرفتك؟ لا تتحرك، سأوافيك!».

عندما جاءت تدق بابه، بعد دقائق معدودة، وقد احمرت عيناها. فأحس آدم بالندم والخجل.

«أعذريني، سمي! لم أقصد أن...».

فأخرسته بحركة من يدها، وجلست على أريكة من قش. ثم قالت، بدون أن تنظر إليه:

«كنا عاشقين، كما تعرف».

«أجل، أعرف، بالتأكيد».

«من بين جميع الذين قتلوا خلال الحرب، لم يمت أحد للأسباب نفسها التي مات لأجلها بلال. لقد قتله الأدب. كان أبطاله أورويل،

وهمنغواي، ومالرو، الأدباء المقاتلين في الحرب الإسبانية. كانوا مرجعيته، ونماذجه العليا. لقد حاربوا لفترة من الزمن كي ينبض قلبهم على إيقاع قلب عصرهم. ثم، وبعد أداء الواجب، عادوا إلى أوطانهم لمواصلة الكتابة. في مديح كاتالونيا، لمن تقرع الأجراس، الأمل – لقد قرأناها معاً. أنا على يقين بأن بلال لم يكن يفكر بالمعارك القادمة، حين وقف على الحواجز، وحمل رشاشاً، بل بالكتاب الذي سيؤلفه».

«أنا كنت خائفة. منذ البداية. ولكن ذلك أيضاً يدخل في إطار الصورة التي نكونها عن البطل. الزوجة، أو الأم، أو الخطيبة، التي تتوسل إليه ألا يذهب، وهو لا يصغي إلا لنداء الواجب... أنا، العشيقة العصرية، كنت أخال نفسي أذكى من الأخريات. كنت أقرأ الكتب نفسها التي يقرأها، وأشاطره أحلامه، الأمر الذي أجاز لي أن أقول له: «هذا البلد ليس إسبانيا في ثلاثينيات القرن العشرين. هناك، كان الناس يقاتلون من أجل مثل عليا. أما عندنا، فالذين يحملون السلاح ليسوا سوى زعران الحي. يتخايلون، ويفرضون الخوة، وينهبون، ويهربون...» أحياناً، كان يعطيني الحق، ولكنه كان يقول أحياناً أخرى: المرء دوماً يزدري عصره، مثلما يعظم الماضي. من السهل أن أتخيل نفسي جمهورياً في برشلونة عام 1937، أو مقاوماً في فرنسا عام 1942، أو من رفاق تشي غيفارا . ولكن حياتي تجري هنا والآن، هنا وعليّ الآن أن أختار: إما أن أنخرط، وإما أبقى بمنأى عن ذلك».

«كان يخشى أن يفوته عصره، وأن يفقد على هذا النحو الحق في الكتابة. كان يخشى ألا يعيش حتى الثمالة، بشغف، وكان عشقنا لا يكفيه».

ولزمت الصمت، وبمنديل مجعد ومتكوِّر، مسحت عينيها ثم مسحت أطراف شفتيها. ترك آدم بضع لحظات تنقضي قبل أن يقول لها:

«لقد أجبت توّاً عن سؤال آخر لطالما طرحته على نفسي: إنه لم يحمل السلاح إذاً بسبب خلاف حصل بينكما».

وكم استغرب محاور سميراميس حين رأى هذه الملاحظة تنتزع منها ابتسامة عريضة.

«كانت علاقتنا عاصفة، هذا صحيح. كنا نتخاصم، ثم نتصالح، ولكن لا أحد منا كان يريد التخلي عن الآخر».

«لم يكن الأمر قطّ بسببي... أجل، أعرف، من السهل عليّ قول ذلك لا سيما وأنه ليس موجوداً للدفاع عن نفسه. ولكني أعتقد أنه كان ليسلم بذلك عن طيب خاطر. كان يتسبب بالشجار دوماً، ويبادر إلى المصالحة. والحق، في هذه الحالة أيضاً، على الأدب. ثمة تلك الفكرة الخيالية السخيفة التي مفادها أن على الكاتب أن يعيش علاقات غرامية صاخبة لكي يستطيع أن يتحدث عن الحب. فالسعادة الهانئة تخمد العواطف وتبلد المخيلة. طق حنك![*] فلا تاريخ لشعب سعيد، ولا

(*) Bullshit: (وردت بالإنكليزية في النص الأصلي) (المترجمة).

أدب لزوجين سعيدين. كلام فارغ! في النهاية، لم نحصل نحن الاثنين لا على زواج سعيد ولا على أدب».

والتقطت أنفاسها قبل أن تردف قائلة:

«كانت علاقتنا مثل تلك الرقصة المحمومة التي يبتعد فيها الراقص عن الراقصة بعنف، ثم يعود فليتصق بها بالقدر نفسه من العنف، قبل أن يبتعد عنها من جديد. ولكن لا أحد منهما يفلت يد الآخر في أي لحظة من اللحظات».

وتوقفت عن الكلام قليلاً، وافتر ثغرها عن ابتسامة آتية من غياهب سنوات ولت. ثم تابعت تقول:

«أراني السلاح الذي اشتراه، وكان يتباهى به مثل الطفل، وناولني إياه لكي أحمله، معتقداً ربما بأنني سأشعر بالمهابة. شعرت على الفور بالاشمئزاز من المعدن البارد ورائحة الشحم، ورميتُ تلك القطعة على الكنبة؛ فوثبت وكادت تقع أرضاً؛ التقطها في اللحظة المناسبة، وحدجني بنظرة غضب وازدراء. قلت له، بنبرة متحدية: «ظننت بأنك ستبدأ بالكتابة!» فأجابني: «أولاً، يجب أن أقاتل، ومن ثم سأكتب!». لم أره ثانية. لم نتكلم بعدها قطّ. ولقد مات بعد أربعة أيام. بدون أن يكتب، وبدون أن يكون قد قاتل حقاً. فأول قذيفة أطلقت من الحي الآخر انفجرت على بعد أمتار منه. ويبدو أنه كان متكئاً إلى حائط، سارحاً في أحلامه. وإني على ثقة بأنه لم يستخدم سلاحه أبداً».

«على الأقل، ظلت يداه نظيفتين، ولم يقتل أحداً».

دوَّن آدم حالما انصرفت صديقته: من الواضح أن سمي مضطربة بسبب استحضار هذه الذكريات. ولدى التفكير في الأمر، لست نادماً على أني حدثتها عن تلك الفترة من ماضيها - من ماضينا المشترك، يجدر بي القول، وإن كانت الصدمة بالنسبة إليّ، كما بالنسبة إلى الأصدقاء الآخرين، أخف وطأة بكثير مما هي بالنسبة إليها. كان من المهم أن أعطيها الفرصة لكي تقول لي، بكلمات واضحة وفخورة، إنها بذلت كل ما بوسعها لكي تحول دون ذهاب بلال لملاقاة حتفه.

أدري أن كل ذلك لن يلغي لديها الأسى ولا الإحساس المحتوم بالذنب الذي يرتبط برحيل الأحبة. ولكن يتراءى لي بأنها أضفت على موته نبلاً وخففت قليلاً من عبثيته حين جعلت منه شهيد الأدب عوضاً عن ضحية اشتباك مبتذل.

أثار فضولي ما قالته لي عن انبهار بلال بالحرب الإسبانية. لا ريب أننا كنا نتحدث عنها في أغلب الأحيان، ولكن لا أكثر من حرب فيتنام، وحرب تشيلي، أو المسيرة الطويلة. لم أكن أدري أن ذلك الحدث كان يؤرقه إلى هذا الحد، أو أنه كان يحلم بأنه همنغواي آخر. فحين كنا معاً، أنا وهو، خلال نزهاتنا، كنا نتحدث بالأحرى، لدى ذكر الحرب الإسبانية، عن غارثيا لوركا الذي كان، بالطبع، من ضحاياها الأولى، إنما بدون أن يحمل السلاح يوماً.

والمناقشة الأخيرة بين سمي وحبيبها، كانت ذات صلة ببعض النقاشات التي كنا نخوضها في ذلك الوقت في إطار شلة أصدقائنا،

حول الموضوع نفسه. أي: هل النزاعات التي تعصف ببلدنا مجرد اشتباكات بين قبائل، وبين عشائر، لئلا نقول بين عصابات مختلفة من الزعران، أم أن لديها بالفعل بعداً أكثر اتساعاً، ومضموناً أخلاقياً؟ وبعبارة أخرى: هل كان الأمر يستحق أن ينخرط فيها المرء، وأن يجازف بملاقاة حتفه؟

في تلك المرحلة من حياتنا، كان من المفهوم بالنسبة إلينا أن الحرب الإسبانية، وعلى الرغم مما ارتكب فيها من انتهاكات، هي مثال النزاع الذي تسيره قضية حقيقية، وبعد أخلاقي حقيقي، والذي يستحق بالتالي التضحية. أما اليوم، ومن خلال نظرة المؤرخ الخمسيني الذي أصبحتُ، تساورني بعض الشكوك بهذا الشأن. في تلك المرحلة، لم تكن لدي شكوك، ولا أصدقائي كذلك. والمعركة الوحيدة الأخرى التي كانت تستحق بنظرنا أن يضحي المرء لأجلها بحياته كانت مقاومة النازية. سواء كانت فرنسية، إيطالية، سوفياتية، أو ألمانية؛ كنا نغني معاً «بيلا تشاو» و «الملصق الأحمر» لأراغون، ونريد جميعاً أن نكون شتاوفنبرغ أو، أفضل من ذلك، ميساك مانوكيان، النجار الأرمني من جونية الذي أصبح زعيم شبكة للمقاومين في فرنسا.

وتعاستنا، ومأساتنا، أنه كان يتراءى لنا بأن المعارك التي بوسعنا أن نخوضها في عصرنا وفي بلدنا تفتقر إلى تلك النقاوة، وإلى ذلك النبل.

لا أعتقد أننا كنا جميعاً على استعداد للموت من أجل قضية عادلة،

حتى في سن الثامنة عشرة. ولكن تلك المعضلة لم تفارق أذهاننا ولا مناقشاتنا. أسنمضي حياتنا بأكملها، وفي كل الأحوال شبابنا، بدون أن تسنح لنا فرصة الانخراط بملء جوارحنا في معركة تستحق النضال؟ أهناك من حولنا قضية عادلة، يدافع عنها البشر الأنقياء، أو على الأقل الجديرون بالثقة؟ كنت أشك بذلك.

إنني على ثقة بأن الشكوك نفسها كانت تساور بلال. حتى لو قرر يوماً إسكاتها لشدة ما نفد صبره. ولقد أخطأ، ولكني أحترم قراره، وسأظل أردد، كلما فكرت فيه: «كان شخصاً نقياً!».

3

أغلق آدم مفكرته، بعد أن خط هذه الكلمات الأخيرة للمرة الثانية أو الثالثة، ثم فتح غطاء حاسوبه المحمول لكتابة رسالة عن موضوع مختلف تماماً، يتعلق بالمستقبل القريب، مستلهماً كذلك حديثه بالأمس مع سميراميس.

«عزيزي نعيم،

ها أنا ذا أكتب لك من جديد، وكأن رسالتي الأخيرة لم تكن طويلة بما فيه الكفاية! ولكنك ستفهم سبب عودتي إليك بهذه السرعة.

ذهبت البارحة مساء إلى ضيعة مراد، كما أخبرتك، لتقديم التعازي إلى تانيا. إنها حزينة بالطبع، ومرهقة، وأعصابها متهالكة، كما أنها متأثرة بشكل خاص، كحال زوجها على الأرجح في آخر حياته، بسبب جفاء الأصدقاء. ولقد عاودت الحديث عن جمع شملنا الذي تحدثنا بشأنه. وأظن أن مشاعرها ستجرح في الصميم لو فشل هذا المشروع. فلشدة ما تحدثت عنه بحماس، كدت أعلن لها أنك قد أعطيتني موافقتك بالفعل، بل وأنك تود أن نجتمع عندها، في البيت القديم. ولكني أحجمت، ولم أقل شيئاً، لم أشأ إثارة ترقب لديها قد يخيب. كنت أريد أولاً التأكد من أن هذا اللقاء سوف يحصل.

حتى الساعة، كتبت لشخص واحد غيرك هو ألبير. وقد رد عليّ بأن بلدنا لا يزال على قائمة البلدان التي لا يحق لرعايا الولايات المتحدة الأميركية زيارتها، وهو حظر يحتم عليه التقيد به بحكم مركزه المهني. إنه يود أن نلتقي في بلد آخر، في باريس على سبيل المثال.

أما أنت، فقد وافقت في الحال، على المبدأ والمكان، بدون أي تحفظ، ولكانت تانيا اغتبطت لمعرفة ذلك. غير أني أريد التأكد تماماً من أنك فكرت بتبعات ذلك ملياً، لا سيما في ما يتعلق بسلامتك. ولتوضيح هذه الناحية، أكتب لك من جديد.

حسبما قالت سمي - هل أخبرتك أني أقيم في فندقها البديع، نزل سميراميس؟ - إنني أقلق بدون مبرر، وألبير كذلك. إنها تؤكد بأن الرعايا الأميركيين المتحدرين من عندنا يلتفون دوماً على هذا الحظر، وأن لا أحد يضايقهم بسبب ذلك، لا هنا، ولا لدى عودتهم إلى الولايات المتحدة. وهي تؤكد، كذلك، في ما يتعلق بك، أنه لا يوجد أي خطر على الإطلاق.

لعلها على صواب، وأرغب بتصديق ذلك... ومن المحتمل جداً ألا يطرح جواز سفر ألبير أو تطرح ديانتك أي مشكلة. إلا أني أفضل مشاطرتك مخاوفي لكي تستعلم، وتمعن التفكير، وتتخذ قراراتك عن دراية [...]».

وبعد أربعين دقيقة، وصل رد نعيم من البرازيل، مع أنها لم تكن السادسة صباحاً بالتمام:

«عزيزي آدم،

أتفهم مخاوفك، ولكنها لا تبدو لي مبررة حقاً. فأنا لن أتعرض لأي خطر، على الإطلاق. سأسافر بجوازي البرازيلي، وسأختلط بحشود المغتربين الذين يعودون لتنشق هواء الوطن، ولا أحد يحتاج لمعرفة ديانتي.

مشكلتي الوحيدة ستكون أمي. فقد بلغت السادسة والثمانين أخيراً، وستصاب بأزمة قلبية لو أخبرتها إلى أي بلد سأذهب. فسأضطر للكذب عليها. سأقول لها إنني ذاهب إلى اليونان، وستنتزع مني وعداً بأن أعتمر قبعة لئلا أصاب بضربة شمس...

كلا، صدقاً، لا أرى سبباً يحول دون قيامي بهذه الرحلة. فأنا أنتظر منذ سنوات هذه الفرصة، ولن أفوتها هذه المرة. لقاء الأصدقاء، بالطبع، إنما كذلك المدينة، وبيتنا القديم - إذا كان لا يزال قائماً - ، وكذلك بيتنا في الجبل، حيث كنا نمضي فصل الصيف، وحيث كنت أصطحب صديقاتي حين أحتاج إلى غرفة هادئة. اليوم، يأتي صديق ابنتي، وهو طالب في جامعة ريو، لقضاء كل إجازاته الأسبوعية عندنا، في ساو باولو؛ ينام في البيت، وفي الصباح، يتناول الفطور على مائدتنا. لشدة ما تأصل ذلك في عاداتنا باتت أمي نفسها ترى الأمر طبيعياً، يدخل ضمن المسار الطبيعي للأمورِ، وكأنما الوضع كان كذلك على الدوام؛ هي التي كانت ستوبخ شقيقتي لو لمحتها فقط تهمس في أذن شاب. أما نحن الصبيان، فكنا لا نخضع لمثل هذه الرقابة الصارمة، إنما كنا

مضطرين على الدوام للتحايل، كما تذكر!، والاختباء باستمرار، وذلك البيت في الجبل كان ملاذي الحميم.

سيكون من دواعي سروري زيارة كل هذه الأماكن التي واكبت فترة صباي، وإن لم تعد واضحة المعالم؛ وكذلك، بصفة أشمل، زيارة ذلك البلد الذي رحلت عنه على مضض معللاً النفس بزيارته بانتظام، والذي لم تطأ قدماي ترابه في نهاية المطاف.

في البداية، كانت الحرب، وانعدام الأمن، والقناصة المتربصون، والخوف من عمليات الخطف؛ وحين شهد البلد فترات استتب فيها الهدوء، كنت أنا مشغولاً أكثر من اللازم. ومع مرور الوقت، تعاظمت هواجسي، ولم أعد أتخيل نفسي واصلاً إلى المطار، وراكباً في سيارة أجرة، ومغامراً بالسير في الأحياء. فما كان مني إلا أن اقتنعت بأنه لا يجدر بي التفكير في ذلك بعد اليوم، وأنه لا بد من قلب الصفحة، وأن أعز الأشخاص على قلبي، في جميع الأحوال، قد رحلوا كلهم تقريباً، إما إلى بلدان أخرى، وإما إلى الآخرة.

غير أن الرغبة ظلت دفينة في القلب. وحين اقترحت عليّ جمع شمل أصدقاء الأمس، أحسست على الفور بأنها الفرصة المثالية لكسر عذرية الغياب الطويلة تلك. ولذلك، لمست مني تلك اللهفة، وذاك الحماس.

من جهتي، لقد حسمت أمري. وبما أني أتحكم بوقتي بهذا القدر أو ذاك، سأترك لك أن تحدد الموعد، على أمل أن يكون قريباً. سأسافر عما قريب إلى أوروبا، ولربما استطعت الجمع بين الرحلتين...

أما ألبير، فأنا مشتاق كثيراً لرؤيته بعد طول فراق، ولكني أنصحك بألا تشوش عليه كثيراً. لا ريب أن بوسعه، لو شاء، الالتفاف حول الحظر الذي يهدف بخاصة إلى عدم تحميل السلطات الأميركية أي مسؤولية في حال وقوع مشكلة. ولكن دعه يقدر المخاطر. وانقل له مختلف الآراء، بدون أن تجادله، ودعه يمعن التفكير. فليس من المستحيل أن يغير رأيه [...]».

كتب آدم إلى صديقه الأميركي، حرصاً على عدم «التشويش» عليه إو إحراجه الرسالة التالية:

«عزيزي ألبير،

كتبت توّاً إلى نعيم لأقول له... تقريباً عكس ما سأقوله لك.

عندما حدثته، منذ بضعة أيام، عن جمع شملنا الذي ترغب به ثانيا، والذي أحاول تنظيمه، اقترح على الفور أن نلتقي مثل السابق في «البيت القديم». فكتبت له لأستفسر إذا كان قد أخذ في الحسبان المخاطر التي قد يتعرض لها، وها هو يجيبني بأن هذه المخاطر طفيفة برأيه، ويؤكد لي رغبته بالعودة لزيارة البلد.

وبالتالي، فأنا أطلب منك العكس. قلت لي إنك تفضل أن يكون اللقاء في باريس، وأود أن أطلب منك التفكير في الأمر مجدداً. هل جوابك نهائي؟ أما من وسيلة للالتفاف حول هذا الحظر على السفر؟

كن على ثقة، في جميع الأحوال، بأنني سأتفهم تماماً قرارك، مهما كان».

4

كان آدم يعيد قراءة رسالته، قبل أن يضغط على زر الإرسال، حين دقت سميراميس بابه. طلب منها الدخول، وقرأ لها النص بصوت عال. لم تجده صارماً بما فيه الكفاية؛ كانت تريد أن يقول بمزيد من الوضوح بأنه لا يوجد أي خطر. تردد آدم للحظات، ولكنه أرسل في النهاية رسالته كما هي، بعد أن أدخل، بصورة شكلية، تصويباً ثانوياً. ثم أغلق غطاء حاسوبه وهو يقول لزائرته:

«كلي آذان صاغية».

«أفترض أنك لا تنوي أن تتغدى».

نظر إلى ساعته. كانت تشير إلى الثانية عشرة ظهراً والدقيقة الخامسة عشرة.

«ولكن الوقت لا يزال مبكراً جداً. لا أشعر أبداً بالجوع. سأواصل العمل...».

«سأرسل لك في هذه الحالة صنفين أو ثلاثة أصناف لتتسلى بها بدون أن تتوقف عن الكتابة».

ولكن سميراميس عادت لسبب آخر. وأضافت:

«لاحقاً بعد الظهر، سيكون لدي مشاريع لك. زيارة يجب أن

تقوم بها. أعلم أنك لا ترغب برؤية أحد، ولكن يبدو لي أنك ستكون مستعداً للقيام باستثناء من أجل الأخ باسيل».

كان آدم يهم بالسؤال عن هوية ذلك الشخص، حين استدرك على الفور، مستهدياً بالابتسامة الماكرة لصديقته:

«رمزي!».

«هو بعينه!».

«أعلم أنه قد اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً لدى دخوله الدير... كلا، ليست تلك الكلمة المناسبة. كيف يقولون على فكرة؟ نسيت...» «لا اسم مستعار، ولا لقب، ولا اسم حركي. يقال فقط «في الدين». رمزي، فاصلة، في الدين الأخ باسيل».

«أجل، بالتأكيد. عقلي شارد...هل اقتفيت أثره؟».

«كنت دوماً أعرف مكانه».

«وهل زرته؟».

«كلا، لم أجرؤ. آثمة جميلة مثلي تذهب عند الرهبان... لم أتوقع أنني سأستقبل بحفاوة».

«فلم تجتمعي به قطّ، بعد هذا... التحول. وما الذي يدعوك للاعتقاد بأنه سيقبل أن يجتمع بنا؟».

«لا شيء. لا أدري. ولكن يبدو لي أننا لو طرقنا بابه، أنا وأنت معاً، فسيفتح لنا».

«كم يبعد عن هنا؟».

«مشوار ساعتين، أو ربما أقل. ساعة ونصف في السيارة، ثم عشرين دقيقة سيراً على الأقدام».

كان آدم، على ما يبدو، يتردد. فضحكت سميراميس من جديد ضحكة الطفلة الماكرة.

«ثقْ بي! أشعر بأن اللقاء سيكون على خير ما يرام».

ولكن صديقها لم يكن مقتنعاً.

«لا يجوز أن نزور، بهذه الطريقة، صديقاً قرر الابتعاد عن العالم. يجب أن نتهيأ قليلاً، لئلا نقوم بدعسة ناقصة. بودي أن أتحدث أولاً إلى أحدهم...».

«إلى رامز، أفترض...».

وابتسمت، وابتسمِ بدوره. فلقد كان يفكر بذلك الصديق بالفعل. في الجامعة، كان رامز ورمزي لا يفترقان. كان كلاهما ينتمي إلى «دائرة البيزنطيين»، ولكنهما يؤلفان فيها فرعاً منفصلاً. كانا يدرسان الهندسة، في حين يدرس معظم الآخرين الأدب، أو التاريخ، أو علم الاجتماع؛ وثقافتهما إنكليزية بينما درس الآخرون جميعاً في مدارس فرنسية.

وبعد نيل الشهادة، أسس «الرمزان» معاً مكتباً للهندسة يحمل اسميهما.

وقالت سميراميس، وهي مشككة في الظاهر: «يجب أن نتحقق مما إذا كان الراهب والمهندس لا يزالان صديقين».

«وحتى لو لم يكونا كذلك، فبوسع رامز أن يقدم لنا إضاءة ثمينة.

لماذا اعتزل صديقه العالم، وبأي حالة ذهنية هو اليوم، وهل يتلقى زيارات، وهل سيشعر بالاعتداء على خلوته لو رآنا ندق باب الدير... عند رامز وحده الخبر اليقين. هل أنت على اتصال به؟».

«كلا، ولكني أعرف أنه يعيش الآن في عمان».

«أليس لديك رقم هاتفه...».

«سأبحث عن شخص لديه رقمه. أمهلني عشر دقائق، وسأحضره لك».

حالما غادرت سميراميس غرفتي، فتحت الملف الذي يحمل عنوان «رسائل الأصدقاء» لأبحث فيه عن رسالة قديمة، من الرسائل الأولى التي تلقيتها بعد وصولي إلى فرنسا؛ كانت مكتوبة باللغة الإنكليزية، إنما تتوزع فيها كلمات عربية، وتتخللها رسوم صغيرة في الهوامش.

«عزيزنا آدم،

نكتب لك هذه الرسالة معاً، أنا ورامز...

ابتسمت رغماً عني وأنا أعيد كتابة هذه السطور، مثلما فعلت حين قرأتها للمرة الأولى، منذ ربع قرن. ومع ذلك، فما يخبرني فيها الصديقان يثير الأسى.

كنا قد استأجرنا مكتباً في الطابق الأخير من عمارة حديثة رائعة،

فيها واجهات زجاجية تطل على البحر. وقد استلمناها في مطلع الشهر الماضي، ووصل أثاثنا الأسبوع التالي. اعتزمنا أن ندعو لحفل صغير مساء السبت في 12 من هذا الشهر. وفي بداية فترة العصر، سمع إطلاق رصاص في الحي، وأغلقت الشوارع، ولم يتمكن أي من المدعوين من الوصول. كنا قد أحضرنا صواني من الموالح والحلويات، وكل المشروبات التي بوسعك أن تتخيلها. وكان من المقرر أن يكون هناك نادلان، ولكنهما لم يتمكنا من المجيء بدورهما.

وحوالى السابعة مساء، اشتد إطلاق النار، وانفجرت قذائف قربنا، وتحطمت واجهات المكتب الزجاجية وتحولت إلى شظايا. ولقد اضطررنا للجوء إلى القبو بانتظار هدوء نوبة الجنون. وهنا، في الملجأ، في العتمة، أمضينا الليلة، مفترشين الأرض، وسط الجيران الذين كان يُفترض أن يحضروا حفل التدشين. من باب اللياقة، دعوناهم جميعاً إلى الحفل، ولكن ما من أحد منهم رأى أنه من الحكمة التهور والصعود إلى الطابق الثامن، وهو أكثر الطوابق عرضة للقصف.

وفي الصباح، صعدنا إلى المكتب، عبر السلالم، بالطبع؛ فالتيار الكهربائي كان مقطوعاً. وجدنا أنه قد أصبح خربة بكل بساطة. في كل الزوايا، انتشرت شظايا القذائف، والزجاج المحطم. وقع السقف على صواني الحلويات، وكانت الموكيت مشبعة بالبيرة والمشروبات الغازية. انعقد لساننا. فتهاوينا على الأرائك الجلدية، في ما كان يُفترض أن يكون قاعة اجتماعاتنا، وانفجرنا بالبكاء. ثم غفونا من الحزن

والتعب، والنعاس بكل بساطة، لأننا تظاهرنا بالنوم فقط في الليلة التي أمضيناها في الملجأ.

أيقظتنا المعارك، حين استؤنفت، عند الفجر. كنت أول من فتح عينيه؛ وكان رامز لا يزال في أريكته، مغمض العينين، ولكنه سرعان ما فتحهما. حدق أحدنا بالآخر، بدون أن ننهض. ثم انفجرنا ضاحكين. لا، لم تكن ضحكة ساخرة، بل قهقهة مجنونةلم يكن بوسعنا وقفها.

وعندما تمالكنا أنفسنا أخيراً، سألت: «وماذا سنفعل الآن؟»فأجاب رامز في الحال، بدون أن يفكر: «الآن، سنهاجر!»، «وهذا المكتب؟»، «هذا المكتب، سنخرج منه بعد ستين ثانية بالضبط، ولن نعود إليه أبداً. سنستقر في لندن». كنت أفضل باريس من جهتي، ولكن من القسوة إرغام شريكي على العيش والعمل باللغة الفرنسية لشدة ما كانت معرفته بهذه اللغة سيئة. وفرنسيتي لم تكن ممتازة، ولكنها مقبولة، وكانت ستتحسن مع الوقت. أما فرنسية رامز فميؤوس منها.

أكتب إليك إذن لأخبرك بأننا سنصبح قريباً جيراناً – مبدئياً، اعتباراً من الشهر المقبل، أو في كانون الثاني على أبعد حد. أما من جهتي، فأنا أعرف بأنني سأسافر إلى باريس كلما نُظم فيها معرض يثير اهتمامي، أي في أغلب الأحيان؛ وسيكون من دواعي سروري أن ألقاك. ولا بد كذلك من أن تأتي إلى لندن لزيارتنا...

صديقك الذي لا ينساك،

رمزي».

وتختتم الرسالة بهذه السطور المكتوبة بخط مختلف:

«إنتبه لنفسك، ولا تصدق كل ما يقوله شريكي! ففرنسيتي لا عيب فيها؛ وإذا كنت أتجنب التعبير فيها، فذلك فقط لكي لا أفسدها».

أخوك الآخر الذي لا ينساك،

رامز»

نسيت الظروف التي جاءت برمزي ورامز إلى شلة الأصدقاء. ولكني أذكر دوماً أنهما كانا هنا، معاً، جنباً إلى جنب. كنا نخاطبهما بصيغة المفرد كأنهما شخص واحد. وكان هذا الموضوع مصدراً لا ينضب من الدعابات الخفيفة. «رامي تفركش بحجر، ورمزي وقع»؛ «رمزي شرب ثلاث قناني بيرة، ورامز داخ»... كان يجب أن يحمل كل لقاء تلميحاً إلى «توأمتهما»، بل كان ذلك بمثابة الطقس، والصديقان من أوائل الذين يستظرفون ذلك.

وكانا يقومان بكل شيء، أصلاً، لكي تستمر هذه الأسطورة. وعلى هذا النحو، صارحانا يوماً بأنهما قررا في سنة أولى هندسة أن يصبحا شريكين. كان وعداً يقطعه مراهقان ولكنهما التزما به. وعندما دُمِّر أول مكتب مشترك لهما، افتتحا مكتباً آخر. لا في لندن، كما قررا في ذلك اليوم، بل في جدة، في السعودية. ففي اللحظة التي كانا يستعدان للسفر إلى إنكلترة، عرض عليهما مشروع ضخم سيعملان على تنفيذه ثلاثة

أعوام ونصف العام، ويجمعان ثروة بفضله. وفي نهاية المطاف، فتحا مكتباً في لندن، ولكنه كان مجرد فرع، على غرار فروعهما الأخرى في لاغوس، أو عمّان، أو دبي، أو كوالالمبور.

اتصل آدم برامز حالما عثرت سميراميس على رقم هاتفه. رد عليه صوت أنثوي سارع بطمأنته: كلا، لم يخطىء الرقم، كان «خليوي» رامز بالفعل، وهي مساعدته. وقد عهد مديرها بهاتفه إليها لأنه قصد أحد المستشفيات لزيارة قريب له خضع لعملية جراحية. فعرف آدم عن نفسه، وأعربت المساعدة، واسمها لينا، عن سرورها بالتحدث إليه عبر الهاتف؛ فلطالما حدثها مديرها عنه.

في بداية حديثهما، كانت تظن بأنه يكلمها من باريس. وحين عرفت مكان وجوده، أطلقت ما يشبه الصرخة. فقد شاءت محاسن المصادفات أن يكون رامز بدوره هناك في ذلك اليوم.

«إنني على ثقة بأنه لن يقبل المغادرة قبل أن يلتقي بك. لقد قرر أن يسافر بالطائرة إلى عمان حوالى الثالثة بعد الظهر، ولكني متأكدة بأنه سيرجئ سفره. أرجو ألا تكون قد تناولت الغداء».

«كلا، ليس بعد».

«إذا كنت غير مرتبط، سأرسل لك سيارة في الحال لكي يتسنى لكما قضاء بعض الوقت معاً».

بوغت آدم بعرضها.

«هل أنت متأكدة؟ ألا تريدين أن تسأليه؟».

«لا داعي لذلك! إنني متأكدة بأنه سيبتهج بهذه المفاجأة، وبأنه سيشكرني على تنظيم هذا الغداء العفوي. أعطني فقط العنوان الذي تقيم فيه، ودعني أهتم بالتفاصيل الأخرى».

5

اقتيد آدم في سيارة مرسيدس معدنية إلى بيت قديم عثماني الطراز على البحر، تحول إلى مطعم إيطالي، يحمل اسم *Nessun Dorma*. فتح باب السيارة موظف بالغ الحفاوة رافقه إلى الطابق الثاني بدون حتى أن يسأله عن المائدة التي تستضيفه.

نهض رامز حين رأى صديقه يقترب، وعانقه عناقاً حاراً، قبل أن يبادره بالإنكليزية:

«فلننس ذلك الجزء من الحوار حين يفترض بأحدنا أن يقول للآخر: لم تتغير!».

رد عليه آدم باللغة نفسها:

«أنت على حق، دعنا لا نبدأ بالكذب من أول الطريق!».

جلسا ضاحكين إلى مائدة مستديرة قد زينتها صينية كبيرة من الخضار، وراح أحدهما يتأمل الآخر بصمت. تغير كلّ منهما إنما بطريقة مختلفة. لقد شاب شعر آدم، ولكنه حافظ على قامته الممشوقة؛ ولم يكن من الصعب البتّة التعرف إليه على صورة من أيام الصبا. أما رامز فقد اكتنز، وصارت له شوارب أشبه بشوارب كولونيل بريطاني، كثة، وعريضة، وكثيفة بأناقة. والغريب في الأمر أنها لاتزال سوداء،

فيما غزا الشيب مفرقه. ولو صادفه صديقه في الشارع، لما تعرف إليه من الوهلة الأولى.

«مساعدتك ظريفة، وفعالة بشكل مخيف».

«لينا تستوفي كل المواصفات، وأنا محظوظ بها».

«منذ ساعة، كنت أتساءل كيف سأعثر عليك لأتبادل معك أطراف الحديث، وها نحن نتغدى معاً. إنها تكاد تكون أعجوبة».

«لن تتخيل كم أنا مسرور بلقائك! ربما يكون الفضل في ذلك للمسكين مراد. لقد حضرت هذا الصباح لتقديم التعازي. البارحة، كان لدي اجتماع في أثينا، ولم أستطع حضور المأتم. قيل لي إن آلاف المعزين أتوا».

«لم أحضر المأتم بدوري. ومع ذلك، فقد جئت لأجل ذلك...».

وحكى بكلمات مقتضبة خصامه الطويل مع مراد، والنداء الذي تلقاه من المحتضر يوم الجمعة فجراً، وقراره بالسفر لئلا يزعل صديقه وهو على فراش الموت. وأخيراً، تردده عن حضور الجنازة... فطمأنه رامز:

«لقد قمت بأهم ما يجب القيام به. عندما اتصل بك، تجاهلت خصامكما لتأتي وتزوره. ثم ذهبت لتعزية تانيا بعد المأتم. فضميرك مرتاح».

لزم الصمت لوهلة، ثم استأنف الحديث، بالعربية هذه المرة:

«تابعت قليلاً مسار مراد، وأتفهم قرارك بالقطيعة معه.أنا لم

أتصرف مثلك، ففي مهنتي، أضطر للتعامل باستمرار مع أشخاص جمعوا ثروتهم بأساليب مشبوهة؛ ولكن رأيي فيه مثل رأيك. فمع أن عدداً كبيراً من الأشخاص سلكوا مسلكه أثناء الحرب، فقد كان من الصعب تقبل ذلك من أحد أصدقائنا. كلما أسمع ما يقال عن مراد وعن أنه سياسي فاسد، أو الذراع الأيمن لأحد الحثالة، أشعر بالخجل، وبأني تعرضت شخصياً للمهانة».

«هذا، ولا أزال مقتنعاً بأن صديقنا شخص شريف في أعماقه، وتلك هي المأساة. فالزعران الذين يتصرفون مثل الزعران منسجمون مع أنفسهم؛ والشرفاء الذين تجبرهم الظروف على التصرف مثل الزعران ينهشهم الندم من الداخل. ذاك الداء الذي قضى على مراد، أنا مقتنع بأنه تسبب به لنفسه نظراً لإحساسه بالذنب، وشعوره بالعار، وتأنيب الضمير.

«ولكن لا يجدر بي أن أتكلم على هذا النحو، وقد ووري بالكاد الثرى... الله يرحمو! فلننتقل إلى موضوع آخر!».

كانت مائدتهما مطوّقة بنباتات باسقة وكثيفة، لا سيما منها الخيزران، تحجب الرؤية وتوحي بالحميمية المواتية للبوح. وتوزعت في القاعة الفسيحة أيضاً، هنا وهناك، أصص من أشجار النخيل. وقرب أحدها ينتظر مدير الندلاء، مع مفكرته. فأشار إليه رامز أن يقترب.

«سنطلب أولاً صحنين كبيرين من المقبلات الإيطالية، وصحني بدون لحم خنزير. وماذا اخترت يا آدم كطبق رئيسي؟».

«أرغب بتذوق سلطان ابراهيم على فرشة من الريزوتو».

«اختيار ممتاز. سأتذوقه بدوري. أترغب ببعض النبيذ الأبيض مع هذا الطبق؟».«لا، شكراً. فأنا لا أشرب على الغداء».

«أنت محق من الناحية المبدئية، فمن الأفضل عدم الشرب على الغداء. ولكن هذا اليوم مميز، ولذلك سنتناول كأساً من النبيذ الأبيض المز (البروسيكو) الخاص بالمطعم للاحتفال بلقائنا بعد طول غياب».

أثنى مدير الندلاء على هذا الاختيار وذهب لتسليم الطلب. واستأنف الصديقان على الفور حديثهما، وذكرياتهما، التي تخللتها القهقهات - قهقهات رامز التي تتميز بوقعها المدوِّي، إلى أن ذكر آدم، في معرض الحديث، اسم رمزي.

فكان رد الفعل فورياً. اكفهرت نظرة المهندس، وخفت صوته. وعجز فجأة عن الكلام وهو الذي كان صوته هداراً قبل دقيقة.

رمقه آدم لوهلة، ثم وضع شوكته جانباً قبل أن يسأله:

«أتعلم سبب رحيله؟».

انقضت ثوان عديدة.

«هل أعلم سبب رحيله؟».

كرَّر رامز السؤال وهو يغمض عينيه، وكأنه يتحدث مع نفسه.

«حين يقرر شخص الانسحاب من هذا العالم، فالأمر يبدو كالانتحار، بدون ما يرافقه من عنف جسدي. ثمة أسباب ظاهرة، وأخرى دفينة، حتى على الأقربين، وهو نفسه لا يدركها بالضرورة».

ولزم الصمت، راجياً ربما أن يكتفي آدم بهذا الجواب الملتوي. ولكن محاوره ظل يرمقه بنظرته، فتابع قائلاً:

«لو كان عليَّ أن أختصر ما جرى بجملة واحدة، فسأقول إنه قد تملكه الإحساس بأن كل ما يفعله، وكل ما كرَّس له حياته، عديم الفائدة وبلا معنى».

«في بعض الأحيان، كان يتوقف فجأة وسط حديث ليقول لي: «لماذا نفعل هذا؟». في المرة الأولى، كنا قد حصلنا على مشروع كبير لبناء قصر. وبينما كنا منكبين على الخرائط، سألني: «لماذا يحتاج هذا الرجل إلى قصر جديد مساحته ألفا متر مربع؟ فهو يملك على حد علمي ثلاثة قصور أصلاً». وابتسم، وابتسمت بدوره قبل أن أجيبه قائلاً: «أنا أوافقك الرأي، ولكنه زبون، ولديه من المال الذي يفيض عن حاجته. وبأي حال، سيبذره، وإنني أفضل أن يعطينا إياه!» فبادرني قائلاً: «ربما كنت على حق!»، ولم تذهب الأمور أبعد من هذا الحد. ولكنه راح يكثر من هذه الملاحظات».

صمت رامز، كما ليستجمع أفكاره، ثم عاود الكلام:

«لم يكن بوسع صديقنا أن يمنع نفسه من التساؤل على الدوام عن غاية المشاريع التي تعهد إلينا. فمؤسسة مثل مؤسستنا، تعمل في نحو عشرين بلداً، تبني بالضرورة، منشآت مختلفة، كمرفأ، أو مطار، أو مركز تجاري، أو قصر، أو حرم جامعي، الخ. لم يكن لجميع المشاريع فائدتها، ولا تبعاتها الأخلاقية، ولكن الحكم عليها لم يكن من شأننا،

أليس كذلك؟ لست متهكماً بطبعي، وأشاطر رمزي القيم نفسها، ولكني أرى أن هذا ليس دورنا. فالسجن الذي تشيده لأحد الطغاة، قد يستخدمه اليوم لاعتقال خصومه. ولكن مصير ذلك الطاغية وطغمته غداً قد يكون في ذلك السجن. لا يسعنا أن نرفض، من ناحية المبدأ، تشييد سجن. ففي جميع بلدان العالم سجون، وكل شيء يتوقف على طريقة استخدامها. ودورنا، نحن متعهدي البناء، يقضي بأن نسعى لكي تكون السجون أكثر إنسانية - هذا كل ما بوسعنا القيام به. فعندما يكون لدينا ألف وثمانمئة وسبعة وثلاثون موظفاً، وألف وثمانمئة وسبع وثلاثون أسرة في رقبتنا، علينا أن نبحث كل شهر عمَّن يدفع رواتبهم، وليس بوسعنا أن نجيز لأنفسنا الاضطلاع بدور مقوِّمي الأخطاء. ألا تعتقد ذلك؟»

تبدد كل المرح الذي أبداه رامز لدى وصول آدم، فقد اجتاحته الآن أفكار كثيرة راحت تتلاطم في رأسه. ازدرد بضع لقمات، أسرع من اللازم. ثم عاود الكلام:

«ليس ما قلته لك توّاً سوى أحد جوانب الأمور، فهناك أيضاً النساء، زوجتي وزوجته».

«بدأت الأمور كما في قصة خيالية. ذات يوم، التقيت بصبية، دنيا، ووقعت بسرعة في غرامها. وعلى الفور، قدمتها إلى رمزي، فوجدته ذكياً ومرحاً ومثقفاً؛ أما هو، ففي نهاية اللقاء الأول، فقد همس في أذني: «أمسكْ بيدها، ولا تتركها!».

«بعد أربعة أشهر، أخبرني رمزي أنه التقى كذلك بتوأم روحه. وتشاء المصادفة الغريبة أن يكون اسمها أيضاً دنيا. وكأنما القدر شاء أن يمازحنا. أتتخيل؟ أنا ورمزي نحمل الاسم نفسه تقريباً، ونتلازم منذ اليوم الأول في الكلية، ولا نفترق نهاراً أو ليلاً، وها نحن نصادف امرأتين تحملان الاسم نفسه!».

«فقدَّمها لنا، لدنيا ولي. لا بأس بجمالها، وتبدو لطيفة، وهو مغرم بها في الظاهر، وقررنا أن نتزوج في اليوم نفسه. لم يكن بوسعنا أن نعقد القران نفسه، إذ كان على دنيا وعليَّ أن نعقده أمام الشيخ، فيما كان على دنياه وعليه أن يتزوجا في الكنيسة - أمام مطران الجبل، الذي لم يكن سوى خاله. ولكننا قررنا أن ننظم سهرة عرس واحدة. أنت كنت في فرنسا، ولكن العديد من أصدقائنا المشتركين حضروها، ومنهم تانيا ومراد، وألبير، وسميراميس».

«وللأسف، لم تتشابه الزوجتان إلا بالاسم. وأدركت زوجتي على الفور مدى مكانة رمزي عندي؛ أما زوجته فقد أظهرت، غداة العرس، غيرةً من صداقتنا. وعندما كنت أعاني من الهموم، تسألني دنياي في الحال: «ما رأي رمزي؟»، وتشجعني على اتباع نصائحه. ولا تفوت فرصة إلا وتذكرني بأنه صديق مخلص، وبأنني محظوظ لأنني تشاركت مع شخص بهذه الاستقامة، وهذا الذكاء، والإخلاص. ومن يسمعها، يعتقد أنه يخلو من العيوب. كان يجدر بي أن أشعر بالغيرة لدى سماع زوجتي تلهج بالثناء على رجل آخر، أليس كذلك؟».

«أما زوجة رمزي، فكانت، على العكس، تكرر على مسمعه بأن يتوخى الحذر مني، وأن يبقى معي على مسافة. كان يكفي أن أتصل به، وأن نبقى بضع دقائق على الهاتف، وأن تسمعه يضحك لأمر قلته له، حتى تقيم الدنيا ولا تقعدها، إما بشأني دون لف أو دوران، وإما بذريعة أخرى. كان الأمر مضحكاً بل مرضياً. كانت تريده أن يمعن التدقيق في الحسابات. كانت مقتنعة بأنني لا أعطيه كل الحصة التي تعود إليه».

«وصدَّقها رمزي؟».

«ولا مرة صدَّقها! في البداية، لم يصارحني بالأمر على الإطلاق، وكان يشعر بالحزن، وبالخجل. ثم، في أحد الأيام، حصل أمر تافه لا طائل من ذكره، ولكنه كشف لنا، لزوجتي ولي، أن تلك المرأة تكرهنا. في اليوم التالي، جاء رمزي إلى مكتبي، واعتذر لي، وحدثني عن مضايقاتها له بسببي. ولتبرير سلوك زوجته، ذكر قصة أسرتها، ووالدها الذي تعرض للسرقة على يد أشقائه، وعمها الذي سلب بنات شقيقه أموالهن؛ باختصار، لقد تحولت زوجته إلى مريضة بالريبة بسبب جملة من الخيانات. وقال لي رمزي إنه على ثقة بأنها ستثق بالناس مع مرور الوقت وتبدل سلوكها. فبادرته بالقول: «أجل، بالطبع». ولكني لم أصدق ذلك، ولا هو دون شك».

«أفترض أنه كان يعاني جراء ذلك».

«معاناة فظيعة! كانت المسألة بالنسبة إليّ إزعاجاً؛ أما بالنسبة إليه فكانت عذاباً يومياً. قال لي في أحد الأيام، وهو يكاد يبكي، إن زواجه

كان أسوأ قرار اتخذه في حياته. وهو يلوم نفسه لأنه لم يتنبه في حينه لعيوب تلك المرأة. فقد اعتبر تشابه الأسماء آنذاك إشارة من السماء، ولكنه كان فخاً نصبه الجحيم».

«حاولت تعزيته وقلت له إن النباهة في مسألة الزواج لا تفيد كثيراً، وإن المسألة أشبه بسحب يانصيب أعمى، وإن المرء لا يكتشف إذا كان قد سحب الرقم الصح أو الرقم الخطأ إلا فيما بعد. لم أقل له ذلك على سبيل التعزية لقط. فأنا مقتنع بذلك صدقاً. ففي البيئات التقليدية التي لا يحصل فيها تعارف على الإطلاق قبل الزواج، والتي لا يجوز حتى فيها أن يتكلم الشاب والبنت قبل اقترانهما إلى الأبد، الزواج مثل تلك الحلوى الصينية التي تقدم للمرء في نهاية وجبة طعام، فيتناول قطعة منها كيفما اتفق، ويفتحها، ويبسط الورقة الموجودة في الداخل، فيراها تتنبأ له بمستقبله».

«وفي البيئات الأكثر تطوراً، تحصل عشرة قبل الزواج؛ وتسنح الفرصة للشاب والبنت، نظرياً، لكي يتفحص أحدهما الآخر، ولكن الانخداع يحصل، من الناحية العملية، بالقدر نفسه تقريباً لأن الزواج مؤسسة فاشلة».

«لست في موقع يخولني تأكيد ذلك، فأنا أعيش منذ ربع قرن مع امرأة أحبها وتحبني. ولكني أظل مقتنعاً بأن الزواج مؤسسة فاشلة. فقبل الزواج، يظهر الرجل الكثير من الاهتمام، والتودد؛ ويعامل البنت التي يرغب بها كالأميرة، إلى أن تصبح «زوجته»؛ فعندها، وبسرعة فائقة،

يصبح مستبداً، ويعاملها كالخادمة، ويتبدل رأساً على عقب، والمجتمع يشجعه على ذلك. قبل الزواج، يكون موسم اللهو؛ وبعد الزواج، تبدأ الأمور الجدية والوضيعة والتعسة».

«وليس الوضع أفضل حالاً بالنسبة إلى المرأة. فهي تكثر من التودد ما دامت تسعى وراء عريس، فتكون لطيفة، متساهلة، رضية – تتحلى بكل الصفات لإشاعة الطمأنينة في نفس طالب القرب، إلى أن يتزوج بها. وعندها فقط، يسقط القناع وتظهر على حقيقتها التي بذلت قصارى جهدها لإخفائها حتى ذلك الحين.

ولتبرئة ساحتها، أقول إن التحول لديها ليس عنيفاً ومنهجياً مثلما هو لدى الرجل. فالعاشق والزوج مخلوقان مختلفان، مثل الكلب والذئب. قبل الزواج، نكون جميعاً مثل الكلاب بعض الشيء، وبعده، نصبح ذئاباً بعض الشيء؛ وبدرجات متنوعة، ولكنه تحول من الصعب جداً الإفلات منه. وفي بعض البيئات الاجتماعية، يبدو طبيعياً مثل الانتقال من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الرشد.

أما لدى المرأة فالمسألة تُحسم بدرجة أقل. ففي الكثير من الأحيان، لا تتبدل المرأة تبدلاً جذرياً، إما لأنها في منتهى اللطف ، وإما لأنها ممثلة فاشلة، وتكشف في نهاية المطاف عن وجهها الحقيقي قبل أن يرتبط بها الرجل. لم تكن زوجة رمزي تنتمي بالتأكيد إلى تلك الفئة الثانية. فلقد نجحت في إخفاء مأربها حتى تم الزواج، وأظهرت لطفاً وطاعة وحرصاً، وعاملتني كالأخ وتعاملت مع دنياي كأنها أخت لها.

ثم، غداة الزواج، لم يعد بوسعها أن تضبط نفسها وراحت تنفث سمها. ولما انتبه صديقنا لذلك، كان قد فات الأوان».

«كان بوسعه أن يطلب الطلاق».

«هذا ما كان يجدر به أن يفعل، وهذا بالتأكيد ما كنت فعلت لو واجهت تلك المصيبة. إلا أن الطلاق، وإلى جانب كونه أصعب عندكم، أنتم المسيحيين، مما هو عندنا، فرمزي كان يعارضه من الناحية المبدئية. ولقد ناقشنا هذه المسألة أكثر من مرة... كان يفضل التمسك بالاعتقاد أن زوجته سوف تتغير، ويردد على مسمعي أنها بحاجة إلى الشعور بالأمان، وبالثقة، وبأن من واجبه أن يهيىء حولها جواً يساعدها على أن تتحسن».

«ثم أنجبا الأولاد، ولدين وبنتاً. من المفروض أن تسبب ولادة طفل فرحة عارمة. وكان رمزي يحاول أن يقنع نفسه بأنه سعيد، ويردد بأن الأمومة سوف تعزز لدى زوجته كل الحنان الذي أحس به حين تعرف إليها. وكنت أتجنب أن أخالفه الرأي - فما الفائدة؟ ولكني لم أعد أتوقع من تلك المرأة سوى المنغصات والدسائس».

«ولـم أخطىء الظن. فالعمل الهدَّام تواصل بلا انقطاع. والأكاذيب التي لم يشأ زوجها سماعها، كانت تقنع بها أولادهما. «أبوكم غشيم، يترك شريكه يتلاعب به». وفي نهاية المطاف، أحدث السم الذي تنفثه يوماً بعد يوم، وسنة تلو السنة، مفعوله. وكنت ألاحظ

ذلك كلما اجتمعت العائلتان. كان رمزي ودوداً كما عهدته، وزوجته تتصنع التودد، ولكن الأولاد لا يعرفون إخفاء مشاعرهم. وأدركت، من سلوكهم، ما لا بد أنها أخبرتهم عني. وعندما كنت أحاول أن أضمَّهم إلى صدري، ينفرون مني. في سن العاشرة كما في سن الرابعة. كان أمراً محزناً وسخيفاً على السواء».

«وأسوأ ما في الأمر الأكاذيب التي زرعتها تلك المرأة في ذهنهم عن الشركة التي أنشأناها أنا وأبوهم. لقد أنشأنا امبراطورية، وكان أولادنا هم الورثة. ولشدة ما رددت على مسمعهم بأن أباهم يتعرض للتلاعب والاستغلال والسرقة، ترعرعوا وهم يحقدون حقداً شديداً على ما نمارسه من أنشطة. ولذلك، لم يشأ أي منهم أن يدرس الهندسة المدنية أو المعمارية، أو أن يعمل معنا».

«وما زاد الطين بلة أن والدتهم مرضت يوماً مرضاً شديداً. أصيبت بورم سرطاني حاد، قضى عليها في غضون سنة ونصف السنة، وزادها داؤها سماً وحقداً. وعبثاً اعتنى رمزي بها بكل تفان وتضحية، فلم تكف عن التبرم منه. فهو لم يحبها يوماً، وكانت أولويته دوماً لشركته ولي، شريكه، على حساب زوجته وأولاده.

وبما أنها كانت مريضة للغاية، وتعاني الأمرين، لم يكن زوجها، بالطبع، يخالفها الرأي. ولتهدئة روعها، كان يعدها بأنه سيخفف من اهتمامه بأعماله، ويخصص المزيد من الوقت لأسرته. والأولاد الذين كانوا يبلغون من العمر وقتذاك ثلاثة عشر، وستة عشر، وسبعة عشر

عاماً يسمعون كل ذلك، ويرون في والدتهم ضحية، وفي والدهم وحشاً بارداً».

«ثم ماتت تلك البائسة. كانت في الأربعين أو في الحادية والأربعين لا أكثر. وتحول ألم الأولاد إلى كراهية لوالدهم، وكأنما ذلك هو التعبير العفوي عن إخلاصهم لذكرى والدتهم. وانتهى بهم الأمر أن تركوا البيت هم الثلاثة. وهم حالياً في الولايات المتحدة، الابنة في نيوجرسي، وأحد الولدين في كارولينا الشمالية، والثاني لا أدري أين هو. ومنذ سنوات، قطعوا كل اتصال بأبيهم، ولا أظن حتى أنهم قد أعطوه عناوينهم».

«كنت تريد أن تعرف لماذا اعتزل رمزي العالم؟ هذا هو السبب برأيي. ولعله اجتاز كذلك أزمة روحانية، ولكن مأساته العائلية كانت تتضمن كل ما يلزم لكي يقرر رجل شريف أن يتخلى عن كل شيء ويذهب ليعيش زاهداً في أحد الأديرة».

«هل ذهب إلى هناك منذ وقت طويل؟»

«جاء المرة الأخيرة إلى المكتب في شباط من العام الماضي».

«منذ أربعة عشر شهراً، إذاً».

«تبدو لي أربعة عشر عاماً».

«وهل التقيته منذ ذلك الحين؟»

«مرة واحدة... كان ذلك...».

توقف رامز فجأة عن الكلام، ونظر إلى ساعته.

«الثالثة والنصف! لم أنتبه إلى مرور الوقت. كم أصبح ثرثاراً حين أتحدث عنه!».

«متى تقلع طائرتك؟».

«متى شئنا. فهي لي، وطاقمها متأهب للسفر، وينتظر مني اتصالاً».

وعلى حين غرة، أشرق محياه بابتسامة عريضة.

«خطرت ببالي فكرة ممتازة. سترافقني إلى عمان!».

«شكراً على دعوتك، ولكن هذا غير ممكن».

«آدم، لا تتظاهر بأنك رجل أعمال كثير المشاغل! للمرة الأولى منذ عشرين عاماً، نجتمع ونتحدث مثلما كنا نفعل في أيام الصبا. إنها لحظة مباركة، فدعنا لا نضيعها. لديك ما تقوله لي الكثير، وأنا كذلك. فلنفعل مثلما كنا نفعل في السابق! لم نكن مضطرين لتحديد موعد، واستشارة مفكرتنا. كنت تمر تحت البلكون، وتزمِّر لي، فأنزل إليك، ونذهب إلى المقهى، أو إلى السينما، أو عند مراد... دعنا ولو لمرة ننسى اللياقات، وننسى سنّنا. ولنتصرف مثلما كنا نتصرف في ذلك الوقت! إننا نتناول الغداء. وعندما ننتهي، سأقول لك: «تعال لعندي، سنمضي السهرة معاً، وسأعرفك إلى زوجتي، وغداً، أرجعك إلى هنا». سأنهض، وستنهض، وهلم بنا، ألديك جواز سفرك؟

«اعتدت أن أحتفظ به في جيبي».

«وهل لديك أدوية عليك أن تتناولها هذا المساء؟».

فدقق آدم، وتبين له أنه يحملها.

فخلص رامز قائلاً: «عظيم، الباقي لا أهمية له».

«ولكن ليس لدي حتى قميص غيار، ولا أدوات تنظيف شخصية».

«لا عليك، سأهتم بذلك. هيا بنا».

ووضع يديه على المائدة ونهض، وهكذا فعل آدم بعد ثلاث ثوان.

6

من بعيد، كانت طائرة رامز تبدو كطائرة خطوط جوية. اجتازت سيارة المرسيدس المعدنية جميع حواجز التفتيش في المطار، ثم وصلت قرب منصة الصعود إلى الطائرة. على هيكلها شعار الشركة المؤلفة من هلالين متوازيين يجسدان في الواقع بصورة مزخرفة، الحرف العربي الذي يبدأ به اسما المؤسِّسين لشركة «رمزي رامز للإنشاءات»، وهي من أكبر شركات الأشغال العامة في هذا الجزء من العالم.

في الداخل، ولولا القمريات، لنسي المرء بسرعة جداً أنه على متن طائرة. كان فيها مكتب، وغرفة نوم، وصالون يمكن أن يتحول بسهولة إلى قاعة طعام. وكان القسم المخصص للركاب المحتملين يتضمن مقاعد لنحو عشرين شخصاً، فيما تتضمن طائرة خطوط جوية عادية مقاعد لنحو ستين شخصاً.

حالما جلس الصديقان، صعد إلى متن الطائرة ضابط من الأمن العام. تحقق من جوازيهما بنظرة سريعة، وهز رأسه، ثم تمنى لهما رحلة ميمونة. ومن بعدها، ترجل وأقفل باب الطائرة. جاء مضيفٌ يتحقق من

أن الراكبين قد وضعا حزام الأمان. ثم، وعند إشارة من رب عمله، أحضر لهما فنجاني قهوة عربية، مع تشكيلة من الحلويات الشرقية.

«أتريد بعض السكر في قهوتك؟».

حملق آدم في صينية الحلويات، قبل أن يجيب:

«كلا، شكراً، بدون سكر».

تبادلا ابتسامة مذنبة زائفة. واختار كل منهما قطعة من الحلويات وضعها بتؤدة على لسانه؛ قبل أن يغوص في مقعده ليتذوقها على مهل.

«بدون سكر...»، ردد رامز، وهو يضحك من كل قلبه.

حين ابتلع آدم آخر لقمة، سأل صديقه:

«ما هو شعور المرء حين يصبح ثرياً؟».

«لستَ فقيراً على حد علمي!».

«كلا، لستُ فقيراً، ولكن راتبي الشهري كأستاذ يكفيني فقط لشراء بطاقة سفر بالطائرة من باريس إلى عمان درجة سياحية. لا تعتقد أنني أتذمر، بل أنا بمأمن من العوز، ولا أرغب بالمزيد. إلا أني لن أصبح أبداً ثرياً بسبب المهنة التي اخترتها».

حتى الساعة، اكتفى رامز بالابتسام، ربما بشيء من الحرج. وعلى حين غرة، اكفهر وجهه. وراح يردد سؤال صديقه، بدون النبرة الاستفسارية.

«ما هو شعور المرء حين يصبح ثرياً... يوم أدركت أن شركتنا

ربحت رهانها، وأنها تحقق المزيد والمزيد من الأرباح، وأنني أصبحت بالفعل رجلاً ثرياً، تملكني الشعور...».

كان يبدو متردداً في اختيار كلماته.

«تملكني الشعور بأني استرجعت نصف كرامتي».

كانت الجملة مبهمة، وغير متوقعة. كان آدم على وشك أن يطلب إليه توضيح فكرته، ولكنه لاحظ أن صديقه تأثر بشدة على حين غرة، وقرر أن يفسح له المجال لاستعادة هدوئه.

ارتشف رامـز بضع جرعات من القهوة، قبل أن يقول: «منذ سنوات، أستيقظ كل صباح ممزقاً بين شعورين، الأول هو الشعور بالفرح والثاني هو الشعور بالحزن. الفرح لأني نجحت في مهنتي، وكسبت الكثير من المال، ولأني أمتلك بيتاً جميلاً وحياة عائلية سعيدة. ولكن الحزن أيضاً لأني أرى قومي في أسفل الهاوية. فمن ينطقون بلغتي، ومن يعتنقون ديانتي، يحقرون في كل مكان، وغالباً ما يتعرضون للكراهية. إنني أنتمي، بحكم الولادة، إلى حضارة مهزومة، وإذا لم أشأ التنكر لأصلي، فأنا محكوم بالعيش مع هذه الوصمة على جبيني».

خيَّم الصمت. لم ينبس آدم ببنت شفة، فتابع صديقه الكلام.

«لا يتعلق الأمر فقط بالتضامن مع قومي، أو بالتعاطف معهم. إنني أشعر بالمهانة، أشعر بالمهانة شخصياً».

«حين أسافر إلى أوروبا، أعامل بمراعاة مثلما يعامل جميع الأثرياء.

يبتسم لي الناس، يفتحون لي الأبواب وهم ينحنون احتراماً، يبيعون كل ما أرغب بشرائه. ولكنهم في أعماقهم يكرهونني ويحتقرونني. فلست بالنسبة إليهم سوى همجي أصاب ثروة. وحتى عندما أرتدي أجمل بدلة إيطالية، أظل، في نظرهم، معنوياً، فقيراً معدماً. لماذا؟ لأني أنتمي إلى شعب مهزوم، وإلى حضارة مهزومة. أشعر بذلك أقل بكثير في آسيا، وفي أفريقيا، أو في أميركا اللاتينية، التي أساء التاريخ معاملتها أيضاً. ولكن يتملكني ذلك الشعور في أوروبا. وأنت؟».

بوغت آدم بالسؤال..

قال بدون أن يورّط نفسه: «ربما، أحياناً».

«في باريس، حين تتكلم العربية في مكان عام، ألا تنزع تلقائياً إلى خفض صوتك؟».

«بدون شك».

«أنظرْ إلى الأجانب الآخرين! الإيطاليين، والإسبان، والروس، بغض النظر عن الإنكليز أو الأميركان. إنهم لا يخشون أن يحدجهم الآخرون بنظرة عدائية، أو مستنكرة. ربما أتهيأ أموراً لا أساس لها من الصحة. ولكن هذا ما أشعر به. وحتى لو أصبحت أغنى رجل في العالم، فلن تتغير الأمور».

ساد صمت طويل مرة أخرى. تأمل رامز الغيوم عبر القمرية. وراح آدم يتأملها بدوره. اقترب المضيف. وبإشارة من رب عمله، حمل صينية الحلوى، وعاد بعد ثوان معدودة بصينية من الفواكه.

سأل رامز، بنبرة لا تخلو من الفخر: «أتعرف هذا المشمش الأبيض العجمي؟».

انتقى حبة مكتنزة بشكل خاص، صفرتها شاحبة بحيث أنها تبدو بالفعل بيضاء، وناولها إلى آدم الذي غرز فيها أسنانه متمهلاً، مغمضاً عينيه.

«لذيذ! لم أتذوقه قطّ من قبل!».

«إنتاجه محدود للغاية فهو لا يسوَّق أبداً. يحضرونه لي خصيصاً من قرية صغيرة قرب دمشق».

«لم أكن أعرف أن مثل هذا المذاق موجود».

«أنا مسرور لأنك أحببت مذاقه، فهذه فاكهتي المفضلة. كان رمزي أيضاً يعشقه. وكنت أحضر له صندوقين منه سنوياً. أما من الآن فصاعداً، فسأرسلهما لك».

تذوقا بخشوع ثمرة أخرى غزيرة العصارة. ثم واحدة أخرى، ولكن متعتهما شابتها الآن ذكرى الصديق المفقود.

بعد وهلة، قال آدم ببساطة:

«فذهبت لزيارته...».

أطلق رامز تنيهدة طويلة، ومن بعدها هز رأسه مراراً.

«أجل، ذهبت لزيارته. كنت على ثقة أن بوسعي إقناعة بالعودة لدى عرض حجج مقنعة. لم تكن صداقتنا على الإطلاق قائمة، كالصداقات الأخرى، على الصمت، أو الكذب، أو التعامي. فلطالما

خضنا نقاشات مطولة، وتجادلنا كثيراً، في جو من الاحترام المتبادل لرأي الآخر، واعتقدت أن الأمر سيكون على هذا النحو في ذلك اليوم، وأنه سيبوح لي بما يقض مضجعه، وأني سأسعى جاهداً لتهدئة روعه، وأرضيه، وفي النهاية، سأحصل منه على موعد عودته، أو على الأقل على وعد منه بالعودة».

«ولكني أدركت بسرعة فائقة أني أخطأت الظن. ففي اللحظة التي رأيته في جبة الراهب، أسقط في يدي. فما هي الحجج التي بوسعي أن أسوقها، أنا المهندس المسلم، لإقناع راهب مسيحي بالعودة إلى الحياة المدنية؟ لا أفقه شيئاً في اللاهوت، وأرى أنه من السخف مصارحته بمصاعب شركتنا، أو بأي أمر آخر. كان ذهني خاوياً، مثل ممثل نسي فجأة دوره. فبدأت الكلام بمواضيع تافهة خرقاء. «هل أنت بخير يا رمزي؟»، «أجل، شكراً، أنا بخير. «ألا ينقصك شيء؟»، «لا، لدي كل ما أحتاجه»، «أيحسنون معاملتك؟»، «رامز، لست سجيناً، أنا في دير، وبملء إرادتي». فاعتذرت. في الحقيقة، كان يتملكني الإحساس بأني في قاعة استقبال تابعة لسجن. حاولت تصويب كلامي. «أقصد: هل الحياة التي تعيشها هنا، وسط الرهبان، تتفق مع ما كنت تطمح إليه؟»، فأجاب: «أجل! كنت أسعى إلى حياة بسيطة، بوسعي أن أنصرف فيها إلى التأمل والصلاة والتفكير، وهذا بالضبط ما وجدته». سألته إذا كان يريد أن أطلعه على ما يجري في شركتنا، فرفض. وسألته إذا كان لديه أخبار عن أولاده. فأجاب بالنفي. فسألته إن كان قد تضايق من زيارتي، فقال إنه لم يتضايق – إنما بعد ثانيتين من التردد. فأدركت أنني لست

مرحَّباً به حقاً. ونهضت. فنهض. صافحته، كما لو أني أصافح غريباً. وقال إنه سيصلي من أجلي».

«خرجت، ونزلت حتى عدت إلى سيارتي، وجلست في المقعد الخلفي، واستسلمت للبكاء، مثلما لم أبك منذ وفاة والدي. نظر إلي سائقي في المرآة الخلفية، ولكني كنت لا أبالي بما سيظن، لم أتمالك نفسي، وتركت دموعي تنهمر. كان رمزي بالنسبة إلي أكثر من أخ، وعلى حين غرة، وبدون أي سبب، أصبح غريباً عني. تلك هي القصة الحزينة للصديقين اللذين كانا يلقبان «بالمتلازمين»؟

«أفلا تنصحني بزيارته؟».

«كلا، بالطبع لا. يجب الحفاظ على التواصل. كان حذراً معي، ويخشى أن أضغط عليه لأعيده إلى حياته السابقة. ومن ثم، فقد زرته مباشرة في أعقاب... تحوّله، وكان الوقت أبكر مما ينبغي، وكان الأجدر بي التريث. أما الآن، فقد انقضت سنة، وقد يكون راغباً برؤية أحد أصدقائه».

«سأحاول الذهاب إلى هناك في الأيام المقبلة. وفي الواقع، أفكر بمشروع. أردت أن أحدثك عنه ولكن حديثنا اتخذ منحى آخر. إنني أسعى إلى جمع شمل أصدقائنا القدامى».

وثب رامز من مقعده أو كاد أن يثب.

«ما أروع هذه الفكرة! أحلم بها منذ وقت طويل. كنت أستمتع جداً بسهراتنا! ولا أزال أستحضر مناقشاتنا، وضحكاتنا! لم أجد عزاءً

قطّ بعد تفرق شلتنا. فلا شيء يعوض عن دفء شلة من الأصدقاء. لا شيء، لا العمل، ولا المال، ولا الحياة العائلية. لا شيء يعوض تلك اللحظات التي يجتمع فيها الأصدقاء، ويتبادلون الأفكار، والأحلام، ويأكلون سوياً! أنا، على أي حال، بحاجة إلى ذلك. لعلّي شخص يشعر بحنين لا براء منه، ومراهق في الأعماق لم يتقبل البتّة عالم الكبار، ولكن هذا طبعي. مع رمزي، هذا ما كنا نبحث عنه: صداقة صبا تستمر عبر كل مراحل الحياة، وتكون موجودة في الحياة المهنية وفي الحيز الخاص. لقد نعمنا بها لسنوات عديدة، وكانت تليق بنا تماماً. ثم فقدناها...».

واكفهر وجهه من جديد، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه:

«لا داعي لأن أقول لك بأنه يمكنك أن تعتمد عليّ، وما عليك سوى أن تحدد لي موعد اللقاء ومكانه، وسآتي. ولو كنت في أقاصي الأرض، سآتي. وبالمقابل، إذا كنت تأمل أن تقنع رمزي بمفارقة ديره وموافاتنا، فسوف تصاب بخيبة أمل. إلا إذا تبدل جذرياً في الأشهر الأخيرة».

«إذا ما استندت إلى ما قلته لي، ستكون قضية خاسرة. ولكني سأذهب وأزوره. وسأدعوه، وسنرى كيف سيستجيب».

«من تعتزم دعوتهم؟».

«لقد كتبت بالفعل إلى ألبير الذي يعيش في الولايات المتحدة، وإلى نعيم الذي يعيش في البرازيل. وبالطبع، سيكون هناك أنت وأنا وتانيا وسمي. وإلى جانب رمزي، كنت أفكر كذلك بنضال، شقيق بلال».

ترقب آدم رد فعل من محاوره، ولكن ذلك الأخير اكتفى بأن هز رأسه بصورة غامضة. ثم سأله بصورة مباشرة:

«أتظن أن دعوة نضال فكرة جيدة؟».

ظهر على رامز التردد قبل أن يجيب، بشيء من الإذعان.

«أجل، ولم لا، وجه له الدعوة!».

«لا تبدو متحمساً».

«لست متحمساً، ولكني لا أعترض كذلك».

وفكر للحظات.

«سأصارحك برأيي. الناشطون المتطرفون مثله سيصبحون حتماً طغاة في يوم من الأيام. ولكنهم اليوم مضطهدون في أغلب بلداننا، وفي الغرب، ينظر إليهم كأنهم الخطر الماحق. أترغب بالدفاع عن أحد المضطهدين فيما تعلم علم اليقين بأنه سيتصرف غداً كطاغية؟ إنها معضلة لا أفلح في حلها... فإذا كنت تعتزم دعوته، إفعل ذلك، لم لا؟».

وهز كتفيه ثم توقف لوهلة قبل أن يضيف قائلاً:

«بمن فكرت كذلك؟».

«لوددت لو يصطحب أصدقاؤنا زوجاتهم. قد يصبن بالملل وهن يستمعن إلى قصصنا، قصص المحاربين القدامى، ولكن ذلك سيساعد على توثيق الصلات. وأرجو في كل الأحوال أن يتسنى لزوجتك المجيء».

«سأترك لك مهمة توجيه الدعوة لها، حين نصل إلى عمان. أنا على ثقة بأنها ستشعر بالسرور».

«أنا أقل منك ثقة بأن صديقتي دولوريس بوسعها الانضمام إلينا، فهي تعمل من الفجر إلى النجر».

«أهي فرنسية؟».

«كلا، إنها أرجنتينية، ولكنها تعيش في أوروبا منذ عشرين عاماً».

«أفترض أن نعيم تزوج ببرازيلية».

«ليس لدي أي فكرة. أعرف أنه متزوج، وأن لديه أولاداً في سن الالتحاق بالجامعة. ولكني لا أعرف على الإطلاق من تكون زوجته. وفي حال ذكر اسمها، فلم أحفظه».

«أتدرك ما قلته توّاً؟ أنت ونعيم، كنتما مثل شقيقين، واليوم أنت حتى لا تعرف اسم زوجته، كما كنت لا تعرف هذا الصباح اسم زوجتي، أو أنا اسم زوجتك. تحزنني هذه الأمور وتثير اشمئزازي. يتملكني الشعور بأن كلاً منا خان الآخر».

«أنت على حق. ولكن عذرنا أننا عشنا أهوال الحرب وتفرق شملنا».

«بوسعنا دوماً البحث عن أعذار. ولو كان لدينا أدنى اعتبار للصداقة، لكنا بحثنا، خلال ربع قرن، عن بعض الفرص للقاء. لا ألوم الآخرين، بل ألوم نفسي أولاً. إنني أجوب العالم باستمرار،

وكان بوسعي تماماً أن أضع على الكرة الأرضية دبابيس تحمل أسماء أصدقائي، ولكنت التقيتهم خلال رحلاتي المختلفة. وهكذا سأفعل. لم يفتِ الأوان بعد. أنت في باريس، ونعيم في البرازيل. ساو باولو أم ريو؟».

«ساو باولو».

«وألبير؟».

«في إنديانابوليس، إنه يعمل لحساب مجمع فكر».

«أما وقد ذكرت ذلك، أتذكر أنه أخبرني بذلك. يبدو أنه صاحب نفوذ».

«هذا محتمل. وفي كل الأحوال، إنه اسم مرموق في الأوساط الأكاديمية».

«لا أستغرب. ففي أيام الجامعة، كان أصلاً رجلاً نبيهاً وحاذقاً وواسع الخيال. لم يكن معظم الناس يدركون ذلك، لأنه كان صموتاً ومنكفئاً على نفسه. لقد تطلب الأمر أن يرحل إلى الولايات المتحدة لكي يتسنى له التألق. هل أنت على اتصال به؟».

«أجل، نتراسل بين الحين والآخر. وصحيح أنه يقول في أغلب الأحيان أموراً ذكية، ومفاجئة. وبالمقابل، لا أعرف شيئاً على الإطلاق عن حياته الخاصة. ولا أعرف حتى إذا كان لديه زوجة وأولاد».

«أشك بذلك».

«لماذا تقول ذلك؟».

لاح التردد على رامز، ولكنه نطق تحت وطأة النظر الملحة والمحتارة لآدم.

«في أحد الأيام، كنا وحدنا نحن الثلاثة، ألبير، ورمزي وأنا. وكالعادة، كان صامتاً، بأنفه المستدق وضحكته المقتضبة الساخرة. كان حديثنا يدور عن فتاة. كنت أجدها مغرية، ورمزي يجدها متعجرفة، أو العكس صحيح. ثرثرات صبيانية... وفجأة، قال لنا ألبير: «أنتما، يظنّ بعضهم أنكما زوجان، أما أنا، فلا أحد تخامره الشكوك بشأني. أليس ذلك غريباً؟». استغرق بنا الأمر بضع ثوان قبل أن نستوعب بأن صديقنا قد باح لنا بأكثر أسراره حميمية. فتبادلنا النظرات، وارتسمت على وجوهنا ابتسامات متواطئة. ثم قال ألبير بالفرنسية: «لا تردِّدا ذلك للهمج!» فطمأناه بإيماءة من الرأس».

«وعندما أصبحنا بمفردنا، أنا ورمزي، تعاهدنا ألا نردد ذلك لأحد، سواء أكان «همجياً» أم لا. أنت أول شخص أذكر له ذلك. أعرف أن لا أحكام مسبقة لديك بهذا الشأن، ولو كانت لديك مثل هذه الأحكام، فلا ريب أنك قد تخليت عنها منذ انتقالك للعيش في أوروبا. وأفترض أنه لم يعد يتكتم كما كان يفعل من قبل بعد كل هذه السنوات التي عاشها في أميركا. ومع ذلك، أنصحك بعدم إثارة هذا الموضوع، واترك له الحرية ليتحدث عنه أم لا».

قال آدم، وقد اعترته الدهشة ربما، وتملكه الاستياء بالتأكيد: «غريب أنه لم يصارحني بذلك قطّ. أتعتقد أنه كان يصنّفني في فئة «الهمج»؟».

«كلا، بالتأكيد لا، كان يحبك كثيراً، وكنت على الأرجح أقرب صديق إليه. أظن بكل بساطة أنه كان لا يبوح بسرِّه لمخلوق، وأن تلك الجملة أفلتت منه، في تلك اللحظة، وهو برفقتنا نحن الاثنين. وحالما لفظها، لم يعد بوسعه أن يستردها، فتظاهر بالاستخفاف. كان يبتسم، ولكنها ابتسامة مغتصبة. لا بد أنه قد لام نفسه على زلة اللسان تلك. ولكنه لم يضطر أن يعض أصابعه ندماً. فلم نفشِ سره قطّ، بل ربما توثقت عُرى صداقتنا منذ ذلك الحين».

نظر آدم عبر القمرية. كان الليل قد أسدل ستائره، ولم يعد بوسع المرء أن يبصر سوى بقية ضياء. فألقى نظرة إلى ساعته.

«تقترب الساعة من الثامنة».

«سنهبط في عمان بعد نصف ساعة لا أكثر. أتريد كأساً من الويسكي؟».

«كلا، شكراً، بل ربما فنجان قهوة أخير».

اقترب المضيف، واطلع على طلبهما، ثم عاد وهو يحمل فنجاناً يتصاعد منه البخار، وكأساً مليئة بمكعبات الثلج، وزجاجة ويسكي تنبعث منها رائحة تراب نفاذة.

لاحظ رامز الذي كان من الواضح أن المشروع يثير اهتمامه: «فسنكون بالتالي نحو عشرة أشخاص في لقاء جمع الشمل. وماذا سيكون؟ وليمة؟ حفلاً؟ ندوة؟».

«لم أفكر بعد بالصيغة. فحتى الساعة، لم أفعل سوى اقتراح فكرة عقد لقاء، لأتبين ما إذا كان الأصدقاء يرغبون بذلك حقاً، وما إذا كان يعني شيئاً لهم، بعد كل تلك السنين. وحتى الآن، كانت ردود الفعل إيجابية، ويبقى الاهتمام بكل التفاصيل».

«لا يجوز أن تحضر الناس من كل أرجاء المعمورة لحضور عشاء جمع شمل وتناول فنجان قهوة مرة. لا بد من أن ينتظرهم شيء آخر».

«أنت على حق. ولكن ماذا؟ من جهتي، أفتقر إلى موهبة التنظيم».

«ليست مهمتك أن تنظم يا آدم. أنت أستاذ جامعي، ومفكِّر، ودورك يقضي بأن تفكر، وبأن تساعدنا على التفكير بدورنا أيضاً. إنس التفاصيل اللوجستية! إنس وفاة مراد! وانس حتى جمع الشمل!».

«ولكن ذلك منطلق المشروع، جمع شملنا».

«إنس المنطلق! لا بد دوماً من ذريعة للبدء، ولكن لا يجب التمسك أطول من اللازم بالذريعة، وإلا نسينا الأهم».

«وما الأهم بالنسبة إليك؟».

«الأهم أن قرناً مشؤوماً قد انتهى، وأن قرناً جديداً بدأ، يلوح بأنه أكثر شؤماً، وأنني أرغب أن أعرف بأي صلصة سنؤكل».

«وتظن أن أصدقاء الأمس سيكون بوسعهم أن يخبروك بذلك؟».

«ربما، وربما لا، ولكني بحاجة لأن أتحدث في الأمر مع أحدهم. ومن الأفضل أن أتحدث مع أشخاص أشعر بانسجام معهم، ويتمتعون بالقدرة على التماهي مع الغير، وبقدرة ما على التحليل. هذا ما أعجبني في شلتنا الطلابية. لا الأفكار السياسية كثيراً. كنا نعتبر أنفسنا جميعاً ماركسيين في تلك الفترة، لأن ذلك كان على الموضة. ولكني لم أفهم البتّة شيئاً لا من المادية الجدلية، والصراع الطبقي، ولا من المركزية الديمقراطية. كنت أردد مثل الببغاء الأفكار التي أقرأها، أو أسمعها من فم الذين اطلعوا عليها. كنت أدعي بأني يساري، لأني لم أكن لامبالياً بمصير الفقراء والمقهورين. لا شيء غير ذلك. وكنت أخالط مجموعتنا لأن الأشخاص فيها يهتمون بهذا العالم الرحب، وليس فقط بحياتهم الضيقة. كانوا يتحدثون عن فييتنام، وتشيلي، واليونان، وإندونيسيا. وكانوا مولعين بالأدب والموسيقى والفلسفة والمناظرات الفكرية. حينذاك، كنا نظن بأن جميع الناس يشاطروننا تلك الاهتمامات. ولكن مثل تلك الحلقة كانت نادرة في شبابنا، واليوم صار وجودها أندر. منذ أكثر من عشرين عاماً لا أحضر سوى اجتماعات عمل، أو لقاءات اجتماعية. يجتاز معظم البشر هذه الحياة، من المهد إلى اللحد، ولا يتمهلون أبداً للتساؤل عن مصير العالم، وماذا يخبيء لنا الغد».

«قال لي رمزي في أحد الأيام ما أقوله لك الآن حرفياً تقريباً.. في تلك الفترة، سلمت بما قال، بدون أن أفطن إلى القرار الذي كان يختمر في ذهنه. ولكني لن أعتزل العالم أبداً بملء إرادتي؛ فالانقلابات

التي تحدث فيه تبهرني أكثر مما تخيفني. غير أني متفق معه تماماً حول نقطة واحدة على الأقل: يجب أحياناً أن نتخطى حياتنا اليومية لنطرح أسئلة جوهرية. لا أتوقع أن يكشف لي أصدقاؤنا عن حقائق مذهلة، ولكني أتشوق لسماعهم يحكون عن مساراتهم، ويفكرون بصوت عال، ويعربون عن آمالهم وهواجسهم. إننا على مفترق قرنين وألفيتين. 2001! أعلم أن ترقيم السنين مجرد اتفاق وضعه البشر، ولكن السنة التي تحمل هذا العدد المثقل بالرمزية تشكل فرصة مناسبة للتمهل والتأمل. ألا تعتقد ذلك؟».

أشرق وجه آدم على حين غرة بابتسامة عريضة، فرمقه صديقه بنظرة ريبة.

«ما الذي يسليك إلى هذا الحد في ما قلته توّاً؟».

«منذ هذا الصباح، لا أكف عن التساؤل عما سأقوله لرمزي حين أذهب لزيارته. وها قد قدمت لي الجواب. سأقول له بالضبط تماماً الخطاب الذي سمعته الآن منك. فلو دعوته إلى حضور وليمة أصدقاء، لن يحضر بالتأكيد. ولكن الأمر يتعلق بالأحرى بخلوة تأملية...».

فابتسم رامز بدوره.

«لا بأس من المحاولة، ولكني أشك في أنه سيقبل».

«على أي حال، إنها الورقة الوحيدة التي يمكن أن ألعبها».

«إذا نجحت في إقناعه، سأهديك طائرة مثل هذه الطائرة».

«كلا، شكراً، لن أعرف ماذا أفعل بها».

«سيارة، إذن،...».

«هذه هدية معقولة أكثر!».

«أي ماركة؟».

«كلا، رامز، كنت أمزح، لست بحاجة إلى طائرة شخصية، أو إلى سيارة. في باريس، لا أتجول إلا سيراً على الأقدام، أو بالمترو، أو بالتاكسي، أو بالباص. وأحياناً، أركب الدراجة الهوائية. وبالمقابل...».

«أجل، قلْ لي!».

«بالمقابل، لو وعدتني بأن ترسل لي كل سنة سحارتين من المشمش العجمي...».

«سبق أن وعدتك».

«ولو تضيف إليها سحارة من المانجو المصرية، من ذلك الصنف المعروف بالهندي، المتطاول، الذي لونه من الداخل بلون الصدأ...».

«لك ما تريد!».

«وسحارة من فاكهة القشطة، وأخرى من البرتقال المغربي...».

«وبعض التمر، كذلك».

«كلا، التمر، أجده الآن في باريس»؟

«ليس مثل التمر الذي سأرسله لك».

كان قد بقي في الصينية مشمشتان. فتناول كل من الصديقين واحدة، لتذوقها على أقل من مهله.

7

هبطت الطائرة بهدوء في مطار عمان. وصلت سيارة رباعية الدفع لتقل المقاول وضيفه عند أسفل الطائرة، وتقودهما بسرعة فائقة نحو هضبة من الهضاب العشرين التي تزنر موقع فيلادلفيا القديمة.

كما توقع آدم، كانت دارة رامز عبارة عن مبنى فخم من الحجر الأبيض، مؤلف من ثلاثة طوابق، يتوسط حديقة غناء تتنافر مع المناخ القاحل السائد. فتحت البوابة لدى اقتراب السيارة التي لم تضطر حتى للإبطاء قبل ولوج المكان.

وحين ترجل الصديقان، هرول سرب من الحراس والبستانيين والخدم حولهما، وفتح لهما باب السيارة مع عبارات الترحيب.

ومن ثم، أقبلت زوجة رامز، دنيا، لاستقبالهما، وكانت ترتدي ثوباً داخلياً طويلاً، رمادياً ومطرزاً بخيوط صفراء.

وحالما ألقت التحية على الضيف وقبلت زوجها، سألت، بشيء من القلق:

«ألم ترجع لينا معكما؟».

«كلا، لقد بقيت هناك، فلديها عشاء. وعندما أعود وأصطحب صديقنا، سأرجعها معي».

فالتفتت دنيا نحو آدم.

«أفراد هذه الأسرة تقلهم الطائرة كما تقل السيارة الآخرين. يخال المرء أنه في تكساس!».

ولكن ما استرعى انتباه الضيف كان شيئاً مختلفاً تماماً.

«إذا فهمتك جيداً، الآنسة اللطيفة التي كلمتني على الهاتف، والتي قدمت نفسها على أنها مساعدتك، إنما هي ابنتك، ابنتكما».

فابتسم والداها.

قالت دنيا: «هذه عادتها. عندما تؤدي دور المساعدة، لا تقول أبداً أنها ابنته».

«وأنا، حتى لا أفضح أمرها، أقول فقط: لينا».

«ثم تضيف أنها تتحلى بكل الصفات».

قال رامز الذي كان يبدو سعيداً لأنه استطاع التحدث عنها: «هذا رأيي بها كربِّ عمل».

فمازحه صديقه: «هذا رأيك، بكل موضوعية».

قالت دنيا بصوت متأثر: «لينا حبيبة قلبه».

«من سيتزوجها سيكون عليه أن يعاملها كالملكة، وإلا...».

وظل التهديد معلقاً.

رافق المضيفان آدم إلى ما أسمياه «غرفته»، والتي كانت في الواقع شقة فخمة، فيها حمام مزوّد بحوض جاكوزي، وصالون أرحب من

الصالون في شقته بباريس، وبار مترع بسخاء، وتلفاز، وحاسوب، وشرفة تطل على المدينة بأنوارها المتلألئة.

وضعت على السرير، بكيسها الذي لم يفتح، بيجاما، وثلاثة قمصان، وثلاثة أزواج من الجوارب، وثياب داخلية، وبرنس حمام مطرز وخفان من الطراز نفسه.

قال لهما آدم تعبيراً عن امتنانه: «أعتقد أنني لن أفارق هذا المكان».

قال رامز وهو يضحك ضحكة مدوية: «بوسعنا أن نرتب الأمر. فرئيس الجامعة صديق عزيز».

ثم أضاف:

«سننتظرك في الطابق الأرضي لتناول العشاء. ولكن لا تستعجل، فمن عادتنا تناول العشاء في ساعة متأخرة جداً. اتصل بزوجتك لتخبرها أين أنت! ثم اتصل أيضاً بالفندق لكي لا ينتظروك!».

قالت دنيا: «هذه نصائح جيدة. لوددت لو يتصل بي رامز بين الحين والآخر ليخبرني إذا كان سيمضي الليلة في سنغافورة، أو في دبي، أو في كوالالمبور».

فتأبط زوجها ذراعها، كما لو شاء أن يقطع كلامها قليلاً، أو أن يعتذر قليلاً.

«ما الفرق؟ بعد عدد معين من الرحلات، لا يعود المرء يدري في أي مدينة يكون، فكل قاعات الاجتماعات تتشابه، وكذلك كل غرف الفنادق».

«هيا! تعال! لندع آدم يرتاح قليلاً».

في الواقع، أحس الضيف فجأة بالإعياء. وحالما انصرف صديقاه، خلع ملابسه، وأخذ دشاً طويلاً ساخناً جداً، ثم تدثر بالبرنس واندس في سريره، تحت الأغطية.

أحس عندئذ بإحساس بالراحة أقنعه، إلى جانب تعب السفر، بإغماض عينيه لبضع لحظات.

اليوم الثامن

1

عندما فتح آدم عينيه، كانت العتمة تلف غرفته. تناول ساعته من على الكومودينا قرب السرير. كانت تشير إلى السادسة والربع صباحاً. رفع الستائر المعدنية، فلفح وهج الشمس وجهه.

كان لا يزال مرتدياً البرنس، وقد ظلت البيجاما الجديدة في علبتها، ولكنها لم تعد موضوعة على السرير؛ فقد وضعها أحدهم على طاولة، مع القمصان وجميع الملابس الأخرى في غلافها.

هكذا، لم يحرك ساكناً طوال الليل. ومع ذلك، كان يُفترض به أن يوافي صديقيه، تحت، لتناول العشاء. لا بد من أنهما جاءا لإحضاره. ولما تبين لهما أنه ينام ملء جفنيه، قررا ألا يوقظاه.

أخذ دشاً ثانياً، ثم حلق ذقنه، ونثر على وجهه ماء الكولونيا؛ بعدها لبس ثيابه وخرج من الشقة. كانت شابة تضع مريلة بيضاء تنتظر خلف الباب لمرافقته إلى الشرفة التي يغمرها الضوء حيث كان صديقاه يتناولان فطورهما.

قال رامز وهو يضحك من كل قلبه: «لحسن الحظ أننا لم ننتظرك على العشاء!».

راح آدم يعتذر، فيما سارعت دنيا للدفاع عنه من سخرية زوجها:

«هذا ليس أسلوب لائق لاستقبال ضيفنا منذ طلوع الصباح. اسأله بالأحرى إذا ارتاح في نومه!».

قال زوجها، وهو يسترسل في الضحك: «لا داعي لأن أسأله، لقد تحققت من ذلك بأم العين. كان يشخر مثل محرك ديزل».

«لقد تزوجت رجلاً قليل الأدب، أليس كذلك؟».

وضحكت، وكذلك ضحك زوجها. فأضاف آدم:

«لو طلبت رأيي، لكنت حذرتك. لقد كان سيء المربى. والآن، فات الأوان. لم يحالفك الحظ!».

كان رامز يبدو منشرحاً لأنه يتعرض للهجوم على هذا النحو.

«هكذا كان الحال، في الماضي، في شلتنا. كان كل واحد منا ينعت الآخر بالأمي، والأبله، والمحتال، ولكنه طقس متفق عليه. كنا نحب بعضنا بعضاً جداً، ونتبادل الاحترام. أليس كذلك؟».

فأومأ آدم رأسه موافقاً. ثم رجعت الشابة بالمريلة التي رافقته وهي تحمل ركوة يتصاعد منها البخار لتقدم القهوة لهم الواحد تلو الآخر. وحالما انصرفت، قال رامز لزوجته:

«في الطائرة، تحدثنا عن رمزي. يعتزم آدم الذهاب لزيارته».

منذ أن وصل الضيف البارحة، لم يلمح دنيا سوى مبتسمة. كانت تعلو وجهها ابتسامة ناعمة، طبيعية، لا تكلف فيها على الإطلاق. ولكن هذه الابتسامة تلاشت في الحال لدى ذكر اسم الصديق المفقود.

«لم نتقبل بعد مفارقته لنا، بل يجدر بي القول «هروبه». من المثير

للقلق أن يقرر رجل، بين عشية وضحاها، التخلي عن عمله، وبيته، وأصدقائه، ليذهب ويحبس نفسه مع أشخاص لا يعرفهم في كوخ جبلي».

«كان مثل الأخ بالنسبة إلى رامز ، وبالنسبة إلي أيضاً. وعندما رحل، أصبنا بالذهول. لديك صديق، تراه كل يوم، وتبوح له بأسرارك، ويتراءى لك بأنك تعرفه مثلما تعرف نفسك، وفي يوم من الأيام، تكتشف أنك لا تعرفه. تكتشف أن في داخله شخصاً آخر، لم تشك في وجوده يوماً. رامز يبحث له عن أعذار، ولكني عاتبة عليه. فلا يجوز أن يمضي المرء هكذا، بفعل نزوة».

قال رامز ساهماً: «من المؤكد أنها لم تكن نزوة».

«إذا لم تكن نزوة، فهذا أسوأ. هذا يعني أنه حسم أمره سراً، بدون أن يطلعنا على قراره، بدون أن يناقشه معنا أبداً. وهذا يعني أننا كنا جالسين عشر مرات، عشرين مرة، إلى هذه المائدة، هو ونحن، كما نحن في هذا الصباح، ونحدثه بقلب مفتوح، أما هو فقد خطط بالفعل لمفارقتنا، وعدم رؤيتنا من جديد إلى الأبد».

«يطلب مني أن أعذره لأن وحي الإيمان نزل عليه. ما هو ذلك الإيمان الذي يملي على الإنسان أن يفارق أعز أصدقائه وأصدقهم لكي يذهب إلى الله؟ ألأن الله هناك، في الجبل، وليس هنا، في المدينة؟ ألأن الله في الدير، وليس في الورش وفي المكاتب؟ إذا كان المرء يؤمن بالله، فعليه أن يؤمن بأنه في كل مكان!».

«أعذرني آدم. لا أنتقد الدين. لا أدري ما هي معتقداتك الدينية، ولا أريد أن أجرح مشاعرك».

قال الضيف: «خذي راحتك يا دنيا. أمامي، بوسعك أن تنتقدي كل أديان العالم. ديانتي مثل ديانات الآخرين. لا تظني أنني سأشعر بالمهانة!».

«في كل الأحـوال، أنا لا أنتقد أبناء ديانتك، فأبناء ديانتي أسوأ منهم بكثير. وعندما يمضون إلى الجبال، فليس فقط للصلاة والتأمل... إنما يزعجني ذلك الأسلوب الرائج اليوم في إقحام الدين أينما كان، وتبرير كل الأمور باسمه. إذا قررت أن أتزيا بهذا الزي، فهَذا لأجل ديني. إذا قررت أن آكل هذا الصنف أو ذاك، فهذا لأجل ديني. أفارق أصدقائي، ولا أحتاج لتبرير موقفي، فديني يناديني. أصبح الدين يقحم في جميع الأمـور، ويظنون أنهم يخدمونه، فيما هم يسخِّرونه في الواقع لمآربهم الشخصية، أو لنزواتهم. «الدين مهم، إنما ليس أهم من الأسرة، وليس أهم من الصداقة، وليس أهم من الإخلاص. لقد أصبح يحل بالنسبة إلى عدد متزايد من الناس محل الأخلاق. يحدثونك عن الحلال والحرام، وعن الطهارة والنجاسة، ويسوقون الشواهد الدامغة. لوددت لو يهتمون بالصدق والحشمة. فلأن لديهم ديانة، يظنون أن الأمر يعفيهم من التحلي بالأخلاق.

«أنا من أسرة مؤمنة ومتدينة. كان جد جدي شيخ الإسلام في

عصر السلاطين العثمانيين. كنا دوماً نصوم رمضان في أسرتي. كان الأمر طبيعياً، وعفوياً، ولا نمارسه بالتطبيل والتزمير. أما في هذه الأيام، فلم يعد يكفي أن يصوم المرء، بل يجب أن يظهر للجميع بأنه صائم، وأن يراقب من لا يصوم عن كثب».

«في أحد الأيام، سيضيق الناس ذرعاً بدين يجتاح حياتهم، وسيرفضون كل شيء، الصالح والطالح».

انفعلت دنيا فوضع رامز يده على يدها.

«هدئي روعك يا حبيبتي. فالدين لم يأمر رمزي باعتزال الدنيا. والرهبان لم يأتوا لاختطافه. لقد مر بأزمة، وربما كان علينا نحن أصدقاؤه أن نتنبه لها، ونستبق العواقب».

«لا، رامز! كُفَّ عن توجيه الاتهامات لنفسك! كُفَّ عن الإحساس بالذنب! لم يكن من واجبك أن تفطن إلى ما يدور في خلد رمزي. كنت أعز أصدقائه، وكان عليه أن يفاتحك بالأمر، وأن يبوح لك بمخاوفه، فيتسنى لكما مناقشتها معاً. أنت وأنا، لا نلام على شيء. والذنب ليس كذلك - وأنت على حق - ذنب الرهبان. فلو أساء أحدهم التصرف، فهو رمزي، وتلك المرأة... لا يجوز لعنة شخص ميت، ولكني لما ترددت في لعنتها لو كانت على قيد الحياة».

وتوقفت، كما لو أنها تبحث عن كلماتها، أو تحاول أن تستعيد هدوءها، أو ربما تستحضر مشهداً من الذاكرة. فاكتفى الرجلان بالصمت.

وأردفت قائلة:

«حين يدخل بعضهم إلى بيتنا، أراقب على الفور عيونهم. وأحاول أن أفطن إلى ما يجول في خلدهم. أفترض أن معظمهم يقولون في سرهم إنهم يرغبون بامتلاك بيت مثل بيتنا. ولكنهم لا يقولون ذلك في سرهم جميعاً بالذهنية نفسها. بعضهم يفعل ذلك بانبهار، وبعضهم الآخر بحسد. بعض زوارنا يفوقوننا ثروة، وبعضهم الآخر فقراء. ولكن تعجبهم أو حسدهم لا يرتبطان بدعتهم أو بفقرهم. إنه موقف من الحياة. كان هارون الرشيد خليفة، وامبراطوريته تمتد من المغرب إلى الهند، ولكنه كان يحسد وزيره جعفر على ما يتمتع به من رخاء، وقد سعى جاهداً لإفلاسه ومصادرة ممتلكاته. هناك أشخاص يفرحون لسعادة الآخرين، وإن لم يشاطروها إلا مشاطرة وجيزة، وبصورة مجتزأة جداً، ومن الخارج. وهناك أشخاص آخرون يشعرون بأنهم يتعرضون للاعتداء بسبب سعادة الآخرين».

«أنت، آدم، حين جئت إلى هنا، لا بد من أنك قلت لنفسك: «صديقي رامز جمع ثروة، وبنى لنفسه بيتاً جميلاً، وزوجته مضيافة، وسأمضي أوقاتاً ممتعة برفقتهما». أما هي، زوجة رمزي، فمنذ أن وطأت قدماها عتبة بيتنا، قرأت الحسد في عينيها، وعلى شفتيها المزمومتين. عندما نقتني شيئاً جديداً، تلمحه على الفور. حين أشتري سجادة جديدة، قد يمشي عليها رامز خمسين مرة ولا ينتبه لها. أما تلك المرأة، ففي اللحظة التي تدخل إلى البيت، ترصد على الفور كل جديد

نقتنيه، وألمحها تحسب في ذهنها السعر الذي قد أكون دفعته ثمناً له».

«لدى استقرارنا في هذا البيت، تعرضنا، ثلاث مرات، لتسرب المياه، وأعربت أمام زوجة رمزي عن خشيتي من أن نستيقظ ذات صباح ونرى البيت مغموراً كله بالمياه، الجدران، والأثاث، والسجاد، والستائر... رمقتها، ولم ألمح على وجهها سوى الفرح، الفرح العارم، الجامح، كما لو أنني أزف لها أحلى البشائر».

«أذكر أنني خفت منها، في ذلك اليوم، وقلت في سري: «ستصيب زوجي بالعين!» لست متطيرة عادة، ولكني كنت أخاف على الدوام، لا سيما حين يسافر رامز بالطائرة، بل لقد انتزعت منه قسماً بأن لا يذكر تلك الطائرة أمامها».

أكد المعني بالأمر ذلك بابتسامة، وهو يرفع كتفيه وحاجبيه للدلالة على أنه لا يبالي بتلك القصص عن عين الحسود. ولكن دنيا تابعت، بدون أن تكترث لرد فعله:

«لقد ارتقى رامز ورمزي معاً، يداً بيد، وأصاب كلاهما القدر نفسه من الثروة. ولكن الجاه يظهر بقدر أقل في بيت رمزي، فلطالما كان متواضعاً ومتحفظاً، وهذا، في حدّ ذاته، ميزة. غير أن زوجته كانت تعيش ذلك كالعقاب. فرامز ينفق أكثر من زوجها، ويستعرض ثروته، ويتباهى...».

فحملق زوجها.

«أنا أتباهى؟».

مسحت دنيا بيدها على شعر زوجها بحنان أمومي.

«أجل، يا حبيبي، أنت تحب أن تستعرض بيتك، وطائرتك الخاصة، وسيارتك المرسيدس».

«أتتخيلين ما قد يقوله الناس لو لبس رجل ثري مثلي كالشحاذ، وقاد سيارة قديمة؟».

«لا أنتقدك يا عزيزي، فأنت تعجبني كما أنت، وكنت سأشعر بالتعاسة لو تزوجت رجلاً بخيلاً. ولكن الواقع أنك لا تخفي ثروتك، أما شريكك فيفضل أن يقول الناس عنه: «لقد أصبح غنياً، ولم يبدِّل شيئاً في عيشته! هل أنا مخطئة؟».

اعترف زوجها: «ما تقوله دنيا صحيح. كان يحلو لرمزي القول إنه نجح في حياته بفضل كده وتعبه، ولكنه كان يبدو خجولاً حين يقول الناس عنه إنه من الأثرياء. كان يخجل من ثروته. وربما، لأجل ذلك، كانت زوجته تتصرف على هذا النحو. لعلها كانت ترغب بالتبذير وهو يمنعها».

قال آدم بصوت منخفض، كأنما يتحدث لنفسه فقط: «في النهاية، كان الصديقان «المتلازمان»، كما كانا يلقبان، مختلفين كل الاختلاف الواحد عن الآخر. لقد أثريتما ولكنكما لم تستخلصا العبر نفسها. أنت، اعتبرت أن السماء شاءت مكافأتك؛ وهو، اعتبر أن السماء شاءت أن تخضعه للتجربة».

فأكد ضيفه بحماس:

«تماماً! كان رمزي يفكر بالضبط على هذا النحو. ويقول أصلاً إن السماء أرسلت النفط للعرب لا لمكافأتهم، بل لتخضعهم للتجربة، وربما لتعاقبهم. وفي ذلك، كان مصيباً تماماً، فالنفط نقمة».

ذكّره آدم: «ومع ذلك، فبفضل أموال النفط اغتنيتما».

«أجل، هذا صحيح. كانت الثروة بالنسبة إلى رمزي وإلي، ولكن بالنسبة إلى العرب، كان النفط نقمة. لا بالنسبة إلى العرب فحسب، أصلاً. هل تعرف بلداً واحداً حقق له النفط السعادة؟ استعرضْ كل البلدان. أينما كان، تسببت أموال النفط بالحروب الأهلية، والانقلابات الدموية؛ وشجعت صعود الحكام الغريبي الأطوار والمصابين بجنون العظمة».

«وما السبب برأيك؟».

«السبب أن الناس جمعوا مالاً وفيراً بين عشية وضحاها، ولم يضطروا لكسبه بعرق جبينهم، فانتشرت ثقافة الخمول. فلماذا يتوجب عليك أن تتعب، إذا كان بوسعك أن تستأجر أحدهم ليتعب مكانك؟ فهناك شعوب كاملة من أصحاب الثروات، وبخدمتهم شعوب كاملة من الخدم، لئلا نقول من العبيد. أتظن أن الأوطان تبنى بهذا الشكل؟».

قالت دنيا، بشيء من الامتعاض: «أشعرت أنت بأنك عبد؟».

«أجل ، كلما كنت في حضرة أمير، أشعر قليلاً بأنني عبد. عبد مترف، عبد ثري وشبعان، إنما عبد رغم ذلك».

ولزم الصمت، وكأنما ليستحضر مشاهد محددة. ثم تابع قائلاً:

«كـان مؤسس منظمة الأوبـك، وهو من فنزويلا، يقول إن

الهيدروكربونات هي «غائط الشيطان»... كان محقاً. وأنا على يقين بأن من سيكتبون التاريخ بعد مئة عام سيقولون إن النفط لم يحقق الثروة للعرب إلا للتعجيل في هلاكهم!».

زقزقت بعض العصافير في الحديقة. فلزم المضيفان وضيفهما الصمت للإصغاء إليها وللتشبع بخفتها، وبهجتها الظاهرية.

ثم قال رامز لصديقه:

«قُلْ لدنيا بشأن جمع الشمل الذي تعتزم تنظيمه!».

حكى آدم كيف انبثقت فكرة المشروع، وعدد الأشخاص الذين يعتزم أن يجمع شملهم، وعرّف عن كل واحد منهم ببضع كلمات. ثم ذكر بإيجاز بما كانت عليه شلة أصدقائهم، واستحضر مشاجراتهم، ومبادئهم، ووعودهم الواهية بأن يبقوا على اتصال، ثم أضاف:

«في الطائرة، كنت أقول لرامز إنني أتمنى أن ترافقنا زوجاتنا، ولكني كنت أخشى أن يصبن بالملل وهن يسمعننا نسرد ذكرياتنا، ذكريات المناضلين السابقين. وبعد حديثنا هذا الصباح، أنا متأكد أنه من الضروري أن تنضم إلينا اثنتان من زوجاتنا على الأقل: زوجتي، دولوريس، وأنت، دنيا، لو شئت».

«بكل سرور. يحدثني رامز كثيراً عن تلك الفترة التي لم أعرفها، وسيكون من دواعي سروري أن أستمع إلى حكاياتكم، فهذا لا يسبب لي الملل على الإطلاق. متى سيكون موعد هذا اللقاء؟».

«لم يحدد الموعد بعد. أفكر...».

«لا فرق، أنا زوجة شرقية مطيعة، وليست لدي التزامات بدون زوجي؛ فإذا كان متفرغاً في ذلك النهار، سأكون متفرغة أيضاً».

رفع الزوج المذكور عينيه إلى السماء، ثم قبل يد دنيا، قبل أن يقول:

«قبل أن أنسى، اتصلت سميراميس البارحة مساء. كانت قلقة لأنها لم تصادفك في الفندق، وحين قلت لها إنك رافقتني إلى عمان، تلفظت بكلمات فجة لن أرددها».

اعترف آدم: «الحق عليّ. كنت أنوي الاتصال بها، ثم غفوت. لا بد من أنها غاضبة..».

«حين تعود إلى الفندق، ستتحقق من الأمر. برأيي، من الأفضل لك أن تبقى في عمان، سأمنحك اللجوء».

فابتسم ضيفه.

«كلا، يجب أن أذهب وأواجه العقاب الذي أستحق. متى تعتقد أن بوسعنا الانطلاق؟».

«قلت لطاقم الطائرة أن يكون مستعداً للإقلاع في الحادية عشرة. أيناسبك ذلك؟».

نظر آدم إلى ساعته. كانت الثامنة والنصف.

«ممتاز. سيكون لدينا متسع من الوقت للاستعداد للسفر بهدوء».

«قررت زوجتي المطيعة أن تصطحبني لزيارة أمها. سنمضي النهار عندها في الجبل، ثم نعود مساء إلى عمَّان، ونصطحب ابنتنا».

2

صعد آدم، لدى عودته إلى نزل سميراميسِ، بهدوء إلى غرفته. ولكنه سمع الهاتف يرن حين همَّ بفتح الباب. من الواضح أن «سيدة القصر» قد طلبت إعلامها بوصوله. غير أنه لم يسمع منها لوماً أو تأنيباً. كانت تريد فقط أن تخبره بأنها ستتغيب حتى المساء، وأنها ستتصل به لدى عودتها لكي يتناولا العشاء معاً.

راح يدوِّن بعض الملاحظات بشأن أحاديثه مع رامز وزوجته، لا سيما بشأن ما أخبراه عن رمزي، والذي قد يفيده يوم سيزوره في الدير. ثم رفع غطاء حاسوبه المحمول للاطلاع على بريده الإلكتروني. وجد رسالة طويلة من نعيم قد وصلت في غيابه.

«العزيز آدم،

لدى قراءتي رسالتك الأخيرة، وإعادة قراءة الرسالة التي كتبتها لك، يبدو لي أن ثمة سوء تفاهم أود تبديده.

لقد قلت لك إنني غادرت البلد «على مضض»، واستنتجت أنت أن أبي وأمي أرغماني على ذلك. وواجبي تجاه ذكرى والدي يقتضي مني التصويب: فهو لم يرغمني، بل أقنعني، خلال حديث مطول «بين رجال» دار بيننا لن أنساه.

في الأسابيع التي سبقت رحيلنا، دارت بيننا نقاشات حادة. كلما تطرقنا إلى الرحيل، كنت أمانع، فيجادلني، وأجيبه بعصبية، وتحتد نبرتنا، فتبكي والدتي. صار الجو في البيت لا يطاق بالنسبة إلينا جميعاً. وفي أحد الأيام، استدعاني في الحجرة الصغيرة التي كانت مكتبه. وطلب إلي الجلوس في أريكة، وأغلق الباب، ثم، فعل شيئاً لا يفعله عادة، فقد سحب من جيبه علبة سجاير «ينيجة» وعرض عليّ سيجارة. كانت بمثابة المكافئ المعنوي لغليون الصلح. وأشعل سيجارتي، ثم سيجارته، وقرَّب المنفضة لكي تكون على مسافة واحدة منا نحن الاثنين.

أذكر المشهد كما لو أنه حصل الأسبوع الماضي، مع العلم أنه حصل منذ أكثر من ربع قرن! لم تكن الحجرة كبيرة، كما تعلم؛ ولا مكان فيها سوى للأريكتين اللتين جلسنا فيهما. كانت الجدران عامرة بالكتب بمختلف اللغات، وثمة مكتب من الخشب، مطعّم بالصدف، وفيه الكثير من الأدراج الصغيرة. كان النور يأتي من نافذة تطل على حديقة العمارة. وكان الجو بارداً في ذلك اليوم، ولكن والدي شقَّها قليلاً بسبب الدخان.

أذكر الكلمات التي استهل بها مرافعته: «عندما كنت في سنك، كان لدي بدوري أصدقاء محترمون، شباب شرفاء ومتعلمون وموهوبون، ينتمون إلى جميع الطوائف، وتسيرهم أنبل الطموحات. كانو أهم عندي من أسرتي. كنا نتطلع معاً إلى وطن لا يعود فيه المواطنون يعرفون في

المقام الأول بانتمائهم الطائفي. كنا نتوق إلى زعزعة العقول والتخلص من العادات البالية».

قال لي إن إحدى معاركهم كانت تتعلق بالأسماء. فلماذا كان يجب أن يحمل المسيحيون بالضرورة أسماء مسيحية، والمسلمون أسماء مسلمة، واليهود أسماء يهودية؟ لماذا يتوجب على كل إنسان أن يحمل في اسمه ما يدل على ديانته؟ فبدلاً من أن يطلق على البعض اسم ميشال أو جورج، وعلى البعض الآخر اسم محمود أو عبد الرحمن، ونحن سالومون أو موسى، من الأفضل أن نحمل جميعاً أسماء «محايدة» مثل سليم، أو فؤاد، أو أمين، أو سامي، أو رمزي، أو نعيم.

وأوضح لي والدي: «ومن هذا المنطلق، أنت تحمل الاسم الذي تحمله». وفي هذا الصدد، خاض الكثيرون من أصدقائي مشاجرات حادة مع عائلاتهم. واضطر بعضهم للرضوخ؛ أما أنا فقد صمدت. كانت جدك يرغب بأن أسميك عزرا، مثله. ولتبرير قراري بنظره، أوضحت له أن اليهود اضطروا، لقرون عديدة، أن يرتدوا ملابس متمايزة لكي يتسنى للأغيار(*) التعرف عليهم على الفور، وتجنبهم، أو توخي الحيطة؛ والأسماء المتمايزة تؤدي دوراً مشابهاً. لا أعتقد أنني أقنعته، ولكنه ترك لي حرية التصرف».

"أحكي كل ذلك لكي أقول لك إنني كنت أتطلع في شبابي إلى

(*) الأغيار بالعبرية (goyim): المقابل العربي للكلمة مصطلح ديني يهودي يطلقه اليهود على غير اليهود (المترجمة).

المثل العليا نفسها التي تتطلع إليها، والأحلام نفسها بالتعايش بين جميع الطوائف، وإنني لست مسروراً باصطحاب أسرتي اليوم خارج وطن عاش فيه أسلافي أكثر من خمس مئة عام. ولكن العيش هنا بات مستحيلاً بالنسبة إلينا، وكل ما حولي يحملني على الاعتقاد بأن الأوضاع ستتدهور غداً».

«لا تتوهم، فعمَّا قريب، لن يكون في العالم العربي بأكمله وجود لأي طائفة يهودية. ولا واحـدة! فبعضها في طور الاندثار فعلاً، في القاهرة، والاسكندرية، وبغداد، والجزائر، وطرابلس... والآن، حان دور طائفتنا. وعما قريب، لن يكون في هذه المدينة عشرة رجال للصلاة معاً! إنه تقهقر محزن للغاية، ومثير للإحباط بشدة. ولكن ما بيدنا حيلة يا نعيم أمام ذلك، لا أنت، ولا أنا. من المذنب؟ أهو قيام دولة اسرائيل؟ أعلم أن هذا ما تعتقدونه أنت وأصدقاؤك. وهذا صحيح جزئياً. إنما جزئياً فقط. فالتمييز موجود، والإهانات بشتى صنوفها، موجودة منذ قرون عديدة، قبل قيام دولة إسرائيل، وقبل ذلك الخلاف على الأرض بين اليهود والعرب. هل عوملنا مرة في تاريخ العالم العربي كمواطنين بكل معنى الكلمة؟».

«ستقول لي إننا لم نعامل كذلك في مناطق أخرى. أجل، هذا صحيح. ففي أوروبا، كان الوضع أسوأ، أسوأ ألف مرة. ليس لدي أي شك في ذلك. لقد تطلب الأمر الفظاعة النازية بأكملها لكي تبدأ

العقول تتغير تغيراً جذرياً، ولكي يبدأ العداء للسامية يعتبر ممارسة خسيسة ومرضاً معيباً».

«إنني على ثقة بأن هذا التطور كان بوسعه أن ينتقل إلى العالم العربي. فلو لم يندلع ذلك النزاع، غداة الفظاعة النازية، حول فلسطين، أما كان وضع اليهود في المجتمعات العربية تحسَّن بدلاً من أن يتدهور؟ أظن أنه كان سيتحسن، لا بل إني على يقين من ذلك. ولكن ذلك لم يحدث، لا بل لقد حدث العكس. في كل مكان، يتحسن وضع اليهود، ويتدهور بالنسبة إلينا فقط. في أماكن أخرى، أصبحت الإبادات الجماعية في مزابل التاريخ، وعندنا تعود إلى الواجهة. في أماكن أخرى، تختفي بروتوكولات حكماء صهيون من المكتبات المحترمة، وهنا، تطبع على نطاق واسع».

«عندما تحدثنا عن حرب الأيام الستة، شبهت هجوم الطيران الإسرائيلي على المطارات العسكرية العربية بالهجوم الصاعق الذي شنه اليابانيون على برل هاربور. يبدو لي هذا التشبيه مشيناً، ولكنه يتضمن شيئاً من الحقيقة - إن لم يكن في الحقائق التاريخية، فعلى الأقل في إدراك تلك الحقائق. لا ريب أن الكثيرين من أبناء بلدنا ينظرون إلينا باعتبارنا رعايا قوة معادية، مثل أولئك الأميركيين من أصل ياباني الذين اعتقلوا في معسكرات بعد برل هاربور ولم يطلق سراحهم إلا غداة النصر. ماذا كان ليحدث لو أن اليابان انتصرت في الحرب، ولو استطاعت الاحتفاظ بجميع ما حققته من فتوحات في

آسيا والمحيط الهادئ – الصين، وكوريا، والفلبين، وسنغافورة، وسائر البلدان –، لكانت فرضت على الولايات المتحدة هدنة مذلة، مع التخلي عن هاواي، على سبيل المثال، ودفع تعويضات باهظة؟».

«من هذا المنحى، يمكن بالفعل القول إن حرب الأيام الستة تشبه نوعاً ما معركة برل هاربور قد حققت نجاحاً باهراً. وفيما يحتفل الاسرائيليون، يستشيط العرب غضباً، ونحن، أصبحنا مكسر عصا لهم. من المشين الاعتداء على سكان مدنيين عزل إنما لا يجب أن يتوقع المرء من الجماهير التي لحقت بها المهانة أن تتصرف بنبل وشهامة. إنهم يصنفوننا في فئة الأعداء، وسنعامل على هذا الأساس؛ وحتى أنت، يا نعيم، ومهما كانت آراؤك. هذا ما وصلنا إليه! وسواءٌ رضينا أم لم نرض بذلك، فلا مهرب».

إنها المرة الأولى التي أدوِّن فيها ما قاله لي والدي. والفضل لك يا آدم. والفضل لأسئلتك التي طرحتها عليّ، ولما استحضرته لدي من ذكريات. وكذلك، الفضل للتوضيحات المفصلة التي قدمتها لي البارحة بشأن ممارسات مراد. فقلت لنفسي، وأنا أطلع عليها، إنه لن يكون من غير المهم سرد قصة أهلنا، وعائلاتنا، وشلة أصدقائنا، وقصة خيباتنا وضياعاتنا، لأنها كذلك بعض الشيء قصة عصرنا، وخيباته، بالضبط، وكذلك ضياعاته.

ولكني أكتفي بهذا الاستطراد للعودة إلى ذلك الحديث مع والدي

في ساعة الغسق، عشية رحيلنا، خروجنا الصغير - كانت أمي تفضل القول «طلعتنا». لم يكن حديثاً بالفعل، في الواقع، بل كان مرافعة، مثلما قلت لك في بداية هذه الرسالة، مرافعة أنفق وقتاً طويلاً في إعدادها، لا لإقناعي فحسب، إنما لإقناع نفسه أولاً، والتمكن من حسم أمره.

تركته يتكلم. كان يبدو شديد التأثر، وشديد الصدق، وشديد الاهتمام بالأفكار التي كنت أعتنقها أيضاً، بحيث لم أشأ الخوض في مماحكة معه. والحق يقال إنني كنت أكن له الإعجاب، رغم ما كنا نخوضه من نقاشات عاصفة في تلك الفترة، وأحبه حباً عميقاً، ولا أشك لحظة واحدة في نزاهته الأخلاقية، ولا في نباهته الفكرية.

ولم أكن الوحيد الذي يكن له الإعجاب، فجميع أبناء الطائفة كانوا يستمعون إلى آرائه باحترام، ويترقبون تصرفاته. ولذلك كانت أسرتنا آخر أسرة ترحل عن البلد. كان والدي يعلم أن رحيله سيكون بمثابة إشارة، ولم يكن يشأ أن يعطي هذه الإشارة بخفة. فما دام هناك بصيص أمل، كان يرغب باستكشافه.

سألته في لحظة من اللحظات، خلال ذلك الحديث الذي دار بيننا، سألته هل كنا اضطررنا لاختيار طريق المنفى لو خسرت إسرائيل الحرب. فوضع على ذراعي يداً مواسية وقال: «لا تحاول يا نعيم، فلا فائدة، لا يوجد أي حل، لقد قلبت المسألة ألف مرة في رأسي. مصيرنا مكتوب منذ وقت طويل، حتى قبل ولادتك بل قبل ولادتي. لو كانت اسرائيل قد خسرت الحرب الأخيرة، كان الوضع سيكون أسوأ من ذلك، ولكنا تعرضنا للاضطهاد والاحتقار على السواء».

«في جميع الأحـوال، لن تخرج من فمي يوماً أمنية بهزيمة اسرائيل، مما يعني هلاكها. فبالنسبة إلى طائفتنا الصغيرة، تبين أن إنشاء دولة اسرائيل أسفر عن كارثة؛ وبالنسبة إلى مجمل الشعب اليهودي، كان مشروعاً متهوراً؛ لكل الحق في أن يؤيده أو أن يعارضه، إنما لم يعد بالإمكان التحدث عنه مثل مشروع مبهم تقدم به السيد هرتزل. فلقد أصبح الآن حقيقة واقعة، ونحن جميعاً منخرطون في تلك المغامرة، شئنا أم أبينا. إن الأمر مثل لو أنك أخذت يا نعيم كل مالي، أجل، كل مال أسرتنا حتى آخر قرش، وذهبت لتراهن به على حصان في السبق؛ لكنت أمطرتك بوابل من اللعنات، ولكنت اتهمتك بأنك خربت بيتنا، بل لكنت ربما لعنت الساعة التي ولدت فيها. ولكن هل كنت سأرجو أن يخسر حصانك في السباق؟ لا، بالطبع لا. كنت سأرجو أن يخرج حصانك من السباق فائزاً.

لو خرجت اسرائيل خاسرة من الحرب المقبلة، فسيكون الأمر مأساة ذات أبعاد كارثية لجميع اليهود. لقد نلنا نصيبنا من المآسي بما فيه الكفاية، ألا تظن ذلك؟».

في هذه اللحظة من الحديث، سألته إذا كانت اسرائيل ستكون بالنسبة إليه الوجهة النهائية لأسرتنا، فاستغرق به الأمر بضع ثوان قبل أن يجيب: «كلا، ستكون البرازيل». كان صوته يرتعش مما أوحى لي بأنه لم يحسم أمره بعد. ومع ذلك، كان قد حسمه، وسيتشبث به حتى نهاية حياته. لقد سافر أكثر من مرة إلى اسرائيل، ولكنه لم يفكر قطّ

بالاستقرار فيها.كانت أمي تخالفه الرأي، فلديها شقيقتان في تل أبيب، وكان بودها أن تعيش بجوارهما، ولكنها من المدرسة القديمة، أي تلك التي لا تناقش فيها المرأة قرارات زوجها. وحين تخامرها الشكوك، تحتفظ بها لنفسها. وفي جميع الأحـوال، لم تكن شكوكها سوى تساؤلات قائمة على ارتباطات عاطفية، ولا يسعها أن تنافس تحليلات أبي الراسخة. وعندما كانت تسمعه ينتقد اسرائيل، لا تكون مسرورة، ولكنها ترد عليه بتنهدات، أو تسعى لتحويل مجرى الحديث عوضاً عن الرد مباشرة ومقارعته الحجة.

وفي أحد الأيام، بعد مرور سنوات عديدة على رحيلنا، جاءت إحدى خالاتي، واسمها كوليت، لزيارتنا في ساو باولو. كانت بدينة، ونبيهة، وظريفة، وأبي يحبها كثيراً. ولذلك، فقد شعرت بأنه يجوز لها أن تبادره، أثناء غداء عائلي: «متى يا موسى ستصطحب أسرتك الصغيرة إلى إسرائيل لكي نعيش معاً؟»

فاكتفى والدي بالابتسام. فأردفت خالتي قائلة: «البرازيل عظيمة جداً، ولكن هناك، وطننا، ألا تظن؟». لم يرد عليها والدي، ولزم الصمت حتى نهاية الغداء. وسارعت والدتي بتغيير الحديث، ولكنها ظلت تراقب زوجها خلسة، لأنه تعرف طبعه. فعبثاً حاولنا إغاظته، لا بل استفزازه، فهو لا يستجيب بصورة تلقائية. وفي جميع الظروف، يستغرق الوقت الكافي، ويمعن التفكير، ويرجح رأيه.

غادرنا المائدة للجلوس على الشرفة. وفي اللحظة التي قدمت

فيها القهوة، قرر والدي أخيراً الرد على خالتي، من دون أن ينظر إليها، محملقاً في قعر فنجانه، وكأنها تحتوي على ملقن كلام. «يحق لنا أن ندعو فلسطين «أرض اسرائيل»(*)، ويحق لنا أن نعيش فيها، مثلما يحق ذلك للآخرين، بل وأكثر منهم بقليل. ولكن لا شيء يجيز لنا القول للعرب: هيا، إرحلوا، انصرفوا من هنا، هذه الأرض لنا، منذ الأزل، وليس لديكم ما تعملونه فيها! فهذا برأيي غير مقبول، مهما كان تأويلنا للنصوص، ومهما بلغت معاناتنا».

صمت، ورشف رشفة من قهوته، ثم أضاف، بنبرة معتدلة: «ولكن صحيح أيضاً أننا لو كنا وصلنا بحياء، معتذرين عن التطفل، وطلبنا إلى العرب أن يتكرموا بإفساح المجال لنا قربهم، لما حصلنا على شيء، وكنا سنطرد».

ولزم الصمت للحظات وجيزة أخرى، ثم، وللمرة الأولى، نظر مباشرة إلى عيني عديلته المفضلة. «تلك الأسئلة يا كوليت لا تحتمل أي جواب شاف. كيف يكف المرء عن كونه حملاً بدون أن يتحول إلى ذئب؟ لا يقنعني النهج الذي ينتهجه الإسرائيليون، إنما ليس لدي حل بديل أقترحه عليهم، فأبتعد، وألزم الصمت، وأصلي».

وصمت، كما لو أنه يصلي حقاً. ثم أضاف، بنبرة أكثر مرحاً: «يقول الناس هنا: الله برازيلي!(**) في البداية، كنت أبتسم، ولكني أعتقد أنهم

(*) eretz Israel: كما وردت في النص الأصلي) (المترجمة).

(**) Deus e Brasileiro: (وردت بالبرتغالية في النص الأصلي) (المترجمة).

على حق، أكثر مما يظنونه هم أنفسهم. فحين يتأمل الخالد هذا العالم، أي بقعة أكثر ما تملؤه بالاعتزاز بخلقه وخليقته؟ أي بقعة يشعر بأنها تمجد اسمه، وأيها يشعر بأنها تحقره؟ إنني على ثقة بأن هذه الأرض، أرض البرازيل، هي التي يتأملها بفرح، واعتزاز، وبأن أرضنا، هناك، في المشرق، هي التي يتأملها بحزن وغضب. أجل، أبناء بلدي الجدد على حق، الله برازيلي. فهنا الأرض المقدسة، وهنا أرض الميعاد، وموسى المتواضع الذي هو أنا ليس نادماً على أنه أتى بأهله إليها».

عفواً، عزيزي آدم، لأني أطلت الجواب على جملتك المقتضبة. ولكن الأمر كان يقتضي ذلك، إجلالاً لذكرى والدي، وكذلك لأعرض عليك أفكاري. فجل أفكاره، كما أوردتها لك من الذاكرة، تمثل ما أنا مقتنع به اليوم. لقد نقل إلي رؤيته كما أورثني كتبه القديمة، ولدي الشعور بأنني وريث حكمة عفا عليها الزمن لم يعد أبناء عصرنا يرغبون بها. إننا في عصر سوء النية وتعنت المواقف. وسواء كان المرء يهودياً أم عربياً، فليس لديه خيار آخر سوى بين كراهية الآخر وكراهية نفسه. ولو كنت شقياً وولدت مثلي، عربياً ويهودياً، فأنت بكل بساطة لست موجوداً، ولا يحق لك حتى أن تكون قد وجدت؛ فأنت مجرد سوء تفاهم، لبس، خطأ، إشاعة زائفة تولى التاريخ أصلاً تكذيبها. وإياك بالأخص أن تفكر بتذكير هؤلاء وأولئك بأن بن ميمون كتب دلالة الحائرين بالعربية!

أتظن أن بوسعنا، في شلة أصدقائنا، أو ما تبقى منها، أن نتحدث

بعد عن تلك الأمور بصفاء وسكينة؟ هل سيكون بوسع يهودي مثلي أن يعبر عن حقيقة أفكاره بدون أن يضطر للمجاهرة، على الفور، بأنه مناهض لإسرائيل ومناهض للصهيونية؟

أطرح عليك - وأطـرح على نفسي - هذه الأسئلة، ولكنه ليس بالشرط الذي أشترطه لمجيئي. فأنا أرغب بزيارة البلد، ولقاء الأصدقاء، وإذا ما استحال النقاش بصفاء وسكينة، فلن أناقش. لن أتنازل أبداً وأقول ما لا أفكر فيه، ولكن بوسعي بكل بساطة أن أحجم عن قول كل ما أفكر فيه. سأزور البلد، وأتذوق طيباته حتى التخمة، وأروي ذكريات الطفولة متجنباً المنغصات.

المخلص لك،

نعيم».

3

حالما انتهى آدم من قراءة رسالة صديقه الطويلة، وقبل أن يفكر بما سيرد عليه، فتح مفكرته لتدوين بعض الذكريات.

لم أعرف والد نعيم معرفة جيدة. صدف أن ألقيت عليه التحية، وتبادلت معه عبارة أو عبارتين تحتمهما اللياقة، ولكني لم أخض معه أي نقاش. وفي ذاكرتي، كان فارع القامة، يضع نظارات من العظم، كستنائي الشعر قصيره. وأذكر أنه كان ينتعل حذاءً بلونين، أبيض وبني، لابد أنه كان رائجاً في ذلك الوقت. وقد خلف لدي الانطباع بأنه رجل صارم، ربما لأن ابنه كان يتكلم بصوت أكثر انخفاضاً من العادة حين يعلم أنه في البيت.

وأذكر تماماً كذلك المكتب الصغير الذي جرى فيه حديثهما المطول. وبعد التفكير ملياً، أرى أن هذا الرجل لم يكن بالضرورة قاسياً إلى هذا الحد، بما أن نعيم لم يكن يتردد قطّ في اصطحابي إلى تلك الحجرة، بل كنا نلعب فيها أحياناً الشطرنج، جالسين على أريكتين كبيرتين. وكانت الكتب تطوقنا بالفعل، بمختلف اللغات، وبعضها يبدو قديماً جداً. ولكني لم أكن أراها سوى من الخلف، ولم أتصفح يوماً أحدها.

أغلق مفكرته، وأعاد قراءة الرسالة من أولها إلى آخرها، ثم راح يجيب عنها:

«العزيز نعيم،

شكراً لأنك خصصت الوقت لتحكي لي هذه الحادثة من حياتك. لقد قرأت حكايتك بتأثر، وانتابتني، خلال قراءتي لها، مشاعر يمتزج فيها الحزن والفخر.

الفخر بالنسبة إلى أصدقائي، وعلى الأقل، بالنسبة إلى معظمهم. فمنذ عودتي إلى البلد في الظروف التي تعرفها، أسعى للقائهم، وإعادة اكتشافهم، وغالباً بعد سنوات طويلة من الفراق، ويتبين لي أن أنبل الأحلام كانت تراودنا. ولو خامرني أدنى شك بهذا الشأن، فالرسالة التي كتبتها لي كانت ستكفي لتبديده.

والحزن بالنسبة إلى ما أصبحنا عليه. فكيف تفسر أننا لم نحدث أثراً يذكر على مسيرة بلدنا، ومنطقتنا، بصرف النظر عن مسيرة العالم؟ كيف تفسر أننا أصبحنا حالياً في معسكر الخاسرين والمهزومين؟ وأننا تفرقنا في جميع أرجاء المعمورة؟ وأن صوتنا، صوت الحكمة والتعقل، أصبح بالكاد يسمع؟

غير أني أعود بلا مماطلة إلى رسالتك الجميلة، وإلى الموضوع الخطير الذي تعالجه بهذا القدر من الصدق.

ذلك النزاع الذي قلب حياتنا رأساً على عقب ليس خلافاً إقليمياً

مثل غيره من الخلافات الإقليمية، وليس مواجهة بين «أبناء عم» أساء التاريخ معاملتهم. إنه يتجاوز ذلك بكثير. فذلك النزاع، أكثر من أي نزاع آخر، هو الذي يعيق العالم العربي عن الارتقاء، وهو الذي يعيق الغرب والإسلام عن المصالحة، وهو الذي يسير بالبشرية المعاصرة القهقرى، نحو تشنجات الانتماء، والتطرف الديني، ونحو ما ندعوه اليوم «صراع الحضارات». أجل، نعيم، إنني على يقين بأن ذلك النزاع الذي أفسد حياتك وحياتي هو اليوم العقدة المؤلمة لمأساة تتجاوزنا أو تتجاوز جيلنا. وأقولها وأنا أزن كلماتي: فبسبب ذلك النزاع أولاً دخلت البشرية في مرحلة من التقهقر الأخلاقي، عوضاً عن دخولها مرحلة التقدم.

هل أنزلق يا ترى في ذلك العيب الذي ينتشر على نطاق واسع لدى أبناء جلدتنا ويتمثل في إيلاء أهمية مفرطة للغاية لكل ما يمسنا عن قرب؟ تذكر كيف كنا نسخر فيما مضى من أولئك الذين يشرعون في إطلاق التكهنات، كلما اندلع خلاف بين ضيعتين في الجبل، حول ما سيفعله الأميركان، وحول ما سيقوله الفرنسيون، وحول الأسلوب الذي سيرد به الروس، كما لو أن سائر العالم ليست لديه هموم أخرى تقض مضجعه. وبما أن لدي، بوصفي مؤرخاً، إحساساً مرهفاً بنسبية الأمور، فلطالما أحجمت عن القول، بل وعن التفكير، إن هذا النزاع في الشرق الأدنى، كان بوسعه أن يحول القافلة البشرية جمعاء نحو وجهة أخرى.

غير أننا نجازف، لشدة ما نرغب بتجنب هذا العيب المضحك، بالاستسلام لعيب معاكس، عيب التبسيط الذي يختصره ذلك القول الشعبي الشائع لدينا: «ما صار شي ما صار متلو». أذكره أحياناً أمام طلابي، وأترجمه بتصرف: «كل ما يحدث يشبه بالضرورة شيئاً حدث في السابق». وأدحضه بشدة، نظراً إلى أن حقائق اليوم لا تكرر أبداً حقائق الأمس، وإلى أن أوجه الشبه تنطوي على التضليل أكثر منها على الفائدة.

ولذلك، بوسعنا التأكيد، بدون المجازفة بالوقوع في الخطأ، أن أربعينيات القرن العشرين، في تاريخ الشعب اليهودي الذي يمتد لثلاثة أو أربعة آلاف عام، تلك السنوات التي شهدت محاولة لإبادته، ثم انهزام النازية، فنشأة دولة إسرائيل، تمثل أكثر العقود مأساوية وأهمها قاطبة.

ولقد قالها أبوك لك على طريقته، وإني مقتنع مثله بذلك: فحين أبصرنا النور، أنت وأنا، كانت قد حصلت كارثة لتوها، كارثة سيكون لها عواقب إقليمية وكونية، كارثة ستؤدي حتماً إلى تدمير حياتنا، ولن يكون بوسعنا أن نفعل شيئاً حيالها على الإطلاق.

كان بوسع الأمور أن تحصل خلاف ذلك لو كنا نعيش في عالم مثالي. لكان اليهود قدموا إلى فلسطين موضحين أن أسلافهم عاشوا في هذه الأرض منذ ألفي عام، وأنهم قد طردوا منها بأمر من الإمبراطور تيتوس، وأنهم قرروا الآن العودة إليها؛ ولكان العرب الذي يعيشون

في ذلك البلد قالوا لهم: «بالتأكيد، تفضلوا، أنتم على الرحب والسعة! سنترك لكم نصف البلد، ونذهب للعيش في النصف الباقي».

أما على أرض الواقع، فلم يكن بوسع الأمور أن تجري على هذا النحو. فحين أدرك العرب أن هجرة اليهود لم تكن مجرد بضع جماعات من اللاجئين، إنما تتعلق بمشروع منظم الغرض منه استملاك الأرض، فقد ردوا على ذلك مثلما كان أي شعب آخر سيفعل: بحمل السلاح للحيلولة دون تحقيقه. ولكنهم منيوا بالهزيمة. وكلما وقعت مواجهة عسكرية، كانوا يهزمون. لم يعد بوسعي أن أحصي عدد الهزائم التي منيوا بها. والمؤكد أن تلك السلسلة من الخيبات قد زعزعت العالم العربي تدريجاً، ثم سائر العالم الإسلامي. زعزعته بالمعنى السياسي للكلمة، إنما كذلك بمعناها السريري. فلا يخرج قوم سالمين من مذلات علنية توالت عليهم. وجميع العرب يحملون آثار صدمة عميقة، وأنا لا أستثني نفسي. ولكن حين ينظر إلى هذه الصدمة العربية، من الضفة الأخرى للنهر، أي الضفة الأوروبية، ضفتي بالتبني، فهذه النظرة هي نظرة سوء فهم وريبة.

في «المرافعة» التي نقلتها لي، وضع والدك إصبعه على حقيقة جوهرية: فغداة الحرب العالمية الثانية، اكتشف الغرب هول معسكرات الاعتقال، وفظاعة العداء للسامية؛ أما العرب فلم يظهر لهم اليهود على الإطلاق بمظهر المدنيين العزّل، المهانين، المهزولين، إنما بمظهر الجيش الغازي، المدجج، المنظم، والمتميز بفعالية مخيفة.

وخلال العقود التالية، اتسعت حدة هذا الاختلاف في النظرة. ففي الغرب، أصبح الاعتراف بفظاعة المجزرة التي ارتكبتها النازية عنصراً أساسياً في الضمير الأخلاقي المعاصر، ولقد ترجم ذلك إلى دعم مادي ومعنوي للدولة التي لجأت الجماعات اليهودية المضطهدة إليها. أما في العالم العربي، حيث كانت اسرائيل تحرز النصر تلو الآخر على المصريين والسوريين والأردنيين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين، بل وعلى العرب مجتمعين، فلم يكن بالإمكان بالطبع النظر إلى الأمور بالطريقة نفسها.

والنتيجة، وهذا ما أردت التوصل إليه، أن هذا النزاع مع اسرائيل قد فصل العرب عن ضمير العالم، أو على الأقل عن ضمير الغرب، والأمر سيان تقريباً.

قرأت أخيراً هذه الشهادة لسفير اسرائيلي عن حياته المهنية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين: «كانت مهمتنا حساسة، لأنه توجب علينا على السواء أن نقنع العرب بأن اسرائيل لا تهزم، وإقناع الغرب بأن إسرائيل مهددة بالموت». ومع البعد، يمكن القول إن هذا الدبلوماسي وزملاءه أحرزوا نجاحاً باهراً في أداء هذه المهمة المتناقضة. فلا عجب، منذ ذلك الحين، ألا ينظر الغربيون والعرب النظرة نفسها إلى دولة إسرائيل وإلى مسيرة الشعب اليهودي.

غير أن حذاقة الدبلوماسيين ليست بالطبع ما يفسر هذا الاختلاف في النظرة. فثمة مأساتان موازيتان، من الناحية الموضوعية، وإن كان

معظم الناس، لدى اليهود والعرب على السواء، يفضلون الإقرار بمأساة واحدة. فكيف يمكن القول لليهود الذين تعرضوا لكل هذه الاضطهادات والإهانات عبر التاريخ، والذين تعرضوا، خلال القرن العشرين، لمحاولة إبادة تامة، إن عليهم تفهم معاناة الآخرين؟ وكيف يمكن القول للعرب الذي يشهدون اليوم أردأ فترة في تاريخهم وأكثرها مذلة، والذين يتعرضون للهزيمة تلو الأخرى على يد إسرائيل وحلفائها، والذين يشعرون بالمهانة والتحقير في العالم أسره، إن مأساة الشعب اليهودي يجب أن تبقى ماثلة في أذهانهم؟

إن المتأثرين تأثراً عميقاً، مثلك ومثلي، بهاتين «المأساتين الغريمتين» ليسوا كثيرين جداً. وهم – ونحن – من بين جميع اليهود وجميع العرب، الأكثر تعاسة وحيرة.

والحق يقال إنه يحدث لي أحياناً أن أحسد، في هذا المعسكر أو ذاك، أولئك الذين يشعرون بأنفسهم قادرين على القول، بدون تأثر: النصر لشعبي، والموت للآخرين!

ولكني أكتفي بهذا القدر. فسيكون لدينا مناسبات أخرى لكي يسرد كل منا للآخر شقاءه، لا سيما خلال هذا اللقاء الذي أسعى لتنظيمه.

وبهذه المناسبة، بدأت الأمور تتوضح. لقد أمضيت أربع وعشرين ساعة مع صديقنا رامز. وتناولنا الغداء، ثم اصطحبني بطائرته الخاصة – أجل، يا سيدي! – إلى عمان، حيث يقيم في الكوخ الذي

تتخيل... سأحكي لك تلك الزيارة بمزيد من التفاصيل، إماً كتابة، وإما حين ألتقيك. وأكتفي بالقول إنه تحمس حين عرضت عليه فكرة عقد لقاء لشلة أصدقاء الأمس. ويمكننا الاعتماد على حضوره وكذلك على حضور زوجته، واسمها دنيا، وهي تبدو لي قادرة على الاندماج في المجموعة وكأنها انتمت إليها على الدوام.

وبالمقابل، سيكون «الرمز» الآخر غائباً عن اللقاء. لا أدري إذا أخبرك أحدهم بأن رمزي اعتزل العالم وأصبح راهباً. حصل ذلك منذ أكثر من عام. لقد أنشأ مع شريكه امبراطورية حقيقية، وجمع ثروة طائلة، وقرر في أحد الأيام التخلي عن كل شيء والعيش عيشة الزاهد في أحد أديرة الجبل. وصار اسمه «الأخ باسيل». ولا أدري إذا كان من واجبنا إبداء الإعجاب به أم التحسر على حاله. قد يتحدث الساخرون عن انهيار عصبي، ولعلهم على صواب. غير أن هناك الكثير من الساخرين في أنحاء العالم – وفي هذا البلد أكثر من البلدان الأخرى؛ ومن جهتي، أفضل الاعتقاد بأن صديقنا طرح على نفسه تساؤلات روحانية وأخلاقية حقيقية.

و«توأم روحه» لا يجد العزاء، وتدمع عيناه كلما تحدث عن ذلك. لقد ذهب لزيارته مرة واحدة، ولم يقابل بالترحيب.

سأحاول رغم ذلك أن أقوم بمحاولة بنفسي، لاطلاعه على مشروع لقائنا. لا أظن أنه سيوافق على الانضمام إلينا، ولكنه لو قبل

استقبالي وتوضيح قراره، فسيكون بوسعي أن أنقل آراءه إلى الأصدقاء. وعلى هذا النحو، لن يكون غائباً تماماً عن لقائنا...».

كان آدم قد بلغ هذا الحد من رسالته حين اتصلت به سميراميس تخبره بأن مطعم الفندق مغلق في ذلك المساء لحفلة خاصة، وبأنها طلبت إحضار بعض الأطباق له إلى بيتها. كانت جالسة على الشرفة الصغيرة، والمائدة جاهزة، واقترحت عليه أن ينضم إليها.

«كنت أكتب رسالة إلى نعيم».

«ستنهيها لاحقاً. أنتظرك، والشمبانيا مفتوحة. وإذا لم تأت بسرعة، ستخسر فقاقيعها...».

«سمي، إحرصي على فقاقيعها، سأكمل الرسالة، وأرسلها، ثم أوافيك. أحتاج إلى خمس دقائق...».

وعاد إلى شاشة حاسوبه.

«سمي الجميلة تستعجلني. وقد طالت رسالتي بالفعل، إنما بودي أن أقول لك أمرين بعد.

أولاً إنني في غاية السرور لأنك ترغب بزيارة البلد بعد كل هذه السنوات، ومتشوق لمرافقتك حين ستزور بيتيك، بيت العاصمة وبيت الجبل - بؤرة الفسق والفجور، إذا فهمت قصدك. ونظراً إلى سقوط مبرئاتك مع مرور الزمن، أنتظر منك اعترافات كاملة!

وثانياً أنه سيكون من المفيد الآن، بل ومن الملح، استعراض

مواعيد محددة للقائنا. فما قولك، على سبيل المثال، بالأسبوع الأخير من أيار، أو بالأسبوع الأول من حزيران؟ إننا اليوم في 27 نيسان، وقد توفي مراد في ليل 20 إلى 21 من هذا الشهر؛ وسيصادف «الأربعون» في 31 أيار، وأقترح أن نجتمع حوالى هذا التاريخ، ومن الأفضل أن يكون لقاؤنا خلال إجازة أسبوعية طويلة...

قل لي إن كان ذلك يناسبك، وسأتحدث مع الآخرين بهذا الشأن اعتباراً من الغد. لست متأكداً بعد من عددنا. لم يرد ألبير بعد على رسالتي الأخيرة، ولكني متفائل. وسيحضر بالطبع كل من تانيا وسمي، ورامز وزوجته، ونضال أيضاً بلا شك، شقيق بلال المسكين؛ وكذلك أنت وأنا... وبالمناسبة، هل ستأتي برفقة أحدهم - وهو «الخيار الموصى به» كما يقول مصممو البرامجيات المعلوماتية - أم لوحدك؟ أما عني، فسألح على دولوريس، صديقتي، للمجيء؛ وأرجو أن تقبل الافتراق عن مجلتها، ولو لثمانٍ وأربعين ساعة...

سأدعك الآن، وأقبلك بشوق،

آدم».

ضغط على زر «إرسال»، وهرع لموافاة سميراميس في البيت الصغير.

كانت قد تركت له الباب مفتوحاً.

اليوم التاسع

1

عاد آدم إلى غرفته في الصباح، وقد تخدر ذهنه بشكل ممتع، وفي عينيه، بقية نعاس. لود لو يستمتع بالخمول، وربما يغفو، وسط الهواء الدافىء الخفيف. غير أنه جلس أمام الشاشة ، بحكم الضرورة، وضغط على الأزرار لكي يستفيق حاسوبه.

وجد في علبة بريده الإلكتروني رسالة كان ينتظرها بفارغ الصبر، وأخرى لم يكن يتوقعها إنما سارع بفتحها. كانت تحمل توقيع «دولوريس»، وقد أرسلت بعيد الثالثة فجراً.

«حبيبي،

يجافيني النوم هذه الليلة والوحدة تثقل كاهلي. لقد سافرتَ منذ أسبوع بالكاد، ولكني أشعر أحياناً، وسط الإحساس بالكرب في شقتنا الخاوية، بأنك غائب منذ أشهر عديدة، وإلى الأبد.

ليست المرة الأولى التي يسافر فيها أحدنا من دون الآخر، ولكن هذا الانفصال يبدو لي مختلفاً. أشعر بأنك بعيد عني، وليس فقط عن باريس وعن شقتنا أو غرفتنا. أشعر بك بعيداً عن عالمنا المشترك برمته. أشعر بأنك عُدتَ إلى عالم سابق لم أعرفه، وليس لدي فيه مكان. تبدو

لي ملاءات فراشنا فجأة باردة، والغطاء لم يعد يمنحني الدفء. أحتاج إلى أن أضع رأسي على كتفك، إنما كتفك ليس بقربي.

كنت تخشى في ما يبدو تلك الرحلة. فالمرء لا يمتنع عن زيارة وطنه طوال ربع قرن بسبب ضيق الوقت. ومن البديهي أنك كنت ترتاب مما سيجيش في داخلك بفعل تجدد التواصل مع الأماكن والأشخاص الذين كانوا جزءاً من حياتك السابقة. كنت أشعر بقلقك، يوم الجمعة الماضي، بعد ذلك الاتصال الهاتفي الذي تلقيته من أصدقائك، ولكني شجعتك مع ذلك على السفر.

وشجعتك لسببين. السبب الأول هو ذاك الذي قلته لك حينها، أي أنه لا يحق لك أن تتردد عندما يطالبك صديق أو حتى «صديق قديم»، بأن تكون إلى جانبه وهو على فراش الموت. والسبب الثاني، لم أقله لك، ولكنه كان حاضراً في ذهني منذ فترة طويلة، لا بل ربما منذ أن التقينا للمرة الأولى، في عيد مولد بانشو، منذ ثماني سنوات، وخضنا ذلك الحديث المطوَّل. عندما أخبرتني أنك لم ترجع إلى بلدك الأم البتّة، تراءى لي ذلك السلوك غريباً ومنحرفاً. لا سيما وأنك أوضحت لي بأنك لست معرضاً فيه لأي تهديد، وأنك لن تجازف بأن تقتل فيه، أو بأن تعتقل، وبأن ذلك مجرد «موقف» من جانبك، لأن بلدك خيَّب أملك. كان موقفك من وجهة نظري منحرفاً، لا بل مَرَضياً بعض الشيء، وعاهدت نفسي على «معالجتك». وقد أعربت أكثر من مرة عن رغبتي بقضاء الإجازة هناك، لكي تصطحبني إلى الأماكن التي

عشت فيها، ولكنك كنت تتهرب في كل مرة، وتفضل أن نسافر إلى وجهة أخرى، ولم أشأ الإلحاح - وإن كنت على يقين أكثر من أي وقت مضى بأن في الأمر شذوذاً.

ثم جاء ذلك الاتصال الهاتفي، عند الفجر. أصبح لديك فجأة سبب وجيه لكي تقوم بتلك الرحلة، لا بل كان الأمر في هذه الظروف بمثابة واجب معنوي. وعلاوة على ذلك، كنت في السنة السابعة، ودراستك عن أتيلا تتعثر. كانت اللحظة المناسبة للإقدام على هذه الخطوة، وتراءى لي أن تشجيعك للإقدام عليها هو عين الصواب.

أما الآن، فأنا نادمة على ما فعلت. فلدي الإحساس بأنني خسرتك. لدي الانطباع بأنني تحولت إلى مشعوذة، وألوم نفسي على ذلك. كنت أريدك أن تتحرر من رُهاب تعاني منه وأن تستعيد، نحو وطنك الأم وماضيك على السواء، موقفاً صحياً. ولكن يبدو لي أنك تجنح الآن نحو عالم آخر، وأنني لن أكون بالنسبة إليك عما قريب سوى صوت بعيد، ووجه مضمحل، لا بل ربما وجه من الماضي، من واحدة من حيواتك السابقة.

وزدْ على ذلك ما حصل مع سمي... وعدتها ألا ألومك على ما حصل أبداً، وسأفي بوعدي، لأني مسؤولة بالقدر نفسه مثلكما عما جرى. عندما تلقيت منها ذلك الاتصال الغريب، وذلك الطلب الغريب، كان بوسعي أن أرفض. لم يخطر ببالي يوماً أن تطلب مني امرأة أن «أعيرها» صديقي لقضاء الليلة معه. كان طلباً يتجاوز الحدود

ويخالف الطبيعة. وفي كل الأحوال، كان طلباً يتنافى مع كل ما يتراءى لي أنه يندرج في إطار المنطق السليم حتى ذلك الحين. غير أني اخترت القبول. لقد اخترت بملء إرادتي، ولذلك، وسأردد ذلك مرة أخرى، لن ألومك يوماً على ذلك السلوك المنحرف، لا بصورة مباشرة، ولا حتى من خلال التلميحات المبطنة.

لماذا وافقت على طلبها؟ السبب الأول لموافقتي أن سمي كان بوسعها ألا تطلب إلي شيئاً، وأن تغويك بغير علم مني، وإشراكها لي في قرارها منحني الإحساس بأني لم أتعرض تماماً للإغفال؛ وبما أني موجودة، في جميع الأحوال، على بعد آلاف الكيلومترات، فيما أنتما تحت سقف واحد، فلقد اعتبرت أن الانخراط في اللعبة أهون الشرين، لكي يحصل الانتهاك برعايتي، نوعاً ما، عوضاً عن حصوله غصباً عني.

والسبب الثاني أنني كنت أريد أن أظهر جديرة بفترة شبابك التي لا تزال متعلقاً بها بشدة. لم أعرف ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، حين رفعت محرمات كثيرة في مجال العلاقات الجنسية. لا أضفي على تلك الحقبة طابعاً مثالياً، ولكني أدري أنها تكتسب دلالة عندك، وكنت أريد أن أثبت بأني قادرة أيضاً، أنا التي وصلت إلى حياتك في مرحلة متأخرة جداً، على الانخراط في هذه اللعبة المحفوفة بالمخاطر. وعوضاً عن الظهور بمظهر المرأة المتزمتة، كنت أريد أن أكون حليفتك وشريكتك.

والسبب الثالث مرتبط بما قلته لك في مستهل هذه الرسالة.

كان يبدو لي أنك بحاجة إلى تعزيم علاقتك مع بلدك الأم، بطريقة ما، مثلما تطرد الأرواح الشريرة، وأن تصفي أخيراً حساباتك مع الرهابات المفرطة وأشكال الحنين المفرطة على السواء، وتلك الحادثة مع سمي التي عشتها مجدداً بعد ربع قرن كانت تبدو لي بمثابة علاج.

كل هذه الأسباب التي عرضتها عليك توّاً تبدو لي، في هذه اللحظة، مضحكة ومثيرة للشفقة. وهذه الليلة، أشعر بالخجل قليلاً، وبالبرد قليلاً، وبالخوف. إنني سعيدة معك كما لم أكن في أي مرحلة أخرى من حياتي. وإذا كنت قد كرست وقتاً لحياتي المهنية - وقتاً أكثر من اللازم، وأعترف بذلك، في هذه الأشهر الأخيرة - فعلاقتنا، وعشقنا، يمنحانني الزخم اللازم. وإذا لم تعد تحبني، فلن أملك القوة للنهوض من فراشي كل صباح. إنني بحاجة إلى نظرتك التي تتأملني بإعجاب وتداعبني؛ وأنا بحاجة إلى نصائحك التي تدعمني وتشيع في نفسي الطمأنينة؛ وأنا بحاجة إلى كاهلك لكي أضع عليه رأسي في الليل.

لا أكتب هذه الرسالة لأفسد عليك بقية رحلتك. لا أطلب إليك أن تعود بسرعة، فأنا لست على شفير الهاوية. إنني فقط أشعر بحزن عارم، وبشيء من القلق الليلي. طمئني! قل لي إن كل ما جرى منذ سفرك لم يخفف من حبك لي، ولا من رغبتك بالعودة إلى عشنا الباريسي الصغير. وإذا اقتضى الأمر، فأنا أسمح لك بأن تكذب عليّ قليلاً..».

كان آدم على وشك أن يتصل بها على الفور لطمأنتها. ولكن الساعة لم تزل السابعة صباحاً في باريس. ففضل أن يكتب لها:

«حبيبتي دولوريس،

لست بحاجة للكذب لأقول لك الكلمات التي تطمئنك. فأنت لست شخصاً يستدعي الكذب، ولذلك أحببتك منذ لقائنا الأول. أحببتك، وأحبك، وسأحبك على الدوام. لست الأخيرة بين صديقاتي، أنت المرأة التي لطالما بحثت عنها، وعبثاً فتشت عنها، وأسعفني الحظ وحصلت على امتياز الالتقاء بها.

قلما يجد المرء عند شخصٍ ما هذا القدر من النزاهة بدون أي أثر للحشمة المفرطة. وهذا «الحلف» الغريب الذي قمتِ بعقده مع سمي لمثال بليغ عما قلته لك توّاً. كان الأمر يتطلب الجرأة لاتخاذ مثل هذا القرار. لقد خالفتِ الحكمة «العابرة السبيل» السائدة في هذه الأيام، وثقي بأني لن أدعك يوماً تندمين على تلك الجرأة.

ما أوضحته بالنسبة إلى دوافعك يطابق ما أحسست به شخصياً، وإذا كان سلوكي طفولياً بعض الشيء، فسلوكك نبيل وكريم، وليس ما يدعوك للخجل منه. وأقول «طفولي» لأن النظريات التي كانت تستهوينا في سبعينيات القرن العشرين بشأن الأزواج الذين يجدر بهم أن يكونوا «منفتحين» على جميع التجارب، كانت وصفات كارثية. كنت مجرد فتى يستوعب مثل الورق النشاف الافتتانات المستوردة

من فرنسا أو من جامعات أميركا الشمالية، لا سيما تلك التي تدغدغ استيهامات المراهق الذي كنت.

ومنذ ذلك الوقت، شُفيت منها، كما شُفيت من غيرها. غير أن ثمة رواسب منها لا أتنكر لها. وإذا اعتبرت أن فكرة زوجين منفتحين على جميع التيارات الهوائية فكرة طفولية، فأنا لا أحترم كثيراً كذلك الأزواج الذين تفوح منهم رائحة العفونة؛ ولا أشعر سوى بالازدراء للأزواج من الطراز القديم الذين تقوم حياتهم الزوجية على خضوع المرأة للرجل، أو على إخصاء المرأة للرجل، أو الاثنين معاً. ولو كان عليّ أن أجاهر بمعتقداتي في هذا الشأن، فسأقول إنها التواطؤ والحنان وحق الوقوع في الخطأ.

وبالنسبة إلى كل من هذه المعايير الثلاثة، يبدو لي أننا مثاليان، وما حصل إنما يرسخ إيماني بقيمة علاقتنا وجمالها وديمومتها.

إنني أحبك يا حسنائي الأرجنتينية، وأضمك إلى صدري لكي يهدأ قلبك [...]».

ووقع الرسالة باسم الدلع الذي كانت دولوريس تناديه به: «ميتو»، وهو اختصار أداميتو، أي «آدم الصغير».

2

لم يكلف نفسه عناء الاطلاع على الرسالة الثانية التي تلقاها خلال الليل، والتي كانت تحمل توقيع ألبير، قبل أن يبادر إلى طمأنة صديقته القلقة.

كانت مكتوبة بالإنكليزية، خلافاً لجميع مراسلاتهما السابقة، الأمر الذي أثار فضوله. من الطبيعي أن يشعر صديقه، بعد أكثر من عشرين عاماً في الولايات المتحدة، بمزيد من الارتياح في التعبير بلغة هذا البلد. إلا أن الأمر مستغرب ، وغير معهود، لا بل ومحيِّر.

«عزيزي آدم،

أكتب إليك لأنقل لك خبراً محزناً وخبراً ساراً. الخبر المحزن أن أمي بالتبني مريضة جداً، ويبدو أن أيامها باتت معدودة، وإنني متأثر لذلك عميق التأثر، كما بوسعك أن تتخيل. فسأضطر بالتالي إلى السفر إلى البلد لزيارتها ومعانقتها للمرة الأخيرة.

والخبر السار أن هذه المناسبة ستتيح لي أيضاً رؤيتك، وكذلك رؤية أصدقاء الطفولة. وبما أني لم أشأ إحراج المعهد الذي أعمل لحسابه، قررت أن أقوم بالإجراءات النظامية، وألتمس إذناً استثنائياً،

لكي لا يمثل هذا الواجب العائلي على الإطلاق تحدياً للتوجيهات التي يتوجب عليّ الامتثال لها بصفتي باحثاً وبصفتي مواطناً.

وبالطبع، سأحيطك علماً بمشاريعي حالما أعرف بدقة مواعيد زيارتي.

ولك مني خالص المودة،

ألبير ن. ڤيثار».

لماذا وقع الرسالة باسمه بالكامل، وليس باسمه الأول فقط، أو بالحرف الأول، كما يفعل عادة؟ ومن تكون تلك «الأم بالتبني» التي لم يسمع عنها آدم من قبل، مع أنه يعرف ألبير منذ أيام الطفولة؟ لا ريب أن هذا الأخير لم يكن يكثر الكلام عن أسرته، إنما ليس إلى هذا الحد!

أعاد قراءة النص مرة ثانية، ثم مرة ثالثة. وفهم في نهاية المطاف ما يجري. فقد استخدم صديقه الأميركي تلك اللغة والنبرة، لأنه من الواضح أن جهة ثالثة ستقرأ رسالته. كانت عملياً بمثابة رسالة ذي وجهين، تتضمن نسخة رسمية ورسالة مشفرة. وكان ألبير يسعى إلى إفهامه أنه قرر المجيء، وأنه وجد العذر المناسب للالتفاف حول الحظر الحكومي.

لماذا اللجوء إلى هذه الحيلة في بلد الحرية مثل الولايات المتحدة؟ كان آدم يجهل السبب. غير أن الفرصة ستتاح له لكي يسأل صديقه حين يلتقيه، لأنه من الواضح أنه حسم أمره وقرر المجيء. وفي موعد قريب جداً بالضرورة، فمن المؤكد أن «الأم بالتبني» العليلة لم

تكن قادرة على انتظاره طويلاً. تلك هي الفرحة الجديدة التي تتضمنها الرسالة! والباقي مجرد ذر للرماد في العيون...

كان يجدر بآدم الرد، في جميع الأحوال، باللغة نفسها، وبالعبارات الغامضة نفسها.

«عزيزي ألبير،

آسفت لما علمته عن أمك بالتبني. أتمنى لها الشفاء العاجل.

وأتمنى أيضاً أن تمنحني الزيارة التي تعتزم القيام بها لرؤيتها فرصة لقائك مجدداً. فلدينا ذكريات كثيرة من أيام الصبا لنستحضرها!

أنتظر بفارغ الصبر أن تحدد لي تواريخ إقامتك، حالما تعرفها.

مع أصدق تمنياتي،

آدم».

وضغط على زر الإرسال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا. لم يكن يتخيل أن تجتمع شلة الأصدقاء بدون ألبير، وهو أكثرهم نباهة وتهكماً وتألقاً، بل وأكثرهم كآبة أيضاً، مع أن ذلك قلما ظهر في رسائله منذ أن استقر في الولايات المتحدة.

الآن، اجتمعت الظروف المواتية لتنظيم لقاء جمع شمل لا ينتسى. مط آدم جسده كالقط المتخم، قبل أن يتمدد على سريره، وهو يتهيأ للاستسلام للنعاس.

كانت ليلته الثالثة مع سميراميس ممتعة شأنها شأن الليلتين السابقتين، ولكنه لم يخلد للنوم إلا بصورة متقطعة. بين حديثين، وعناق؛ وبين عناقين، ونتف حديث. وذلك حتى طلوع الفجر.

غير أنه بذل جهداً للنهوض، ومد اليد نحو الكومودينا لتناول مفكرته التي كان يشعر بالحاجة للبوح إليها بتساؤلاته.

السبت 28 نيسان

هل سنعيش أنا وسمي ليلة حب رابعة؟ الأرجح لا. فقد أتاح لنا «الإذن» الذي منحتنا إياه دولوريس أن نعيش حتى الآن لحظة مباركة، بدون ذلك الحضور المزعج للإحساس بالذنب. ومن الآن فصاعداً، وبعد الرسالة التي تلقيتها، لن يعود بالإمكان أن تستمر الأمور على هذا المنوال.

لا ريب أن صديقتي لم تطلب إلي بوضوح أن أضع حداً لهذه العلاقة؛ ولكن أمنيتها مضمرة، وليس بوسعي إغفالها بدون أن يتملكني الشعور بخيانتها. لقد أظهرت دولوريس نبلاً عظيماً! ولن أكون جديراً بحبها لو أظهرت قدراً أقل من النبل.

أفهكذا إذن، انتهى القداس؟ أيجدر بي الآن «إغلاق القوس» بحركة حاسمة، وطرد سمي خارج دائرة غرامي؟ وإذا ما فتحت باب غرفتي على حين غرة، وجاءت تستلقي إلى جانبي، هل يجدر بي أن أدفعها، عوضاً عن احتضانها بحنان بين ذراعي؟

وبعد أن أدرك آدم معضلاته بدون أن يدري كيف يحلها، أغلق مفكرته، ووضع قلمه الحبر جانباً، وغفا بالفعل.

عندما استيقظ، كانت رسالة أخرى تنتظره في حاسوبه. وهذه المرة من البرازيل.

«عزيزي آدم،

سيكون لدي الكثير مما أقوله لك عن ذلك النزاع المشرقي الذي تعرضنا جميعاً لتردداته، والذي لن يضع في ما يبدو أوزاره قريباً. وإذا تقاربت تحليلاتنا حول الأمور الأساسية، فلدينا كذلك بعض الاختلافات. ولكن هذه الاختلافات تقرِّبنا، بصورة متناقضة، الواحد من الآخر.

أنت تتحسر لأن قومك «منفصلون» عن ضمير العالم، أو على الأقل عن ضمير الغرب. وأنا أتحسر بالأخص على أن قومي منفصلون اليوم عن أهم الأدوار التاريخية التي اضطلعوا بها على مر القرون وأكثرها رمزية وفرادة، ألا وهو دور الخميرة الإنسانية العالمية. فتلك هي رسالتنا الكونية ، الرسالة التي جعلت المتطرفين والغلاة في الوطنية وجميع أصحاب العقول الضيقة يكرهوننا. إنني أتفهم أن نرغب بالتحول إلى «أمة مثل سائر الأمم»، تتمتع بمنطقها القومي الخاص. ولكن ثمة أمراً جوهرياً يضيع في عملية التحول تلك. فليس بوسع الأمة أن تكون قومية بشراسة وكونية بعزم على السواء.

وأفترض أنه ستسنح لنا الفرصة لمعاودة الحديث عن كل ذلك مطولاً، وبصورة أعمق. أما في الوقت الحاضر، - والساعة عندي تشير بالضبط إلى الخامسة والدقيقة العشرين صباحاً، ولم أتناول بعد أول فنجان قهوة في هذا النهار - فلست قادراً على التحليل بصورة متسقة. وإذا كنت أكتب لك عند الفجر، فلأرد على اقتراحك بشأن موعد اللقاء. وفي هذه الشأن، لدى مشكلة... إنما ربما لدي حل أيضاً.

إنني مضطر للسفر إلى ميلانو في 8 أيار لمدة أسبوع، والحل الأمثل أن أحدد رحلتي «للحج» في الفترة نفسها، في أواسط الشهر، وكان بالإمكان أن يصادف ذلك مع الفترة التي تقترحها. وللأسف، فالأمر غير وارد، لأن عليّ الذهاب إلى مكسيكو، بعد زيارتي إلى ميلانو، لحضور مؤتمر هام.

والحل الوحيد كما أراه أن أعرِّج على بلدنا قبل الذهاب إلى إيطاليا، أي في الواقع، بعد أيام. فهل ستكون موجوداً؟ وهل تظن أن أصدقاء آخرين بوسعهم أن ينضموا إلينا أيضاً، لكي نعقد لقاء مصغراً؟

أعلم أن كل ذلك يحصل في عجالة شديدة، وسأتفهم تماماً أن يكون لديك ولدى الآخرين مشاريع أخرى في الحال. ولكن، في ما يتعلق بي، إذا لم أسافر على الفور، فسيتحتم عليّ إرجاء زيارتي بضعة أشهر. ولدي الإحساس بأنني إذا لم أغتنم هذه الفرصة، فقد لا تسنح فرصة أخرى قبل انقضاء فترة طويلة جداً...

وهذا ما أتى بي إليك في هذه الساعة المبكرة... ففكر، واسأل الأصدقاء، ورد عليّ حالما يتسنى لك الرد.

أقبل خدك،

نعيم».

سارع آدم بالرد، بدون أن يفكر كثيراً، أو أن يستشير أياً كان:

«نعيم، ليس لدي ما أقوله لك سوى كلمة واحدة: تعال! وإياك أن تتردد! وبما أن هذه الفرصة سانحة، فلا تفوتها! تعال! ألله أعلم متى سيتسنى لنا أن نجتمع من جديد!

أما أنا فلا أعتزم العودة إلى باريس في الحال. وسأذهب لاستقبالك في المطار، على الأرجح برفقة سمي التي ستقترح عليك أن تقيم عندها، في الفندق الذي يحمل اسمها، والكائن «خارج هذا العالم». وأنصحك بقبول دعوتها. وسنقيم في غرفتين مجاورتين، ونثرثر حتى طلوع الفجر.

أنتظر أخبارك بفارغ الصبر. كلا، سأصحح ما قلت: أنتظر فقط رقم الرحلة وموعد وصولها».

وإرضاءً لضميره، اتصل على الفور بسميراميس على هاتفها الخليوي.

«أكد لي نعيم توّاً أنه سيأتي قريباً جداً اعتباراً من الأسبوع المقبل. ولقد اقترحت عليه أن يحجز غرفة هنا».

«حسناً فعلت، إنه عنوان ممتاز».

«بل وعدته أن ينزل في غرفة مجاورة لغرفتي».

«لا مشكلة، فالموسم لم يبدأ بعد. ولا يأتي زبائننا سوى في حزيران. وحتى ذلك الحين، سيكون المكان شبه فارغ، كما ترى. ولا تقل لي إنك مبتهج لذلك!».

«كلا، تعلمت الدرس، فمحاسبك ينتف شعره، الخ».

«وهو يحذرني من أنني سأضطر قريباً إلى إعلان إفلاسي، إنما ليس هذه السنة، ليس بعد».

«من جهة أخرى، أخبرني ألبير، بعبارات مبطنة، أنه وجد السبيل للالتفاف حول تعليمات حكومته، إنما لنلزم الصمت ولا نتحدث في الأمر قبل أن يصبح بيننا».

«لا شيء سوى أخبار سارة!».

ثم أضافت، وقد أخفضت صوتها:

«يبدو أن ليلة البارحة جلبت لنا الحظ».

«لقد بذلنا ما بوسعنا لكي يبتسم لنا الحظ».

سيعلق آدم الذي دوَّن هذا الحديث لاحقاً على صفحات مفكرته:

لفظتُ هذه الجملة بنبرة مرحة، وعلى الفور، شعرت بالخجل، فهذا الصباح حمل لي كذلك خبراً مختلفاً، حرصت أشد الحرص على عدم نقله إلى تلك التي أمضيت ليلتي معها. بالطبع، يتحتم عليّ أن أقول لها، عما قريب، إنه لابد من إغلاق «قوسنا» الحميم الآن. ولكني

لست مستعجلاً من أمري! فإذا كان لا بد من تولي المهام الشاقة حين تمثل أمامنا، فلا يجب رغم ذلك الهرولة لملاقاتها.

فسأفعل ما كان يفعله في الماضي أكثر الرومان حكمة: سألجأ إلى التسويف...

3

في يوم السبت ذاك، بعيد الظهر، قصد آدم الدير الذي انعزل فيه صديقه رمزي أو الأخ باسيل.

اقترحت عليه سميراميس: «بما أن معالم مشروعك لجمع شمل الأصدقاء تتضح، ربما حان وقت القيام بهذه الزيارة».

«أنت محقة، مع أن رامز وزوجته لم يدعا لي مجالاً للتفاؤل...»

«إذا ذهبت وأنت تبالغ في التوهم، فستصاب حتماً بالخيبة. قل لنفسك إنك تزوره لتسمعه، لتحاول تفهم أسبابه، ولتوثيق عُرى الصداقة التي تراخت قليلاً. ولهذا السبب فقط، الأمر يستحق أن تذهب، ألا توافقني الرأي؟».

استغرق بهما الأمر أكثر من ساعة ونصف الساعة لبلوغ ضيعة المغاور حيث يوجد الدير الذي يحمل الاسم نفسه. وللوصول إليه، كان لا بد من سلوك درب ضيقة، وعرة، تتخللها درجات غير منتظمة منحوتة في الجبل. ولا يمكن الوصول إليه إلا سيراً على الأقدام، أو على ظهر الحمير أو البغال.

أعلنت سميراميس لراكبها حين ركنت سيارتها في ظل سنديانة:

«لقد فكرت ونحن في الطريق، لن أصعد إلى الدير. ستر تاح أكثر إذا ذهبت بمفردك».

لم يلح آدم عليها. فلقد فكر ملياً بدوره في الطريق، وتوصل إلى الاستنتاج نفسه. كان لا يعرف بعد كيف سيتعامل مع الأخ باسيل، فعلى كل كلمة أن تكون موزونة بدقة، ولعل حضور شخص ثالث يزيد الموقف الصعب أصلاً صعوبة.

«وماذا ستفعلين في هذه الأثناء؟».

«لدي أصدقاء أعزاء في الضيعة، سيسرون بزيارتي».

لم يكن على يقين من أنها تصدقه القول، ولكن كان يناسبه أن يصدقها.

اعتمر قبعة قش قديمة استعارها من الفندق، وسلك الدرب الوعرة.

سيدوِّن آدم تقريراً مفصلاً عن هذه الزيارة.

من الواضح أن الدير الذي اختار رمزي العيش فيه قديم جداً، وبعض أجزائه لا تزال أطلالاً. ولكن أحد أجنحته خضع للترميم بحذاقة، بحجارة ملساء غير متراصفة بعض الشيء، لا تؤذي عين الناظر إليها ولا تتنافر مع المشهد الطبيعي.

قرعتُ الباب، ففتح لي راهب إفريقي، عملاق أشيب اللحية،

يتكلم العربية بلكنة واضحة. كان على الأرجح إثيوبياً من مرتفعات الحبشة. سألت عن الأخ باسيل. فأومأ الراهب الحاجب رأسه، ثم أفسح لي المجال للدخول إلى ردهة صغيرة لا أثاث فيها سوى طاولة عارية، وأريكة من الجلد العتيق، وأربعة كراس من القش. وقد علق على الجدار صليب من الخشب متواضع الحجم.

من الواضح أنها ردهة الاستقبال التي زارها رامز. وأرى أن المكان يوحي بأنه مدرسة أكثر منه سجناً.

كنت أهم بالجلوس حين وصل صديقي. فوجئت بمشيته، إنما ليس كما توقعت. في المرة الأخيرة التي التقيته، كان ذلك في باريس، في مطعم راق؛ جاء للتفاوض على صفقة كبيرة، وكان يرتدي البدلة الداكنة التي ينصح بارتدائها في تلك المناسبات. كنت أتوقع أن أراه هذه المرة يلبس المِسْح، وقد زنَّر خصره بحبل، وانتعل صندلاً. ولكن لم يكن هذا هو الحال. فإذا كان قد تخلى عن زي رجل الأعمال، فهو لم يتزيا بزي الراهب كما تخيلته، واكتفى بجبةً طحينية اللون، وصلع واضح يشبه إكليل الرأس، لم يعد يسعى لإخفائه، كما كان يفعل في السابق، تحت خصلة شعر.

كان يبدو مسروراً لرؤيتي. سألته مع ذلك ألا يؤاخذني على زيارتي بدون سابق موعد. وأوضحت له أنني أزور البلد زيارة عابرة، ولفترة قصيرة جداً، وبعد سنوات طويلة من الغياب.

دعاني للجلوس، وجلس في الطرف الآخر من الطاولة، ثم قال لي، بعد أن تأملني للحظة بنظرة مرحة:

«لم تتغير كثيراً».

لم يكن بوسعي أن أقول له صدقاً الملاحظة نفسها، ففضلت أن أجيبه:

«وأنت، استرجعت شبابك».

ذلك انطباعي بالفعل، ومن الواضح أنه سُرَّ لذلك. لا، كما أظن، لأسباب التأنق العادي، إنما لما يحمله هذا الإطراء من دلالة مبطنة. فتلك السكينة، وشيء من اللامبالاة مما يوحي بذلك الانطباع بعودة الشباب. ربما يتملكه الشعور بأنه يحمل جميع مآسي العالم، ولكنه متخفف من همومه العائلية والمهنية الخاصة، وهو لا يخسر في هذه المقايضة، إذا جاز لي التعبير بمفردات تجارية.

قلت له، في غياب صورة أقل شيوعاً: «المكان هنا أشبه بالواحة».

صحَّح صديقي بثقة، كما لو أنه فكر ملياً بهذا التشبيه من قبل: «كلا، بل على العكس. فالعالم هو واحة، أما هنا، فنحن موجودون في الفضاء الشاسع الذي يحيط به. في الواحات، يمضي المرء وقته في تحميل القوافل وتفريغها. أما من هنا، فالقوافل تلوح كالخيالات عند خط الأفق. لا شيء أجمل من القافلة حين تتأملها من بعيد. أما حين تقترب منها، فالضجيج يعلو منها، والقذارة تفوح منها، والجمَّالون يتشاجرون، والجمال تساء معاملتها».

لا أدري إذا كان الأمر يتعلق باستعارة أم بذكرى، فالفرصة سنحت بلا شك لرمزي، حين كان يعمل في شبه الجزيرة العربية، لمرافقة

القوافل. واكتفيت بمرافقة كلامه بابتسامات خفيفة وبإيماءات من الرأس دون أن أنبس ببنت شفة.

لزم الصمت برهة، ثم استأنف الكلام بأسلوب أقل مجازاً.

«في بداية حياتي، كنت أحلم ببناء العالم، وفي نهاية المطاف، لم أبنِ شيئاً. عاهدت نفسي أن أبني جامعات ومستشفيات ومختبرات بحوث ومصانع عصرية ومساكن لائقة لأشخاص بسيطين، وأمضيت حياتي أبني قصوراً وسجوناً وقواعد عسكرية و«مراكز تجارية» لمستهلكين محمومين، وناطحات سحاب لا يمكن العيش فيها، وجزراً اصطناعية لمليارديرات مجانين».

«لم يكن بيدك حيلة، فهذا مال النفط. ولم يكن بوسعك أن تدلي برأيك في أسلوب إنفاقه».

«كلا، هذا صحيح، فالناس يبددون أموالهم على هواهم. ولكن المرء ليس مجبراً على دغدغة نزواتهم، بل لا بد من أن يتحلى بالجرأة ليقابلها بالرفض. كلا، سمو الأمير، لن أشيد لك قصراً ثامناً، لأن لديك أصلاً سبعة قصور بالكاد تستعملها. كلا، أيها السادة، لن أشيد لكم هذا البرج المؤلف من ستين طابقاً تدور بصورة منفصلة؛ فخلال عام، ستمتلىء آلياته بالرمل الناعم، وستتعرض للعطب بصورة غير قابلة للإصلاح، ولن يعود لديكم سوى هيكل معوج سوف يصيبه الصدأ ويتعفن في القرون الأربعة المقبلة».

ورافقت الاستياء المقدس للراهب - المهندس ابتسامة سرعان ما تبددت وحلت محلها تكشيرة ألم.

«أمضيت حياتي أبني، وحين أقوم بالمحصلة، لا أجد نفسي فخوراً بأي شيء بنيته».

كنت أهم بالرد عليه والقول إنه يبالغ في الحكم على نفسه بهذه القساوة، وأردت تذكيره بأنه قد بنى في بلدان الخليج مستشفى فائق التجهيز، هو بمثابة متحف أثري فريد - زرته منذ ثلاث سنوات مع طلابي -، وكذلك مدينة جامعية غالباً ما تذكر كنموذج من نوعها. ولكن لا يمكن الرد على هواجس وجودية بقائمة من الإنجازات. فقررت ألا أقول شيئاً، وألا أطلب شيئاً، وأن ألزم الصمت. احترمت لحظات صمته ولحظات بَوْحه على السواء، وتركته يتابع مساره الذهني الخاص، موقناً بأنه سيجيب بنفسه في نهاية المطاف عن الأسئلة التي لم أسألها، ولا سيما على أكثرها بداهة: لماذا أصبح راهباً؟

وقال أخيراً: «لم تتغير في قرارة نفسي مبادئي الدينية، بل ما استخلصه منها من استنتاجات. علموني منذ الصغر أن «لا تسرق»، والحق يقال إنني لم أختلس يوماً، ولم أمد يدي إلى الصندوق، ولم أغش أيضاً في فواتيري، ولم أستملك شيئاً لا يخصني. وبوسعي أن أكون مرتاح الضمير من الناحية النظرية. ولكن يبدو لي اليوم أن الاكتفاء بهذا الحد الأدنى من الامتثال للوصية الإلهية ضرب من العبث والجبن.

«إذا استولى الحكام بغير وجه حق على ثروة بلدهم، وأعطوك جزءاً منها لبناء قصرهم، ألن تكون شريكهم في مشروع نهب؟إذا

شيدت سجناً سيزج فيه أبرياء، وسيموت فيه بعضهم تحت التعذيب، ألا تنتهك الوصية التي تحظر القتل ؟».

«بوسعي على هذا النحو أن أستعرض كل وصية من الوصايا العشر، ولو كنت سيء النية، بوسعي أن أكون في سلام مع نفسي إذ ألاحظ أنني لطالما احترمتها. ولكن، لو كنت حسن النية، ألا يجدر بي التسليم بأني لا أحترمها سوى في الظاهر، سطحياً، لمجرد «تخليص» نفسي أمام الخالق؟ العالم حافل بالأشخاص المثيرين للشفقة الذين يتخيلون أنه يمكن خداع الله، وأنه يكفي عدم القتل وعدم السرقة للمحافظة على نظافة الكف».

تملكني الشعور، لوهلة، بأن رمزي يوجه لي لوماً. فأنا الذي أتباهى أحياناً بأني ابتعدت في الوقت المناسب عن بلدي الذي يخوض حرباً، وحافظت، بالضبط، على نظافة الكف، هذه الكلمات تحثني على التحلي بقدر أكبر من التواضع و قدر أقل من راحة الضمير. ولكن يبدو لي أن تلك لم تكن نيته، وأنه يلمح فقط إلى تصرفاته السابقة. وبالفعل، فقد أضاف على الفور:

«أفترض أن من يراقبونني من الخارج لديهم الانطباع بأنني أجتاز أزمة وجودية، بسبب التقدم في السن، والإعياء، وبعض المآسي الشخصية. ولكن رؤيتي للأمور مختلفة. أعتقد أن عقلي أقنعني بالمجيء للعيش في هذا المكان. ومع ذلك، فلابد من الاعتراف بأن ظروف حياتي قد سهلت اختياري. فزوجتي كانت قد توفيت لتوها،

وأولادي أصبحوا راشدين، ويعيشون بعيداً عني. غالباً ما يتعلق البشر بواقعهم اليومي بواسطة خيوط غير مرئية. وفي حياتي، كانت بعض الخيوط قد تقطعت. ولم يعد لدي الكثير من الروابط، وصار بوسعي الانعتاق، وقد انعتقت...».

قررت بدون أن أتساءل مطولاً عما إذا كانت اللحظة مواتية لأقحم في حديثنا اسم شريكه السابق.

«التقيت رامز وزوجته توّاً. لقد حدثاني عنك».

ولم أضف شيئاً آخر. فخيم الصمت. بدا رامز بنظرته التي تحدق في كوة فوق رأسينا على وشك البكاء. وكدت أنتقل إلى موضوع آخر، ولكني أحجمت عن القيام بذلك، وفضلت أن أنتظر ريثما يهدأ روعه.

وأخيراً، قال لي بصوت متثاقل:

«كنت مجحفاً بحق...».

ثم سكت بصورة مباغتة، وقد غُص حلقه على ما يبدو. وانتظر لحظة أخرى، كما ليستعيد سكينته. ولكنه استأنف الكلام، بعد ثوان طويلة أخرى، ليقول:

«ثمة غيمة تلطف السماء. ما قولك لو تمشينا في الخارج؟».

فنهضنا معاً، وخرجنا من المبنى، وسلكت الدرب المفروش بالحصى وراءه.

في الواقع، كان وهج الشمس قد خفّ، وصار بوسعي أن أحمل القبعة في يدي.

وبعد حفنة من الدقائق، وصلنا تحت شجرة جوز كبيرة. فجلس صديقي على حجرة ملساء وأشار إلى حجرة أخرى، ملساء أكثر منها، فجلست عليها بدوري.

وقلت، استئنافاً للحديث، بدون أن ألفظ من جديد اسم رامز:

«كان يبدو عليه الضياع بدونك».

تنهد الأخ باسيل مطولاً قبل أن يجيب بنبرة مستكينة:

«في ما يتعلق بالعمل الذي كنا نقوم به، لا أبالي، ولست نادماً على شيء. كان معتاداً على وجودي قربه في المكتب، وسيعتاد الاستغناء عني، إنما كان يجدر بي أن أوضح له قراري. والمشكلة أنني لم أشعر بأي رغبة، في اللحظة الحاسمة، في خوض جدال مع أي كان. لم أكن أشعر بنفسي قادراً على توضيح ما يعتمل في نفسي من اضطرابات لشخص آخر، ولا حتى لأعز أصدقائي. وفي أحد الأيام، جاء إلى هنا...».

«أخبرني».

«لم أستقبله كما كان يجدر بي أن أستقبل الأخ الذي كان لي على الدوام. زارني أبكر من اللازم، فلقد كنت قد انتقلت تواً للعيش في الدير، وكان يعتزم على ما يبدو أن يرجعني معه. ولقد اضطررت أن أدافع عن نفسي، فأظهرت له الجفاء. ثمة لحظات يشعر فيها المرء بالحاجة إلى البقاء في عزلة تامة وهو يتداول مع نفسه، وحيث يبدو أقل تدخل بمثابة الاعتداء. ولم يكن لدي خيار آخر سوى إبعاده. حاولت

أن يكون ذلك بألطف ما يمكن، ولا بد من أني جرحت مشاعره. ولا بد من أنه تألم، وأنا كذلك. هل ستلقاه مجدداً عما قريب؟».

«أجل، نعتزم أن نلتقي في الأسابيع القادمة».

«قل له إذن... أخبره بكل ما قلته لك. وقل له أيضاً إنني أرغب برؤيته مجدداً، وإنه سيلاقي الترحيب هنا. لو جاء وحده، أو برفقة زوجته».

«سيُسرّان لسماع ذلك، فهما لم يجدا العزاء بعد رحيلك، وسيشعران بالعزاء حين يعرفان بأنك تكن لهما المودة».

لزمنا الصمت مطولاً. ثم نهض وأشار إلي أن أتبعه. وسلكنا درباً من الحجارة يبدو أنه امتداد لذاك الذي سلكته للصعود إلى الدير. ولكن ذلك الدرب كان يعلونا الآن، ونحن نصعد إلى مستوى أعلى. بدأت ألهث، فيما صديقي، على الرغم من جسامته، يواصل القفز بخفة من صخرة إلى أخرى مثل تيس فتي.

قادتنا خطانا إلى نوع من المغارة المحفورة في الجبل.

«تعال لتشاهد هذا المكان! إتبعني!»

كان الباب منخفضاً، وقد ولجه منحني الظهر. اقتفيت أثره. وفي الداخل، كان المكان مظلماً، إنما راحت عيوننا تعتاد الظلمة شيئاً فشيئاً. ثم أزاح رمزي مصراعاً خشبياً صغيراً كان يسد منوراً. فأضيئت المغارة.

وبقيت هنا، مبحلقاً، مشدوهاً، وفي حلقي غصة تأثر. فعلى

الجدران، رسمت لوحات تجسد شخصيات كثيرة، قد علت رؤوسها هالات دائرية أو بيضاوية. كانت تبرز بوضوح أيديهم، المرسومة بعناية، والممدودة إلى الأمام، كما لتتلقى هبة، وعيونهم المحددة، وكأنها متبرجة، وسحناتهم الملتحية والحزينة. وبرزت أيضاً في هذه اللوحات حيوانات تعلو رؤوسها هالة القديسين، لا سيما أسد ونسر يمثلان الإنجيليين.

«هناك سبع صالات مثل تلك الصالة، ولكنها ليست بحالة جيدة، بسبب الرطوبة والتخريب والجهل والإهمال، ومن ثم أثر ما مرّ عليها من قرون. وتعود هذه على الأرجح إلى القرن الثالث عشر. إنها كنز، أليس كذلك؟ وهناك أشخاص لا يعلمون حتى بوجود هذا المكان».

«أخجل القول إني واحد منهم. وعلى الأقل، كنت واحداً منهم، حتى الآن».

«وأنا كذلك، حتى ثلاثة أو أربعة أيام خلت. ففي أحد الأيام، طلب إلي مطران الجبل المجيء لزيارة هذا الدير المتداعي، وسألني ما يجدر القيام به لئلا ينهار كلياً. فأتيت، وتجولت من حوله، ولما رأيت هذه المغاور، قررت البقاء. لن أدعي أنه السبب الوحيد الذي يقف وراء خياري، ولكنه كان العامل الحاسم. فقد زعزعني ذلك المزيج من الجمال والورع والهشاشة. قلت للمطران إنني سأهتم شخصياً بالترميم الذي سأقوم به على نفقتي، وإنني سأكون سعيداً لو حصلت هنا على صومعة صغيرة بوسعي النوم فيها بين الحين والآخر أثناء ورشة العمل.

وهكذا بدأت الأمور. ولقد دعمت الجدران القديمة، ونفذت بعض التجهيزات، وأغلقت المغاور لحمايتها من تقلبات الطقس والأذى. أيمكنك أن تصدق بأن بعض الزائرين حفروا اسمهم بالسكين على اللوحات الجدارية؟ أنظر هنا! وهنا! وهناك!».

وكانت هناك بالفعل أسماء وقلوب، وكذلك ندوب بسيطة، مبتذلة، مجانية، وحقودة.

وعندما خرج رمزي من المغارة، أغلق الباب بإحكام، ووضع علاقة المفاتيح في الجيب الغميق لجبته، ثم اصطحبني، عبر طريق، نحو أرض مسطحة، تشبه الساحة العارية؛ وعلى الأرض، رأيت تبليطاً غريباً مؤلفاً من حجارة سوداء وبيضاء، متراصفة في أشكال هندسية. وقال لي الأخ باسيل إنها متاهة التأمل، وإنه صنعها بيديه، الصيف الماضي. وسألني إن كنت أعرف، أنا الذي أعيش في فرنسا، متاهة كاتدرائية أميان، أو شارتر. واعترفت له بجهلي. فشرح لي أن الغرض من هذا المسار شغل ذكائنا بالمهمة العملية التي تقضي «البقاء بين المسامير»، لكي يتسنى لروحنا المتحررة أن تهيم في فضاءات أخرى.

«حين ستأتي لزيارتي المرة القادمة، ستنام في الدير، وفي الفجر، ستصعد معي حتى هذه الساعة، وتتبع هذه المتاهة وأنت تسير ببطء على الحجارة السوداء، وستشعر بتأثيرها».

أجبته، بشيء من الجلال:

«أقبل دعوتك. سأعود».

ونظرت إلى ساعتي.

«أصبحت الساعة الخامسة والنصف. لقد حان الوقت لكي أنصرف».

ونزلنا حتى باب الدير.

«سأنتظر زيارتك المقبلة. ستشاطرنا طعامنا وتبقى حتى اليوم التالي».

«أجل، سأفعل ذلك، أعدك».

مددت له يدي لمصافحته، ولكنه ضمني إلى صدره، وعانقني بشدة، ومطولاً.

4

وجد آدم لدى نزوله من الدير، وهو يحمل قبعته بيده، سميراميس في سيارتها، لم تبرح مكانها، تنتظره، وقد ركنت تحت الشجرة نفسها، وخجل من نفسه لأنه أهملها على هذا النحو أكثر من ساعتين. راحت تدعي أنها زارت أصدقاءها، وأنها قد عادت توّاً من زيارتها. وكانت تلك كذبة، وقد اعترفت بها في نهاية المطاف. ولم يكن بوسع راكبها سوى أن يعتذر ويكثر من الاعتذار.

فقاطعته: «لكي أغفر لك، ستحكي لي كل شيء، من أول دقيقة إلى آخرها».

وراح يحكي لها على الفور، جاهداً لعدم نسيان أو إغفال أي تفصيل.

ولشدة ما كان تقريره حيوياً، وحماسياً، ومؤثراً، لا سيما حين وصف جمال الكنائس القديمة، أعربت صديقته عن قلقها.

«أرجو ألا تكون قد عقدت العزم على أن تترهبن بدورك!».

«لن أقول إن هذا الأمر غير وارد عندي، ولكني لن أقدم على هذه الخطوة. لدي مهنة أحبها، وطلاب ينتظروني، وامرأة...».

أضافت سميراميس بالنبرة التعدادية المحايدة: «وعشيقة».

« لقد تاه ذلك عن بالي تماماً».

قالت له، وكأنها تداعب قطاً : «أزعر!».

«على أي حال، لا تقلقي، فرمزي لم يسعَ لتبشيري».

«ولكنه عرض عليك أن تمضي بعض الوقت في الدير!».

«إنها ليلة، لكي أستيقظ في هذا الجو...».

«لو كنت مكانك، لتوخيت الحذر! فالبشر أضعف مما يظنون. لا سيما في مثل سنك...».

«ضعيف؟ أجل، ربما. يحدث لي أن أستسلم لبعض الإغواءات، إنما ليس لجميعها».

وصفعته على فخذه بطريقة خبيثة. فرد عليها مداعباً اليد التي صفعته مداعبة خفيفة.

«أعرف رمزي، ليس من النوع الذي يمارس التبشير. فإيمانه لائق وكذلك- كيف بوسعي أن أصفه؟- وكذلك مؤدب. لطالما كان رجلاً متحضراً، وإيمانه على شاكلته. وكنت أخشى، حين جئت إلى هنا، أن يكون بالعكس شديد التحفظ والاستغراق في تأمله، وشديد الجفاء، كما كان مع رامز. كانت مفاجأة سارة بالأحرى. فبالنسبة إلى شخص قرر اعتزال العالم، وجدته، على العكس، أقرب من ذي قبل، ودوداً، ومتبصراً، يهتم بجوهر الأشياء».

«لم يكن الدين يوماً من اهتماماتي، ولكن لا بد لي من الاعتراف بأني أكن كل تقدير ومودة للشخص الذي أصبح، لا بل أشعر بالعزاء

لأن لدي صديقاً في دير. وسأعود لزيارته، كما وعدته. وسأمضي الليلة في صومعةٍ مثل صومعته، وفي الصباح، سأصعد معه حتى «متاهته» للتأمل سيراً على الأقدام».

في طريق العودة، فقد المشهد المكفهر كل جاذبية. تراءت له الطريق طويلة لا تنتهي. وأكثر من مرة، أوشك آدم أن يغفو، ولكنه قاوم رغبته بالنوم خشية أن تغفو السائقة بدورها، وأن تنتهي السيارة في أحد الوديان.

وفي لحظة من اللحظات، رفعا عقيرتهما بالغناء. لطالما كان صوت سميراميس قوياً وشدياً، يطرب أصدقاءها أثناء سهراتهم الطلابية، وكانت تعرف مجموعة متنوعة من الأغاني، وتنتقل بسهولة من المصرية إلى العراقية، ومن الإنكليزية إلى اليونانية، ومن الفرنسية إلى الكريول، ثم إلى الإيطالية. وكانت تحفظ كذلك أناشيد روسية وتركية وسريانية وباسكية، بل وأناشيد عبرية تترد فيها كلمة «يروشالايم». وبذل آدم جهده لمرافقتها بأفضل ما تيسر له، مدندناً الألحان خفية ورافعاً عقيرته أحياناً حين يتذكر لازمة. لم يكن يغني بصورة ناشزة، ولا بصورة تتنافر فيها الأصوات، ولكن صوته لم يكن شجياً. كان يعلم ذلك؛ فاكتفى ذلك المساء، في معظم الأغاني، بضبط الإيقاع بأصابعه. ولو لم يخشَ انحراف السيارة عن الطريق، لظل على الأرجح صامتاً وساكناً ومغمض العينين طوال الوقت، وترك لصوت صديقته الرخيم أن يهدهده.

سألها في لحظة من اللحظات:

«ألم يخطر ببالك يوماً أن تحترفي الغناء؟».

أجابت بدون تواضع مزيف: «بلى، خطر ببالي».

«وماذا جرى؟».

تنهدت.

«قال لي أبي: «لا أريد أن تذهب ابنتي وترقص في أحد كباريهات القاهرة».

«وانتهى الأمر عند هذا الحد؟».

«انتهى الأمر عند هذا الحد. لقد أمضى أبي شبابه في كباريهات القاهرة تحديداً. وكان يسكر على ما يبدو كل ليلة، ويغني بأعلى صوته، ويدعو الجميع لشرب الشمبانيا، ويصعد على الطاولات، لا بل كان مغرماً براقصة، مما أثار الأسى لدى جدي وجدتي. ولم يصارحني بذلك البتّة بالطبع. أفليس يُفترض أن يكون الوالدان قد عاشا شباباً نموذجياً؟ ولكن أفراداً آخرين من أسرتنا حكوا لي. ولما توفي والده فقط ثاب إلى رشده، وتسلم شركة العائلة، وتزوج. وأنجب ثلاثة أولاد، وتعهد بعدم السماح لأي منهم، ولا سيما لي، ابنته، بالعيش حياة متهتكة».

«تذكرت توّاً فقط أنك ولدت في القاهرة. كنت أعلم ذلك، ولكن الأمر تاه عن بالي. ربما لأنك لا تتكلمين باللهجة المصرية، أو بالأحرى بلى. فحين تتكلمين الفرنسية، أسمع بالفعل لهجتك المصرية. أما بالعربية، فهي ليست واضحة كثيراً».

«بالعربية لا، ليست لدي تلك اللهجة. وفي أسرتي، قلما كنا نتحدث العربية. ومع ذلك، فقد كان أصل والدي من جبيل، وأمي من دمشق، ولكنهما لا يتحدثان سوى بالفرنسية. الواحد مع الآخر، ومع أشقائهما وشقيقاتهما، ومع أصدقائهما، بالفرنسية دوماً، مثل الأرستقراطيين الروس في روايات القرن التاسع عشر. لا يتكلمان العربية إلا مع السائق، والطاهي، والبواب. وكان الأمر طبيعياً في محيطهما. والأسوأ من ذلك أنهما حين يتحدثان عن أهل البلد، يقولان «العرب»، وكأنهما من البريطانيين أو اليونان».

«ولكن والدك، حين كان يرتاد الكباريه، في شبابه، ويسكر حتى الثمالة، ويصعد على الطاولات، لا أظن أنه كان يغني بالفرنسية ، أو بالإنكليزية، أو باليونانية».

«كلا، من المؤكد أنه كان يغني بالعربية. وحين يحتضن بين ذراعيه راقصته التي تطلق على نفسها اسم «نور العين»، فمن المؤكد أنه كان يغازلها بالعربية. وأنت كذلك».

فالتفت آدم إليها، مستغرباً.

تابعت قائلة : «أجل، أنت أيضاً، لا تعرف أن تهمهم سوى بالعربية. لقد تحدثنا بالفرنسية طوال السهرة، إنما في الفراش...».

«دون شك. لم أنتبه لذلك حقاً. ولكن، بما أنك تذكرين ذلك أمامي، فصحيح أن كلمات الحب تحضرني بالعربية».

«ولو كنت مع امرأة لا تفهم هذه اللغة؟».

«لقد طرحت هذه المشكلة نفسها بالفعل. فلما تعرفت إلى دولوريس، كانت تلومني أحياناً لأنني أبالغ في الصمت أثناء المضاجعة. فأوضحت لها أن كلمات الحب تحضرني عفوياً بالعربية، وأنني أمتنع عن التفوه بها، لأنها لا تفهم هذه اللغة. ففكرت ملياً، ثم قالت لي: «أريدك أن تهمسها في أذني كما لو أني أفهمها». بدأت أفعل ذلك. فشاءت حينها أن تهمسها لي، بدورها. وفي البداية، كانت تكررها كما هي، وتخاطبني كما لو كنت امرأة. وكانت لكنتها مضحكة. وشيئاً فشيئاً، علمتها الكلمات الصحيحة، واللفظ المضبوط. والآن، نمارس الحب بالعربية، ويخلق ذلك بيننا مودة خاصة!»

ضحكت سميراميس ضحكة مقتضبة، وشعر آدم فجأة بندم ممزوج بالرعب يجتاحه.

«لم يكن يجدر بي أن أحدثك عن ذلك. لن تلومني على أي شيء آخر قد أبوح به. أما أن أتحدث عما نتهامس به حين نكون في الفراش، فهذه خيانة حقيقية».

«إطمئن، لن أتحدث في الأمر».

«هذا لا يكفي، يجب أن تعديني وعداً رسمياً».

«أعدك، برحمة تراب أبي، بأني لن أذكر ما قلته توّاً. لا لدولوريس، ولا لأي مخلوق آخر. هل ارتحت؟».

«أجل، ارتحت. أعذري إصراري، ولكني ألوم نفسي لأني تطرقت إلى هذه الأمور الحميمة. فهذه ليست من عاداتي».

«آدم، هدىء روعك. أنا سمي، أنا صديقتك، صديقة موثوقة، يمكنك أن تخفف من حذرك لبضع لحظات. إنني أبوح لك بأسراري، وأنت تبوح لي بأسرارك، ولن يتألم أحدنا جراء ذلك، بل سيشعر كل منا بأنه ازداد قرباً من الآخر».

ووضعت يدها على ركبة راكبها الذي ظل ساهماً لبعض الوقت قبل أن يسألها:

«كم كنت تبلغين من العمر حين غادرت مصر؟».

«سنة بالكاد. كان ذلك بعيد ثورة عبد الناصر. وقد تصرف أبي تصرفاً متهوراً جداً، ولم يعد يجرؤ البقاء في القاهرة».

«تصرفاً متهوراً؟».

«أجل، تصرفاً في غاية التهور».

وابتسمت ولزمت الصمت. فتركها آدم تستحضر ذكرياتها.

«لا بالطبع، لا أتذكر عنه شيئاً شخصياً، ولكن غالباً ما حكيت لي القصة فصار لدي الانطباع بأني عشتها حقاً».

«حين كان أبي طالباً، أي في الأربعينيات، حصل غليان سياسي كبير. لم يكن هو نفسه منتمياً إلى أي حزب سياسي، ولكن كان هناك شيوعيون وإسلاميون وملكيون ووطنيون بين زملائه في الجامعة. ولقد حكى لي أيضاً أن بعض الطلاب كانوا يأتون أحياناً في بعض الأيام متشحين باللون الأصفر، أو بالأخضر، ويعمدون إلى السير في الصف مردّدين شعاراتهم. فيعرف الجميع أن حزباً جديداً قد أنشىء. وعموماً،

كانت هذه الجماعات أكثر مدعاة للسخرية منها للرعب، وكانت تختفي بعد أشهر معدودة».

«أما الجماعات الأكثر جدية فكانت حركة الإخوان المسلمين، أو الإخوان. وكان الشباب ينضمون إليها بالآلاف، ولما حصل انقلاب الضباط الأحرار في عام 1952، اعتقد الجميع أن عبد الناصر والسادات وجماعتهما من الإخوان إنما ببزة عسكرية. وحسب ما قاله لي والدي، كان بعضهم كذلك؛ ولكنهم، ابتعدا عن الحركة فور تسلم زمام الحكم، لا بل عمدوا إلى الحد من نفوذها في البلد، وقد أمعنوا في ذلك إلى حد أن بعض الناشطين الإسلاميين المستائين أطلقوا النار على عبد الناصر عام 1954، السنة التي ولدت فيها، فيما كان يلقي خطاباً. وبالكاد أخطأوا هدفهم، فشنت ضدهم حملة قمع رهيبة. واعتقل الآلاف منهم، وأعدم عدد من قادتهم على إثر محاكمات صورية».

«وكان أحد المتآمرين يدعى عبد السلام، وهو في التاسعة عشرة، وهو الشقيق الأصغر لأحد أصدقاء والدي الأعزاء. وقد لاذ الشاب بالفرار بعد محاولة الاغتيال، وكانت الشرطة والجيش في أعقابه، ولا ريب في أنه سيشنق على الفور لو ألقي عليه القبض. فقرر والدي أن يخبئه في البيت».

«لا تقولي لي إنه خبأ في بيته الرجل الذي حاول اغتيال عبد الناصر!».

«إنه تصرف متهور جداً، أليس كذلك؟».

«لا بل أكثر من تصرف متهور جداً! هذا الجنون بعينه! ما الذي خطر ببال رجل برجوازي كاثوليكي لكي يجازف بحياته وبحياة أسرته ويخبئ في بيته قاتلاً، وعلاوة على ذلك، إسلامياً؟».

«بالضبط، كان تحليله أنه لن يخطر ببال السلطات أبداً البحث عن عبد السلام في بيت برجوازي مسيحي. وفي الواقع، لقد مشّطت الأحياء الشعبية، والمساجد، إلا أنه لم يخطر لها أن تأتي للبحث عندنا».

«ولماذا فعل ذلك؟ هل كان متعاطفاً مع «الإخوان»؟».

«كلا، على الإطلاق. كان يكرههم قبل تلك الحادثة، وظل يكرههم حتى نهاية حياته. ولقد قدم الملاذ للمدعو عبد السلام لأن ذاك الشاب كان في التاسعة عشرة، وكان يرتعد خوفاً، ولأن أعز أصدقائه توسل إليه أن يفعل ذلك».

«وهل كانت أمك راضية؟».

«لم يطلب والدي مشورتها. جاء صديقه في إحدى الأمسيات برفقة شقيقه. وقد تنكر ذلك الأخير فحلق لحيته، وكان يلوح مثل المراهق الذي لم يبلغ بعد، بنظراته التي تشبه نظرات أرنب مذعور. كنا نقطن في الطابق الأرضي، ولأبي في الحديقة مرسمٌ يرسم فيه في ساعات فراغه. كان يرسم لوحات جميلة، وإنني على ثقة بأنه لو كان في أوروبا، لكرس نفسه للرسم. وخلاصة القول، كان لديه ذاك المرسم، واختبأ الشاب هناك، ولم يغادره قطّ. وكان والدي يحضر له الطعام سراً. ودام الحال لعدة أسابيع، ولم يفطن أي فرد من أفراد الأسرة إلى ما جرى، ولا حتى والدتي التي لم تكن تطأ قدماها مرسم زوجها البتّة».

«وحين هدأت الأمـور، وعجزت السلطات عن العثور على الهارب، رحل. وعلم والدي لاحقاً أنه استطاع مغادرة البلد إلى ألمانيا الغربية التي أصبحت في تلك السنوات المكان الرئيسي لتجمع الإخوان المسلمين في المنفى.

«لم يتعرض أهلي قطّ للمضايقة، ولكن والدي لم يكن مرتاحاً. وكان يقول لنفسه إن المسألة ستفتضح يوماً ما، وإن السلطات ستجعله يدفع ثمن تعاطفه مع خصومها. فباع بيته، وشركته، وكل ما يملك؛ واصطحب زوجته، وأولاده، وماله، ورحل».

«وهل ندم يوماً على تهوره؟».

«كلا، أتخيّل أنه لم يندم قطّ! بل على العكس، كان يفخر به على الدوام. وبسبب هذه الحادثة، سارع إلى بيع كل ما يملك. وبعد عدة أشهر، حصلت أولى عمليات التأميم، ثم اندلعت حرب السويس. واضطر أنسباء أبي، وأشقاء أمي، وعموماً جميع الأجانب أو أولئك الذين يعتبرون كذلك إلى مغادرة مصر بسرعة، متخلين عن أملاكهم. اليونان، والطليان، واليهود، والمسيحيون المشرقيون... ولقد صودرت مصانعهم وأراضيهم ومخازنهم وحساباتهم المصرفية. لقد خسروا كل شيء. وبسبب ما أقدم عليه أبي من تهور، باع كل شيء قبل حدوث «الطوفان»، وحافظ بالتالي على ثروته. وأتاح له ذلك شراء الأراضي حين وصل إلى هنا، وتشييد عدد من البيوت، لا سيما البيت الذي نسكن فيه، والذي قمت بتحويله إلى فندق».

«سمعت كثيراً المهاجرين المصريين يهنئون والدي على تبصره أو على حدسه. وهكذا، وبسبب ما أسميته «جنونه» اكتسب، حتى نهاية حياته، سمعة الرجل الحكيم».

«أفترض أنه لم يصارح أولئك الأشخاص قطّ بالسبب الذي دعاه للرحيل عن مصر بهذه السرعة».

«بالتأكيد لا! فعندما وصلنا إلى هذا البلد، كان عبد الناصر يعتبر فيه نصف إله، وصوره تنتشر في كل مكان، والناس يؤلهونه أكثر مما كانوا يفعلون في مصر. وأنت تتخيل أن والدي لم يكن سيتباهى بأنه قدم الملاذ للرجل الذي حاول اغتيال بطل الأمة العربية. لكانوا مزقوه إرباً إرباً! لم يبدأ الحديث عن ذلك إلا في ثمانينيات القرن العشرين حين كان عبد الناصر قد توفي وخمدت ذكراه».

«هل عاد والدك إلى مصر؟».

«لم تطأها قدماه ولو مرة واحدة. كان أمراً غريباً. فحين كان يتحدث عنها، تشرق أساريره، ولا يمل القول إنها أجمل بلد في العالم. ولكنه لم يرجع لزيارتها قطّ، ولم يشأ أن يزورها أولاده بتاتاً».

«أفلم تزوريها البتّة؟».

«بلى، إنما بعد وفاته. كنت أريد رؤية البيت الذي أبصرت فيه النور، وسمعت عنه الكثير. زرته ولم أشعر بأي شيء. ظننت أنني سأتأثر بعد كل ما قيل لي عنه أثناء طفولتي. ولكن لا شيء. لا دموع، ولا غصة في الحلق. أما المكان الذي شعرت فيه بالتأثر، ففي الصعيد،

في الأقصر، في وادي الملوك، أمام الجداريات. فهناك، كنت معقودة اللسان. فقد أدركت على حين غرة لماذا حلم الكثيرون بهذا البلد – الغزاة، والرحالة، والشعراء... ولكن حنين أهلي لا يثير في نفسي أي انفعال. لقد عاشوا في مصر مثل الغرباء، وعوملوا فيها كالغرباء».

«لا تكون الأمور أبداً بهذه البساطة».

«بلى، هي بهذه البساطة. فحين يزدري المرء السكان المحليين ويرفض التحدث بلغتهم، يتعرض للطرد في نهاية المطاف. لو شاء أهلي مواصلة العيش في مصر، لكان عليهم أن يتحولوا إلى مصريين، عوضاً عن التآخي مع البريطانيين والفرنسيين».

كان في صوتها صدى لغضب قديم لم تهدأ سورته بعد. وبعد أن لزمت الصمت لثوان معدودة، تابعت قائلة:

«صدقاً، لا يجدر بي أن أصنف أبي وأمي في الخانة نفسها. فهو كان يقول لي بالضبط ما قلته لك توّاً، أي أنه كان يجدر بهما الاهتمام بالسكان المحليين؛ وكان لديه أصدقاء – وعلى الأرجح عشيقات – من جميع الطبقات الاجتماعية. ولكنه كان الوحيد الذي ينتهج هذا النهج. ففي أسرته، بل وفي أسرة أمي، كان معظم الأشخاص يشعرون بأنهم غرباء، ويتصرفون مثل المستعمرين. وعندما ولى زمن المستعمرين، اضطروا للرحيل. وبوسعنا القول إنهم حصدوا ما زرعوا...».

«لست من يجب أن ينبري للدفاع عن ذويك، ولكن المسؤولية عن ارتكاب الأخطاء تكون دوماً مشتركة في هذه المسائل. فالصيغة

التي لجأت إليها، يمكن كذلك عكسها والقول: لو تصرفوا كالغرباء، فذلك لأنهم اعتبروا على الـدوام كذلك. وعندما يرفض الناس الاندماج، فذلك يعزى أيضاً إلى أن المجتمع الذي يعيشون فيه غير قادر على إدماجهم. بسبب اسمهم، ودينهم، وهيئتهم، ولهجتهم...».

ظلا ساهمين لفترة طويلة، ثم تابع آدم الكلام، بنبرة أكثر مرحاً:

«وبالعودة إليك، كان بوسعك أن تحترفي الغناء بدون أن تضطري للرقص في كباريهات القاهرة».

«كان والدي عنيداً، ولا داعي لإقناعه. ولكني لا ألومه، فقد كان ينتمي إلى عصر آخر، ويظن أنه يتصرف لمصلحتي. وعلى أي حال، لم أكن أطمح لاحتراف الغناء. أحب الغناء لأصدقائي، وأفرح حين يقال لي إن صوتي جميل، ولكن لما كنت فارقت أبي وأمي لأسلم حياتي إلى مدير أعمال. ففي صباي، كان لدي طموح مختلف تماماً. كنت أريد أن أكون جراحة».

تذكر آدم الآن. عندما تعرف إليها، كانت بالفعل في سنة أولى طب.

«لا أدري أين قرأت أنه تكاد لا توجد نساء جراحات، وكنت أريد أن أكون رائدة في هذا المجال. وفي الكلية، كان الأساتذة والطلاب على السواء يسعون لإثباط عزيمتي، ويزعمون أن المرضى الذين يأتمنون على حياتهم لجراح بحاجة إلى وجه يشيع في نفوسهم الطمأنينة، أي إلى وجه رجل.

وبعبارة أخرى، كانت هناك الاختصاصات المهنية غير الجديرة بي - كمطربة؛ والاختصاصات المهنية التي لم أكن جديرة بها - كجراحة. ولكن ذلك لم يثنني عن عزمي، كنت أدرس بهمَّة، وبشراسة، وأريد أن أكون الأولى على دفعتي، وحتى الفصل الثاني، كنت كذلك».

«ثم، أصابك الملل...».

«كلا. ثم، قابلت بلال. ثم، أغرم أحدنا بالآخر بجنون. ثم، لقي حتفه. وبقيت خائرة القوى طوال ثلاث سنوات. وحين خرجت من جحري الأسود، كانت الحرب مستعرة، وقد فات الأوان لاستئناف دراسة الطب. كان لدي الانطباع بأنني نسيت كل ما تعلمته، وبأني غير قادرة على حفظ أي شيء. فلم أتابع الدراسة، وها أنا اليوم صاحبة فندق».

صوب آدم كلامها: «سيدة قصر».

ابتسمت.

«أعذرني، نسيت اللقب الذي أسبغته عليّ».

«سيدة قصر، أجل. سيدة القصر محبوبتي».

«كم ارتفعت معنوياتي بعودتك إلى البلد، وإن لفترة وجيزة. ربما يجدر بي أن أشكر مراد لأنه اتصل وطلب مجيئك. سأذكر لفترة طويلة وجبات العشاء التي تناولناها مع الشمبانيا».

كانت تشوب نبرة صوتها مسحة من الحزن. فالتفت صديقها نحوها. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع.

سألها : «ألا تظنين بأنه من السابق لأوانه قليلاً أن يودع أحدنا الآخـر؟. لست على أهبة السفر بعد. وسأحتفظ بغرفتي لبعض الوقت...».

ابتسمت، وانتظرت لحظة. وظهر عليها التردد، قبل أن تقول:

«هذا الصباح، تحدثت مطولاً مع دولوريس».

«هل اتصلت بها؟».

«كلا، هذه المرة، هي اتصلت بي. كنت قد تركتني توّاً، وكما لو أنها أحست بأننا أمضينا الليلة معاً. ومن ثم...».

توقفت عن الكلام. وتمهلت طويلاً. واضطر آدم لاستدراجها للكلام مجدداً:

«وماذا؟».

«وتقرَّر من الآن فصاعداً أنك ستنام في غرفتك وأنا في غرفتي».

ردد صديقها مثل الصدى، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة بقدر غموض المشاعر التي تعتمل في نفسه: «تقرَّر».

اعتذرت سميراميس: «لم يكن يجدر بي أن أخبرك، وستتصرف كما لو أننا لم نفتح هذا الحديث. ولكني بحاجة إلى أن تساعدني على احترام تعهدي».

أصرت، بما أن آدم لم يخرج عن صمته، بنبرة عصبية ونادمة على السواء:

«إنسَ قليلاً كبرياءك كرجل، وقلْ لي ببساطة: سأساعدك».

غمغم قبل أن يذعن ويقول، مطلقاً تنهداً صاخباً:

«اتفقنا، سأساعدك».

واستأنفت السائقة، من لحظة إلى أخرى، بنبرة مختلفة تماماً، مرحة، وطروبة: «هذا لا يستثني على الإطلاق الرغبات، والشهوات، والإطراءات، والحنان، بل وشيئاً من الغزل. أجل، كل شيء، إلا...».

انتظر الراكب معها بوجل الكلمات الفجة التي ستعقب ذلك، ولكنها أمسكت عن الكلام، وظلت جملتها معلَّقة.

فرددت عندئذ، محاولة أن تضفي على كلماتها أكثر النبرات مرحاً: «كل شيء إلا إلا إلا».

سيلاحظ آدم عندما سيدوِّن هذا الحديث في مفكرته:

خلال حديثنا، حرصت على عدم الاعتراف لسمي بأنني قد توصلت أصلاً إلى الخلاصة نفسها، على إثر مراسلتي مع دولوريس. فتربيتي الفاضلة تملي عليّ التظاهر بالخيبة، وعلى الأخص بعدم الإظهار بأني ارتحت، نوعاً ما، ارتياحاً جباناً لأني لن أضطر لإبلاغ عشيقتي بنفسي بقراري وقف غزلنا البريء. ومرة أخرى، تجنبت بفضل تواطؤ المرأتين أهوال الندم، وكذلك أهوال الفظاظة.

عاهدتُ نفسي أن أحترم ذلك التعهد بالتعفف؛ والحق يقال إنني لست متأكداً تماماً بأنه سيكون بوسعي الالتزام به في جميع الأوقات، وجميع الأماكن، وجميع الظروف.

سأدع الحياة ترشد سبيلي.

اليوم العاشر

1

في الصباح، كان آدم لا يزال مرتدياً ثيابه بالكامل. في البارحة، تهاوى على سريره بدون أن يتناول العشاء، وبدون أن ينظف أسنانه، وبدون أن يسدل الستائر المعدنية كما كان يفعل كل مساء لئلا يوقظه وهج الشمس الحاد أبكر من الأوان.

لم يجد في نفسه القوة كذلك لتدوين قصة لقائه بالتفصيل مع الأخ باسيل خطياً. ولم يفعل ذلك سوى قرابة الخامسة لدى نهوضه. وحالما فرغ من تدوينها، طلب هاتفياً ترويقته، ثم استعرض بريده الإلكتروني.

وصلته في الليل رسالة من نعيم. كان يعلن له بأسلوب تلغرافي مقتضب أنه سيغادر ساو باولو صباح الأربعاء، وأنه سيصل مساء الخميس بعد استراحة قصيرة في ميلانو. ابتهج آدم. فقد بدأت ترتسم معالم لقاء الأصدقاء، وأبكر بكثير مما كان يرجو. فسارع وردَّ على نعيم بأنه سيكون في المطار في الساعة المحددة لاستقباله.

ثم اتصل بسميراميس.

«أرجو أن أكون قد أيقظتك!».

قالت ضاحكة: «خاب ظنك! فأنا قد تناولت نصف ترويقتي. والمرة المقبلة، يجب أن تحاول أبكر من ذلك!».

«لديّ مرة أخرى بشرى سارة».

«دعني أحزر! إنه ألبير أو نعيم يخبرك بقراره المجيء، أم أنني أخطأت؟».

ذهل لجوابها.

«كلا، لم تخطئي الظن، ولكنك أفسدت عليَّ المفاجأة».

ضحكت.

«يبدو أنك صاحية أكثر من اللازم هذا الصباح».

«إنني جالسة على شرفتي، وهناك نسمة خفيفة، وعصافير الربيع تزقزق، والقهوة مظبوطة. ولو كنت متأكدة بأن بوسعي أن أثق بك، لدعوتك لموافاتي».

وافاها بعد عشر دقائق. كان كل شيء مطابقاً للمشهد الذي رسمته – النسمة، وزقزقة العصافير، ولون القهوة وكذلك رائحتها. وعلاوة على ذلك، كانت الطاولة عامرة، وقميص النوم مشقوقاً بعض الشيء. فشعر بغُصة حين تذكر أن «قوس» غرامياتهما أغلق إلى الأبد.

«سيصل نعيم مساء الخميس، قرابة السابعة مساء. ولن يتأخر ألبير في الوصول، على ما يبدو لي؛ فإذا قال لرؤسائه إنّ والدته بالتبني تحتضر، فهذا يعني أنه سيحضر سريعاً جداً. ويمكن للقاء جمع الشمل أن يعقد اعتباراً من الأسبوع القادم. لا أصدق. منذ يومين، كنت أتحدث عن تنظيم اللقاء بعد أشهر، وها نحن قد حددنا ساعة وصول

كل منهما. يتراءى لي بأني أعيش في حلم. أنا مسرور ولكني كذلك خائف». ورانت لحظة صمت. «ربما يجدر بنا التفكير بجدية في الجانب العملي».

قالت سميراميس: «أنا فكرت به بالفعل. سيقيم الجميع هنا، في الفندق».

كان ذلك الحل الذي يفضله آدم، وسألها فقط من باب اللياقة:

«ألا تظنّين أن تانيا ستصر على إقامتنا عندها في البيت القديم؟ كان ذلك هو المشروع الأصلي».

«بعيد وفاة مراد؟ كلا، هذا غير وارد! فالأسرة في حداد، وسيتوجب علينا التكلم بصوت منخفض، والظهور بسحنات متجهمة. فلا ضحكات! ولا أصوات تعلو! سيكون جمع شملنا تعساً!كلا، لقد فكرت بالأمر ملياً، سيأتي الجميع إلى هنا، بمن فيهم تانيا. لا بأس لو تغيبت بضعة أيام عن بيتها، وإلا سيظل الزائرون يتوافدون. في الفندق، سيكون بوسعنا أن نتناقش ونصرخ ونضحك، بل وأن نغني بأعلى صوتنا، لو شئنا. وسيكون لكل منا غرفته، وبتصرفنا البهو الكبير في الطابق الأول، حيث يمكن أن نجتمع ونتناول وجباتنا. أما عن الجانب اللوجستي، فاتركه لي، فهذه مهنتي!».

رفع ذراعيه، بحركة أراد بها القول «أستسلم» أو «فوضتك القيادة».

وأضافت: «بالمقابل، عليك أن توجه الدعوات».

«لقد فعلت عملياً. وهذا الصباح، سأتصل برامز وزوجته...».

«ودولوريس...».

«ودولوريس، بالطبع، سأتصل بها بعد الظهر».

«والأخ باسيل...».

«أشك بأنه سيقبل الدعوة، ولكني سأذهب وأوجه إليه دعوة رسمية...».

«ونضال؟ هل اتخذت قراراً بشأنه؟».

«أجل، سأتصل به».

«أترى؟ لا تزال لديك مهام تتولاها. ألديك رقم هاتفه؟».

«كلا، ولكن أفترض أنك ستعطيني إياه بعد لحظة».

تنهدت سميراميس بعمق:

«ماذا كنت لتفعل لو لم أكن موجودة هنا؟».

«لكنت فتحت دليل الهاتف!».

«أزعر!».

أمسك بيدها، وقرّبها من شفتيه.

«لو لم تكوني هنا، لكنت رجعت إلى باريس، وعدلت عن جمع شمل الأصدقاء، وخضت مجدداً في سيرة أتيلا».

سحبت يدها.

«أيثير فضولك ذاك الأرعن إلى هذا الحد؟».

«أتيلا هو أنا، كما كان فلوبير سيقول».

«أحقاً؟ يجب أن توضح لي هذه المسألة قليلاً، فالشبه ليس جلياً».

«إنه نموذج المهاجر. فلو قيل له: «أصبحت مواطناً رومانياً!»، لتدثر بـرداء، وراح ينطق باللاتينية، ولأصبح الـذراع المسلح للامبراطورية. ولكن قيل له : «أنت مجرد بربري وكافر!»، فصار حلمه الوحيد اجتياح البلد».

«وهذا حالك؟».

«كان يمكن أن يكون حالي، وهذا بالتأكيد حال عدد كبير جداً من المهاجرين. فأوروبا تحفل بـأشخاص مثل أتيلا يحلمون بأن يكونوا مواطنين رومان وينتهي بهم الأمر بأن يصبحوا من الغزاة البربر. تفتح لي ذراعيك، أكون مستعداً للموت لأجلك. تغلق الباب بوجهي، فأشعر بالرغبة بهدم بابك وبيتك».

«أي بعبارة أخرى أنني أحسنت صنعاً بأني فتحت لك ذراعي».

فضحك.

«أسأت اختيار التعبير، ولكنك فهمت قصدي».

تمهل قليلاً قبل أن يضيف:

«أما في ما يتعلق بك، فأنا أرى أنك فتحت ذراعيك حين اتصلت بك من التاكسي، وهتفت اسمي. أما ما حصل بيننا لاحقاً، فسأعتبره «مصادفة إلهية غير متوقعة»...».

تعانقت أيديهما من جديد، وخيم صمت حميم بينهما.

استطاعت سميراميس أن تكسره.

قالت وهي تسحب يدها لتبدأ البحث في ذاكرة هاتفها الخليوي:
«كنت تريد رقم هاتف نضال».

ولما عثرت على الرقم، ناولت الجهاز لصديقها واقترحت عليه أن يستعمله. ولكنه اكتفى بنقل الأرقام في زاوية من مفكرته. كان يفضل على ما يبدو إرجاء هذا الاتصال، إلى أن ينفرد بنفسه في غرفته.

2

دوَّن آدم في مفكرته يوم الأحد في 29 نيسان : لم أكن متيقناً من أن شقيق بلال سيتذكرني. لم ألتق به أكثر من ثلاث مرات في حياتي، والمرة الأخيرة كانت منذ أكثر من ربع قرن، في جنازة الصديق الراحل. في ذلك اليوم، كان نضال يبدو أكثر تفجعاً من أمه أو شقيقاته. كان مسترسلاً في النحيب. لم يكن بعد قد بلغ السابعة عشرة، وكان بلال مثله الأعلى ومرشده الروحي وبطله. وبالإضافة إلى ذلك، كانا متشابهين جداً – الأنف المقوس نفسه، والشعر الفاحم والقصير جداً نفسه، ونظرة الأيل المطارد نفسها– بحيث أن المرء، حين ينظر إلى الأخ المفجوع، يتوهم توهماً غريباً بأن الشقيق الآخر قد بُعث حياً، وأنه يتحسر على حاله.

«نضال، أنا آدم، لا أدري إذا كنت تتذكرني...».

«لا أعرف شخصاً آخر يحمل هذا الاسم، باستثناء أبينا أجمعين، عليه السلام! هل عدت للعيش في البلد؟».

«إنني في زيارة عابرة...».

«ولماذا «عابرة» فقط؟».

«أعيش حالياً في فرنسا».

«أنا أيضاً عشت سنوات عديدة في فرنسا، ولكني عدت للعيش وسط أهلي».

كان من الواضح أن كلامه لا يخلو من العتب. فوجدت نفسي مضطراً للرد.

«أنت ذهبت للعيش في فرنسا، ولم تفكر قطّ بالاتصال بأعز صديق لشقيقك؟ يا عيب الشوم عليك!».

صدرت عنه ضحكة مقتضبة، للقول إن لعبة المعاتبات المألوفة يمكن الآن أن تتوقف.

«إنني مسرور بسماع صوتك. قل لي كيف يمكن أن أخدمك!»

«أحاول أن أنظم لقاء مصغراً. وأود التحدث معك بهذا الشأن...»

«هل هو لقاء سياسي ؟».

كان في صوته نبرة سخرية ودهشة على السواء. فسارعت أطمئنه.

«كلا، إنه لقاء للأصدقاء القدامى، أصدقاء بلال...».

لم يسمع جواباً. وخيم صمت طويل. كنت أشعر بالغصة في حلق نضال. وفي الواقع، عندما تكلم أخيراً، كان صوته قد تغير، وقد فقد شيئاً من رباطة جأشه.

«لقاء للأصدقاء القدامى...».

لا أدري إذا كان محاوري يعرب عن الحنين أو الريبة وهو يستعيد الكلمات نفسها التي تفوهت بها، ببطء، وهمساً. وللحيلولة دون أي رد فعل سلبي، وجدت نفسي مضطراً للمبادرة.

«يسرني أن نلتقي للحديث عن هذا المشروع الصغير، إنما كذلك عن كل ما جرى طوال هذه السنوات».

«أجل، بالطبع، ولم لا؟ أين أنت الآن؟».

قلت لنفسي، قبل أن أتصل به، إنه من الأفضل عدم ذكر اسم سمي؛ ليس على الفور، في جميع الأحوال.

«إنني في الجبل، إنما بوسعي أن أوافيك في المدينة، حين تشاء».

«في هذه الحالة، فلنتناول الغداء! أتريدني أن أرسل لك سيارة لإحضارك؟».

فضلت الكذب.

«كلا، شكراً، لدي سيارة. فقط أعطني العنوان، وسآتي».

كنت لن أرتاد بنفسي أبداً المطعم الشعبي الذي حدد لي فيه موعداً، لا لأنه كئيب أو مقزز، بل لأنه من الأماكن المخصصة على ما يبدو للزبائن المداومين على ارتياده، وحيث يشعر الغريب بأنه مراقب وهو يتناول كل لقمة؛ و«الغريب» ليس بالضرورة أوروبياً أو آسيوياً بل أي شخص غريب عن الحي.

كان يبدو أن نضال يعرف جميع الزبائن، ولكنه اجتاز الصالة برفقتي مكتفياً بإلقاء التحية من بعيد.

خصص لنا صاحب المطعم صالة داخلية، بعيداً عن الضجيج، ومزودة بنافذة تشرف على فناء صغير. من الواضح أنه خصنا بمعاملة

مميزة. وكانت مائدتنا مزدانة بالزيتون والخيار ومخلل اللفت وأرغفة الخبز المقطعة إلى أرباع.

«أتناول عادة طبق اليوم، ولم يخب ظني قطّ، ولكنهم يقدمون كذلك المشاوي».

«فلنتناول طبق اليوم».

«على مهلك، لا تعرف بعد ما هو!»

«وما الفرق! فأياً كان الطبق، سأتناوله».

«الأحد هو يوم الكوسى المحشي».

«هذا يناسبني!».

«لست متطلباً! ما أسعد زوجاتك بك!».

«زوجاتي؟».

«قصدت: زوجاتك المتعاقبات، لا المتزامنات».

«وهل لديك أنت زوجات «متزامنات»؟».

«كلا، لدي زوجة واحدة. وقد حذرتني منذ البداية أنني لو تزوجت عليها، فستقلع عيني».

«فأذعنتَ لمشيئتها».

«لا غنى عن العينين!».

وابتسم، وكانت ابتسامته شبيهة بابتسامة بلال.

قلت له: «لست مخطئاً. إذا كان المرء يحب القراءة، فالعينان أكثر فائدة من زوجتين».

«أرى أننا متفقان على هذه النقطة، ولا أدري إذا كنا سنتفق على نقاط أخرى».

اقترب صاحب المطعم حاملاً قلم رصاص ومفكرة. دوّن أننا سنتناول طبق اليوم واستفسر عما نرغب بشربه. فطلب نضال مشروباً غازياً، وأومأت آلياً برأسي للإشارة إلى أنني سأشرب المشروب نفسه. إلا أنني أضفت حين انصرف الرجل:

«لا أشرب النبيذ ظهراً، فهو يسبب لي الصداع».

وبما أني حرصت على عدم الابتسام، فقد اعتبر مضيفي أنه من الضروري التوضيح:

«هنا لا يقدمون المشروبات الروحية».

«فهمت ذلك، كنت أمزح...».

وابتسمت، فارتسمت على وجه نضال ابتسامة أيضاً، لئلا يتخلف عني. ثم قال، وهو يحول نظرته كما لو أنه يعلق لشخص ثالث:

«إنها مزحات مغترب!».

تجنبت الاستفسار عن قصده، وفضلت أن أردد على مسمعه:

«كنت أمزح...».

قبل أن أضيف، بدون أن أترك له الوقت للرد:

«ولكن هذا صحيح أني لا أشرب أبداً عند الظهر، فقط في المساء».

«لو كنت دعوتك إلى العشاء عوضاً عن الغداء، أكنت شربت؟».

«لكنت أحجمت عن الشرب. يحلو لي أن أحتسي النبيذ في المساء، ولكن بوسعي تماماً أن أستغني عنه.

وبالمقابل، لو حاول أحدهم أن يمنعني من شربه..».

قال نضال بنبرة تهكمية، وبالفرنسية: «الحظر محظور!».

كنا نتحدث حتى الحين بالعربية فقط. وبالعربية، أجبته:

«أن يمتنع شخص عن تناول هذا المشروب أو ذاك، هذا الصنف من الطعام أم ذاك، لأن معتقداته تفرض عليه ذلك، فهذا موقف أحترمه. أما ما أرفضه فأن يسعى أحدهم لفرض ذلك على الآخرين، وبخاصة حين تتدخل الحكومات في ذلك».

«أتقصد أنه لا يجب أن تفرض الحكومات الحظر لأنه يجب السماح لكل مواطن، برأيك، أن يقرر بنفسه؟ ألا تحظر الحكومات تعاطي الكوكايين أو حشيشة الكيف؟ ولكني أفترض أن لا يجدر كذلك، من وجهة نظرك، حظر هذه المواد؟».

كان الحديث يتخذ، بسرعة فائقة، شكل مبارزة معهودة بين المتديِّن والمتحرِّر. غير أنه قد يكون من الضروري المرور بذلك قبل أن نتمكن من الحديث حديث رجال. وفي جميع الأحوال، لن أرمي سلاحي لمجرد أنني موجود على أرض الآخر، لا بل على العكس. في المشرق، عادة نساير رغبة الضيف، ولا نجبره على الانصياع لقوانينا. وعلى الأقل، هكذا كان الناس يتصرفون في أزمنة أفضل.

«لا أحد يدعي أنه لا يجب حظر أي شيء. ولكن بعض أبناء دينك يستسهلونه. يتراءى للمرء أنهم ينبشون في النصوص بحثاً عن محظورات أخرى، يسارعون في الإعلان عنها. لقد قال أحدهم يوماً عن الطهرانيين الإنكليز: «ليسوا متطرفين بالفعل، إنهم حريصون فقط على التأكد من أن لا أحد يستمتع في أي مكان».

كشر نضال عن ابتسامة، ولم يعلق، فتابعت الكلام:

«ورداً على سؤالك بصورة مباشرة، جوابي هو التالي: أجل، بالطبع، بعض المواد عبارة عن سموم، وأفهم أن تكون محظورة. ولكن ماذا عن الخمرة؟ الخمرة التي تغنى بها الشعراء العرب والفرس والأتراك؟ الخمرة التي هي شراب الصوفيين؟ إنها متعة نبيلة وبريئة أن يلتقي المرء بالأصدقاء، في المساء، وأن يمزحوا ويتناقشوا، ويعيدوا بناء العالم حول زجاجة من النبيذ الراقي. أيجدر بي القبول بأن تحرمني أي سلطة من ذلك لأن بعضهم يفرط في الشرب؟ أو لأن بعض التقاليد الدينية تحرمه؟».

بادرني نضال: «أنت ترى الأمور من زاوية واحدة فقط!».

وتناول بعض اللقمات، ليمنح نفسه الوقت الكافي لتجميع أفكار، قبل أن يضيف:

«أنت لا تريد أن ترى أن الغرب ينظر بعداء إلى كل ما يصدر عنا. يتفق الجميع على أن إدمان الكحول آفة اجتماعية، إنما يكفي أن يدين الإسلام الكحول حتى يصبح رمزاً للحرية الفردية، حتى لأشخاص مثلك».

جاء أحد الندلاء بالطبقين الساخنين والقنينتين المفتوحتين. وسألنا إذا كنا نريد أن يسكب اللبن على الكوسى المحشي، أو أن يسكبه جانباً. ثم نثر على الطبق النعنع اليابس، وبدأ يسكب المشروب الغازي في قدح. ولكن نضال أفهمه بإيماءة أنه سيهتم بذلك بنفسه، وحالما انصرف الرجل، استأنف الحديث حيثما تركه.

«للكثير من الرجال الأوروبيين زوجة وعشيقة، وأولاد من هذه وتلك؛ ولكن إذا سمح الإسلام الزواج بهما، تصبح فكرة اتخاذ زوجتين مستهجنة، ومستنكرة، ومشينة، وتصبح العلاقة المحرمة محترمة».

«ربما لأن محصلة بلداننا، في ما يتعلق بالمرأة، مدعاة للخيبة، ألا تظن ؟ لو كان بوسع النساء هنا العمل بحرية، والسفر بحرية، واللبس بحرية...».

«أتظن حقاً أن هذا هو السبب؟ أتظن حقاً أن ما يهم الغرب هو تحرر نسائنا؟ ألا تظن أن ثمة عداء منهجياً تجاه كل ما يأتي من عندنا منذ قرون؟ في الماضي، كان يُعاب على الشرق غلمانه ونساؤه المتكاسلات، واليوم يعاب علينا فرط حشمتنا. وبنظرهم، مهما فعلنا، سنظل مخطئين».

تمهلت لتناول بعض اللقمات، قبل أن أقول بنبرة مترددة:

«لست مخطئاً بالمرة، فهذا العداء قائم، ويبدو منهجياً في بعض الأحيان. ولكنه ليس في اتجاه واحد. ولو شئنا أن نسمي الأمور بأسمائها، فإنهم يكرهوننا بقدر ما نكرههم».

فترك نضال على الفور شوكته وسكينه، وراح يتأملني بريبة، بل ربما بشيء من العداء.

«عندما تقول «نحن»، تقصد من ؟».

لم يكن السؤال عادياً، أو بريئاً، لا بل كان يخرج تماماً عن حدود اللياقة بالنسبة إليّ، وأنا في ضيافته.

كان نضال يقول عملياً إنني، أنا المغترب، «انتقلت إلى معسكر العدو». أحسست بالإهانة لا سيما وأن هذا الهجوم لم يكن غير مبرر تماماً. فإلى أيّ فريق أنتمي أنا العربي المسيحي الذي يعيش منذ وقت طويل في فرنسا؟ إلى فريق الإسلام أم إلى الغرب؟ وعندما أقول «نحن»، إلى من أشير ؟ في الصيغة التي استعملتها توّاً – «إنهم يكرهوننا بقدر ما نكرههم» – يتراءى، بغير علم مني، كل اللبس الذي يكتنف موقفي. والحق يقال إنني لم أعد أعرف شخصياً ما أقصده في ما قلته بـ«هم» و«نحن». فبالنسبة إلي، هذان العالمان المتخاصمان هما «هم» و«نحن» على السواء.

أصاب محاوري هدفه، ووضع إصبعه على هشاشتي. ولكن من غير الوارد عندي أن أعطيه الحق، أو أن أقبل تلميحاته الجارحة. فتسربلت بالصمت وقاراً، وأشحت بعيني بوضوح، لأنظر تارة إلى النافذة، وطوراً إلى طبقي، بل ومرة إلى ساعتي.

أدرك نضال من موقفي أنه تمادى. فشطب في ذهنه سؤاله الفظ، وراح يعلق على جملتي بنبرة مختلفة. وتجنب، إذ فعل ذلك، أن يتراجع عما قاله، ولكن كلامه، وإن كان إشكالياً، تضمن اعتذاراً ضمنياً.

«ربما يكرهوننا بقدر ما نكرههم، كما تقول، إنما يجدر بك، بصفتك مؤرخاً، أن تسلم بأن العلاقة بيننا وبينهم تنطوي بشدة على عدم المساواة. فمنذ أربع مئة عام، لم نبادر إلى اجتياح أي بلد غربي، فيما هم الذين يجتاحوننا دوماً، وهم الذين يفرضون علينا قانونهم، وهم الذين يخضعوننا ويستعمروننا، وهم الذين يذلوننا. ولم نفعل سوى التحمل والتحمل والتحمل... ولكنك، أنت، المؤرخ، الباحث عن الحقيقة والحريص على الموضوعية، لا تحكم لنا. «إنهم يكرهوننا بقدر ما نكرههم...». الأذية متبادلة، أليس كذلك؟».

«يصل الفرنسيون إلى الجزائر، يضمون البلد، يقتلون من يقاومهم، يحضرون سكاناً أوروبيين يتصرفون كما لو أن الأرض ملك لهم وكما لو أن السكان المحليين لا عمل لهم سوى طاعتهم وخدمتهم. الأذية متبادلة، أليس كذلك؟ إنهم يعتمدون الأساليب كافة لإرغام السكان على التخلي عن اللغة العربية والانصراف عن تعاليم الإسلام. ثم، وبعد مئة وثلاثين عاماً، يرحلون ويخلفون وراءهم بلداً جريحاً، مهدماً، لم يستطع التعافي البتّة. ولكن، بحسب رأيك، الأذية متبادلة، أليس كذلك؟».

«يهاجر اليهود بأعداد هائلة إلى فلسطين، يستعمرون الأرض ويطردون سكانها الذين يصبحون بين عشية وضحاها بلا وطن، ويعيشون منذ أكثر من نصف قرن في مخيمات اللاجئين. ولكن بالنسبة إليك، الأذية متبادلة».

تعرضت من جديد للهجوم، ولكن لم يكن في وسعي هذه المرة الرد بالأسلوب نفسه. فنضال لم يكن يستهدف شخصي في هذه الحالة، بل آرائي كمؤرخ. وفي هذا المجال، أي تناقض مشروع. وعوضاً عن التمترس في موقف الضيف الذي جرحت مشاعره، قررت مبارزة مضيفي.

«هل ستدعني أجيب؟».

توقف نضال فجأة.

«تفضل، كلي آذان صاغية».

«بادىء ذي بدء، لست من يقول إن «الأذية متبادلة». لقد اكتفيت بالقول: «إنهم يكرهوننا بقدر ما نكرههم». لم أتحدث عن «أذية». لقد نسبت إلي هذا القول، واستخدمته لشن هجوم عليّ. إنه أسلوب مشبوه».

«ربما لم تتلفظ بهذا القول اليوم، ولكنك تتلفظ به على الدوام!».

سألته بنبرة ممازحة، من أجل ترطيب الجو: «ألأنك تسجل أحاديثي؟».

لم يبتسم محاوري.

«كلا، آدم، لا أسجل أحاديثك، ولكن حصل أن استمعت إليك تحاضر. ذهبت عدة مرات إلى الجامعة. وكنت أجلس في المدرج، في الخلف، لأستمع إليك. هذه الجملة، لم أخترعها، إنها لك، ولقد رددتها مئة مرة. «الأذية متبادلة». سواء اجتاحوا بلداننا، وسواء

طردونا من منازلنا، وسواءٌ قصفونا، وسواءٌ صادروا ثرواتنا – فبالنسبة إليك، الأذية دوماً متبادلة. ألا يجدر بالمؤرخ أن يظل محايداً؟ بين المعتدي والمعتدى عليه، بين الحيوان المفترس وفريسته، بين القتلة وضحاياهم، تظل محايداً. والأهم ألا تظهر بمظهر المدافع عن قومك. أهذه هي الموضوعية؟ أهذه هي بالنسبة إليك الاستقامة الفكرية؟».

لزمت الصمت مطولاً، كما لو أني جردت من حججي. أدركت فجأة أن هذا الاجتماع مع شقيق صديقي لن يكون مجرد استعادة صلة، بل تصفية حسابات بكل معنى الكلمة.

3

لم ألتق نضال منذ أكثر من ربع قرن، أما هو فلم يدعني، إذا جاز التعبير، أغيب عن ناظريه. وبغير علم مني، كان يتأملني، ويراقبني، ويكيلني بمكياله.

كنت أتساءل إذا كان يجدر بي أن ألومه على ذلك، حين استبقني.

«عندما ذهبت إلى المدرج للمرة الأولى، كنت أعتزم التحدث معك بعد انتهاء المحاضرة. أعلم كم كنت مقرباً من شقيقي، وكنت على ثقة أنك ستستقبلني على الرحب والسعة».

بادرته بجفاء، إذ لم أشأ الرد على غمزاته بمظاهر مودة: «وهذا ما كنت فعلته على الأرجح في ذلك اليوم».

أردف قائلاً:

«ولكن حين أصغيت إليك، قلت لنفسي : هذا العربي حريص أشد الحرص على ألا يعتبر عربياً. فلماذا أحرجه؟».

لقد طفح الكيل! وتجاوز ضيفي كل الحدود، والأمر يستوجب مني أن أرد عليه في الحال، أو أنهض وأنصرف. ولقد امتنعت عن إثارة فضيحة فقط لأن التأثر العميق كان بادياً على وجه نضال، بل كان يبدو

عليه أنه سيبكي. وبالتالي، لم يعد كلامه من قبيل التهكم البارد، بل العتب الصادق. كلمات خرقاء، فظة، مجحفة، ولكنها صادقة.

فقررت معاملة الشقيق الأصغر لصديقي الراحل كشقيقي الأصغر، أي بصرامة، إنما بصرامة شبه أبوية.

«لو كنا نؤمن بالآخرة، فمن المحتمل أن يكون بلال معنا اليوم، جالساً على هذه المائدة، يتأملنا ويصغي إلى حديثنا. ولا بد من أن بعض الأمور التي قلتها أعجبه، وبعضها الآخر لم يعجبه. وعندما سأرد عليك، سيوافقني الرأي أحياناً، وسيقطب جبينه أحياناً أخرى. هذا الشاهد الخفي والمتسامح الذي لولاه لما اجتمعنا في هذه اللحظة، لا أدري ما ستكون عليه آراؤه لو كان بقي على قيد الحياة. غير أني على يقين من شيء واحد كل اليقين: لما رغب بأن أشكك بصدقك أو أن تشكك بصدقي».

تمهلت قليلاً، للفصل بين التوطئة العاطفية والمحاجة. وللتحقق بنظرة من أن محاوري الذي استكان أصبح على استعداد للإصغاء إلي. ثم تابعت الكلام:

«عندما أقول إن الأذية متبادلة، هذا لا يعني بالضرورة مناصفة، بل يعني تحديداً: فلنحاول أن نفهم لماذا انتصر الآخرون، ولماذا، خسرنا نحن. قلت لي: لقد اجتاحوا بلدانا، واحتلوها، وأذلونا. وأول سؤال يخطر ببالي هو: لماذا لم ننجح في وقفهم عند حدهم؟ أنكون، بالمصادفة، من دعاة اللاعنف؟ كلا، لسنا كذلك. فلماذا استطاعوا

اجتياحنا، وإخضاعنا، وإذلالنا؟ ستقول لي لأننا ضعفاء، وغير منظمين، وغير مجهزين. ولماذا نحن ضعفاء؟ لماذا نحن عاجزين عن إنتاج أسلحة بقوة الأسلحة التي ينتجها الغرب؟ لماذا صناعاتنا قاصرة؟ ولماذا حصلت الثورة الصناعية في أوروبا، ولم تحصل عندنا؟ ولماذا بقينا في حالة من التخلف والهشاشة والتبعية؟ بوسعنا أن نردد باستمرار: الحق على الآخرين، الحق على الآخرين. ولكن يجدر بنا أن نواجه في نهاية المطاف، نواقصنا وعيوبنا وعاهاتنا. يجدر بنا أن نواجه في نهاية المطاف هزيمتنا، والاندحار التاريخي الهائل والمدوي لحضارتنا».

علا صوتي بدون أن أتنبه. فدخل على الفور شابان إلى الصالة، واستندا إلى الحائط، على بعد خطوات خلف نضال الذي لم يتنبه لحضورهما إلا حين اتجهت نظرتي نحوهما؛ فالتفت، وأومأ إليهما برأسه يريد القول: «لا بأس، نحن نتناقش، بوسعكما أن تتركانا لوحدنا!». فانسحبا.

تابعت الكلام، بصوت أكثر انخفاضاً، وبالفرنسية:

«المهزومون ينزعون دوماً لإظهار أنفسهم بمظهر الضحايا الأبرياء. ولكن ذلك لا يطابق الحقيقة، فهم ليسوا أبرياء على الإطلاق. إنهم مذنبون لأنهم هزموا. مذنبون تجاه شعوبهم، ومذنبون تجاه حضارتهم. ولا أتحدث فقط عن الحكام، بل أتحدث عني، وعنك، وعنا جميعاً. إذا كنا اليوم مهزومي التاريخ، وإذا كنا مذلين بنظر العالم أجمع كما بنظرنا، فالحق ليس فقط على الآخرين، بل علينا أولاً».

«خلال ثلاثين ثانية، ستقول لي إن الحق على الإسلام».

«كلا يا نضال، لن أقول لك ذلك. الدين مجرد عنصر في القضية، وهو ليس المشكلة برأيي، وليس الحل كذلك. ولكن لا تعول عليّ لأطمئنك بسعر زهيد. لست مرتاحاً من كل ما يجري حولنا. أتظن أنه من المفرح رؤية أولئك النساء المحجبات من الرأس إلى أخمص القدمين، وتلك الصور الهائلة لشخصيات معمَّمة، وتلك الغابة من اللحى ؟».

«وما شأنك بلحانا؟».

«ما يعتمل في قلبك ليس من شأني. أما مظهرك الخارجي فهو تأكيد علني للآخرين، وبالتالي، فهو من شأني. ويحق لي الموافقة أو عدم الموافقة عليه. يحق لي أن أشعر بالارتياح، كما يحق لي أن أشعر بالضيق. ولكني لا أنوي الإسهاب في الحديث عن اللحية. كنت أريد فقط أن أقول لك إني أحتفظ بحقي في الحديث عن كل الأمور، كلها بدون استثناء، وإني أحثك على القيام بالمثل».

فيما كان نضال يصغي إلي، لمس بيده لحيته تلقائياً، وراح يمسدها كما ليجدد لها ولاءه، وهي لم تكن لحية أصلاً، بل لكأنه أهمل أن يحلق ذقنه لعشرة أيام.

«عندما تعارفنا وكنت في السادسة عشرة، كانت لديك لحية خفيفة، أو بالأحرى زغب...».

فابتسم لهذه الذكرى. وتابعت:

«ولكنك كنت تعتمر قبعة تشي غيفارا، المزدانة بنجمة حمراء».

«لم أكن الوحيد الذي اعتمرها!».

«واليوم كذلك، لست الوحيد الذي يحمل هذه اللحية الخشنة».

«تقصد أني لحقت دوماً الموضة الرائجة بصورة عمياء».

«لا ألومك، لقد كنا جميعاً مثلك. فهذا ما يسميه الألمان *Zeitgeist*، أو «ذهنية العصر»، ونحن جميعاً نتبعها، بطريقة أو بأخرى. وليس في الأمر ما يدعو للخجل أو الاعتزاز، فهذا حال المجتمعات البشرية».

علق نضال، بتهكم مبطن: «هذا الأستاذ الذي يتكلم...».

«أجل، أنت محق، هذا المؤرخ الذي يتكلم. في كل عصر، يعرب البشر عن آراء ويتبنون مواقف يظنون أنها نابعة من تفكيرهم الخاص، فيما هي تأتيهم في الواقع من «ذهنية العصر» تلك. وليس ذلك بمثابة القدر المحتوم، بل لنقل إنها ريح شديدة القوة يصعب مقاومتها».

«وأنا، تحولت مع اتجاه الريح، مثل دوارة الهواء، أليس كذلك؟».

«تريد أن تظهرني بمظهر الفظ نحوك، وغرضي فقط أن أصف ظاهرة مشتركة. كان من الطبيعي أن تكون من أنصار غيفارا في مطلع السبعينيات، بقدر ما هو طبيعي أن تكون اليوم إسلامياً. وبين الموقفين، ثمة نوع من الاستمرارية».

«ما هي؟».

«أنت لا تزال تعتبر نفسك ثورياً».

«بينما لم أعد كذلك، بنظرك...».

«فلنقل بالأحرى إن الثورة غيرت اتجاهها. لقد ظلت الثورة لفترة طويلة حكراً على التقدميين، وفي أحد الأيام، تلقفها المحافظون. لدي زميل يدرس هذه المسألة. إننا نتناول الغداء بين الحين والآخر للتحدث عن ذلك. إنه يطلق على هذه الظاهرة اسم «العكسية»، ويؤلف كتاباً عن هذا الموضوع، يفكر بأن يكون عنوانه «سنة العكسية»...».

«ألأنها ظاهرة مرتبطة بسنة محددة؟».

«هذه أطروحته. إنه يعتقد بأن الأمور تبدلت في العالم بسرعة شديدة، بين صيف 1978 وربيع 1979. فقد شهدت إيران في تلك السنة «ثورة إسلامية»، محافظة اجتماعياً. وفي الغرب بدأت «ثورة محافظة» أخرى، قادتها مارغريت تاتشر في بريطانيا، واستمر بها رونالد ريغان في الولايات المتحدة. وفي الصين، بدأ دينغ شياو بينغ في تلك السنة ثورة صينية جديدة حادت عن الاشتراكية وأفضت إلى انتعاش اقتصادي مذهل. وفي روما، انتخب بابا جديد، هو يوحنا بولس الثاني الذي سيظهر، بدوره، وعلى طريقته، ثورياً ومحافظاً على السواء... لقد جمع زميلي على هذا النحو عشرات الأحداث التي جرت في الفترة نفسها، وهي تدل عموماً على أن انقلاباً حصل، وأثر على الذهنيات بصورة دائمة. أصبحت الغلبة لليمين، ولم يعد اليسار يهتم سوى بالمحافظة على المكتسبات. ولقد قلت لك، مع أخذ هذه الأمور في الحسبان...».

«... إنني بدلت لحيتي، ومع ذلك بقيت أعتبر نفسي ثورياً. أليس كذلك؟».

«أجل، هذا ما قصدت بقولي».

«فيما أصبحت بالأحرى في نظرك رجعياً شرساً؟».

«لما كنت عبرت عن الأمور بهذه المفردات، ولكن هذا ما أفكر به، أجل».

قال لي بابتسامة نزقة خفيفة: «على الأقل، أنت صريح»، قبل أن يضيف: «ستستمر مناقشتنا مئة عام».

«لا بأس، سنواصلها في الجنة».

«إذا ما التقينا في الجنة نفسها».

«ألأنك تظن أن هناك أكثر من جنة؟ أم أننا ستتوزع فيها أمماً وملاً؟».

«ليست لدي أدنى فكرة. يجب أن تطرح هذه المسألة على أصدقائك البيزنطيين. ألم تكونوا تلقبون أنفسكم هكذا؟».

«أجل، هكذا. «حلقة البيزنطيين». ولكن لماذا تقول «أنتم»؟ لقد شاركت أنت أيضاً في اجتماعاتنا».

«قليلاً جداً. مرة أو مرتين مع شقيقي».

«مع شقيقك، أجل. أفكر فيه كثيراً».

ما كدت ألفظ هذه الجملة حتى أحسست بأني أغتصب دوراً ليس لي، وأنا الذي لم أكن صديقاً مقرباً لبلال سوى في نهاية حياته. فأضفت، بمثابة الاعتذار:

«أنت، لا بد من أنك تفكر فيه ألف مرة أكثر مني».

كما في كل مرة ذكرت فيها شقيقه، أصبح نضال صامتاً وساهماً. ارتشف آخر جرعة من الليموناضة، ثم تسللت نظرته عبر النافذة، وتجاوزتها.

«وعدني أن يصطحبني معه على المتراس. فراحت تصرخ. كانت تقول إنني صغير جداً، والأجدر بي أن أدرس دروسي. حاول بلال أن يقنعها، فقال لها إنه سيبقى دوماً بجانبي، وسيضعني في مكان لن أكون فيه مكشوفاً، وإنه سيساعدني في دروسي لدى عودتنا، ولكنها رفضت أن تقتنع. كانت تقول: «ليس أنتما الاثنين! ليس أنتما الاثنين!» كما لو أنها تتنبأ بما سيجري. فهمس لي بلال إنه سيصطحبني المرة القادمة. وذهب. وبعد ساعة، جاؤوا يدقون بابنا ويخبروننا بأنه أصيب».

«فكرت في هذا المشهد مراراً وتكراراً، متخيلاً سيناريوهات أخرى. إما أن شقيقي عدل بدوره عن الذهاب، وإما أننا ذهبنا معاً، وأرغمته على الاحتماء في مدخل عمارة، أو أن القذيفة نفسها حصدتنا نحن الاثنين. حلمت مراراً بأنني أنا الذي استشهدت، وبأنني كُفنت، وبأن أمي وشقيقاتي ينتحبن عليّ، وبلال يقف بجانبي، ويمسك بيدي حتى اللحظة الأخيرة، ويجهش بالبكاء كما أجهشتُ بالبكاء يوم دفنه».

«وأصحو، فيخيب أملي في كل مرة لأنه حلم كاذب، ولأن شقيقي لا يزال في قبره، وأنا خارجاً، تعيساً وسط الأحياء...».

وفيما كان يتكلم، دخل إلى الصالة مجدداً الرجلان اللذان دخلا إليها لفترة وجيزة قبل دقائق، ووقف كل منهما في جهة من الستارة التي

تفصلنا عن صالة المطعم الكبيرة. ومع ذلك، كان نضال يتحدث هذه المرة، وبصوت منخفض، - أي لا شيء يمكن أن يثير قلق الناشطين.

توجهت نظرتي إليهما، ومن جديد، تابع مضيفي نظرتي. وعلى الفور، رأيته ينهض، وفي اللحظة نفسها، دخل شخص يعتمر عمامة سوداء. فحياه نضال باحترام، وقدمنا باقتضاب الواحد إلى الآخر، ثم دعاه للجلوس. كان بينهما حديث على ما يبدو، فسارعت بالانصراف مدعياً، حفاظاً على الشكليات، أنني كنت أتهيأ في كل الأحوال للانصراف.

وكان ذلك غير صحيح بالطبع. فقد كان بوسعي أن أبقى ساعة أخرى، وكانت لدينا أمور أخرى نتحدث فيها.

عندما تركت شقيق بلال، ومطعمه، وحيه، وأصدقاءه، شعرت بنوع من الضيق؛ ولكني لم أندم على لقائه من جديد. تفصل بيننا أمور كثيرة، ووحدها ذكرى المرحوم تجمعنا. أهو خيط واه؟ لا ريب أنه كذلك، وهو غير كافٍ للحد من خلافاتنا، ولكني لن أبادر بقطعه.

سمي على حق، بالطبع، لقد تغير نضال. وإذا لم يرق لي هذا التغيير، فأنا أتفهمه، بصفتي إنساناً ولا سيما بصفتي مؤرخاً. ولقد حرصت على عدم تذكيره، على سبيل المثال، بأن شقيقه لم يكن يؤمن وقتها لا بالله ولا بالشيطان، وبأنه كان يمثل، لذلك، «شهيداً» من نوع خاص جداً. شعرت بأن ذكرى بلال معبدٌ لا يجب أن ألجه بدون اتخاذ

أشكال كثيرة من الحيطة اللفظية. فكل ما يمكن أن يبدو كالتهكم أو السخرية قد يكون فظاً مهيناً، وأشبه بالكفر، ففضلت الامتناع.

منذ عودتي إلى البلد، أسعى إلى إعادة ربط الخيوط، لا إلى تصفية الحسابات. وأي حسابات أصلاً؟ هل بوسعي حقاً أن ألوم نضال لأنه لم يحافظ، وقد بلغ الأربعين، على الأفكار نفسها التي كان يؤمن بها وهو في السادسة عشرة؟ لقد تغير، وأنا تغيرت، والبلد تغير، وعالمنا لم يعد كما كان. وطليعة الأمس أصبحت في سلة المهملات، والمؤخرة تقدمت إلى الصفوف الأمامية. بوسعي أن أستمر في التأسف على ذلك، إنما لم يعد بوسعي أن أدهش لما جرى، ولا أن ألقي باللوم بسبب ذلك على شقيق بلال، فهو الذي يواكب عصره، وأنا الذي أنتمي إلى عصر آخر، عصر ولى قبل أوانه. إلا أني أظل واثقاً– وعبثاً يسخر الآخرون من عنادي –من أني على حق، وأن البشرية جمعاء ضلت السبيل.

4

«ورغم ذلك دعوته للمجيء؟»، سألت سميراميس، بريبة، بعد أن قدم لها آدم تقريراً مفصلاً عن غدائهما، ومناقشاتهما التي تميزت بحدتها.

«لم أوجه له دعوة رسمية، ولكنه مدعو بطبيعة الحال. وإذا كنت قد أعربت عن رغبتي بلقائه، فليس لإخضاعه لامتحان عابر، أضمه من بعده إلى لقائنا أو أقصيه عنه. كانت الدعوة ضمنية أصلاً في اتصالي الهاتفي به هذا الصباح. ومن غير الوارد أن أصافحه وأنا أفارقه، وأقول له: «شكراً على دعوتك للغداء، إنما أنا آسف، لن تكون في عدادنا، فأنت لا تستوفي المعايير...»».

«وهل ستجمعه بألبير الذي يعمل لحساب البنتاغون؟ وبنعيم اليهودي والذي زار اسرائيل عشر مرات؟»

هز آدم كتفيه:

«إنهم راشدون جميعاً، ويجوبون أنحاء المعمورة، وإذا لم يلتقوا حتى الآن بأشخاص يفكرون مثل نضال، فستكون مناسبة سانحة لهم. فالرجل ذكي، وعقلاني، ويبدو صادقاً، وهو يجيد التعبير عن أفكاره».

«ولن نحتسي الشمبانيا؟»

«بلى، سنحتسيها. وستكون القناني في السطل، ومن يرغب بشربها، سيفعل، ومن لا يرغب، سيمتنع».

«وإذا ما طالب بتنحية القناني؟».

«سأقول له إنه ليس من يقرر عن الآخرين. ولقد قلت له ذلك خلال الغداء، ولن أتردد في تكرار ذلك على مسمعه. ولو قرر البقاء معنا، فلا بأس. ولو انسحب، فلا يهمنا. هل من أسئلة أخرى يا سيدة القصر؟».

«كلا، يا أستاذ، ولا سؤال!»، أكدت له سميراميس بنبرة اصطنعت فيها الخوف. «يبدو أن لديك جواباً على كل شيء، ولكني لا أزال مشككة. تتصور أن بوسعك جمع شمل أصدقاء الأمس كما لو أن شيئاً لم يحصل منذ ربع قرن؟ أرجو ألا تكون مخطئاً».

«من الأفضل أن يخطىء الأمر وسط الأمل، على أن يكون محقاً وسط اليأس».

«هل هذه حكمتك؟».

«ليست قاعدة حياتية، بل من مقتضيات الاستقامة فقط. من السهل للغاية التأكيد بأن السلام لن يحل أبداً، وبأن البشر لن يتمكنوا أبداً من التعايش، وانتظار حلول الكارثة، مكتوفي الأيدي، وقد ارتسمت على وجوهنا ابتسامة ساخرة، لكي نتمكن من القول، لحظة حدوث الطوفان: «كنت أعلم ذلك، فقد تنبأت به». وفي هذا الجزء من العالم، من ينصِّب نفسه نبي الويلات على شبه يقين بأن الغد سيعطيه الحق.

تتوقعين اندلاع حرب بعد عشر سنوات، ولا تكذبك الأيام. تتوقعين أن هذا وذاك سيتقاتلان، ومن المرجح بشدة أنهما سيفعلان. ولو شئت المجازفة، عليك التنبؤ بالعكس. وأنا اليوم، على نطاقي الضيق، لا يحدوني سوى الطموح بأن أجمع شمل أصدقاء الأمس وبأن نتجاذب جميعاً أطراف حديث مهذب ومفيد. فهل أطلب الكثير؟».

تأملته صديقته مطولاً، بفضول وبحنان، ثم مسحت جبهته بيدها، كما لو كان طفلاً في السادسة، قبل أن تقول له بنبرة أمومية:

«أجل يا حبيبي، أنت تطلب الكثير. ولكن لا تيأس، فأنت تروق لي حين يبدو عليك الاستنكار».

تزعزع كيان آدم. لم يكن يعلم إذا كان عليه التمرد على هذه «الأمومة» أم السعي لمواصلة نقاش رصين.

فأمسك بيدها التي تداعبه، محاولاً أن يبعدها عن وجهه. ولكنه لم يتركها بل شد عليها في راحة يده. وبقي كلاهما في هذه الوضعية، ولزما الصمت.

راحت تتصاعد من أيديهما المتلاحمة شهوة العناق.ولكن نظراتهما كانت لا تزال تتهرب، وكل منهما يتحين اللحظة التي سيتلفظ بها الآخر بالكلمات المتعقلة التي ستضع حداً للإغواء.

كان يقينهما بواجب الانفصال الواحد عن الآخر قريباً يجيز لهما الاستمتاع بهذه الدقيقة من الحنان بإحساس من البراءة. ألا يعرف الواحد منها والآخر بأنه لن يكون هناك تجاوز للخط الخفي؟ والمهم

ألا يبلغاه بأسرع من اللازم؛ والمهم أن ينشأ بين جسديهما تمهل لا ينتهي.

كانت سميراميس قد صعدت إلى غرفة آدم في نهاية فترة العصر لكي يطلعها على انطباعاته بعد لقائه مع شقيق بلال. وجدته جالساً إلى منضدته، منهمكاً في تدوين ملاحظات، بصورة محمومة. توقف عن الكتابة، ودعاها للجلوس، ولكنها آثرت الوقوف، واتكأت على الباب المغلق.

وفيما بعد، في خضم الحديث، نهض ليقوم ببضع خطوات، وألفى نفسه بقربها. وهكذا، بدأ عناقهما.

كم من الوقت ظلا متلاصقين، بصمت، وقد أغمضت العيون، وتعانقت الأيدي؟ في لحظة من اللحظات، تلامست شفاههما، ثم تباعدتا. من منهما سيبادر ويقول للآخر بأن الوقت قد حان للكف عن ذلك، وبأنه يجدر بهما الوفاء بوعدهما؟

تبادلا قبلة خاطفة ثانية، ثم قبلة ثالثة، أكثر تمهلاً، فرابعة تواصلت. والتصق جسداهما الواحد بالآخر. وبحثت يد سميراميس المتحررة على الزر لإطفاء الضوء.

وفقط حين هويا معاً على السرير همست الزائرة في أذن صديقها: «وعدت بأن تساعدني».

وهو، في ضياعه، لم يجد حجة يرد بها عليها.

سيدوِّن لاحقاً : عندما فتحت عيني، لم تكن سمي بجانبي. أضأت النواسة قرب السرير، ونظرت إلى ساعتي. لم تكن الساعة السابعة مساء بعد. غفوت بضع دقائق فقط. وجلست على السرير، عاري الصدر، مشوش الذهن.

كان لابد من أن يحصل لنا ذلك!

أن نشتهي الفاكهة المحرمة بعد أن تذوقنا الفاكهة المتاحة.

أن نمارس الحب في التمرد بعد أن مارسناه بالتراضي.

هل يعني ذلك أن علاقتي بسمي لم تعد ذلك القوس الذي كان إغلاقه مقرراً في اللحظة التي فتحناه؟ بلى، لا تزال كذلك، ولن تكون أكثر من قوس معترض، لا في ذهني ولا في ذهنها. ولكن العلاقة، لكي تظل نبيلة، عليها أن تعيش دورتها الكاملة.

ليس نضجها فحسب، إنما كذلك طفولتها ومراهقتها، ولو بدون ترتيب. وعليها أيضاً أن تعثر على خيميائها الخاصة، ومزيجها من التعقل والطيش، من الورع والانفصال، من التأثر وخفة الدم، من الحميمية والمسافة، من الكلام والشهوة.

والمهم بالنسبة إلى العشيقين أن يعرفا الحفاظ على ذكرى علاقتهما كما لو أن الأمر تعلق برحلة مشتركة.

أليست الرحلات في أغلب الأحيان فرصة لبناء صداقات دائمة مع أغراب كانوا رفاقنا في السفر؟ يجدر بنا أن نتمكن من العودة من مغامراتنا الغرامية بذهنية مشابهة. لن أذهب إلى حد الاقتراح بأن يلتقي

العشيقان في ذكرى لقائهما للاحتفاء بالمناسبة واستحضار ما عاشاه معاً من لحظات. ولكن يجدر بهما السعي لتجاوز مرارة الفراق لكي يحتفظا، طوال حياتهما، بذكرى ودودة عن «رحلتهما».

وهذه الكلمة تلائم بالفعل تماماً الحالة التي أعيشها منذ عودتي إلى وطني الأم. إنني في رحلة غرامية، ورفيقتي هي سمي. رحلة عبر الزمان، في الحقيقة، أكثر منها عبر المكان. في الظاهر، جئت للتآلف من جديد مع بلد شبابي، ولكني لا أنظر حتى إلى البلد، بل أبحث فقط فيه عن آثار شبابي. لا أتأثر بالأشياء والأشخاص الذين لم أعرفهم في حياتي السابقة. لا أريد أن أتعلم شيئاً، أو أن أعيد تعلم أي شيء، أو أن أكتشف أي شيء. أسعى فقط إلى استعادة ما كان مألوفاً لدي. أجل، أبحث عن الأطلال، والآثار، والبقايا. وكل ما هو جديد يبدو لي تطفلاً غير مرحب به في حلمي، أشبه بالإهانة لذاكرتي، وأشبه بالاعتداء.

ولا أتبجح بكل ذلك، بل أنا على استعداد للإقرار بأن الأمر يتعلق بإعاقة. ولكني أعيش هذه الرحلة على هذا النحو، منذ اليوم الأول. كل ما أتعرف إليه، أراه بالألوان؛ وما تبقى، كل ما تبقى، أراه بالرمادي الشاحب.

ولذلك، ما دامت هذه الرحلة مستمرة، لا يمكن لأي امرأة أن تفوق سمي إغراءً بنظري. غير أني واثق من أنها ستتراءى لي، فور عودتي إلى باريس، بعيدة نائية فجأة. وستعود دولوريس كلية الحضور في حياتي، فيما أبذل جهداً هنا للتفكير فيها.

5

اتصلت سميراميس بآدم، بعد ساعة من مغامرتهما غير المتوقعة، لتقترح عليه زيارة أرملة مراد مجدداً. فوافق بحماس لا سيما وأن عليه الآن إبلاغ تانيا بالتقدم الحثيث في مخططاتهما.

لم يلمح العشيقان على الإطلاق إلى ما حصل بينهما توّاً. لا على الهاتف، ولا على الطريق.

هذه المرة، كانت الأرملة وحدها، وليس برفقتها سوى سيدة أخرى متشحة بالسواد، لا شك أنها جارة، أو قريبة لها، انسحبت لحظة دخول الصديقين.

أخبرتهما تانيا أن بيتها لم يفرغ من الزوار، وهذا اليوم أيضاً، وأنها اضطرت للتحايل لكي ينصرف آخر الزائرين.

«استغرق بي الأمر وقتاً لأدرك ذلك، ولكن العزاء عندنا تقنية إرهاق. فلشدة ما يصاب الأشخاص المحزونون بالإعياء لا يعودون حتى قادرين على التفكير في مصابهم».

لاحظ آدم: «إذا كانت تقنية فعالة، فلا بأس بذلك».

«أجل، إنها تقنية فعالة. فانفعالاتي تخدرت. أرى كل شيء، وأسمع كل شيء، ولكني لم أعد أشعر بأي شيء».

ربما كانت مرهقة، و«مخدرة»، ولكنها توحي بالأحرى بأنها متقدة، وتحت تأثير منشط قوي. كانت حركاتها عنيفة بعض الشيء، وابتساماتها ترتسم ثم تختفي بسرعة أكثر من العادة.

كانت تجلس في الصالون الشتوي الصغير الذي استضاف، فيما مضى، «سهرة الوداع» برفقة نعيم، قبل أن يهاجر مع ذويه. همت بالنهوض لدى وصول صديقيها، ولكنهما لم يسمحا لها بأن تفعل، مثلما حصل في زيارتهما السابقة، وانحنى الواحد تلو الآخر لتقبيلها.

ثم جلس آدم بجانبها. وبحركة أخوية، طوَّق كتفيها بذراعه. فتركت رأسها يرتمي إلى الخلف، وأغمضت عينيها، ولم تحرك ساكناً. وجلست سميراميس على أريكة في الطرف الآخر من الحجرة، كما لتتركهما يعيشان بكل جوارحهما هذه اللحظة من القرب والمصالحة.

همس آدم: «عندما ترغبين بالخلود للنوم، قولي لنا».

وأضافت سميراميس: «أجل، قولي لنا، فنحن أهل».

أجابت الأرملة وهي تفتح عينيها: «لا أرغب بالنوم أبداً. أشعر بالراحة بوجودكما، وأنا سعيدة بزيارتكما».

رفعت رأسها ونظرت إلى الواحد، ثم إلى الآخر.

«أراكما تبدوان بأفضل حال».

أومأت سميراميس برأسها وأضاءت محياها ابتسامة مغتبطة.

وابتسم صديقها بالطريقة نفسها للقول:

«أجـل، كل شيء على ما يـرام. إنني أعيد اكتشاف البلد، والناس...».

قالت له تانيا: «لم تتمكن من التحدث إلى صديقك، ولكنك لا تندم على مجيئك، أليس كذلك؟».

«كان يجدر بي أن آتي منذ سنوات، ولكني كنت أرجىء اللحظة على الدوام. وبفضل اتصالك الهاتفي، أقدمتُ على هذه الخطوة».

أصرت: «ولست نادماً عليها».

تبادل آدم نظرة خاطفة مع سميراميس قبل أن يجيبها:

«كلا، لست نادماً عليها. على الإطلاق».

علقت الأرملة: «الحمد لله!».

وأراحت رأسها من جديد إلى الخلف على ذراع الزائر، ثم رفعته على الفور؛ لتتأمله، ثم تتأمل سمي، ثم تتأمله، فتتأملها من جديد؛ قبل أن تعلن:

«أنتما تنامان معاً».

احتجت سميراميس، وهي تجهد للابتسام: «ماذا تقولين؟».

ولكن تانيا نظرت إلى عينيها نظرة مباشرة.

«قولي لي إنني أخطأت الظن، وسأصدقك».

لم يكن ذلك وعداً بل تحدياً. ولم تعرف «سيدة القصر» كيف تتصرف. ولكن لحظات ترددها كانت بمثابة اعتراف. وأخيراً، ردَّت بسؤال:

«وماذا لو لم تخطئي الظن؟».

«في هذه الحالة، سأقول لكما: استمتعا! فاللحظات التي تتركانها تمضي لا تعوض. نحن أمضينا حياتنا نقول لأنفسنا: يوماً ما، سنذهب إلى البندقية، ويوماً ما، سنذهب إلى بيجين لزيارة المدينة المحرَّمة. وفي نهاية المطاف، لم نذهب إلى أي مكان. وأمضينا حياتنا نقول لأنفسنا: لاحقاً! فيما بعد! حين نسوي تلك المسألة! حين ننتهي من هذه الدفعة! حين يمرّ هذا التاريخ! حين يتم إخلاء بيتنا... ثم أصيب بذلك المرض اللعين، ولم نعرف من بعدها لحظة فرحة واحدة».

«فأنا أقول لكما: لا تفعلا مثلي! واستمتعا بكل لحظة! ولا تدعا السعادة تفلت منكما بهذه الذريعة أو تلك! استمتعا! وليمسك كل منكما بيد الآخر، ولا يبتعد عنه!».

قالت سميراميس: «لا نريد أن نخيب ظنك تانيا، ولكن من غير الوارد أن نتزوج أنا وآدم».

قالت تانيا: «ومن حدثك عن الزواج؟».

قبل أن تناقض نفسها، وتضيف:

«ولم لا؟ ما المانع؟».

«المانع أنه ليست لدي أي رغبة بالزواج، ولا هو أيضاً. إننا نرغب فقط بأن نكون معاً وبأن يمسك أحياناً كل منا بيد الآخر ونحن نتذكر أيام الجامعة».

«ما أقواك يا سمي! إنني معجبة بك!».

«لا تعجبي بي يا تانيا! لو كنت قوية، لكنت تركت أسرتي، وتابعت المسار المهني الذي كنت أحلم به. كان يجدر بي أن أضرب بالتقاليد عرض الحائط وأنا في العشرين، لا اليوم!».

«لا تكوني قاسية على نفسك إلى هذا الحد! ففي العشرين، كنت أشجعنا نحن البنات. وما كنا نفعله في السر، كنت تفعلينه علناً».

«لم ينفعني ذلك. فلقد مات...».

«ليس بيدك أو بيدي حيلة. نحبهم ثم يموتون. وعبثاً نحاول استبقاءهم، ولكنهم ينزلقون من بين أصابعنا، ويرحلون، ويموتون».

بعد دقائق معدودة، انتقل الأصدقاء الثلاثة إلى غرفة الطعام.

اعتذرت ربة الدار: «لا يوجد سوى بقايا الغداء».

ولكن مدعويها كانا يعلمان أن المائدة ستكون عامرة بأطباق كثيرة أخرى، وردا بالاحتجاجات المعهودة على الاعتذارات المعهودة.

وحالما جلسوا إلى المائدة، أعلن آدم لتانيا، بنبرة لا تخلو من الفخر، بأن الاجتماع الذي تمنته بملء جوارحها سيحصل بالفعل، وأبكر مما كان متوقعاً.

«نعيم وألبير في الطريق، ورامز وعد بموافاتنا مع زوجته حالما نتجمع، أي في نهاية الأسبوع القادم، لا أبعد من ذلك!».

فأعربت عن سرورها، وشكرته من كل قلبها. وللمرة الأولى منذ سنوات، أحس بأنه يسترجع في صوتها كما في نظرتها تانيا السابقة،

الصديقة، و«الأخت المحبة». ولكن هذه اللحظة من الفرح العارم والامتنان ستكون عابرة. فسرعان ما اكفهرت نظرة الأرملة.

سألته: «أتظن أنهم سيذكرون صديقهم بالخير؟».

«أجل، تانيا، اطمئني! يعلمون أنك تمنيت أن يحصل هذا اللقاء، ويعلمون أنه سيحصل بمناسبة وفاته. ولقد قرروا المجيء لأنهم يحتفظون بحنين لقاءات الأمس. فلا يجب أن تكوني مهمومة».

ولكن من الواضح أنها كانت كذلك. لم يكن بيدها حيلة.

«لوددت أن تنصفوه! فإذا راقبنا، وأصغى إلينا، أريد أن يشعر بأن أصدقاءه يحتفظون نحوه بالمودة. لطالما عانى في السنوات الأخيرة!».

هل كانت تتحدث عن معاناته النفسية التي تسبب بها استياء أصدقائه – بدءاً باستياء آدم؟ أو عن معاناته الجسدية بسبب الداء الذي كان ينهشه؟ لم يكن ذلك واضحاً في كلامها، ولم يكن ذلك واضحاً على الأرجح في ذهنها كذلك. وقد تلاقت هذه المعاناة وتلك، وراحت كل منهما تغذي الأخرى.

أصر الزائر: «لا تقلقي، إنهم سيأتون جميعاً كأصدقاء. كل واحد منا لديه ندمه الخاص، ولا أحد سيرمي الآخر بحجر».

وتوقعت سميراميس: «أو أن الحجارة ستتطاير في جميع الاتجاهات معاً».

كانت منشرحة أكثر منها مضطربة لهذه الفكرة.

في طريق العودة، لزم الصديقان الصمت لبضع دقائق، قبل أن يقول آدم، وهو يطلق تنهداً طال كتمانه أكثر من اللازم:

«كانت تانيا لجوجة بعض الشيء هذا المساء أيضاً، ألا توافقينني الرأي؟».

أومأت سميراميس برأسها موافقة، بدون أن تنبس ببنت شفة. وتابع آدم الكلام:

«أنت التي تعرفين قواعد اللياقة أكثر مني ، كم من الوقت يفترض بنا أن نتحمل بعد تقلبات مزاجها بسبب حدادها؟».

اكتفت صديقته بالابتسام وبحركة تنم عن العجز. فأجاب هو في النهاية عن السؤال الذي طرحه.

«في اعتقادي، لقد نفد كل رصيدها. وفي المرة القادمة التي ستتحدث معنا كما فعلت هذا المساء، لن أراعيها، وسأقول لها بالضبط كل ما أفكر به، عنها وعن زوجها».

«الله يرحمو!».

«الله يرحمو ، أجل! ولكن خيل لي هذا المساء أنني أسمع صوته. كانت تانيا فيما مضى نبيهة، وكتومة، ولائقة. وكان زوجها هو الذي يتفوه بهذا الكلام الفظ».

«بعد ثلاثين عاماً من الحياة الزوجية، كان لديه الوقت الكافي للتأثير عليها».

«وكان لمراد أسلوب خاص في قول الأمور، حتى أسوأها... لم

يكن بوسعك أن تعتبي عليه كثيراً. ولكن الأمر مختلف معها. فما قالته عنا كان غير لائق، وفجاً للغاية! كنت أرغب بأن أصفعها».

«ولا يهمك! دعها تقول! فلتتهمنا بأننا ننام معاً؛ ما دامت لا تذيع الأمر على الملأ، فهذا آخر همِّي! في سني، وبعد كل ما عشته، أقسم لك بأني لم أعد أتأثر بذلك. أضحك، كما لو أني أسمع نميمة عن امرأة لا أعرفها. ذات مرة، اتصلت بي صديقة لتخبرني أن فلاناً قال عني، في أحد المجالس، إنّ لدي عشاقاً كثيرين. فأجبتها: «صيت غنى ولا صيت فقر».

«لعلك محقة بأن تأخذي الأمور على هذا النحو. غير أن التبدل الذي طرأ على تانيا من الخيبات الكبرى التي شعرت بها منذ عودتي إلى البلد. كنت أعتقد أنني سألتقي بصديقة الأمس، وبأننا سننسى المرارة التي خلفتها الحرب، ونعود كأخ وأخت، لا سيما وأني عدت نزولاً عند طلبها!».

مضت بهما السيارة بعض ثوان وسط صمت متواطئ إلى أن قالت سميراميس، على سبيل التوضيح:

«طوال هذه السنوات، لا بد أن مراد كان منهمكاً بمعاركه السياسية وصفقاته التجارية، ولم يكن يملك الوقت في أغلب الأحيان للتفكير في أصدقاء الأمس. أما زوجته فكان شغلها الشاغل أن تجتر خصوماتكما...».

وأردف آدم كما لو أنه يشاطرها هذا التفكير: «ومن ثم، فمراد كان

يعلم تماماً أنه قد ارتكب انتهاكاً، وأنني محق في لومه. أما تانيا فلا بد أنها كانت مقتنعة بأني ظلمته، وعتبها عليّ يفوق عتبه عليّ».

لزم الصمت للحظة، قبل أن يستأنف كلامه:

«تملكني إحساس غريب في صباح اليوم الذي اتصلا بي ليطلبا مجيئي. كان إحساساً ملتبساً في حينها، ولم أنتبه له حقاً. كان لدي الانطباع بأن مراد يعتبر نفسه مخطئاً، ويشعر بالحاجة لتبرير سلوكه أمامي قبل أن يرحل عن هذا العالم- وإلا، فلماذا يستعمل أنفاسه الأخيرة لمكالمتي؛ أما زوجته فكانت تسعى فقط لإلقاء الذنب عليّ».

«إذا ما حكمت بما أعرفه عنه وعنها، فأنا واثقة من أن انطباعك صحيح. في بلدنا، غالباً ما تتبنى المرأة خصومات العشيرة، أكثر من زوجها».

«أو من أبنائها. أخبرني مراد يوماً أنه حين كان يتشاجر مع أحدهم، يتجنب أن يخبر والدته، لأنها ستشن هجوماً على ذلك الشخص فتستحيل أي مصالحة بينهما. أتخيل أن تانيا تصرفت نحوي مثل حماتها».

«تانت عايدة...».

«تانت عايدة، أجل... كنت أستلطفها بالأحرى. أفترض أنها لم تعد على قيد الحياة...».

عوضاً عن الإجابة على سؤاله، انفجرت سميراميس ضاحكة. فرمقها صديقها بريبة وعتب. ولم تسترجع جديتها قبل مضي دقيقة كاملة.

«عفواً! لم أستطع أن أتمالك نفسي! ومع ذلك، فالقصة ليست مضحكة على الإطلاق، بل فظيعة».

قال لها آدم، عابساً: «إحكيها!».

من الواضح أنها أثارت فضوله.

«توفيت تانت عايدة منذ سبع أو ثماني سنوات. لم تكن كبيرة في السن، ولكنها كانت تعاني من خرف مبكر. في الأشهر الأخيرة، لم تكن تتعرف إلى أحد، وكان ذلك مؤلماً جداً لأفراد أسرتها. قيل لي إنها كانت تمضي سحابة نهارها تتأرجح على كرسي هزاز. كانت جسدياً في حالة جيدة، ولكنها فقدت قدراتها العقلية تماماً. وفي فترة من الفترات، تملكتها نزوة. كانت تقول: «أريد الذهاب إلى الجبل»، فيصطحبها مراد وتانيا إلى هناك، وفي اليوم التالي، تقول لهما: : «أريد الذهاب إلى المدينة». فيصطحبانها من جديد في الاتجاه المعاكس... في البداية، كانا يتقبلان ذلك كما يساير المرء الرغبات الأخيرة لشخص محتضر. ولكن المسألة تكررت عشر مرات، وكان اليأس قد بلغ بهما مبلغاً حين قال لهما الطبيب: «في حالتها، إنها لا تعرف على الإطلاق أين هي موجودة، وهي عاجزة تماماً عن التمييز بين مكان وآخر. وفي المرة القادمة التي ستطلب فيها الانتقال من مكان إلى آخر، ستديران أريكتها مرتين أو ثلاث مرات حول نفسها، ثم تقولان لها: «لقد وصلنا». وهذا بالضبط ما حصل. فكلما طلبت الانتقال، يديران أريكتها، ثم يقولان لها: «نحن في المدينة» أو «نحن في الجبل». فترضى بذلك».

«بعد بضعة أشهر، توفيت المسكينة. ذهبت للتعزية بها. وجلست في الصالون، قرب تانيا، وهمست في أذنها تمهيداً لحديث يلائم هذا الظرف: «هل توفيت حماتك في المدينة أم في الجبل؟»، فانفجرت تانيا ضاحكة، وكانت فضيحة. وقد زعل منها مراد، وزعل كلاهما مني. ومع ذلك، أقسم لك إنني لم أكن أعرف قصة الأريكة، ولم أكن حتى أعرف بمرض عايدة. لم أكن ألتقيهما قطّ، وانقطعت صلتي بهما، فقط قرأت النعوة في الجريدة، وذهبت للتعزية. ولكن مراد ظل مقتنعاً حتى آخر حياته أنني ألقيت نكتة قليلة الذوق في مأتم أمه. وأظن أنه لن يسامحني أبداً».

والتفتت إلى راكبها. كان يرتسم على وجهه تعبير مشكك.

«لا تصدقني، أليس كذلك؟ تظن أني فعلت ذلك عمداً. أتظنني قادرة على ارتكاب مثل هذه الفظاظة؟ أتريدني أن أقسم لك، مرة أخرى، برحمة والدي؟

رد آدم بنبرة غامضة: «كلا، لا داعي لذلك. فقد قررتُ أن تستفيدي من الشك».

اليوم الحادي عشر

1

كتب آدم في مفكرته يوم الاثنين في 30 نيسان، لحظة فتح عينيه: قررت اليوم الذهاب عند الأخ باسيل. اعتباراً من الغد، يصل أصدقائي الآخرون تباعاً، ولن يكون لدي الفرصة لقضاء يوم وليلة برفقته.

اقترحت سمي البارحة أن تقودني بنفسها إليه، كما فعلت المرة الماضية. فرفضت رفضاً قاطعاً. لا أزال ألوم نفسي لأني جعلتها تقود سيارتها أربع ساعات في ذلك اليوم، ولا سيما لأنها انتظرتني قرابة الساعتين ونصف الساعة، تحت الشمس، في أرض مهجورة. لم تلح عليّ، ولكنها اشترطت أن أذهب بسيارتها المكيفة التي سيقودها السائق المعتمد للفندق، ذاك الذي اصطحبني عند تانيا مساء المأتم، وهو شقيق فرنسيس، القيِّم على الشمبانيا.

ولاحقاً خلال النهار، دوَّن آدم بالتفصيل زيارته الثانية إلى دير المغاور.

تصرف المدعو كيوان بلباقة، وبالدماثة نفسها التي تحلى بها المرة الماضية، وأسلوبه في القيادة ليس بحد ذاته مزعجاً. إنه يقود في المنعطفات بسلاسة، والأمر مريح لا سيما وأنها تعد بالعشرات.

وعيبه الوحيد أنه يعتبر نفسه مضطراً، كلما خاطبني، بدافع التهذيب، أن يلتفت نحوي، وبالتالي أن يحيد بنظره عن الطريق - بسرعة خاطفة، لا ريب، ولكن هذا الأمر ليس مطمئناً.

لم أحمل من أمتعة سوى حقيبة سفر خفيفة - من تلك الحقائب التي كان يطلق عليها في باريس خلال عقد العشرينيات، اسم «مضاجعة في المدينة»(*)، وهو اسم غير لائق لا سيما والأمر يتعلق بقضاء ليلة في دار عبادة وتأمل. ولقد تسنى لي أن أضع فيها حاسوبي المحمول، وعدة النظافة الشخصية، وقميصين، وثياباً داخلية، وكنزة صوفية؛ بل وهدية للرهبان الذين يستضيفونني، وهي عبارة عن زجاجة من مشروب البندكتين، اشتريتها البارحة من متجر لبيع النبيذ في العاصمة.

وصلت في بداية فترة العصر. وفتح لي العملاق نفسه. استفسرت منه فتبين لي أنني لم أخطىء، فهو من الحبشة. وخلال زيارتي السابقة، كان مهذباً فقط، ومرتاباً بعض الشيء تحت لحيته الشائبة. أما هذه المرة، فلقد أعرب عن حفاوة ومودة. ومن الواضح أن الأخ باسيل أخبره في غضون ذلك أنني صديق مقرّب، وسأعود لزيارتهم. وعلاوة على ذلك، كوني جئت مع حقيبة بدّل من مكانتي في نظره - فلربما كنت راهباً عتيداً.

(*) Baise-en-ville: حقيبة خفيفة للوازم ليلة غرامية مع العشيق أو العشيقة (المترجمة).

جاء صديقي بنفسه لاستقبالي بعد ثوان معدودة، وأصر أن يحمل حقيبتي، وطلب إلي أن أتبعه. قادني مباشرة إلى الصومعة التي أخط فيها الآن هذه السطور.

بالطبع، إنها صغيرة ومتقشفة - فليس فيها سوى سرير ضيق، وطاولة، وكرسي، ومصباح، ودش، وخزانة؛ أرضها عارية، والنافذة الوحيدة عالية جداً لا تسمح بتأمل المشهد الخارجي.

قال لي رمزي معتذراً: «ليس المكان مترفاً».

«لا شك في ذلك، إنما تلفه السكينة، وأنا متأكد بأني سأشعر فيه بالراحة التامة».

لم أقل ذلك فقط لملاطفته، فهذا التقشف يلائمني. لن أدعي أن بوسعي قضاء بقية حياتي في هذا المكان؛ فسأشعر في نهاية الأمر بالضرورة باحتياجات أخرى، وبرغبات أخرى، وبإلحاحات أخرى. ولكني لا أخشى لا الحرمان ولا الوحدة لليلة، بل حتى لأسبوع أو أسبوعين.

والحق يقال إنه كان بوسعي أن أكون راهباً. وإذا لم أفكر في الأمر بجدية، فليس ذلك بسبب نمط الحياة، المختلف عن نمط حياتي، إنما الذي كان بوسعي أن أتكيف معه، بل بسبب الدين نفسه. فموقفي منه لطالما كان ملتبساً ومتناقضاً، إلى أبعد ما تعود بي ذكرياتي.

لا أشعر، تلقائياً، بأي عداء تجاه رموز الإيمان. في صومعتي، علق على الحائط، قبالتي، صليب صغير من الخشب المصقول، أسود

وبسيط. حضوره لطيف، ولا يثقل عليّ إطلاقاً، بل يمنحني العزاء. ولكنه لن يعيقني عن الكتابة في هذه المفكرة، بحروف مدورة: لست من أتباع أي دين، ولا أشعر بالحاجة لأن أصبح كذلك.

وموقفي من هذه المسألة غير مريح لا سيما وأنني لا أشعر بنفسي ملحداً كذلك. لا أستطيع أن أؤمن بأن السماء فارغة، وبأنه لا يوجد بعد الموت سوى العدم. فماذا يوجد وراء ذلك؟ لا أدري. هل يوجد شيء ما؟ لا علم لي. أرجو ذلك، إنما لا أعرف؛ وأشعر بالريبة إزاء من يدعون المعرفة، سواء كانت أشكال يقينهم دينية أم ملحدة.

إنني في منزلة بين الإيمان وعدم الإيمان مثلما أنا في منزلة بين وطنين، ألاطف هذا وألاطف ذاك، ولا أنتمي إلى أي منهما. لا أشعر بنفسي غير مؤمن أبداً إلا حين أستمع إلى عظة رجل دين؛ ففي كل عظة، وكل إشارة إلى كتاب مقدس، يتمرد عقلي، ويتشتت انتباهي، وتتمتم شفتاي لعنات. غير أني أرتعش في أعماقي، حين أحضر مأتماً علمانياً، وتتملكني الرغبة بدندنة تراتيل سريانية ، أو بيزنطية، أو حتى ترتيلة القربان المقدس القديمة *Tantum ergo* التي يقال إنها من تأليف توما الأكويني.

ذلك هو درب التيه الذي أسلكه في مجال الدين. وبالطبع، أسير فيه وحيداً، بدون أن أتبع أحداً، وبدون أن أدعو أحداً لأن يتبعني.

جاء الأخ باسيل يفتح بحياء باب صومعتي الذي كان بلا مزلاج أو قفل.

«أعذرني، لم أدق على الباب، لم أشأ إيقاظك في حال غفوت».

لم أكن نائماً. كنت مستلقياً على سريري الضيق، أدوِّن ملاحظاتي.

«سنذهب إلى الكنيسة لإقامة قداس. ولو شئت، سأعود لاصطحابك حين ننتهي».

«كلا، ما جئتُ إلى الدير لأكتب أو لأنام، بل لقضاء الوقت معك. سأرافقك، أصر على ذلك».

أثناء سيري وراء صديقي، كنت أنظر من حولي للتعرف إلى التصميم المعماري المكان. تطل صومعتي على رواق تصطف على كل جانب منه ثمانية أبواب متماثلة. كان جناحاً غير حديث العهد، من الواضح أن رمزي قد شيده. أتصور أن الرهبان في الماضي كانوا يقطنون في صومعات أضيق، بل وأقل تجهيزاً بوسائل الراحة. ومن المؤكد أنها لم تكن مجهزة بدش، ولا بمنشب كهربائي.

في آخر الرواق، رواق آخر أعتم من السابق، يفضي إلى باب حجمه غير اعتيادي؛ فهو منخفض إنما عريض، مدور في الأعلى كما على الجانبين، ويبدو مكتنزاً مثل البرميل. ولما تجاوزناه فقط، أنا وصديقي، أدركت أننا أصبحنا الآن في صلب الجبل. كانت الجدران منحوتة في الصخر، بخشونة أصلاً، كما لو كان القصد حفر مغارة بدون السعي لتشكيل جدرانها. وحدها الأرضية كانت ممهدة، بل ومبلطة؛ إنما يتعلق الأمر جلياً بتجهيز حديث العهد.

كان الرهبان جالسين على مقاعد لا ظهر لها. أحصيت ثمانية

منهم، مع صديقي ضمناً. جلست في الصف الأخير. اقترب الأخ باسيل من «مقرأ» موضوع في المقدمة. أخرج من جيبه كتاب قداس فتحه ليبدأ القراءة. ونهض الآخرون على الفور لتلاوة الصلوات معه.

إنهم من جميع الأعمار وجميع القامات. وفي ما عدا صديقي، كلهم ملتحون، وكلهم، بلا استثناء، قد أجلحوا، من الخلف، وسط الجمجمة أحياناً، وأحياناً أخرى بصورة كلية. بعض أصواتهم بالكاد تسمع. أما أنا فقد لزمت الصمت. وعلى أي حال، لا أعرف صلواتهم؛ ولاحقاً، حين علت أصواتهم بالتراتيل، لم أكن أعرف تراتيلهم. ولكني نهضت في كل مرة نهضوا فيها.

لطالما شعرت بالانجذاب لدور العبادة، مع عدم مبالاتي بالعبادة نفسها. وفي هذه الكنيسة الكهفية العتيقة، أحسست بمودة أخوية إزاء هؤلاء الرجال المجهولين الذين كانوا يرفعون الصلوات. ولا أعتقد أن أي شخص، حالياً، سيذهب للعيش في دير إذا لم يكن ذلك بدافع مشاعر نبيلة.

وهذا بالتأكيد حال الأخ باسيل. أتأمله بمحبة وهو يتصفح كتاب القداس بحثاً عن الصفحات المناسبة. كانت حركات صديقي المهندس الذي أصبح راهباً مترددة. ينتقل الكثيرون، حين يكبرون، من البراءة إلى التهكم؛ وقلما يسلكون الطريق المعاكس. لا أكن لمساره سوى الإجلال، وكذلك للحياة التي اختارها. وإذا كنت أتمتع بتأثير عليه، فلن أسعى حتماً لإعادته إلى حياته السابقة لكي يعاود تشييد القصور والأبراج والسجون أو القواعد العسكرية.

في نهاية القداس، بقيت في مكاني، واقفاً. ألقى عليّ الرهبان، وهم يغادرون، التحية الواحد تلو الآخر، بإيماءة من الرأس، مصحوبة بابتسامة. وكان صديقي آخر المغادرين. أومأ إلي بأن أتبعه.

«إني سعيد لأنك بقيت، ولكن لا تشعر بنفسك مرغماً على حضور جميع القداديس. لقد أردت فقط أن تكوِّن فكرة عن الطريقة التي أمضي بها أيامي. فالصلاة هي ساعتنا نوعاً ما، وهي تدق كل ثلاث ساعات».

«حتى في الليل؟»

«أجل، من الناحية النظرية، حتى في الليل. وفي الماضي، كانت تلك القاعدة، كان لدينا ثمانية قداديس في اليوم. ولكن لم يعد لدينا سوى سبعة».

سمح الكافر الذي كنت لنفسه بالقول: «بدأتم تتسيبون!».

ابتسم صديقي.

«موقفنا، وهو كذلك موقف الكنيسة، أنه لا يجب أن نخضع أنفسنا لعذابات بلا طائل. وقال بالفرنسية: «أجل للرهبنة، لا للماسوشية». وقبل العودة إلى العربية، لغتنا المشتركة، للقول، وهو يضع يده بمودة على كتفي: «لم تهتم قطّ بهذا العالم، على ما أظن».

اضطررت للتسليم بأنني جاهل بالفعل في هذا المجال. لست جاهلاً بكل معنى الكلمة في نهاية المطاف. فبما أني درست العالم الروماني والبيزنطي، فلقد تعلمت بالضرورة متى أنشئت الرهبانيات

الأولى وفي أي ظروف. ولكني والحق يقال لم أهتم البتّة عن كثب بتطور نظامهم، أو بحياتهم اليومية.

أوضح لي صديقي: «منذ وقت طويل، عدل الرهبان عن تعذيب أنفسهم. بوسع المرء أن يعيش حياة زاهدة بدون أن يتجمد برداً في الشتاء، وبدون أن يحرم من النوم الذي يرمم الصحة. وبالمقابل، لا غنى عن القداديس التي تنظم نهاراتنا. لا يتعلق الأمر بتلاوة صلوات حفظت عن ظهر قلب، كما يتخيل غير العارفين، بل يتعلق الأمر بالتذكير باستمرار بسبب وجودنا هنا – هنا، في الدير، وهنا على الأرض. ويتعلق الأمر بتقسيم الأربع وعشرين ساعة إلى شرائح مختلفة، لكل منها لونه الخاص».

«في الماضي، كانت أيامي تمضي من اجتماع إلى آخر، والأسابيع تمر، ثم الأشهر، ثم السنوات... أما اليوم، ففي يومي سبعة أوقات. كل ثلاث ساعات، أتوقف، أتأمل، ثم أنهمك في نشاط مختلف كلياً– روحاني، وفكري، إنما كذلك زراعي، وفني، واجتماعي، بل ومطبخي، أو رياضي».

كدتُ أعلق بأن ذلك لأنه اشتغل طوال حياته، ولأنه شيد القصور وكسب المال الوفير، فقد صار بوسعه الانصراف إلى هذا الأسلوب الآخر في العيش؛ وأن لا أحد يفكر باستخدام وقته على هذا النحو إلا إذا كان بوسعه الاستغناء عن العمل لكسب رزقه. ولكني ما أتيت لمجادلته، بل للإصغاء إليه، وتأمل حياته اليومية، وتفهم ما أصابه من تحول، وإعادة وصل ما انقطع بيننا من أواصر.

عندما زاره شريكه رامز العام الماضي، شعر رمزي بنفسه مضطراً لتذكيره بأنه لا يعيش في جحر، وأنه قد جاء للعيش في الدير بملء إرادته. والحق يقال إننا ننزع أحياناً، حين يحيد المرء عن الطرق المألوفة، إلى معاملته وكأنه في محنة، أو ضحية سجان، أو مضلل، أو ضحية ضلالاته الشخصية. ويستحق صديقنا أن يعامل معاملة مختلفة. ويجدر بنا احترام مساره. فهو ليس متوهماً، ولا ساذجاً مثيراً للشفقة. إنه رجل موزون، متعلم، نزيه، وكادح. وإذا ما قرر، في الخمسين من العمر -بعد أن جال في أنحاء العالم، وتفاوض مع الجوارح المفترسة، وجمع الثروات، وشيد في مجاله المهني امبراطورية حقيقية-، أن يتخلى عن كل شيء للعيش في دير، فأضعف الإيمان أن نتساءل بتواضع عن السبب الذي دفعه للقيام بذلك. ومن المؤكد أن دوافعه ليست دنيئة. وهو يستحق أن نصغي إليه، بدون التنكر له أو الاستخفاف به.

2

30 نيسان، تتمة

في الساعة السابعة بالضبط، توجهنا إلى قاعة الطعام. كان بوسع هذه القاعة أن تستقبل نحو أربعين شخصاً، ولكننا كنا تسعة فيها، الرهبان الثمانية وأنا، جالسين جميعاً إلى المائدة نفسها المصنوعة من الخشب الخام. وقد ظلت مائدتان مثلها فارغتين، وعلى مائدة أخرى ركنت قرب الحائط، وضعت الملاعق والشوك والسكاكين، إلى جانب طبق بيضاوي كبير جداً، وحسائية، ودورق من النبيذ، وخبز مدور مقطع، وإبريق ماء.

أوضح لي رمزي: «هناك سيدة من الضيعة تعد لنا الطعام. فعندما نأتي للاستقرار في ضيعة، من الأفضل عدم الإيحاء بأننا نعيش في كفاف، وبأننا لا نحتاج إلى أي كان. وإلا، نكوّن على الفور عداوات وسمعة سيئة».

«يعرب الناس عن الفضول، بالضرورة، وعن شيء من الحذر، عندما يعلمون أن غرباء أتوا للعيش في جوارهم. وفي الضيعة، تبدأ طاحونة الشائعات تدور بسرعة فائقة. وكون تلك المرأة الصالحة،

أو لغا، تملك مفاتيح الدير، وتأتي إلى هنا بين الحين والآخر مع زوجها، أو ابنتها، أو شقيقتها، أو جارتها، بدل كل شيء. وهي كذلك تتسوق لنا. فيجب أن يقتنع الناس من حولنا – المزارعون، والبقال، والفران، واللحام – بأن وجودنا بركة، وليس فقط لأننا نصلي لأجلهم».

«هذا المبدأ، طبقته عندما كنت أنفذ أشغالاً عامة. فعندما نصل إلى بلدة صغيرة، يحاول مديرو المشروع أحياناً أن يشرحوا لي بأنه سيكون من الأفضل عملياً وأقل كلفة إحضار كل شيء معنا. فكنت أقول لهم في كل مرة: كلا! ستذهبون إلى السوق، وتشترون هناك كل ما تحتاجون إليه، ولن تساوموا على الأسعار! يجب أن ينظر الناس إليكم كنعمة، وأن يتحسروا عليكم بصدق يوم تغادرون».

«هل يأتي أهل الضيعة أحياناً لحضور القداس؟»

«لا نقيم القداس هنا، فلا أحد منا كاهن، بل نحن نذهب يوم الأحد إلى كنيسة الضيعة. أما إذا شاء أحدهم مشاركتنا الصلاة، فبوسعه المجيء، مثلك، فبابنا ليس مقفلاً».

في الدقائق الأولى من وجبة الغداء، لم يتكلم غيرنا أنا والأخ باسيل. كنت أطرح عليه أسئلتي، فيجيبني؛ والسبعة الآخرون على المائدة يكتفون بالأكل، والإصغاء، والإيماء برأسهم بين الحين والآخر إعراباً عن الموافقة، أو تأكيداً على كلامه. كانت الطاهية قد أعدت أرزاً أبيض مع يخنة البامية. وقد ملأ جميع الرهبان أطباقهم بوفرة، بل سكب بعضهم مرة أخرى.

انقضت دقائق طويلة قبل أن أقرر سؤالهم، بدون أن أتوجه إلى أحدهم على وجه التحديد:

«هل وصلتم جميعاً إلى الدير في الوقت نفسه؟».

لم يكن سؤالي سوى ذريعة لحملهم على الكلام. ومن اللحظة الأولى، تبين لي أن هؤلاء الرجال ليسوا جميعاً من البلد نفسه، ولا من البيئة نفسها، وأنهم لم يصلوا إلى هذا المكان للأسباب عينها. كنت أعرف قصة واحد منهم فقط - وأيضاً بصورة غير مكتملة. أما الآخرون فلا أعرف عنهم شيئاً.

أشار إليهم صديقهم أن يقدم كل منهم نفسه، الواحد تلو الآخر، حسب ترتيب جلوسهم. أربعة منهم كانت أسماؤهم مستعارة على ما يبدو، مثل أقنعة الممثلين في المسرحيات التراجيدية القديمة - «فم الذهب»، «أورميسداس»، «إغناطيوس»، «نيسفور». وكانت أسماء الآخرين أكثر شيوعاً - إميل، توما، حبيب، وباسيل؛ ولكن، بالنظر إلى ما أعرفه عن الأخير، فلعلها على الأرجح أسماء مستعارة أيضاً. لا شك أن القطيعة مع حياتهم السابقة كان بمثابة عمادة ثانية لهؤلاء الرجال، ومن الطبيعي أنهم أرادوا، لدى الخروج من المياه، ارتداء زي جديد.

غير أنهم، إن شاؤوا بالفعل تغيير أسمائهم، فمن المؤكد أنهم لم يرغبوا بتغيير هويتهم. بل على العكس. وقد أذهب للقول إنهم سعوا بالأحرى، من خلال تمويه هويتهم الفردية، إبراز هويتهم الجماعية -

أي هويتهم كمسيحيين مشرقيين. لم يفتني أن صديقي تخلى عن اسم محايد دينياً لتبني الاسم المثقل بالدلالات لأحد أحبار الكنيسة.

والغريب في الأمر، أن الأخ باسيل، حين أوضح لي، خلال زيارتي السابقة، أسباب عدوله عن الحياة المدنية، امتنع - إرادياً أم لا - عن التطرق إلى المشاكل المحددة التي لابد من أنه تعرض لها بحكم انتمائه إلى إحدى طوائف الأقليات.

لا يثير هذا الصمت دهشتي، فأنا أمارسه. فالشخص الذي ينتمي إلى أقلية يرغب بعدم المجاهرة باختلافه عوضاً عن إبرازه أو استعراضه كالراية الخفاقة. ولا يكشف عن انتمائه إلا إذا اخترق أحدهم تحصيناته - وهذا يحصل دوماً في نهاية المطاف. ويكفي أحياناً كلمة أو نظرة لكي يشعر بنفسه فجأة غريباً على أرض عاش عليها أهله منذ قرون، منذ آلاف السنين، قبل أن تظهر الطوائف التي لديها الغلبة اليوم. وإزاء هذه الحقيقة، يستجيب كل امرئ حسب طبعه - بخجل، بمرارة، بخنوع، أم بعنفوان.

«كان أسلافنا مسيحيين وأوروبا لم تزل وثنية، وكانوا ينطقون بالعربية حتى قبل ظهور الإسلام»، قلت يوماً لأحد أبناء طائفتي بنبرة زهو. فأجابني بقسوة: «صيغتك صحيحة، إحفظها! فستشكل شاهداً جميلاً على قبورنا!».

بالطبع، الوضع الأقلوي للرهبان حاضر أبداً في أذهانهم وإن لم يتحدثوا عن الأمر تلقائياً. وسوف يتضح الأمر شيئاً فشيئاً في معرض حديثهم لاحقاً.

وبدعوة من الأخ باسيل، راحوا يقدمون أنفسهم، الواحد تلو الآخر، ذاكرين أسماءهم في الدين، وأماكن ولادتهم - من صور إلى الموصل، ومن حيفا إلى حلب، وحتى غوندار؛ وأعمارهم - التي تراوحت بين الثامنة والعشرين إلى الرابعة والستين؛ وكذلك مهنهم الأصلية - فإلى جانب صديقي، كان من بينهم مهندس مدني آخر، ومهندس مساح، وطبيب، ومهندس زراعي، وعامل بناء، ومصمم حدائق طبيعية، بل وعسكري سابق. لم يحك لي أي منهم مساره بعفوية، أو حاول توضيح سبب مجيئه إلى هذا المكان. ولكن شيئاً ما في حكاية كل منهم كان يفصح ضمناً عن المأساة التي حملته إلى اعتزال العالم للصلاة.

تستشف مأساتهم بخاصة حين يلفظون اسم بلدهم المنشأ، الأمر الذي دفعني إلى سؤالهم، حالما انتهى كل منهم من تقديم نفسه.

«وهل تعتقدون أن ثمة مستقبلاً للطوائف التي ولدتم في كنفها؟».

لم يكن لسؤالي أي صلة مباشرة بما قد أخبرني إياه هؤلاء أو أولئك توّاً، ولكن لا أحد منهم أوحى لي بأنه أخذ به على حين غرة.

«أصلي، إنما بدون أمل».

كان ذلك فم الذهب الذي تكلم، وكان كلامه يختزن تمرداً. ضد البشر، إنما كذلك ضد السماء. فالتفت الآخرون نحوه، وقد اعتراهم الحزن أكثر من العجب. كان لديهم جميعاً الملامات نفسها ضد الخالق، وهي ملامة قد أعرب عنها أصلاً ذاك الذي ينتمون إليه، الابن، المصلوب، هو الذي سأل الرب، وهو يعاني آلام الصلب:

«إلهي، إلهي لماذا تركتني ؟».

ولسبب لم أستوضحه، أحسست على حين غرة بأنني أخترق تحصينات رفاق رمزي، وسمعت نفسي ألفظ عالياً كلمات المسيح اليائس:

«إيلي، إيلي، «لما شبقتني»؟».

قلتها بنبرة متسائلة حادة، كما لو أنني أطرح حقاً السؤال، إن لم يكن على الخالق، فعلى رهبانه على الأقل. وقد ظهر عليهم بدورهم اليأس؛ فسماع هذه الكلمات من فم غريب جعلهم ينغمسون مجدداً، نوعاً ما، في أجواء الجمعة الحزينة. فكفوا جميعاً عن تناول الطعام. وران عليهم الصمت والإرهاق والوجوم.

تأملتهم فشعرت بشيء من الخجل. لم يكن دوري، وأنا الزائر العلماني، والراهب لأمسية يتيمة، أن أثير مثل هذه الردود. ولكني لم أكن ألهو. فهذه الكلمات ليسوع المسيح لطالما أدهشتني. فالأناجيل تتضمن الكثير من العناصر التي تبدو اصطلاحية أكثر من اللازم، بنظر المؤرخ المشكك الذي كنت، للاقتناع بصحتها. فوفق ذهنية العصر، يجب أن يكون الرسل اثني عشر – مثل الأشهر الاثني عشر في السنة، وقبائل اسرائيل الاثنتي عشرة، ومثل الآلهة الاثني عشر في جبل الأولمب؛ وأن يموت المسيح في الثالثة والثلاثين من العمر، وهو السن الرمزي الذي توفي فيه الإسكندر المقدوني. ويجب أن يكون بلا شقيق أو شقيقة، وبلا زوجة أو ولد، وأن يولد من عذراء بتول. وقد

أضفي الكثير من التجميل على الكثير من الوقائع، ولعلها استعيرت من أساطير سابقة لكي توافق الخرافة توقعات المؤمنين...

وفجأة، تعلو صرخة الألم تلك - «إيلي، إيلي، «لما شبقتني»؟» يعود الكائن المؤله إنساناً، إنساناً ضعيفاً، مرعوباً، مرتعشاً. إنساناً فريسة الشك. وهذه العبارة تبدو صحيحة. وليس بالضرورة أن يكون المرء مؤمناً، ويكفي أن يكون سليم النية لكي يتبين له أنها ليست مختلقة، أو مستعارة، أو معدلة، أو حتى مجمَّلة.

أرى أن المعجزات لا قيمة لها، وأن الرموز لا تخلو من الشطط. فعظمة المسيحية أنها تعبد إنساناً ضعيفاً، منتهكاً، مضطهداً، معذباً، رفض رجم الزانية، وأشاد بالسامري المهرطق، ولم يكن متيقناً تماماً من رحمة السماء.

وفي نهاية المطاف، كسر الأخ باسيل الصمت للإجابة عن سؤالي.

«إذا كان جميع البشر فانين، فنحن كمسيحيين مشرقيين فانون مرتين. مرة بصفتنا أفراداً - وهذا ما قررته السماء؛ ومرة بصفتنا طوائف، وبصفتنا حضارة، وفي هذه الحالة، لا دخل للسماء، بل الحق على البشر».

وكان على وشك قول المزيد على ما أظن، ولكنه لم يفعل. فلزم الصمت، بصورة مفاجئة، بل لقد انتابني الشعور بأنه ندم بالفعل على النزر اليسير من الكلام الذي أفلت منه. فنهض، وذهب ليحضر بعض الفواكه؛ وحذا الرهبان الآخرون حذوه، وأنا بدوري.

أيجدر بي أن أطرح الموضوع مجدداً هذا المساء؟ كلا. فهؤلاء الرجال معتادون على تناول طعامهم بصمت، واقتحامي لعالمهم قد شوشهم بما فيه الكفاية. وفي صباح الغد، لو سنحت الفرصة، سأتطرق إلى الموضوع مجدداً مع رمزي، لوحدنا، عندما نذهب للسير في متاهته.

لم أتفوه بكلمة أخرى. وقشرت على مهل تفاحة كبيرة باردة وقطعتها وقضمتها. وعندما قاموا عن المائدة لأداء صلاة شكر مقتضبة، نهضت معهم. ثم عدت إلى صومعتي لأخط هذه السطور قبل الخلود إلى النوم.

اليوم الثاني عشر

1

الثلاثاء 1 أيار

في الصباح، عندما مر باسيل ليصطحبني من أجل الصعود معاً حتى المتاهة، كانت الشمس لا تزال متوارية خلف الجبال، ولكن ضياءها ينتشر في كل مكان.

أوضح لي صديقي، وهو يحدثني بصوت منخفض كما لو كنا داخل كنيسة:

«هذه الساعة هي الأفضل لتمييز الحجارة السوداء من الحجارة البيضاء».

ووقف في موقع محدد، على حدود المتاهة، ثم، خطا خطوة إلى الأمام، كما ليجتاز عتبة، وكما لو كان لديه هنا، بديهياً، مدخل.

تبعته بنظراتي. كان يسير وئيد الخطى. وارتفع رأسه الذي كان منخفضاً في البداية، شيئاً فشيئاً وانتصب، مما أتاح له الرؤية من بعيد.

لم يقل لي شيئاً عما يجدر بي أن أفعله، ولم يوجه لي أي إشارة.

غير أني أدركت في نهاية المطاف أنه يجدر بي أن أحذو حذوه، وعبر «الباب» غير المرئي عوضاً عن القفز عبر «جدران» غير مرئية.

لم يكن المسار الذي رسم على الأرض متعرجاً أكثر من اللازم، ولا الطريق المرسومة بالحجارة البيضاء ضيقة جداً، إنما تطلب الأمر رغم ذلك أن أخصص لخطاي بعضاً من انتباهي لكي أبقى «ضمن المسامير». وقد نجحت في القيام بذلك بدون عناء. ويبدو لي أن الذهن البشري – ذهني على أي حال – ينصاع لهذه اللعبة انصياعاً شبيهاً بالمسرح، حين يجلس ممثل شاب على كرسي قش، ويطلب إلينا الاعتقاد بأنه ملك هرم يجلس على عرشه.

وسرعان ما تناسيت المتاهة التي أتقدم فيها، ولم أعد أبحث بعيني عن الأخ باسيل، ولم أعد أشعر بطراوة الهواء. تساميتُ على المشهد كما لو تحت مفعول شراب أعدته القديسة ماري – جان. فخرجت أفكاري من المكان والساعة، وتركزت على سؤال بدا لي على حين غرة أنه الوحيد الهام: «ما هو السبب الحقيقي لعودتي إلى هذا البلد الحبيب الذي أخشى كتابة اسمه مثلما تخشى تانيا لفظ اسم الرجل الذي أصبحت الآن أرملته؟».

وفرض جواب غريب نفسه عليّ، واضحاً في صيغته بقدر ما هو غامض في دلالته: «لم أرجع إلا لقطف الزهور». وتبين لي أن تلك الحركة التي تقوم على قطف زهرة وإضافتها إلى الباقة التي نحملها أصلاً في يدنا، ونضمها إلى صدرنا، هي الأجمل والأقسى في آن واحد، لأنها تكرم الزهرة إذ تخطف منها حياتها.

لماذا هذه الصورة؟ في تلك اللحظة، لم يكن بوسعي أن أجزم بالأمر، وفي اللحظة التي أخط فيها هذه السطور، بعد سبع أو ثماني ساعات، لست على يقين من أي شيء بعد. هل في ذلك خشية، إحساس بالذنب، بسبب الكشف عن الكثير من الأمور الحميمة التي تتعلق بأصدقائي وبلدي ونفسي؟ مؤلف المذكرات هو خائن بالنسبة إلى قومه، أو لنقل إنه حفار قبور. فجميع العبارات الودودة التي يستحضرها قلمي قبلات موت.

غير أني أحسست أيضاً، وأنا أسير في المتاهة، بالسكينة تغمرني؛ كان إحساساً بالمنعة من الغريب أن القناعة ترافقه عوضاً عن الصلف؛ ولا سيما بالرغبة بالسكون.

كنت قد صعدت إلى هذا المكان عاقد العزم على مواصلة استجوابي للأخ باسيل عن المسيحيين المشرقيين، ومعتقداته، ورؤيته للعالم، وحياته السابقة، و«تحوله»، ورامز؛ ولكني كنت في حالة ذهنية مختلفة جداً لدى خروجي من المتاهة. وإذا ما حفز هذا المسار تأمل المرء، فذلك يحصل على حساب التحاور مع بني جنسه. فقدت الرغبة بالكلام، وأقله بالاستماع. وكان رفيقي يعلم ذلك، بالضرورة، ولقد حرص على عدم التدخل في تأملي.

ولاحقاً، مع اقتراب الساعة التي تواعدت فيها مع سائق الفندق لكي يعود ويصطحبني، شعرت بالحاجة للتحدث إلى رمزي عن اللقاء

الذي أنظمه، واستيضاح استعداده للانضمام إلينا. حرصت على القول إنها ستكون لحظة تأملية لما أصبحت عليه حياتنا، ولما آل إليه العالم، وإني سأطلب إليه أن يستهل اللقاء بصلاة مسكونية قصيرة لراحة نفس مراد. فأومأ برأسه بصورة غامضة، بدون أن يطرح عليّ أي سؤال. واستأنفت الحديث معدداً أسماء الأشخاص الذين ننتظر مجيئهم، وللإشارة إلى أن هذا اللقاء قد يحصل السبت المقبل، قرابة الظهر.

حتى تلك اللحظة، لم أكن قد فكرت في موعد محدد تماماً؛ إلا أنه تبين لي بوضوح، خلال حديثي مع الأخ باسيل، بأنه لا يجدر بي أن أفارقه بدون أن أذكر له اليوم والساعة. وقال لي، بمثابة الرد، إنني اتخذت مبادرة محمودة، وإنه لا يستبعد انضمامه إلينا. كنت سعيداً برد فعله، وإن كان غامضاً، وأحسست بأنه من الأفضل الاكتفاء بهذا القدر، بدون السعي لانتزاع تعهد أكثر وضوحاً منه.

وفي طريق العودة، لزمت الصمت، ولم أتجاذب مع كيوان الحديث إلا بالحد الأدنى الذي تفرضه اللياقات. ولدى وصولي إلى الفندق، لم أتصل بسمي. واختليتُ بنفسي في غرفتي لتدوين هذه الملاحظات.

كانت صديقته تتوقع منه بالفعل أن يحكي لها تفاصيل زيارته إلى الدير كما فعل المرة السابقة. ومن الواضح أنه لم يكن يرغب بذلك. ولم تشأ هي أن ترغمه. وحرصاً على عدم «الضغط» عليه، لم تتصل به،

كما كانت تفعل عادة، لتسأله إذا كان يعتزم تناول وجبته، خوفاً من أن يبدو ذلك بمثابة طلب غير مباشر.

ولذلك، أغفل تناول الغداء في ذلك اليوم. وبعد أن كتب بضع فقرات، وقضم الفواكه التي كانت موجودة في الغرفة، غرق في سبات عميق لم يستيقظ منه إلا حين جاءت سميراميس تدق بابه حوالى الرابعة عصراً لإخطاره بأنه قد حان الوقت للذهاب إلى المطار.

2

شعر آدم بالخجل لأنه لم يتعرف إلى نعيم!

ومع ذلك، كانت عيناه مسمرتين على المسافرين الخارجين من الجمارك، وهو يتفحص الرجال الواحد تلو الآخر، القادمين بمفردهم والمصحوبين على السواء. ولم يتمكن رغم ذلك من التعرف إلى صديقه!

وتطلب الأمر أن يأتي نعيم ويقف أمامه، ويقول له: «آدم!» لكي يحتضنه بين ذراعيه.

لم يتبدل صوته، ولكن شعره المجعد الطويل ابيض أكثر مما شاب، وأصبحت قسمات وجهه التي يعرفها منذ ثلاثين عاماً تتوارى خلف وجنتين مكتنزتين، وبشرة مسمرة، وشاربين من أميركا الجنوبية.

قال الوافد : «أما أنت فلم تتغير!».

أجاب آدم: «بلى، أصبحت قصير النظر».

كان ذلك أسلوبه للاعتذار.

قال نعيم: «يجب القول إن من وصل لا يشبه كثيراً من كنت تنتظره».

وكان ذلك أسلوبه في رد اعتذاره.

كان المسافر يحمل بيده كيساً من القماش الأخضر التفاحي، مخططاً بخطوط صفراء وزرقاء. فتناوله آدم، وترك صديقه يجر خلفه، بأنشوطة، حقيبة ضخمة تحمل الألوان البرازيلية نفسها.

«جئت مع سمي، في سيارتها، ولكنها لم تستطع أن تركنها. ولا بد من أنها تقف أمام الباب».

كانت هناك، بشوشة وثرثارة، تتفاهم مع دركي يريد أن يتعامل معها بصرامة إنما من الواضح أنه وقع تحت سحرها. كانت تقول له إنها لن تبقى أكثر من دقيقة، دقيقة صغيرة، ولا ثانية أكثر.

وسمعها صديقاها تهتف: «ها قد وصلا!».

فتح نعيم النار، حالما ركبا السيارة:

«لشدة ما كان آدم مقتنعاً بأنهم سيلقون عليّ القبض، لم يلمحني أخرج».

وعلقت سميراميس، بالنبرة نفسها:

«أنت زاد وزنك؛ وهو زاد قلقه».

كان آدم الجالس في المقعد الخلفي يقهقه ضاحكاً. فقد ذكره هذا الحديث بأحاديثهما أيام الجامعة، وأيام شلة البيزنطيين. دوماً تلك العدائية الودودة التي تبقي عقولهم متيقظة، وتجنبهم ويلات التقيد بالأعراف والتقاليد.

ومراعاة لعاداتهم الوقحة، كان يتوجب على آدم الرد من العيار نفسه: «نعود وقد زاد وزننا أربعين كليوغراماً، ونريد أن يتعرف إلينا الآخرون في الحال!».

في الفندق، أقام نعيم في الغرفة رقم 7 المجاورة لغرفة صديقه. وبالكاد ترك له الوقت الكافي لفتح حقائبه. كانت العاشرة مساء، وقد أقامت سميراميس، على شرف وصوله، عشاءً على ضوء الشموع.

قال الوافد الجديد لسيدة الفندق مشيراً إلى المائدة العامرة والجاهزة: «لن يخف وزني في ضيافتك!».

حذره آدم، الزبون الدائم، وهو يشير بيده إلى القنينة المفتوحة التي حملها فرنسيس الذي لا غنى عنه: «هنا، يقدمون كل يوم مازات وشمبانيا».

«شمبانيا؟ مازات وشمبانيا؟ ما هذه المفارقة! بالإذن منكما، ولكني سأحتسي العرق».

كان الاستياء يبدو بالفعل على وجه نعيم. ولما عاد النادل بالمشروب المحلي في بطحته المسطحة والسطل المليء بمكعبات الثلج، خاطبه وهو يشهده على كلامه.

«مازات وشمبانيا! قلْ لهما يا سيدي إن هذه هرطقة! قلْ لهما ذلك بحياتك!».

كان من الواضح أن فرنسيس يوافقه الرأي، إنما لما سمح لنفسه أن ينتقد مديرته، ولو على سبيل الدعابة. فترك الطهراني يهتم بإعداد كأس من العرق، وراح يسكب بصورة مهيبة الشمبانيا للمهرطقين الاثنين.

قال نعيم لصديقيه بعد أن قرع كأسه بكأسيهما لشرب نخب لقائهما:

«ماذا فعلتما أنت وهي منذ رحيلي؟».

قال ذلك بنبرة عادية، مثلما كان بوسعه أن يستفسر، على سبيل المثال، عما فعلاه بعد الظهر قبل الذهاب إلى المطار. ولكن آداب شلتهم تقتضي عدم الدهشة من أي شيء؛ أو على الأقل، تجنب الإعراب عن الدهشة. فكان الرد الأول لآدم على نسق الرد المتوقع:

«بعد غيابك بسنتين، رحلت، وبقيت سمي لتحفظ لنا مكاننا...».

وتابعت المعنية بالأمر: «ولأنها كانت أكسل من أن تهاجر إلى أي مكان».

ولكن ذلك كان مجرد توطئة، فسؤال نعيم كان يستحق جواباً حقيقياً. لقد افترق الأصدقاء الثلاثة منذ ربع قرن، ولم يكن أي منهما على علم بمسار الآخرين، في ما عدا بعض المحطات. ولو شاء الثلاثة أن يكون للقائهما معنى، فلا بد من أن استعادة الماضي.

بدأت سميراميس الحديث، بنبرة مرحة ومتعبة على السواء، بدون أن يعرف المرء حقاً أياً من الشعورين كان مصطنعاً.

«في ما يتعلق بي، لا شيء يستحق الذكر. يمكن اختصار سنواتي العشرين الأخيرة بأقل من عشرين ثانية. رحل أصدقائي، واندلعت الحرب، واختبأت ريثما تضع أوزارها. وعندما توفي أهلي، فتحت هذا الفندق. يفرغ من الزبائن في الشتاء ويمتلىء بهم في الصيف، وفي شهر نيسان هذه السنة، جاء صديقان قديمان لي لزيارتي، وهما يقيمان في الغرفة 8 و الغرفة 7».

«هيا، انتهيت، وحان دوركما!».

لزمت الصمت. وشبكت ذراعيها لكي تظهر بأنها قد فرغت بالفعل من الكلام.

قال آدم: «حكايتك سريعة بعض الشيء. من السرعة بحيث أن المرء يشكك بصدقها».

«كان بوسعي التفصيل بالطبع، ولكني قلت لكما أهم ما فيها».

ورفعت كأسها، وحذا الصديقان حذوها. وارتشف كل منهم رشفة تأملية طويلة. ثم قال نعيم، بنبرة يشوبها بعض التشكيك:

«فلم تتزوجي».

«كلا».

«لدي أسبابي».

«أسبابك، هي بلال؟».

«أفضل عدم التحدث في الأمر».

تدخل آدم هامساً: «نعيم، لا تضايقها!».

«لا أسعى لمضايقتها، ولكني لن أدعها بسلام كذلك». لو قالت لنا: «كل صباح، أصغي إلى زقزقة العصافير، وأتنشق الهواء العليل، وهذا الفندق مملكتي، وهو واحة من السكينة تنسيني صخب الكوكب!»، لقلت لها: «سمي، أحسدك، فلا تتخيلي الحياة التي نعيشها في الحاضرات العملاقة، احتفظي لي بمكان صغير في جنتك، وإذا لم يكن بوسعي المجيء بحثاً عن ملاذ، فعلى الأقل بوسعي أن أحلم به». ولكنها لم تقل ذلك. قالت: «رحل أصدقائي، وتوفي أهلي، ودفنت

نفسي حية بانتظار تقدمي في السن».

«لم أقل ذلك».

«هذا ما سمعته على أي حال. لا يمكن اختصار سنواتي العشرين الأخيرة حتى بعشرين ثانية». «سمي، صححي كلامي لو أسأت الفهم!».

«ربما لم أحسن التعبير. لم أشأ الشكوى على الإطلاق، بل شئت فقط أن أخبرك بأني لم أحقق أي إنجاز عظيم، أي شيء بوسع الناس أن يتذكروه من بعدي. غير أني أعيش على هواي، ولا أتلقى الأوامر من أحد، وفي كل صباح، تصل ترويقتي إلى شرفتي، حيث أستمع بالفعل إلى زقزقة العصافير؛ وفي كل مساء، أحتسي الشمبانيا. لم أنذر الفقر ولا - اطمئن! - العفة».

«بالفعل، هذا يطمئنني».

«ولم يكن لدي رغبة كذلك بأن أثقل كاهلي برجل».

«بوسعك التفكير بوضعيات أخرى».

«ظريف جداً».

«أعذريني، ليس ما قلته مرهفاً جداً، أعترف بذلك. كنت أريد فقط القول إن الرجل ليس بالضرورة عبئاً أو آفة. وقد يكون أيضاً حليفاً، وسنداً، وشريكاً...».

«كلا، أنت مخطىء. ليس في حالتي. لست بحاجة إلى رجل في حياتي».

«فلنوضح الأمور: لم أكن أعرض عليك خدماتي».

«إخرسْ أيها الأحمق!».

وأمسكت يد نعيم بيدها؛ ثم، وحرصاً على العدل، احتضنت بيدها الأخرى يد آدم.

«كم يسرني أن أراكما هنا، أنتما الاثنين. وحتى حين تعمدان إلى مضايقتي، فأنا أعلم بأي عقلية تفعلان ذلك، فأسترجع أجمل أيام حياتي».

ما دام الأصدقاء الثلاثة في هذه الوضعية، بقي فرنسيس، الساقي النبيه، على مسافة. كان يلمح كل شيء ولا يرى بلباقة وحنكة. ولما ارتخت الأيدي اقترب لملء كأسي آدم وسميراميس، واقتراح كأس نظيفة على نعيم.

وسأل البرازيلي: «وماذا فعلت في الحرب؟».

أجابت المضيفة وكأنها فكرت ملياً بردها: «أمضيت الشتاء في ريو والصيف في جبال الألب».

وقبل أن تسنح للصديقين الفرصة للرد على هذا الهجوم على جبهتين، وضعت مجدداً يديها على أيديهم، مطمئنة وودودة. ثم أوضحت لهما، كما توضح لتلميذين:

«الأشخاص الذين عاشوا هنا طوال تلك السنوات لا يقولون أبداً «الحرب». إنهم يقولون «الأحداث». وليس فقط لتجنب الكلمة المخيفة. حاولا أن تطرحا السؤال على أحدهم بشأن الحرب! سيسألكما ببراءة: أي حرب؟ لأن الحروب كانت كثيرة. لم يكن

المتحاربون أنفسهم ولا التحالفات نفسها ولا الزعماء أنفسهم ولا ساحات المعارك نفسها. وفي بعض الأحيان، تورطت فيها جيوش غريبة متورطة، وفي أحيان أخرى، قوى محلية فقط؛ ومرّت، كانت النزاعات تحصل بين طائفتين، وأخرى، داخل الطائفة الواحدة؛ وأحياناً، كانت الحروب تتوالى، وأحياناً، كانت تتزامن.

«في بعض الفترات اضطررت للاختباء؛ كانت القذائف تسقط من حولي، ولم أكن أدري إذا كنت سأظل حية حتى اليوم التالي؛ فيما كانت الأمور هادئة على بعد عشرة كيلومترات، وأصدقائي يتشمسون على الشاطئ. وبعد شهرين، تنقلب الآية؛ فيختبىء أصدقائي، وأكون أنا على الشاطىء. لم يكن الناس يأبهون لما يجري قربهم، في ضيعتهم، في حيهم، في شارعهم. والوحيدون الذين يخلطون بين هذه الأحداث المتمايزة، الوحيدون الذين يشيرون إليها في تسمية واحدة، والوحيدون الذين يسمعوننا خطباً عن «الحرب»، هؤلاء هم الذين عاشوا بعيداً عنها».

ردد آدم: «الشتاء في ريو، والصيف في جبال الألب». وصلت رسالتك. هذا، ولست على يقين من أننا نرى الأمور بصورة أفضل عن قرب منها عن بعد. عندما نبقى، تزيد المعاناة، هذا مؤكد، ولكننا لا نزيد تبصراً أو سكينة. في أحد الأيام، قال لي مراد، على الهاتف: «أنت لا تعيش هنا، ولا تعاني ما نعانيه، وليس بوسعك أن تفهم!». أجبته: «أنت محق، أنا بعيد، وليس بوسعي أن أفهم. فاشرحْ لي إذن! كلي آذان

صاغية». بالطبع، لم يكن قادراً على شرح أي شيء. كان يريدني فقط أن أعترف بأنه هو الضحية، وبهذه الصفة، يحق له التصرف كما يحلو له، ولو اقتضى الأمر أن يقتل. لم يكن يحق لي أن أعظه، بما أني بعيد ولا أعاني».

قالت سميراميس كما لو أن بوسع أحدهم أن يخطر بباله اتهامها: «أنا لم أقتل أحداً».

طبع آدم قبلة على يد صديقته.

«كلا، بالطبع، أنت لم تقتلي أحداً. لم أكن أرد عليك، بل عليه، على المرحوم. يحدث أحياناً أن أتحاور معه في ذهني».

رددت وهي تسحب يدها ببطء شديد: «أنا لم أقتل أحداً، ولكن الرغبة ساورتني. لو تسنى لي ذلك، لقتلت كل الزعماء، وجردت كل الشباب من الأسلحة. إنها استيهامات أرملة!».

ران صمت لم يجرؤ صديقاها على كسره. ثم أضافت، وهي تحدق في طبقها:

«لكنت أول أرملة حرب، وليس هذا بالأمر المشرف. هل سبق لكما أن رأيتما ضريحاً لأرامل الحرب؟».

وران صمت آخر انتهزه النادل لتغيير الكؤوس. فرفعت سميراميس رأسها.

«بما أنكما ترغبان حقاً بمعرفة ماذا فعلت خلال «الحرب»، سأحكي لكما، ولن أطيل الكلام».

«في المرحلة الأولى، كنت لا أزال غارقة في اكتئابي. فقد دفن

موت بلال تحت آلاف القتلى الآخرين، ولكني لم أتجاوزه. كنت أتناول كميات هائلة من الأدوية، وأبقى جاثمة على الدوام. لم أكن أفعل شيئاً، ولا أخرج من البيت، ولا حتى من غرفتي. في بعض الأحيان، أضع كتاباً على ركبتي، ولكن قد تنقضي نصف ساعة دون أن أقلب الصفحة».

«عندما بدأت أعمال القصف الأولى قرب بيتنا، استوجب الأمر نقلي إلى الملجأ. كان والداي يعاملانني كما لو عدت طفلة في الرابعة. كانا يثيران الإعجاب، فلا عتاب، لا شيء سوى الحنان. كانا يوحيان بأنهما مسروران لأن ابنتهما عادت إلى مرحلة الطفولة، ولأنها دوماً بجانبهما. كان يتابع حالتي صديق للأسرة، وهو طبيب نفسي عجوز في الخامسة والثمانين من العمر، هاجر مثلنا من مصر، كان يأتي لزيارتي كل يومين، ويواسي والدي قائلاً :»ستخرج من هذه الأزمة، إمنحاها فقط بعض الوقت والكثير من الحنان، واتركا الباقي عليّ».

«ساعدني علاجه، على ما أظن، والحنان كذلك. ولكن العلاج الحقيقي كان القصف على حيِّنا، بل ثمة قذيفة محددة أحدثت في نفسي تغييراً. فقبلها، كان يجب جرِّي إلى الملجأ؛ وبعد ذلك الانفجار، أمسكت بيد والدي واصطحبتهما. كما لو أن ذهني وحواسي كانت قد أظلمت حتى الحين بسبب زجاج كميد، وجاء ذلك الانفجار فتشظى ذلك الزجاج في جزء من الثانية. ومن جديد، صرت أهتم بما يجري من حولي. واستعدت صوتي، وشهيتي؛ وبريقاً في عيني، على ما

يبدو، كان يتراءى مخمداً حتى ذلك الوقت. وصرت أسمع إلى الراديو لمعرفة الموقع الذي تجري فيه المعارك اليومية. واستأنفت القراءة. واستـأنفت العيش. وكل ذلك بفضل قذيفة كان الغرض منها القتل».

«ثم توفي والداي، وقد فصلت ستة أشهر بين وفاة الواحد منهما والآخر. والدتي أولاً، جراء إصابتها بورم سرطاني، ثم والدي، حزناً عليها. كان شقيقاي في كندا، وكلاهما في فانكوفر، ويريدان أن أوافيهما. ولكني لم أشعر لا بالرغبة ولا بالشجاعة للبدء من نقطة الصفر، ففضلت استرجاع هذا العقار الذي كان مهملاً، وحولته إلى فندق».

«وهذه المرة، تعرفان كل شيء. لقد حكيت لكما الحرب. والآن جاء دوركما. إنني أصغي إليكما، الواحد أو الآخر...».

سألها نعيم، كما لو أنه لم يسمع، مجيلاً الطرف من حوله بشيء من التشكيك:

«وهل تعيشين من فندقك؟».

«فلنقل إني لا أخسر الكثير منذ خمس أو ست سنوات. ولكني لا أعيش فقط من ذلك».

«ممّ تعيشين؟».

فالتفتت سميراميس نحو آدم.

«هل كان صديقك دوماً بهذه اللجاجة؟».

تنهد آدم: «أجل. كنت قد نسيت طبعه قليلاً، وأظن أنه لطالما كان

كذلك، حتى حين كان وزنه أقل بأربعين كيلو. يمكنك أن ترفضي الرد إذا كان لديك ما تخفينه».

«أنتما لا تطاقان، ولكن ليس لدي ما أخفيه. أعيش من المال الذي تركه لي والدي. لقد غادر مصر ومعه ثروة صغيرة».

أعرب نعيم عن دهشته: «أحقاً؟ إنه الوحيد بالفعل! فجميع اليهود الذين أتوا من مصر في الخمسينيات والستينيات لم يصطحبوا أكثر من ثيابهم».

أكدت سميراميس: «وغير اليهود كذلك. ولكن أبي حالفه الحظ. وآدم يعرف القصة، ولن أزعجه فأقصها مرة ثانية».

«بلى، إحكيها، فلن أنزعج».

فحكت «الحماقة الكبيرة» التي ارتكبها والدها، وأرغمته على بيع جميع ممتلكاته والهرب من مصر قبل حملات التأميم ومصادرة الممتلكات. بدا نعيم منبهراً. ولما فرغت من قصتها، سألها:

«أتأذنين لي بسرد هذه القصة في صحيفتي؟».

«إذا لم تنشر الأسماء الحقيقية، فلا مانع لدي».

«أذكرك أن هذه الحادثة جرت منذ حوالى نصف قرن، وأن عبد الناصر توفي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. هذا، وبوسعي تغيير الأسماء، إذا كان ذلك يطمئنك...».

«المرة الوحيدة التي حكى فيها والدي هذه القصة أمام أشخاص غرباء، ادعى أن ذلك حصل لأحد عدلائه، وليس له. وأستنتج من ذلك

أنه لم يكن ليرغب بأن يذكر اسمه. ربما بدل موقفه لو كان لا يزال على قيد الحياة، ولكن فات الأوان لسؤاله».

«لا بأس، سأغير الأسماء...».

فانقضت سميراميس، وقد سرَّها كثيراً أن تحول الاستجواب إلى شخص غيرها: «أستنتج من كلامك أنك صحفي».

«ألم تكوني على علم بذلك؟».

«بلى، صدقاً، كنت على علم، ولكني لا أعرف المزيد. فابدأ إذن من البداية. ركبت الطائرة مع والديك، ووصلتما إلى ساو باولو. وبعدين؟».

رفع البرازيلي كأسه، وقرع كأسه مع صديقيه، ثم رطب حلقه مطولاً بمشروبه البارد الحليبي الهيئة.

«لا أشعر بنفسي قادراً على سرد قصة حياتي بعد يومي سفر وكأسي عرق طافحين. ولكني سأشير إلى الخطوط العريضة. وصلت إلى هناك، فاستأنفت دراستي، والتحقت بكلية الإعلام، وتوظفت في مجلة أسبوعية اقتصادية. وفي السنة نفسها، تزوجت. كنت في الثالثة والعشرين. ولا أزال أعمل صحفياً، ولا أزال متزوجاً».

سألت سميراميس: «المرأة نفسها؟».

«المرأة نفسها».

«أهي برازيلية؟».

«أجل، برازيلية».

«ويهودية؟».

«هذا ما كانت تظنه أمي. فقد سألتني: «أهي يهودية؟».فاكتفيت بالرد: «أمي، اسمها راشيل». وفي الواقع، اسمها راشيل، أو بالأحرى «راكيل»، على الطريقة البرازيلية، ولكنها كاثوليكية تماماً. لم تنتبه أمي لما حصل. ولقد حافظت على سوء التفاهم حتى عشية زواجنا».

قال آدم: «كان يجدر بك أن تصطحبها معك لتقدمها لنا».

«ليس بوسع راكيل أبداً التغيب مثلي بدافع نزوة. فلديها مطعم في ساو باولو، مطعم راكيل، وهو من أفضل مطاعم المدينة. وتمضي فيه كل نهاراتها ولياليها، وهي مقتنعة بأن جميع الزبائن سيكفون عن ارتياده إذا ما ابتعدت عنه أسبوعاً. وتظن أن لا غنى عنها، وأظن أن ذلك لا يخلو من المبالغة»...

واستفسرت سميراميس: «وهل يحصل أن تساعدها؟».

«أتقصدين في المطعم؟ أجل، بالتأكيد. على طريقتي. عندما تخترع وصفة جديدة، أكون أول من يتذوقها. وإذا قلت لها «إنها رائعة!»، تضيفها إلى قائمة الطعام؛ وإذا قلت لها «لا بأس بها»، تهملها».

سخر آدم: «لا غنى عن دورك بالفعل».

وأضافت مضيفتهما: «أرجو أنها تدفع لك لقاء عملك!».

قال آدم: «بالطبع تدفع له. تدفع له كليوغرامات زائدة. أنظري إليه!».

«زاد وزني بالفعل، إنما ليس بسبب راكيل. فما دمنا معاً، أمسكُ عن الطعام، ولكني أفرط في تناوله أثناء السفر. حين أذهب في مهمة

صحفية، لا متعة تضاهي لدي حجز طاولة في مطعم جيد، وطلب وجبة دسمة، وكوب كبير من البيرة، وكتابة مقالي أثناء تناول الطعام. ثلاثة سطور، لقمة، ثلاثة سطور أخرى، رشفة. تحضرني الأفكار بسهولة، فأعمل وإحساس من الغبطة يغمرني».

تمتم آدم: «انظري إليه كيف يتحدث عن الأمر!».

واعترف نعيم: «لن أبرأ من نهمي، ولا أخجل من ذلك. فما أجملها من نعمة تغدقها السماء على المرء حين يعشق تناول الطعام! في الصباح، توقظك رائحة القهوة المحمَّصة. إنها رائحة البرازيل، وهي أجمل رائحة في العالم. فيتعدل مزاجك، وتقول لنفسك إنك ستتناول ثلاث ولائم قبل نهاية اليوم. ثلاثة أعياد يومية! ألف ومئة عيد سنوياً! من قال إن النهم خطيئة؟ إنه هدية من السماء! إنه بركة! وإنه فن! ألا تصدقاني؟».

برطم آدم: «بلى، بالتأكيد. إنه أجمل زواج بين الرهافة والبهيمية».

وتابع نعيم قائلاً، مصراً على ذنوبه: «سأعترف لكما. وأعلم أنكما ستحولان براءتي ضدي، ولكني سأعترف لكما رغم ذلك: لم أعرف في حياتي أن أتوقف عن الأكل. لا أشبع أبداً. أتوقف حين تفرغ جميع الأطباق من محتواها، أو حين أضطر لمغادرة المائدة».

أشار آدم، مقطباً جبينه: «مهلاً، نعيم، أنت تقلقني. فأنت تصف حالة مرضية. فإذا كنت لا تشعر أبداً بالشبع...».

استأنف نعيم الكلام: «لا تجزعْ. أعلم تماماً ما هو دائي. إنها

متلازمة حميدة نسبياً، يطلق عليها اسم «الأم اليهودية». في صغري، كانت والدتي تتخمني بكل ما للكلمة من معنى. كنت لا آكل حين أجوع بل حين تطلب إلي أن أفتح فمي. ولا أتوقف عن الأكل حين أشبع بل حين تكف عن ملء ملعقتي. بالنسبة إليها، هناك نوعان من الأطفال، الهزيلون والأصحاء. وكان الهزيلون عاراً على أمهاتهم، والأصحاء مدعاة فخر لهن».

«كان بوسع الأمر أن يجعلني أتقزز من الطعام، ولكن ذلك لم يحدث. كنت أتلذذ بكل لقمة، ولا أرغب أبداً بأن يتوقف ذلك. وكبرت واستمر ذلك. كانت أمي تقول لي على الدوام إنني ألوح لها عليلاً، وإنني لا آكل بما فيه الكفاية. لم أشأ معارضتها، فصرت أسكب وأعيد السكب إلى أن تفرغ جميع الأطباق. والنتيجة أني لم أعرف قطّ التوقف عن الأكل. بوسعي الأكل إلى ما لا نهاية، بشرط أن يكون الطعام لذيذاً، بالطبع».

قال آدم متهكماً: «بالطبع»، قبل أن يضيف، وكأسه بيده: «أفهم من كلامك أن كيلوغراماتك الأربعين الزائدة ليست بسبب شراهتك، بل بسبب عناية أمك».

«إسخرْ ما شئت! ولكنها الحقيقة بعينها. لقد عانيت من مشاكل خطيرة بسببها. لطالما عشقتها وسأظل، ولكني متبصر. وما حكيته لكما توّاً بشأن الطعام ينطبق كذلك على مجالات أخرى».

اقترحت سميراميس همساً: «الجنس!».

قال نعيم: «كلا، ليس الجنس! بل أسوأ من ذلك!».

سأل آدم بصوت دوَّى على حين غرة، فالتفت الزبائن الجالسون على الموائد المجاورة: «ما هو الأسوأ من الجنس؟».

اضطرت سميراميس لتوجيه ابتسامات محرجة للزبائن الآخرين.

دوَّن آدم في مفكرته في نهاية النهار : لم يوضح لنا صديقنا المتاعب الأخرى التي تسببت له بها والدته اليهودية. ففيما كنا مسمرين إلى شفتيه، أغمض نعيم جفنيه وغرق في النوم، منتصب القامة، مثل المرموط.

ولما بدأ البرازيلي يتهاوى على كرسيه، لمست سميراميس برقة ظاهر يده، مرتين، وثلاث مرات. ففتح عينيه مجدداً.

«هل أنت على ما يرام؟».

«أنا على خير ما يرام! لم تفتني كلمة واحدة من حديثكما».

قال له آدم: «حديثنا! لم نفتح فمنا. وكان آخر من تكلم بيننا أنت».

«وماذا كنت أقول؟».

لقنته مضيفتهما بمحبة: «كنت تقول لنا إنك تود الذهاب إلى غرفتك».

فأومأ نعيم برأسه موافقاً على كلامها.

اعتذر قائلاً: «لم أنم كثيراً الليلة الماضية».

قال له آدم: «وأنا كذلك». ثم أضاف، بعدم اكتراث: «في الدير، كانوا يوقظوننا عند الفجر».

فرمقني نعيم بنظرة من الحيرة التامة. وقطبت سمي حاجبيها، معتبرة بالضبط أني أستفيد من نعاس صديقنا لزرع البلبلة في ذهنه. فلم أضفْ شيئاً. وأغمض عينيه مجدداً. فلمست «سيدة القصر» يده ثانية.

توسل إلينا نعيم بنفسه الشكسبيري الأخير لهذا اليوم: «مملكتي لمن يحملني إلى سريري».

ومع ذلك، فحالما نهض، استطاع نزول الدرجات والتوجه إلى غرفته بدون مساعدتنا.

اليوم الثالث عشر

1

عندما فتح آدم عينيه، وجد أن أحدهم مرر رسالة تحت باب غرفته. كانت سميراميس تطلب إليه أن يذهب لتناول الترويقة على شرفتها حالما يستيقظ. وقد وجهت الدعوة نفسها لنعيم الذي كان قد سبقه، وراح يقضم خبزاً بالتين.

علّق صديقه: «عندما أغمضت عيني البارحة، كان يأكل. وفتحتهما هذا الصباح، وهو لا يزال يأكل!».

كان الأكول يهمُّ بالرد عليه، ولكن مضيفتهما استبقت الرد:

«ستخوضان معارك الديكة فيما بعد! كنا نعدُّ برنامجنا لهذا الصباح. يريد نعيم زيارة البيت الذي كان والداه يستأجرانه في الصيف. لا يبعد عنا سوى نصف ساعة. سأرافقكما».

وعد البرازيلي: «لن أطيل البقاء هناك. أود فقط التأكد من أن ذكرياتي تطابق الحقيقة، أم أنني قمت بتجميلها».

حذرته سميراميس: «إذا كان هذا هو القصد، فتهيأ من الآن لما سيصيبك من خيبة. فحتى لو طابقت ذكرياتك حقيقة الأمس، فهي لا تطابق بالتأكيد حقيقة اليوم».

«لا بأس يا سمي، أعلم ماذا ينتظرني. فزيارة مراتع الطفولة

ممارسة ماسوشية. يسعى المرء للإصابة بخيبة الأمل، ولا يفاجأ، بل يخيب أمله بالفعل».

كان البيت الشهير مخيباً للآمال بالفعل، فجدرانه الخارجية توحي بأنها لم تعرف الطلاء يوماً، ولا شبابيكه كذلك. كان سقفه منخفضاً ومسطحاً، ومدخله على مسافة مترين من طريق عريضة، تمر عليها شاحنات هدارة. كانت تفوح في الهواء رائحة المازوت والزيت المحترق.

وحالما تعرف نعيم إلى البيت، ركنت سميراميس أمامه. وانقضت حينئذ دقائق من الحيرة. كان «الحاج» ينظر عبر النافذة، بدون أن يحسم أمره بالخروج من السيارة. وانتظره صديقاه وهما يراقبانه خلسة، بصمت متعاطف. وأعلن أخيراً، وهو يحاول أن يظهر مرحاً أكثر منه حزيناً:

«لقد فقد معالمه».

كان من الصعب مخالفته الرأي.

أطلق آدم تنهداً مواسياً: «مرَّت الحرب من هنا».

قال نعيم: «ليست الحرب هي المشكلة، بل الطريق. في الماضي، كانت طريقاً ترابية صغيرة. وأمام البيت فناء صغير مسيج، وبوابة من الحديد المطروق وممر يبلغ طوله بضعة أمتار يفضي إلى الباب الذي تلمحانه. أما الآن فقد أكلت الطريق الممر والفناء الصغير والسياج والبوابة».

«كل سنة، لدى وصولنا، في مطلع تموز، يتكرر طقس لا يتغير. ينتظرنا صاحب البيت. كنا ندعوه بتهذيب أستاذ حليم. كان موظفاً في الجمارك، ويأتي دوماً مرتدياً بدلة وربطة عنق. نعهد إليه بالمفاتيح، لكي يفتح الباب بنفسه؛ كان يرحب بنا رسمياً، ويرجع لنا علاقة المفاتيح. ثم يناوله والدي مغلفاً يحتوي على الإيجار السنوي. ويبدأ الآخر يقول:«ما في شي مستعجل!»؛ ثم «يوم تاني!»، ولما يصر أبي للمرة الثالثة يتناول المبلغ ويضعه بدون أن يعدَّه في جيب سترته».

«وعندما ينصرف صاحب البيت، تخرج والدتي إلى الجنينة وتقول على الدوام: «إنها غابة عذراء!» فيرد والدي، على الدوام أيضاً: «هذا أفضل! سيشذِّبها نعيم، فتشتد عضلاته!»ولكنها كانت مجرد دعابة، فقلما اشتغلت في الجنينة».

«أين جنينتك؟».

«في الجهة الأخرى. هيا بنا لنراها».

لم تعد جنينة البيت الصيفي تتميز عن غابة الصنوبر التي تحيط بها. كانت الجدران تمتد عبر جدار صغير من الباطون لا يلوح كحاجز بل كمصطبة. فجلس عليه الأصدقاء الثلاثة، تحميهم من الشمس شجرة وارفة الأغصان. وعلى الفور، تبدد انطباعهم الأول. شعروا، وقد تلاصقت أردافهم، وتدلت أقدامهم، وهم يتنشقون رائحة الصنوبر المسكرة، بالرقة البرية لمرتع الطفولة ذلك.

«كان أستاذ حليم يعود لرؤية والدي مرتين أو ثلاث مرات في

الصيف. فيتناولان القهوة معاً، ويتصفحان كتباً قديمة. ويقول مالك بيتنا: «في هذه الضيعة، لا نعرف المسلم من اليهودي من المسيحي. أليس كذلك؟».كان والدي يوافقه الرأي بإيماءة من الرأس. وبالطبع، لم يكن ذلك صحيحاً، ولا أحد منهما يجهل ذلك. وحين نلتقي أحدهم في الشارع، نعرف دوماً، وغريزياً، إلى أي طائفة ينتمي، إنما كان يطيب سماع هذا الكلام، لأن النية كانت سليمة».

وافقت سميراميس على كلامه: «كانت كذبة متحضرة. واليوم، تسمع الناس يقولون: «أنا، بوصفي مسيحياً، أعتقد كذا، وأنا، بوصفي مسلماً، أعتقد كيت». وبودي دوماً أن أقول لهم: «عار عليكم! حتى لو كنتم تفكرون حسب طائفتكم، فتظاهروا على الأقل بأنكم تفكرون بنفسكم!» فليتحلوا على الأقل بلباقة الكذب».

وأضاف آدم: «كانت تلك الأكاذيب القديمة بالفعل أكثر لباقة من «صراحة» اليوم. كان الناس يفكرون حسب انتماءاتهم، وليس بوسعهم أن يمتنعوا عن القيام بذلك. ولكنهم يعرفون أن ذلك معيب، وأنه يجدر بهم الشعور بالخجل. فكانوا يكذبون. ومن خلال أكاذيبهم الشفافة، يظهرون أن بوسعهم التمييز بين سلوكهم الفعلي وسلوكهم المرجو. واليوم، يتفوه الناس عالياً بما يضمرون، ولا يطيب جداً سماع ما يقولونه، لا في هذا البلد، ولا في سائر بلدان العالم».

أكدت سميراميس: «يجدر بهم على الأقل الاعتذار، ولكن ذلك لا يخطر حتى ببالهم. يتصرف الجميع من حولهم على هذا النحو،

فيتخيلون أنه الموقف الطبيعي، ويتباهون بذلك، عوضاً عن الإحساس بالخجل».

تدخل نعيم: «يا صديقيَّ العزيزين، لا أريد أن أكون نذير شؤم. ولكن، في سنكما، يجب أن تعلما بأن زمن الحياء قد ولى، أو لنقل الأمور بفظاظة: لقد مات الحياء».

تلقف آدم الجملة المدوية لصديقه بالابتسامة الواجبة، قبل أن يسأله:

«برأيك، متى مات؟».

قال نعيم بثقة، وكأن الأمر يتعلق بحقيقة مؤكدة: «1914. في عام 1914، مات الحياء. وغني عن القول إن التاريخ لم يشهد يوماً حقبة خالية من العيوب أو شعباً كامل الأوصاف، والحق يقال أيضاً إن الحياء ليس الميزة الرئيسية لصنفنا. هذا، وأنا أرى أن كل ما جرى قبل 1914 يدخل في فئة خطايا الشباب».

«فقبل ذلك التاريخ، كانت البشرية عاجزة. وألد أعدائها هي الكوارث الطبيعية؛ وكان الطب يفتك بالناس أكثر مما يعتني بهم، وكانت التكنولوجيا الطبية في بداياتها. وفي عام 1914، بدأت المصائب الكبرى التي هي من صنع البشر: الحرب الكونية، وغاز الخردل، وثورة أكتوبر...».

أشارت سميراميس: «لم تكن تقول ذلك دوماً عن الشيوعية!».

«كلا، هذا صحيح، في شبابي كان رأيي مختلفاً. أما اليوم، ومع

المسافة، إني على ثقة بأنها كانت كارثة من الطراز الأول. ذلك التوق العارم لتحقيق المساواة بين البشر الذي جرى تحويله لمصلحة مشروع لئيم وتوتاليتاري! لا نزال ندفع الثمن! مع مذبحة الخنادق ومعاهدة فرساي - وهي الوالدة المخاتلة لجميع الحروب اللاحقة-، في غضون خمس سنوات بالكاد، زرع الديكور. ولم نتخلص منها قطّ، وهي أصل كل البلاء الذي حل علينا بعد ذلك. في المشرق، وفي أوروبا الوسطى، وفي الشرق الأقصى، وأينما كان. ألا يوافقنا مؤرخنا المرموق الرأي؟».

أجاب آدم: «نعم ولا»، مثيراً لدى صديقيه غمزات متواطئة وضحكات ساخرة. ولكنهما تركاه يستجمع أفكاره. «أعتقد أن القرن المنتهي شهد عقيدتين مدمرتين: الشيوعية ومناهضة الشيوعية. الأولى شوَّهت، والحق يقال، فكرة المساواة، وفكرة التقدم، وفكرة الثورة، ومفاهيم كثيرة أخرى كان يجدر بها أن تكون محترمة. ولكن محصلة الثانية أسوأ. فلكثرة ما قيل: «موسوليني ولا لينين»، «هتلر ولا ستالين»، «الاشتراكية القومية ولا الجبهة الوطنية»، ترك العالم بأسره ينغمس في الدناءة والهمجية».

أقر نعيم: «لست مخطئاً، إلا أن مناهضة الشيوعية لم تكن عقيدتي قطّ، أما مبادئ الشيوعية فقد آمنت بها، وآمنا بها جميعاً. لقد اعتنقنا تلك العقيدة لأسباب مشرفة، وتعرضنا للخيانة».

خطر ببال آدم تشبيه مماثل.

فقال: «مصيرنا أن نتعرض للخيانة من جانب معتقداتنا، وأصدقائنا، وجسدنا، والحياة، والتاريخ...».

لزم رفيقاه الصمت لثوان معدودة، ثم قفز نعيم على الأرض بقوة معلناً بمرح مفتعل بعض الشيء:

«هيا بنا، فلننصرف! لقد حصلت على ربع ساعتي من الحزن. أتيت، رأيت، وخاب أملي. والآن، لنستأنف طريقنا. وفي جميع الأحوال، لا أزال أفضل كوخي في البرازيل».

تدخل آدم: «كلا، إنتظر، لا تستعجل!. أظن أني أعرف بأن هذا البيت كان يستقبل فيما مضى لقاءات في غاية التهتك، وأرغب بأن تحدثنا عن ذلك. ولهذا السبب، رافقتك. سمي، ألا توافقينني الرأي؟».

فأضاء وجه نعيم بابتسامة طفولية، وكأنه يستحضر صور الأمس، وخطر ببال صديقيه أنه سيستهل حكاية طويلة للغاية بحكم ما يعرف عن ثرثرته الأسطورية. ولكن تلك لم تكن نيته.

«آدم، لا أمانع أن أكشف لك عن أسراري. ولكن ثمة ما يحيرني منذ مساء البارحة».

التفت إلى سميراميس وشهّدها على كلامه:

«ألا تستغربين أن صديقنا الموجود ها هنا يحملنا على سرد قصة حياتنا، أنا وأنت، بما في ذلك التفاصيل الشخصية، والأكثر حميمية، ويضنُّ علينا بالبوح؟».

دافع آدم عن نفسه: «بالكاد التقينا، ولدينا كل الوقت».

«سمي وأنا، كان لدينا كل الوقت، وأنت لا! لقد حدثتكما عن شراهتي، وعن عيوب زوجتي، وعيوب أمي. وحدثتنا سمي عن اكتئابها، وكيف تخلصت منه. وأنت، لم تقلْ لنا شيئاً. لم تبحْ لنا بسر واحد! لا أعرف عنك سوى أنك تدرس التاريخ وأنه يُفترض أنك تؤلف السيرة الذاتية لأتيلا. ولكني لا أعرف شيئاً عن حياتك الشخصية! لن أحاكمك، ولكنه عيب لاحظته عندك منذ فترة طويلة. ربما يجدر بك التفكير بتصحيحه قبل أن نخرف نحن الثلاثة».

وأضافت سميراميس، كما لو أنهما اتفقا ضده.

«آدم، هذا صحيح. يجب أن يكون البوح متبادلاً. لقد اصطحبنا نعيم لرؤية بيته القديم في الجبل، ويجدر بك أن تصطحبنا لرؤية بيتك. نعلم أنه موجود، ويجب أن نراه في يوم من الأيام. فإما الآن وإمّا أبداً، ألا توافقني الرأي؟».

2

الأربعاء 2 أيار

لا أدري إذا كان صديقاي قد اتفقا على ذلك مسبقاً، أم أن ذلك خطر ببالهما في اللحظة نفسها، ولكن طلبهما كان حازماً، وشعرت بأنه لن يكون بوسعي أن أتنصل من تلبيته.

لم يكن عتابهما بلا مبرر. فالحق يقال إني عهدت، منذ الصغر، استدراج الآخرين للبوح بقصصهم بدون أن أروي لهم شيئاً يذكر بالمقابل. وهذا عيب أعترف به عن طيب خاطر لا سيما وأنه ناشىء عن خصلة حميدة. فأنا أستمتع بالاستماع إلى الآخرين، وأمخر بفكري عباب قصصهم، وأتبنى معضلاتهم. بيد أن الإصغاء، وهو موقف سخي، قد يستحيل موقفاً ضارياً إذا تغذى المرء من تجربة الآخرين وحرمهم من تجربته.

وإزاء تمرد صديقيَّ القديمين، لم يكن بوسعي سوى الإذعان. وعلى أي حال، لم يكن لسلوكي دافع آخر سوى الخجل والحياء. فلطالما خلتُ أن قصصي لا يمكن أن تثير اهتمام أحد. وعندما يؤكد

لي الآخرون العكس، ويستحلفونني أن أحكيها لهم، أقبل عن طيب خاطر. ليس لدي ما أخفيه، أو بالأحرى، بلى، لدي ما أخفيه، إنما ليس عن الآخرين أكثر مما عن نفسي.

في الواقع، فإذا تجنبت على الدوام الحديث عن بيت طفولتي، فلأني كنت أجهد بكل بساطة لعدم التفكير فيه.

غير أن الأمر استوجب اليوم أن أفعل ذلك غصباً عني. فأوضحت لسميراميس طريق الضيعة، ثم وبعد لحظات من الحيرة، لمحت في نهاية المطاف هيئة «بيتي».

لمحه صديقاي، اتسعت عيونهما دهشة. كان بيتاً فخماً، وكأنه يتحدّاني. راحت سمي تردد: «ولكنه قصر!»، ونعيم: «أكنت تخجل من هذا؟ أهذا هو البيت الذي تخفيه عنا منذ ثلاثين عاماً؟ كل هذا الكلام صحيح. إنه يشبه القصر، وكان يجدر بي أن أفخر به، ولكني أشعر بالخجل لأني فقدته.

تبدل الوضع وأنا في الثانية عشرة والنصف من العمر. حتى ذلك الحين، كان هذا البيت بالنسبة إليّ محور العالم. فجميع أصدقاء الطفولة يعرفونه جيداً، وكنت أستمتع بدعوتهم إليه. ويتملكني الشعور بأني أطلعهم على أفضل ما لدي. كان موقفي ينطوي على الزهو والتبجح، وربما كذلك على ما يعرف بالغطرسة الطبقية. ولكنها ظلت حتى مرحلة المراهقة مجرد خطايا تغتفر يحتاجها المرء للشعور بأنه يتمتع بمكانة في هذا العالم، وبأنه ليس دخيلاً.

لكم يطيب للمرء أن يكبر وهو يشعر بأن ثمة بلداً ملكه، وبأنه يحق له أن يتكلم فيه بصوت عال! في هذا البيت، كان لدي ذلك الشعور، وفيما بعد، فقدته. لو كان هذا البيت لا يزال ملكاً لي في بداية الحرب، لا أعرف ما كنت مستعداً للقيام به لئلا يضيع مني. لم تطرح هذه المسألة نفسها، فقد أعفيت من مواجهة المعضلة. وبعد كل ما جرى، يجدر بي أن أهنىء نفسي، ولكني لطالما عشت هذا الوضع كلعنة. كنت أحسد مراد الذي احتفظ ببيت أجداده؛ والآن، يجدر بي أن أرثي لحاله. ففي نهاية المطاف، أنا الذي دللني القدر . ولكن استغرق بي الأمر وقتاً طويلاً لإدراك ذلك.

كان والداي يعشقان بيتهما، لا بل كان بوسع المرء القول إن لديهما طفلين، البيت وأنا.

لم يرثه والدي عن أبيه فحسب. فلقد ظل لفترة طويلة في حالة مشاع يتوزع على حوالى عشرين نسيباً أبى أي منهم التخلي عنه، ولكن لا أحد منهم كذلك شاء الاهتمام به. فاشتراه أبي منهم، مثلما كانت النفوس التقية تشتري فيما مضى أبناء دينها الذين استرقهم الكافرون. واستدان لشراء حصص الأنسباء، ثم استدان أيضاً لإنجاز أعمال الترميم التي لم تكن تنتهي قطّ. كان مهندساً معمارياً، ويريد أن يحول بيته إلى تحفة حياته المهنية وكذلك إلى بطاقة تعريفية عملياً. فمما لا شك فيه أن من سيشاهدونه سيرغبون بامتلاك بيت مثله.

صممه على شكل بناءين متماثلين، يبعد كل منهما عن الآخر نحو عشرة أمتار، أحدهما عتيق ومرمم، والثاني أعيد بناؤه على النسق نفسه، وقد غطت الاثنين عريشة برية. كان هذان الجناحان يتصلان في ما بينهما بثلاثة أساليب مختلفة: في الطابق الأول عن طريق صالون معلق، يضم واجهات زجاجية كبيرة تشرف من جهة على الجبل، ومن جهة أخرى على الوادي؛ وبالتربة عن طريق ممر زرعت على أطرافه الأزهار؛ وبجوف الأرض عن طريق نفق. وبالنسبة إلى والدي كما بالنسبة إليّ، كان أكثر من بيت، كان مملكة، وبالتأكيد موضع فخر واعتزاز.

هل ذكرت الغطرسة الطبقية؟ كان ذلك، من جهتي، إماتة للنفس غير مبررة، تكاد تشكل إهانة لأهلي. فخاصية البيت لم تكن ضخامته أو زخرفاته الذهبية بل أناقته. لم يكن الأمر يتعلق باستعراض فاحش بل ببيان جمالي. كان أمي وأبي يتمتعان على السواء بذوق أصيل ومرهف، وبيتهما نتاج عشقهما للجمال، ولعشقهما فحسب.

كانت حياتهما بهيجة، وكنت أول الشهود عليها، وأول المعجبين بها، وأول المستفيدين منها. ولذلك، كان الانهيار أكثر قسوة.

ستتبدل كل الأمور في غضون دقائق معدودة، فوق بحر عُمان. تحطمت الطائرة التي تقل والديّ في عرض البحر، وتحطمت حياتي في إثرها.

حدث ذلك في آب 1966. قررت شركة للطيران تدشين رحلة

بدون توقف إلى كاراتشي؛ وترويجاً لهذا الحدث دعت عدداً من الشخصيات المرموقة. كان أبي وأمي فخورين بأن الخيار وقع عليهما، فذلك يشكل اعترافاً بما يتمتعان به من مكانة اجتماعية في البلد. ولا أزال أستحضر مشهدهما وهما يعدان حقائبهما، فرحين، مبتهجين، منبهرين سلفاً بما سيشاهدانه، وبدون أن يعتريهما أيما تخوف أو أيما هاجس بأن شيئاً ما سيحدث.

كانت رحلة ليلية. أقلعت عند المساء، وكان يُفترض أن تصل إلى وجهتها مع خيوط الصباح الأولى. أوصلهما جدي، والد أمي، إلى المطار، وقد رافقته. وبقينا هناك إلى أن أقلعت الطائرة، ثم توارت عند خط الأفق. لم أشعر بدوري بأي حدس داخلي. تأسّفت فقط لأني لم أتلق دعوة لمرافقتهما.

وبالعودة إلى البيت، أمضيت جزءاً كبيراً من الليل في القراءة، كما كنت أفعل خلال أشهر الصيف، وربما سهرت أكثر من العادة، بما أن والديّ لم يكونا موجودين لمراقبتي.

ولدى استيقاظي من النوم، قبيل الظهر، سمعت أصواتاً غير معهودة. كان البيت يبدو وكأن حشداً طناناً قد اجتاحه. خرجت من غرفتي لأعرف من جاء لزيارتنا، ومن أسلوب الناس في النظر إلي، ولا سيما أسلوب نساء الضيعة في احتضاني، أدركت أن مأساة قد وقعت.

وكما لو أن مأساة واحدة لا تكفي، فقد وقعت على الفور مأساة أخرى: كنت مفلساً، وقد أبلغت بذلك بعد انقضاء شهر. وبصفتي

وريثهما الوحيد، كنت لا ريب أملك البيت الذي يساوي «ثروة»، ولكن هناك دين للبنك يساوي ضعف تلك «الثروة». لم يحتط أبي للغد. ولماذا يحتاط أصلاً؟ فمفكرة طلبياته كانت مليئة، وكان يكسب المال الوفير، وهو في عزّ شبابه. وبالوتيرة التي كان يعمل بها، كان بوسعه أن يسدد ديونه خلال عامين أو ثلاثة أعوام. غير أن كل شيء تداعى بالطبع، لحظة وافته المنية. فلا إيرادات، وبالكاد بعض المال في حساباته المصرفية، ولا تأمين على الحياة...

أرغيت وأزبدت كثيراً في شبابي ضد أصحاب المصارف، وفي تلك الفترة، كنت أستشيط غضباً، بل مما لا شك فيه على الإطلاق أني أصبحت أعتبر نفسي ماركسياً لهذا السبب في سن الرابعة عشرة. وفيما بعد، صرت أبحث عن مبررات فكرية، إنما كان الدافع هو الغضب حينذاك. ولقد أوضح لي محامي العائلة أن لا خيار آخر أمامي سوى تسليم البيت للمصرف لتسديد الدين. ولقد نقمت عليه أيضاً وعلى جميع المحامين في العالم، ولكني أدرك اليوم أنه تفاوض على أفضل تسوية ممكنة لمصلحتي. وفي ما عدا البيت، كنت لا أملك شيئاً على الإطلاق. وبدون والدي لم يعد «مكتبنا» للهندسة المعمارية يساوي شيئاً؛ فمقره ليس ملكاً له، وعما قريب لن يكون بوسعي أن أسدد إيجاره. حصل المحامي من البنك على تسوية تقضي بأن يلغي البنك ديناً بقيمة مليون ومئتي ألف ليرة ببيت تساوي قيمته نصف ذلك المبلغ، وأن يترك لي مبلغاً بسيطاً لكي أعيش بمأمن من العوز.

غير أني لم أكن أرى الأمور من هذا المنظار في تلك الفترة. كنت ساخطاً على المحامين والبنوك، وعلى المهندسين المعماريين، وعلى شركات الطيران، وعلى السماء... وبدافع الغيظ، لم أشأ أن أصطحب شيئاً حين غادرت البيت، ولا حتى كتبي. وذهبت للعيش عند جدي وجدتي لأمي. ولا أدري كم من الوقت بكيت أهلي وبيتي وتطلعاتي للمستقبل. كنت لا أطاق على الأرجح، وتطلب الأمر صبر «الختيارين» وصلابتهما وحبهما لكي أعاود العيش من جديد.

لم أشأ الحديث عن كل ذلك قطّ، ولم أسع ولو مرة واحدة لزيارة «بيتنا»، ولا حتى للمرور أمامه. كم من مرة سلكت طرقاً جانبية لئلا ألمحه. وقبل أن أقبل الرجوع إليه، استوجب الأمر أن يلح سمي ونعيم عليّ، وتطلب الأمر الحرب والمنفى، وتطلب الأمر أيضاً أن ينقضي ثلث قرن، وأن تدجن الحياة بهدوء المراهق الساخط الذي كان يفور دمه في أعماقي.

فعدت اليوم إلى البيت المفقود، في حج قسري. ولما لمحته من الخارج، غص حلقي. وبدون أن أنبس ببنت شفة، أشرت إليه بيدي. «أذلك هو؟» أومأت برأسي إيجاباً. سألني نعيم: «أكنت تخجل بهذا؟ أذلك هو البيت الذي كنت تخفيه عنا..». فرحت أنتحب مثل الطفل. فأحس صديقاي بالخجل، واعتذرا لأنهما ألحا عليّ بالمجيء. فحكيت لهما كل القصة، أو تقريباً: حياتي السابقة، وحادثة تحطم الطائرة، ورحيلي عن هذا البيت الذي كان أول منفى أعيشه...

قالت لي سمي: «لم نكن نعرف».

ومسحت بيدها على شعري، ثم انحنت عليّ وطبعت قبلة على جبيني. لم نكن قد ترجلنا بعد. كنت جالساً قربها، على المقعد الأمامي. وكان نعيم جالساً في المقعد الخلفي. قال لي:

«واستطعت أن تكتم ذلك في بطنك طوال تلك السنوات؟».

أجبته باقتضاب:

«استطعت».

وبدون سبب مفهوم، رحت أضحك. وكذلك ضحك صديقاي. كنا بحاجة نحن الثلاثة لذلك. فقد كنا على مفترق التفجع العاطفي ولم يرغب أي منا بالانزلاق فيه. وساعدنا الضحك على أن تغرورق عيوننا بدون أن نحتاج للتمييز بين دموع الحزن، والفرح، والحنين، والتعاطف؛ أو الصداقة بكل بساطة.

انقضت دقائق صاخبة معدودة، قبل أن أختم قائلاً:

«حتى الآن، كان جدي وجدتي، ومربيتي العجوز، والمحامي، ومدير البنك الوحيدين الذين يعرفون قصتي، ولقد وافتهم جميعاً المنية. ولم يسبق لي أن حكيتها أبداً من قبل. إنها المرة الأولى، وستكون الأخيرة».

قالت سمي، بعذوبة عنيدة: «لست متأكدة من أنها ستكون المرة الأخيرة. فقد انهار السد، ولن يكون بوسعك أن تحول دون تدفق المياه».

لدى سماع تلك الكلمات، وتخيل تلك الصورة، عاودت البكاء بغباء. لم تعرف صديقتي كيف تعتذر مني، وكيف تواسيني. فوضعت رأسي على صدرها، وراحت من جديد تخلل أصابعها في شعري، وتمررها على رقبتي.

غمغم نعيم، وكأنه يكلم نفسه: «لو عرفت أن تلك ستكون المكافأة، لوجدت عذراً للبكاء، بدوري».

ومن جديد، انتقلنا من البكاء إلى الضحك. ثم تابعت الكلام:

«لن أحكي لكما قصصاً عن الفردوس المفقود، ولكن ذلك هو بالضبط الشعور الذي أحتفظ به. إنه فردوس طردت منه، مثل سلفي الذي أحمل اسمه، إنما ليس بسبب خطيئة، بل بسبب حادث».

«كانت رؤية والديَّ تسر القلب. كانا سعيدين بالعيش، ويغدقان عليَّ الحب بذكاء، إن جاز التعبير. كان أبي يحدثني عن الفن والعمارة، وأمي عن الأقمشة والزهور والموسيقى؛ وغالباً ما تشتري أسطوانات، وتناديني لكي أستمع إليها برفقتها».

أشارت سميراميس التي عانت لا شك بسبب ترعرعها بين شقيقين مؤلهين: «وكنت وحيدهما».

«لم أعش كوني بلا أخ أو أخت كامتياز. فلم يكن لدي شريك في اللعب، وقد افتقدت ذلك. كنت ألعب وحدي. وحتى الثانية عشرة، كنت لا أزال أصف جنودي المعدنيين، ولم أتخل عنهم إلا حين غادرت البيت».

قال نعيم: «بالمقابل، آدم، لو كنت مكانك، لما جاهرتُ بذلك!».

تدخلت سميراميس: «ولماذا؟ ثمة رجال يلعبون طوال حياتهم بجنود معدنيين».

لست متيقناً من أنها كانت تحاول الدفاع عني. كان من الأفضل على الأرجح أن ألزم الصمت.

«وفي سن البلوغ، اشتريت لنفسك كتيبة منهم بالتنورة الاسكتلندية...».

فحصلت بسبب هذا الهجوم الشرس لنعيم من سمي على المزيد من المداعبات.

وطوال المدة التي استغرقها هذا الحديث، بقينا في السيارة أمام البوابة الموصدة لبيتي القديم الذي كان يبدو غير مأهول، بل ربما مهملاً ومتداعياً. والمصاريع القليلة التي كان يمكن أن يلمحها المرء من الخارج، في الطابق الأول للمبنى الأحدث عهداً، كانت موصدة، وبائسة الطلاء.

«هل نحاول الدخول؟».

كان ذلك اقتراح سميراميس.

«كلا!».

لشدة ما زعقت، اضطرت للاعتذار، فاعتذرت منها لأني زعقت. أمسكت يدها وطبعت عليها قبلة. ابتسمت، ثم أضافت بصوت منخفض جداً.

«أفترض أنك لا تعرف من يملكه، أليس كذلك؟».

«كلا، ليست لدي أدنى فكرة. لم أرغب بأن أعرف ذلك إطلاقاً».

أجبتها بصورة آلية، فقد خطرت ببالي فكرة أخرى تماماً.

«أيمكنك أن تتقدمي بالسيارة؟ من هنا، بعد البيت. تقدمي عشرين متراً بعد. اركني تحت هذه الشجرة! إذا لم تخني الذاكرة، كان هناك طريق يمر من هنا».

وكان الطريق لا يزال موجوداً، كما أذكره. كان طريقاً مفروشاً بالحجارة المسطحة غير المنتظمة، مثل نسخة مطابقة عن الطرق الرومانية القديمة.

وحالما شاهدته، خرجت من السيارة، مشيراً إلى صديقي بأن يتبعاني.

3

كان الطريق ينحدر وعراً. وفي موسم المطر، قد يصبح زلقاً، ولكن الطقس في هذا اليوم كان حاراً وجافاً.

ألفى الأصدقاء الثلاثة أنفسهم بين تلَّتين، كما في أسفل واد صغير. كان النبات كثيفاً. ولم يعد المرء يلمح لا طريقاً سالكاً، ولا بيتاً، ولا حتى حقولاً مزروعة. لا شيء سوى أشجار وارفة وأشواك العليق؛ وذلك الدرب المبلط الذي يتعدى عليه العوسج من الجانبين، بدون أن ينجح في سده رغم ذلك.

ساروا الواحد تلو الآخر، وآدم في المقدمة، يزيح أحياناً غصناً أو يفشخ فوق لسان من الأشواك. وبين الحين والآخر، يلتفت ليتأكد من أن صديقيه يتبعانه. مضوا قدماً، سميراميس تتبع خطاه ونعيم خلفها؛ ولكنه هتف لهما رغم ذلك: «إتبعاني!».

وفي لحظة، توقف عن السير، وأجال الطرف من حوله، قبل أن يعلن بثقة:

«اقتربنا!».

علق نعيم، لاهثاً، وهو يجفف جبينه ورقبته، مع أنه يمشي منذ خمس دقائق فقط بالكاد: «وأخيراً!».

وفي الحقيقة، كان الطريق الذي بدأ منحدراً وعراً يصعد الآن صعوداً حاداً. وبعد عشرات الأمتار، توقف آدم الذي تقطعت أنفاسه بدوره، والتفت إلى رفيقيه ليقول لهما:

«إنه هنا! أنظرا!».

كان صوته مكتوماً، يكاد يكون همساً، لا شك إجلالاً لسكينة المكان وذكرياته الخاصة على السواء.

نظر كل من سميراميس ونعيم من حولهما. لم يكن ثمة ما يستحق المشاهدة. مجرد جدار يتوسطه باب خشبي قديم.

غير أن آدم ما كان ليحضرهما إلى هذا المكان لو لم تكن لديه قصة يحكيها في ذلك الموقع بالذات.

استهلها بتوطئة:

«ما لفت انتباهي في المرة الأولى التي جئت فيها إلى هذا المكان كون الطريق ينقطع بالضبط. يتخيل المرء أنه سيواصل النزول إلى أسفل الوادي، وفجأة، يصعد، ويجد نفسه قرب جدار. وهو جدار تتطابق حجارته مع حجارة الطريق، وترتصف بالطريقة نفسها، في ما عدا أن بعضها أفقي وبعضها الآخر عمودي».

سألته سميراميس: «وماذا يوجد خلفه؟».

«ذلك هو السؤال الذي طرحته على نفسي حين كنت طفلاً. ولشدة علو الجدار، ووجودي في موقع منخفض على قدمي، كان يستحيل عليّ أن أشاهد ما يوجد خلفه»

«كنت أتخيل أموراً كثيرة، من الجميلة النائمة إلى ذي اللحية الزرقاء، مروراً بالطبيب مورو. وفي يوم من الأيام، رغبت بأن ألقي نظرة».

«تطلب الأمر إحضار سلم؛ أو بالأحرى، مرقاة قابلة للطي. كان لدينا بعض منها في البيت، فأخرجت واحدة، خلسة. وكانت رحلة طويلة لإحضارها إلى هنا».

اقترح عليهم نعيم مستنداً إلى شجرة: «ألا تريدون الجلوس؟ يتراءى لي أن الأمر سيطول». وجفف عرقه مرة أخرى.

كان يوجد، على بعد خطوات منهم، جذع شجرة مقطوع، جلس عليه ثلاثتهم، ووجوههم في الظل. فتابع آدم قصته على الفور، مشيراً لصديقيه إلى بقعة محددة أسفل الحائط.

«وضعت مرقاتي هنا بالضبط، وتحققت من ثباتها، وصعدت عليها. كانت بالكاد تكفي. والحائط لا يزال يصل إلى ذقني. لا بد من أنني وقفت على أطراف أصابع قدمي لأرى ما يوجد خلفه».

«لمحت أولاً رأساً ملفوفاً بمنشفة وردية. ثم لمحت الهيئة الجانبية لامرأة ترتدي برنس حمام وردياً أيضاً. كانت جالسة على حافة نافذتها، وقد أدارت ظهرها نصف استدارة صوب الخارج، وصوبي بالتالي. كانت تنظر في ضوء النهار إلى ورقة تحملها بين يديها، يبدو أنها رسالة. انقضى بعض الوقت. كانت لا تحرك ساكناً، وكنت لا أحرك ساكناً، أحبس أنفاسي. ثم وضعت الرسالة جانباً، وفكت منشفتها، وهزت رأسها لنفض شعرها في الهواء الطلق. كانت شقراء مثل الأفلام».

«في لحظة، همَّت بخلع برنسها، ولكنها نظرت تلقائياً إلى الخارج، وإلى أعلى. ولمحتني. فتقاطعت نظراتنا، وتسمرت. تعلمان بالتأكيد قصة تلك العصافير التي كانت تقف على غصن، وقد تسمَّرت في مكانها بفعل نظرة الأفعى الموجودة في أسفل الشجرة ، أليس كذلك؟ كان يكفي أن تطير للهروب منها، ولكن أعضاءها ما عادت تلبيها، فهوت مباشرة في فك الأفعى المفترسة».

سيدوِّن آدم في مفكرته، بمفردات لا تختلف كثيراً عما سمعه صديقاه منه: في ذلك الصباح، كنت مثل تلك العصافير بالضبط. تسمرت في مكاني، تحت سحرها المغنطيسي، عاجزاً عن تحريك نظرتي أو عضلاتي. وجاءت «المفترسة» لتلقفي. وبلمح البصر، فتحت ذلك الباب، وخرجت، ببرنسها الوردي، وشعرها المبلل، ومنشفتها التي كانت موضوعة الآن على كتفيها.

أمرتني أن أنزل من مكاني، في الحال، فأطعتها. لم أكن أخشى أن يلقى بي في زنزانة قلعة، كنت أشعر فقط بالخجل، ولكن الخجل كان كذلك شكلاً من أشكال الخوف.

أدخلتني عبر الباب وأشارت إلي بإصبعها أن أحضر المرقاة معي. فطويتها، وحملتها تحت إبطي. تبعتني، وأغلقت باب الجنينة وراءها بمزلاج.

وبقيت بغباء واقفاً أمامها، مثل جندي في وضعية التأهب، أحمل مرقاتي تحت إبطي مثل بارودة ضخمة، فيما السيدة تتفحصني. أخذت

وقتها لا شك لأنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بي. وكنت أنظر أرضاً. كانت قدماها العاريتان تنتعلان خفين ورديين كذلك، من القماشة نفسها التي حيك بها برنسها، ومفتوحين من الأمام.

ولما انتهت من تفحصي، سألتني: «هل أنت فخور بما فعلته توّاً؟». أجبتها نفياً بإيماءة من رأسي. «أتريد أن أخبر أهلك؟ أجبتها نفياً بإيماءة أخرى». «هل تنوي أن تأتي إلى بيتي كل صباح؟» وأجبتها نفياً كذلك، بدون أن أفتح فمي، وبقيت أغض الطرف، ونظرتي تتنقل بين العشب والخفين الورديين اللذين تكشف فتحتهما عن أظفار طليت باللون نفسه. «هل لسانك مقطوع؟»، فأجبتها نفياً بإيماءة من رأسي أيضاً. «ولماذا لا تفتح فمك؟»، وفي هذه اللحظة، استجمعت شجاعتي، وقلت لها: «تهذيباً!». فانفجرت ضاحكة، ورددت كلماتي عالياً بنبرة متهكمة، كما لتشهِّد عليها جمهوراً وهمياً. ثم سألتني: «أبدافع التهذيب كذلك تغض الطرف، على ما أظن؟» فأومأت إيجاباً، بعجلة من أمري، كما لو كنا قد تفاهمنا أخيراً. «أحسنت بغض الطرف في حضرة سيدة. هذا دليل على حسن التربية». بدأت أشعر بالطمأنينة حين أضافت: «وهذا أيضاً دليل على حسن التربية أن يصعد شاب على مرقاة للتجسس على السيدات عبر الحائط، أليس كذلك؟».

وعند هذا الحد، لم أجازف حتى بالرد. فرفعت فقط عيني صوبها، كما لأتلقى حكم القاضي. فابتسمت السيدة، وابتسمت بدوري. قطبت جبينها، بدون أن تكف عن الابتسام، وسألتني: «إذا لم تكن

تتجسس عليّ بدافع التهذيب، فلأي سبب تتجسس إذن؟». فأجبتها، إذ استعدت، بفضل ابتسامتها، شيئاً من الثقة: «بدافع الفضول»، وكانت تلك بالطبع الحقيقة الخالصة.

سكتت، بدون أن تفارقني نظرتها، وتفحصتني من رأسي إلى أخمص قدمي، كما لتقرر العقوبة التي ستنزلها بي. «بوسعي، لو شئت، أن أحتجز المرقاة هنا وأطلب إلى والديك المجيء لاسترجاعها بأنفسهما». وتريثت بضع ثوان قبل أن تهدىء روعي. «لن أفعل ذلك. أنا على ثقة بأنك ستعتذر، وأنك ستعد بعدم التجسس عليّ بعد اليوم».

سارعت بقطع وعد لها. ولكنها كانت تصغي إلي بأذن شاردة، مشغولة بالبحث عن العقوبة المناسبة. قالت لي أخيراً: «لكي تكفر عن ذنبك، ستضع مرقاتك موقتاً هنا، على الحائط، وتذهب إلى هناك، إلى المطبخ. ستجد سيدة مسنة ترتدي مريلة زرقاء. اسمها أم ماهر. قل لها إنك تريد قهوتي الصباحية. وارفع صوتك لأن سمعها ثقيل جداً. إنها تعد أفضل قهوة تركية في البلد، ولكنها تتعب في المشي. فبما أن لديك ساقين رشيقتين، بوسعك أن تساعدها...».

كانت البيت متطاولاً. من المطبخ إلى المكان الذي كنا نقف فيه، ثمة مسافة تبلغ ثلاثين متراً بكل سهولة. وطلبت إلي السيدة أن أنتظر في المطبخ ريثما تعد القهوة، ثم أن أحضرها لها على صينية لئلا أدلقها. «هل تشرب القهوة أنت؟ كم تبلغ من العمر؟»، «عشر سنوات ونصف!»، «ونصف؟»، تساءلت وهي تقطب جبينها، كما لو

كانت نصف السنة تلك تحدث فرقاً كبيراً. «في هذه الحالة، أنت كبير، وبوسعك شرب القهوة. أتحبها مع السكر؟». أومأت برأسي. «فعقاباً لك، ستشربها مثلي، مرة». فأومأت مرة أخرى برأسي موافقاً. «أرى أنك بلعت لسانك مجدداً. وصرت لا تقوى على قول :نعم أم لا».

معها، كان يتراءى لي بأنني طفل في الرابعة وبأني شخص بالغ في آن واحد. فصدرت عني أخيراً «نعم!» خجولة. وعلى الفور، صححتني: «نعم يا هانم! ستدعوني هانم!». حتى الحين، لم تسنح لي الفرصة قطّ لسماع هذا اللقب القديم؛ في العصر العثماني، كان، على ما يبدو، الأسلوب اللبق لمخاطبة سيدة، إنما في عصري، وعصر والدي، لم يعد أحد يستعمله، على حد علمي، إلا بعض الرجال المسنين جداً والمتكلفين للغاية.

ثم سألتني جارتنا عن اسمي. «آدم». لفظت اسمي مثلما كنت أفعل في ذلك الوقت، قبل سفري إلى فرنسا، مشدداً على الألف في البداية، ومتلكئاً في لفظ الميم في نهاية الاسم. رددته من بعدي، كما لو شاءت أن تتمرن على لفظه: «آدم م. هكذا، سأدعوك، آدم م، فقط آدم م، لأنك صغير. ولكنك أنت ستدعوني بتهذيب هانم، كأن لا اسم لديّ، لأني في سن والدتك».

أجبتها: «أجل يا هانم»، بأكثر النبرات تهذيباً وطاعة في العالم، ثم ذهبت إلى المطبخ حيث تفحصتني المدعوة أم ماهر من رأسي إلى أخمص قدمي، بنظرة غاضبة، كما لو كنت سارق تين. وعندما قلت

بأعلى صوتي إنّ الهانم تريد فنجاني قهوة مرة، صرخت في وجهي بأنها ليست طرشاء. ثم عاقبتني بدورها، وحملتني صينية هائلة، وضعت عليها كوبين من الماء البارد، ممتلئين حتى الشفة، وفنجاني قهوة مسكوبين، وطبقاً من الزعتر والزيت، وطبقاً آخر من جبنة الماعز، وسلة مليئة بخبز التنور. لم تكن الصينية ثقيلة جداً، ولكنها عريضة فلم أتمكن من رؤية موطىء قدمي وأنا أحملها بيدي الاثنتين أمامي. وتطلب الأمر أن أتقدم ببطء شديد لئلا أتعثر.

إلا أن سجانتي، وبما أن أي انتهاك يستحق عقاباً وثواباً على السواء، أذنت لي بالدخول. كانت في صالونها، وقد ارتدت ثيابها، وتبرّجت، وربطت شعرها بعصابة مفضضة مثل التاج. أشارت إلي بإصبعها إلى المنضدة التي يجب أن أضع عليها الصينية، ثم إلى المقعد الذي يجب أن أجلس فيه. لم أشعر بالارتياح على الفور، ولكن من الواضح أن مكانتي تبدلت. لم أكن الصبي المخالف الذي يخضع لعقوبة بل كنت تقريباً مثل الضيف.

وبعد أن تناولت فنجانها، أشارت إلى فنجاني. بللت شفتي في القهوة المرة، جاهداً لكي لا أكشر. راقبت حركاتي، وتكشيراتي، وقد قطبت جبينها مرة أخرى، الأمر الذي جعلني أتصرف بطريقة خرقاء. واضطررت لبذل جهد من أجل عدم دلق فنجاني.

ثم سألتني: «وماذا يفعل آدم حين لا يتسلق الحيطان؟».

أجبتها: «أقرأ».

غالباً ما يدور الحديث عن سحر الكتب. ولا يقال بما فيه الكفاية إنّ هذا السحر مزدوج. فهناك سحر قراءتها، وهناك سحر الحديث عنها. تكمن متعة قراءة بورخيس بأن القصص المحكية تقرأ والمرء يحلم بكتب أخرى، مخترعة، متخيلة، استيهامية. وخلال بضع صفحات، يشعر القارىء بهذا السحر وذاك معاً.

غالباً ما شعرت في حياتي بفضيلة الكتب تلك. ولكني اكتشفتها في ذلك اليوم. فأنت برفقة سيدة غريبة، تسألك عن الكتاب الذي تقرأه، أو أنت تسألها، وإذا كنتما تنتميان الواحد والآخر إلى عالم الأشخاص الذين يقرأون، فأنتما على أهبة الدخول إلى جنة مشتركة، وقد وضع كل منكما يده في يد الآخر. ومع الكتب التي يذكر أحدها بالآخر، ستتعرفان معاً إلى إنجازات وانفعالات وأساطير وأفكار وأساليب وآمال.

ورداً على جوابي: «أنا أقرأ!»، لم تسأل السيدة التي كانت تحتجزني في بيتها بإبهام عن الكتب التي أقرأها عادة، وهو سؤال غير ذي أهمية، بل عن الكتاب الذي كنت منغمساً في قراءته في هذا اليوم. أذكر أن الأمر كان يتعلق برواية مغامرات تحمل عنوان «سجين زندا». ومن جهتها، كانت تقرأ كتاباً لعالم آثار ألماني اسمه شليمان، هو مكتشف موقع مدينة طروادة. لم تكن قراءاتنا متشابهة بالفعل، ولكنها استغرقت الوقت الكافي للاستفسار عن كتابي، وحدثتني مطولاً عن كتابها، واكتشفنا بين هذين المؤلفين بعض أوجه الشبه. ثم اقترحت عليّ أن نتبادل الكتب حين نفرغ من قراءتها.

ومنذ ذلك الحين، كلما أختار كتاباً، أفكر بها أو لاً. كانت شغوفة بالتاريخ وعلم الآثار وسير المشاهير. أما أنا فكنت أقرأ على وجه الخصوص الرسوم المتحركة وروايات الجاسوسية، وأطالعها بنهم مثلما أشرب المشروبات الغازية. وبفضل الهانم التي لم يكن ليروقها أن أزورها مع الحلقة الثلاثين لمغامرات ذلك العميل السري أو ذاك، اضطررت إلى توسيع دائرة اهتماماتي. كنت أريد أن أثير إعجابها، أو على الأقل أن أنتزع احترامها. ولذلك، تطلب الأمر أن أجعلها تكتشف كتباً لا تعرفها. لا أدري إذا كنت قد علمتها شيئاً؛ وبالمقابل، فقد تعلمت الكثير بفضلها. عن مصر القديمة، اليونان، وبيزنطية، ولا سيما حضارة بلاد ما بين النهرين.

في ذلك الصيف، والصيف التالي، وكذلك الصيف الذي أعقبهما، زرتها كثيراً ثلاثة أو أربعة أيام متتالية في بعض الأحيان. كنا نتحدث كثيراً، عن أمور متفرقة، ولكن يحدث أيضاً أن يجلس كل منا في زاويته ليقرأ كتابه بصمت.

ولم أدهش حين قالت لي يوماً إنها كانت زوجة عالم آثار. كانت عراقية، وقد عرفت ذلك من لكنتها، وقد اشتغل زوجها في متحف بغداد. وعندما أطيح بالنظام الملكي في 14 تموز 1958، كانا يمضيان إجازة في الخارج، ولعل ذلك قد أنقذ حياتهما. كانت ابنة أخ رئيس وزراء في النظام القديم، وغالباً ما كانت تتردد مع زوجها إلى القصر الملكي. وقد قتل عدد من أقاربهما في الأيام التي أعقبت الانقلاب.

ولكان ضرباً من التهرب بل والانتحار بالنسبة إليهما العودة إلى العراق. فشيدا هذا البيت؛ ولكن زوجها توفي بعيد ذلك. ولقد فهمت أنه كان يكبرها سناً بكثير.

وفي أحد الأيام، أطلعتني على مجموعتها من العملات القديمة، وأوضحت لي أصل القطع المعدنية. كان بعضها يحمل رؤوس أباطرة روما، وبعضها الآخر يحمل شعارات عثمانية، «سلطان البرين وخاقان البحرين». كنت منبهراً، ووعدت نفسي بأنه سيكون لي لاحقاً بدوري مجموعة من العملات القديمة. وبالطبع، لم أجمعها. فأنا لا أتحلى بطباع هواة الجمع، فالمرء يجب أن يتحلى بمثابرة لا أتحلى بها. وبالمقابل، فأنا على يقين بأن اهتمامي بالتاريخ بدأ بفضل الهانم.

حتى الساعة، وبتأثير من والدي، كنت أريد أن أصبح مهندساً معمارياً. لم نكن نتحدث في الأمر، فقد كنت يافعاً جداً، ولكن المسألة كانت محسومة عندي. غير أن حادثة تحطم الطائرة، وإغلاق مكتب الهندسة، وفقدان بيتنا حولني عن هذه السكة المرسومة سلفاً. رغبت بسلوك مسار آخر تماماً، فكان التاريخ. وبمعنى ما، كان لقائي بالمصادفة مع جارتنا الشقراء وراء المهنة التي اخترت.

ولكني أعود إلى مجموعة العملات لأنها كانت السبب في حادثة لن أنساها أبداً. لشدة ما انبهرت بما أطلعتني عليه الهانم لم يعد بوسعي عدم النظر إلى الأرض وأنا أمشي بحثاً عنها، وكأنه يكفي المرء أن يكون يقظاً للعثور على عملات قديمة على الأرض. لم تكن المسألة

عبثية بقدر ما تبدو، نظراً إلى أن الضيعة تضم آثاراً رومانية وبيزنطية، وقد عثر فيها على تماثيل مطمورة، وتيجان منحوتة، وكذلك على عملات قديمة بدون شك.

وفي أحد الأيام، لمحت بالفعل، بين حجرين، قطعة قديمة أو تبين لي أنها كذلك. فتلقفتها، وفركتها قليلاً، مظهراً معالم رأس، وكذلك حروفاً قد امحت جزئياً. هرعت عند السيدة، وأنا أركض في الطريق بسرعة فائقة كما لو أن الأمر يتعلق بحالة طارئة. ولعل الساعة كانت الثالثة أو الرابعة عصراً. وكنت أعلم جيداً أن معظم الناس يستسلمون للقيلولة، لا سيما في عز الصيف؛ ولكني لم أفكر بذلك ولو للحظة واحدة في فورة حماسي.

تسللت عبر الباب الخارجي الذي لم يكن مغلقاً؛ واجتزت الجنينة، ثم الصالون. لا أحد. وصلت إلى شرفة كبيرة كنا نجلس فيها أحياناً، أنا وهي، وكل منا يحمل كتابه، وهي تطل على الوادي. لا أحد.

وفي آخر الشرفة، كان هناك باب نافذة. هرعت، وصادفت الهانم. كانت قد خلعت ثيابها، بيضاء ناصعة، شبه عارية. كانت تلك غرفة نومها، ولكني لم أعرف ذلك، فلم أدخل إليها قطّ. ومن الواضح أنها كانت قد استفاقت من قيلولتها، وأخذت دشها، وبدأت ترتدي ثيابها من جديد.

رأتني أصل كالصاعقة، فندت عنها صرخة متفاجئة، وغطت صدرها بذراعيها، وانكفأت خطوة إلى الوراء. فتلعثمت، وقد فوجئت

أكثر منها، بل أصبت بالهلع، ودرت حول نفسي بعنف لأعاود الركض، وتعثرت، ووقعت أرضاً.

لشدة ما شعرت بالحرج، وبالاضطراب، لم أحرك ساكناً. تظاهرت بالموت. فانحنت فوقي، ولم أستجب. لفظت اسمي، ولم أرد عليها. ربتت على خدي مرددة، بقلق: «آدم!آدم!». ففتحت جفني ببطء كما لو أني أستيقظ من سبات طويل ولا أدري أين أكون. فقالت لي: «أغمضْ عينيك مجدداً، لم ألبس ثيابي بعد!». فامتثلت، ولكنها كانت قد غطت عيني بيدها. «هل تعدني وعد رجل بأنك لن تفتحهما لمدة ثلاث دقائق؟» قلت لها: «أجل». فتوارت عن الأنظار، ثم عادت، وقد ارتدت مبذلها. «هيا، بوسعك أن تفتحهما». ففعلت، ثم نهضت. «هل أصبت بأذى؟» أومأت برأسي نفياً. «الحمد لله! اطمأن قلبي. إذهبْ وانتظرني في الصالون! سألبس ثيابي وأوافيك».

وفيما كنت أنتظرها، وأهيىء عبارات الاعتذار، تبين لي أنني فقدت قطعة النقود التي حملتني على المجيء إليها راكضاً. لابد أنها وقعت مني في الشرفة. ولما وافتني السيدة في الصالون، متهندمة، متبرجة، ومعطرة، استأذنتها أن أذهب للبحث عن القطعة المفقودة. لم أعثر عليها. هل انزلقت عبر الإفريز؟ هل كرجت حتى البالوعة؟ لم يكن بوسعي أن أعرف ماذا حل بها. كنت أمسكها بيدي، ولما تعثرت، أفلتت مني. واجتاحني الحزن في تلك اللحظة، لأني كنت فخوراً باكتشافي، إنما كذلك وبالأخص لأنها تشكل «الدليل المثبت» الذي يؤاخذ سلوكي الفظ.

هذا، ولم تزعل مني الهانم، ولم تذكر الحادثة قطّ فيما بعد، بل يبدو لي أن تصرفي الأخرق، إذ أدخل في علاقتنا حادثة سرية لم يعرف بها أي مخلوق، قد نسج بيني وبينها صلات حميمة.

يحدث أن يعيش المراهقون تجارب تلقينية محمومة. لم تكن تجربتي من هذا القبيل، ولكنها طبعتني برقتها ورهافتها. وعندما تخطر ببالي مجدداً في بعض الأحيان، تحضرني كلمة الرأفة. كنت أرتكب حماقاتي الصبيانية، وبجواري غريبة جميلة ترد على شيطنتي بتسامح، وتعلمني بصبر، وحذاقة، وحنان، أن أصبح رجلاً.

4

سألت سميراميس حين فرغ آدم من سرد قصة قطعة النقود المفقودة: «أتعلم ماذا حل بتلك السيدة؟».

أجابها إنه لا يملك أدنى فكرة. فقد التقاها آخر مرة في آب 1966، غداة وفاة والديه.

«عندما ذاع خبر الحادثة، توافد الجيران إلى بيتنا. كانت الهانم موجودة، بين النساء المتشحات بالسواد، ولقد عانقتني، مثل الكثيرات غيرها، لمواساتي. وبعيد ذلك، غادرت الضيعة، ولم تطأها قدماي منذ ذلك الحين».

استفسر نعيم: «أتظن أنها لا تزال موجودة هنا؟».

أجاب آدم بدون أن يوضح كيف يمكن أن يكون على يقين بعد كل ما قاله: «كلا، بالتأكيد لا!».

اقترحت سميراميس: «إذا ما ساعدتني على التسلق، فأصعد وأنظر عبر الحائط».

«كلا، ولن أحضر مرقاة مثل المرة الأخرى. هيا بنا، هذا يكفي، لقد أخبرتكما كل شيء، فلننصرف!».

لو كان آدم بمفرده، لقرع الباب بالتأكيد. ولو لم يحك القصة

الأخيرة، لكان بوسعه أن يفعل ذلك، حتى برفقة صديقيه. ولكن بعد أن باح لهما بأنه قد صادف السيدة متعرية، فقد رأى أنه لا يحق له استعراضها أمام أنظارهم، فسيتملكه الشعور بأنه يخون طيبتها، وبأنه لم يعد جديراً بثقتها.

فتمتم كأنه يخاطب نفسه: «بارك الله أيامك يا هانم، في صباك وشيخوختك، في حياتك وفي آخرتك!».

قبل أن يردد لصديقيه عالياً:

«هيا، يكفي ذلك، فلننصرف!».

ولكن مصادفة الأبواب والدروب قررت خلاف ذلك.

وفيما كان الأصدقاء الثلاثة يبتعدون، سمعت ضجة خلفهم. التفتت سميراميس أولاً فرأت الباب يفتح وسيدة تخرج، وقد اعتمرت قبعة عريضة من القش مزيّنة بشريط وردي.

إنها هي! لا يمكن أن تكون إلا هي، ولم يعد ينفع ترجيح الانصراف أو البقاء. فعاد آدم خطاه، كما لو أن مشيئة عليا أمرته بذلك.

لفظ بصوت يرتعش تأثراً وتهذيباً على السواء: «يا هانم؟».

«هل أعرفك؟».

«اسمي آدم. كنت أسكن...».

«يا ولدي!».

ووضعت يدها على فمها خجلاً. فأمسك آدم بيدها وطبع قبلة عليها، قبل أن يحررها قائلاً:

«كنت طفلاً بالفعل عندما التقينا للمرة الأخيرة يا هانم. وكان أبي وأمي قد توفيا توّاً».

قالت، وهذه المرة بدون تحفظ: «أجل، أذكر ذلك يا ولدي المسكين!».

«ثم صادر الدائنون البيت، ولم أرجع إلى هنا البتّة».

قالت، وكأنها تترقب عودته طوال هذا الوقت: «أجل، أعلم. كم كبرت!».

«أنا الآن في السابعة والأربعين من العمر!».

«لم أسألك عن سنك مخافة أن تسألني عن سني».

ضحكت، وكانت ضحكتها شابة. وشاركهما الضحك بصخب كل من سميراميس ونعيم اللذان كانا حتى ذلك الحين يتابعان بتكتم شديد هذا اللقاء. وانتهز آدم الفرصة للقيام بالتعارف.

رددت هانم مطروبة: «سميراميس. هذا أجمل اسم عندي، وهو يليق بك».

فاحمر وجه المعنية.

«وأنتما تحملان بدوركما اسمين جميلين جداً أيها السيدان. «نعيم» هو الاسم الثاني للجنة، و«آدم» اختاره الخالق نفسه. ولكن اسمحا لي أن أفضل اسم سميراميس. فلعلكما فطنتما من لكنتي إلى أنني من بلاد ما بين النهرين».

وارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيها وهي تلفظ الاسم القديم.

«كان زوجي يقول إن أجمل لحن على الأرض بالنسبة إليه حين يسمع أسماء بلاد ما بين النهرين، والفرات، وسومر، وعقاد، وأشور، وبابل، وجلجامش، وسميراميس. كان عالم آثار».

قال نعيم: «أجل. أخبرنا آدم».

«وماذا أخبركما غير ذلك بشأني؟».

شعر الأصدقاء الثلاثة بالإحراج، ولكن ثمة مخارج لائقة. وقد وجدتها سميراميس أولاً.

«حدثنا عن الكتب التي قدمتِ له النصح لقراءتها».

«كان يدهشني في طفولته. فكل يومين، يرجع ليزورني وهو يحمل كتاباً ضخماً قد قرأه».

ودمدم الطفل السابق: «الحقيقة، يا هانم، أنني كنت أقرأ بسرعة لأعود وأزورك».

«ولكن تعالوا! تفضلوا! يجدر بي أن أخجل لأني أدعكم تثرثرون هكذا أمام باب بيتي دون أن أدعوكم للدخول».

اعترض آدم اعتراضاً خفيفاً: «كان يبدو لي أنك خارجة يا هانم».

«كنت ذاهبة في نزهتي اليومية، سأقوم بها لاحقاً. فأنا لا أستقبل زواراً بأهميتكم كل يوم».

وفيما هي تتكلم، عادت إلى الباب الذي فتحته لكي يتسنى للأصدقاء الثلاثة الدخول.

تأملها آدم، وهو لا يزال غير مصدق، كما لو أنه قد سمح له من جديد، بفعل معجزة، بالدخول إلى الجنة قبل السقوط.

لكم عرفت أن تظل أنيقة! الوردي، لونها المفضل، كان لا يزال حاضراً، يتوزع بأناقة، في شريط قبعتها، وكذلك في حاشية ثوبها.

كم بلغت من العمر؟ لدى آدم نقطة مرجعية، بما أن السيدة تنتمي إلى جيل والديه. ولو كانا لا يزالان على قيد الحياة، لكان والده في السادسة والسبعين، ووالدته في الثانية والسبعين. لا بد من أن الهانم بلغت تلك السن.

والمستغرب أن العقار أصبح الآن أجمل مما كان عليه في ذكريات طفولته. لم يتغير شكل البيت، ولكن ذلك الحائط الطويل من الحجر الأسمر الذي ينطلق من باب المطبخ إلى باب غرفة المعيشة لا يزال قائماً، والجنينة تحظى بعناية أفضل، والعشب فيها مجزوز، وأحواض الزهور تبدو مرسومة في زوايا قائمة. وسرعان ما سيعرف سبب هذا التحسين. فقد استعيض عن أم ماهر العصبية استعاضة فضلى بإحدى بنات بلد صاحبة البيت، وهي لاجئة بشوشة من نواحي الموصل.

وقد أحضرت القهوة إلى الصالون، مع بعض الحلويات المتنوعة. ثم عادت، بعد دقائق، وقدمت للزائرين، ثلاثة أكواب كبيرة من شراب التوت، ولسيدتها كوب ماء فقط مع ثلاثة أقراص ملونة على طبق صغير.

تمتمت الهانم، وقد أحرجت من واجب استعراض هذا الطقس المرتبط بتقدمها في السن أمام ضيوفها: «بعدين!».

قالت الأخرى بحزم، بدون أن تتزحزح من مكانها قيد أنملة، وقد

احتفظت بالابتسامة العريضة نفسها: «لا، مش بعدين، حان وقتها!».

لم يكن للسيدة خيار آخر سوى تناول هذه الأدوية، مع بعض جرعات الماء، قبل أن توضح:

«صباح تعتني بجنينتي كأنها جنينتها، وتعتني بي كأني وردة مريضة. وأنا كذلك بالفعل...».

ولما انصرفت موظفتها، أضافت:

«في بلداننا، تقوم الثورات باسم الشعب، ويجد الشعب نفسه مطروداً، ومرمياً على الطرقات. أتحدث عن صباح مثلما بوسعي الحديث عن نفسي. فمنذ ثورتنا المجيدة، لم أرجع إلى بلدي الأم».

جال آدم ببصره من حوله، قبل أن يقول:

«في هذا الصالون يا هانم، نحن جميعاً منفيون. فقد انتقلت للعيش في فرنسا، ونعيم في البرازيل، وسميراميس أُرغمت على الرحيل عن مصر مع أهلها وهي بالكاد في عامها الأول».

استفسرت الهانم: «أبسبب الثورة؟».

أكدت المعنية بالأمر، بدون أن توضح ظروف هذا الهروب المبكر.

تنهدت سيدة الدار: «لكم تتسبب الثورات بالويلات!»، وأرفقت كلامها بالحركة التي تكش بها الذباب بيدها.

ورأى آدم الذي لم يرغب بمخالفتها الرأي، وإنما الذي لم يكن بوسعه، باعتباره مؤرخاً، أن يوافق على هذه التعميمات: «لقد كانت كذلك في منطقتنا على أي حال».

ولكن السيدة لم تقبل بهذه التسوية.

«ليس فقط في منطقتنا يا آدم! أنظر إلى روسيا! قبل البلاشفة، كانت في أوج ازدهارها! خلال بضعة عقود، ظهر فيها تشيخوف ودوستويفكسي، وتولستوي، وتورغينييف... ثم أطبقت الثورة على ذلك البلد مثل ليل شتوي لا ينتهي، وذبلت البراعم».

«ولكن الشعب إذا كان قد ثار يا هانم فلأنه كانت هناك أسباب للثورة. ولا تنسي أن دوستويفسكي كان ينتمي إلى حركة ثورية، وأنه كاد يُعدم، وأنه أمضى سنوات طويلة في أحد معتقلات سيبيريا».

«هل قرأت الرواية التي ألفها بعد عودته؟»

خجل آدم لأنه لم يقرأها. فتملص من الاعتراف بذلك بنكتة:

«لو أعطيتنيها لقرأتها يا هانم، لكنت قرأتها».

«في تلك الفترة، لم أكن قد قرأتها. ولذلك، كنت قد كونت فكرة إيجابية عن الثورة الروسية التي أقارن فضائلها بثورات بلداننا. وكنت أقول لنفسي إن القادة السوفيات قد عرفوا إقامة قوة عظمى يهابها الكوكب بأسره، وإنهم خرجوا منتصرين من الحرب العالمية، فيما لم يحسن قادتنا العرب سوى مراكمة الهزائم وأشكال التقهقر. وفي ما يتعلق بثوارنا، و«التقدميين» المزعومين عندما، لم يتبدل موقفي، إنما تبدل إزاء الآخرين. قرأت يوماً الكتاب الذي ألفه سولجنتسين بعد احتجازه في سيبيريا، يوم من أيام إيفان دينيسو فيتش، وأذكر أن مكتبتي كانت تضم كتاب ذكريات بيت الأموات لدوستويفسكي الذي يتحدث

فيه عن تجربته في المعتقل. ولقد قرأته في فترة لاحقة. وأنصحكم بصدق، أنت وصديقيك، بخوض التجربة نفسها. إقرأوا الكتابين، مثلي، بالعكس. أولاً، قصة القرن العشرين، ثم قصة القرن التاسع عشر. بين القصتين فاصل زمني يبلغ مئة عام. سوف تكتشفون أن المنفى في زمن القياصرة، بالمقارنة مع المنفى في الحقبة الستالينية، يكاد يشبه المخيم الصيفي. ولن يكون بوسعكم إلا أن تتساءلوا: هل كان ذلك هو نظام القياصرة المقيت الذي كان يتوجب القضاء عليه مهما كلف الأمر؟».

قطبت جبينها وهي تبتسم بعطف، كما فعلت على الأرجح يوم ضبطت آدم يتجسس عليها.

«من المؤكد أنكم تقولون لأنفسكم بأنني مغتربة عجوز شكسة!».

فاحتج الأصدقاء الثلاثة بالإجماع.

«ربما أصبحت كذلك، مع التقدم في السن. طوال حياتي، أردت لهذه المنطقة أن تتطور وتتقدم وتنتقل إلى الحداثة، ولم أصادف سوى الخيبات. فباسم التقدم والعدالة والحرية والأمة أو الدين، لا يكفون عن إقحامنا في مغامرات تتحول إلى كوارث في نهاية المطاف. وعلى دعاة الثورة الإثبات سلفاً بأن المجتمع الذي سيعملون على إنشائه سيكون أكثر تحرراً وإنصافاً وأقل فساداً من المجتمع القائم حالياً. ألا توافقونني الرأي؟».

فأومأ الزائرون برؤوسهم موافقين تهذيباً، ثم تبادلوا النظرات

للتحقق من لباقة الانصراف عند هذا الحد. أشار عليهما آدم خفية أن ينتظرا بعد. كان لا يريد أن يعطي لمضيفتهم الانطباع، لدى انصرافهم، بأنهم أصدروا حكماً على ما أدلت به من آراء.

كان يبدو عليها الآن أنها غرقت في تأمل مثقل بالهموم. فبادر نعيم إلى تلطيف الجو.

«ثمة سؤال كنت أريد أن أطرحه عليك منذ بعض الوقت يا هانم».

ابتسمت، لأنه كان بشوشاً، وكذلك لأنه انضم إلى زمرة الذين يلقبونها بهذا اللقب.

«كنت أريد أن أعرف إذا كان آدم في طفولته عاقلاً أم أزعر بالأحرى».

فاتسعت ابتسامة السيدة، وبدا أنها تستحضر ذكرياتها قبل أن تجيبه:

«عندما كان يتزعرن، كان يفعل ذلك بدافع الطيش، وعندما يظهر التعقل، كان يفعل بدافع الحياء».

فضحك الأصدقاء الثلاثة ضحكات مهذبة ترحيباً بكلامها قبل أن ينهضوا. واقترحت عليهم سيدة الدار، من باب اللباقة، البقاء لتناول الغداء معها؛ فاعتذروا مدعين أن لديهم موعداً في مكان آخر، ووعدوها بأنهم سيعودون لزيارتها.

ولحظة فتحت باب الجنينة لكي يخرجوا، تذكرت الهانم شيئاً، ورجتهم أن ينتظروا. رأوها تبتعد ثم تعود، بعد دقيقتين، وبيدها منديل. بسطته أمام نظرة آدم الذي لمحه صديقاه يحمر خجلاً.

أوضحت السيدة، وصوتها يرتعش: «أوقعت هذه القطعة يوماً، فكرجت تحت سرير، واستقرت في أحد الشقوق. وعندما عثرت عليها، لم تكن موجوداً لأرجعها لك. إحرصْ عليها، فهي قطعة بيزنطية أصلية، وتعود لعصر جوستينيان».

مد آدم راحتيه وكأنه سيتلقى هبة. لم يفلح في حبس دموعه. أشاح صديقاه بنظرهما، ثم حثا الخطى للخروج وسلوك الطريق المعبَّد قبله.

2 أيار، تتمة

لم تكن القطعة التي «أرجعتها» الهانم تلك التي عثر عليها بين الحجارة ثم أضاعها. فتلك القطعة لم تكن لا بيزنطية ولا رومانية ولا عثمانية، إنما بالكاد عملة محلية متآكلة بفعل مرور الوقت. بالطبع، لم أعلق، بل جاريتها، لئلا أخون شريكتي، محسنتي، التي شاءت أن تقدم لي هذه الهدية المؤثرة.

وعلى حين غرة، يبدو لي أن الذكرى التي خلفتها لديها لقاءاتنا لم تكن أقل حدة من تلك التي خلفتها عندي؛ وإذا كانت بالنسبة إلي شمساً ساطعة، فربما كنت بالنسبة إليها قبساً من نور. والغريب في الأمر أنني لم أفكر بذلك قطّ. فبحكم استغراقي في أشكال حنيني الشخصية، فلما أتنبه لأشكال الحنين التي تعتري من عرفتهم. فأن يخلفوا بصمة في ذاكرتي يبدو عندي أمراً طبيعياً؛ أما أن أكون قد خلفت عندهم أيضاً بصمة في ذاكرتهم فيفاجئني..ويبقى أن أعرف إذا كان ذلك دليلاً على التواضع أو انعدام الإحساس.

اليوم الرابع عشر

1

الخميس 3 أيار

اليوم وصل ألبير. وبدأت ترتسم معالم مؤتمرنا المصغَّر للأصدقاء.

اتصلت به البارحة مساء على هاتفه الخليوي. كان لا يزال في أتلانتا، بولاية جورجيا، على أهبة ركوب الطائرة المتوجهة إلى لندن، حيث يعتزم قضاء الليلة. لشدة ما ألح عليّ ألا أذهب إلى المطار لاستقباله، وعدته بذلك.

غير أنني ندمت في اللحظة الأخيرة، وذهبت. ففي نهاية المطاف، إنه يعود إلى البلد بناءً على طلبي. ومن ثم، إنني أذكر المذاق المر لوصولي منذ أسبوعين، عندما لم يأت أحد لاستقبالي. كانت تلك رغبتي، أيضاً، ألا أزعج أحداً، ولكني لما استأت لو فوجئت، لدى الخروج من الجمارك، ببعض الوجوه المألوفة.

لم ترافقني سمي. اكتفت بأن أعارتني سيارتها التي قادها كيوان، سائق الفندق المعتمد.

في المطار، في قاعة الوصول الفسيحة، انتحيت زاوية، بحيث أرى المسافرين الذين يخرجون بدون أن يكون وجهي أول ما ستقع عليه نظرة ألبير. أكد لي أنه اتخذ احتياطاته، وأن أشخاصاً ينتظرونه، وسوف يرافقونه إلى شقته القديمة التي كان يعتزم قضاء الليلة فيها. كنت أعتقد أنه باعها منذ أمد بعيد، وهو الذي كان يقسم بأنه لن يرجع أبداً إلى هذا البلد. ومن الواضح أنه احتفظ بها، لا بل ثمة ما يدعو للاعتقاد بأنه قد اعتنى بها؛ وإلا فكيف يفكر بقضاء الليلة فيها؟

عندما ظهر، عرفته على الفور. فخلافاً لنعيم، لم تتبدل ملامحه كثيراً. فشعره أقل شيباً من شعري. وعلاوة على ذلك، فأنفه المستدق الذي يتوسط وجهه المثلث يدل من بعيد على هيئته.

كان بانتظاره رجل وامرأة. كان الرجل قصيراً وسميناً، وقد علت جمجمته المغضنة أجمة من الشعر الأبيض، والمرأة ترتدي ثوباً رمادياً وقد غطت رأسها بمنديل من اللون نفسه. وحالما ظهر المسافر، هرعا إليه، وقد أمسك كل منهما بذراعه، وأدركت فجأة، بلمح البصر، من يكون هذان الشخصان. فثمة في حركاتهما ما ذكرني بالوصف الذي قام به مراد لدى زيارته لصاحب الكاراج الذي خطف ألبير.

لما كنت أقمت هذه الصلة لو لم أتذكر تلك القصة لتدوينها الأسبوع الماضي. ولكنها أصبحت في هذه اللحظة يقيناً حميماً. فهيئة هذين الشخصين، وحركات أذرعهما، تأتي من عالم آخر غير ذاك الذي ترعرعنا فيه، أنا وهو. تذكرت وداع هذين الزوجين لرهينتهما السابق،

كما أخبرني عنه مراد، وقلت لنفسي إن «الأم بالتبني» التي ذكرها ألبير في رسالته المشفرة لا يمكن أن تكون غيرها.

ابتسمت، وتراجعت خطوة. لهذا السبب لم يشأ المسافر أن يأتي أشخاص آخرون أيضاً لاستقباله! ولو لم أتصل به هاتفياً بنفسي، لكان انتظر أن يصل إلى البلد للاتصال بي.

تراجعت بعد خطوتي إلى الوراء، وتواريت وسط مجموعة من الأشخاص المجهولين. هل لمحني؟ ربما. وربما لا. كان يبدو عليه مشغولاً بهذين الوالدين غير المحتملين اللذين يخاطبانه، ويستمعان إليه، ويتلمسان شعره وذراعيه وكتفيه.

كان الرجل قد انتزع من يديه حقيبته وشنطته. وكان يحث الخطى في المقدمة، نحو سيارته على ما يبدو، وألبير يصارع لاستعادة إحدى الحقيبتين على الأقل، فيما المرأة تمشي خلفهما.

هل يجدر بي أن ألحق بهم؟ كلا، لقد انسحبت. وعدت إلى السيارة التي تنتظرني. أجبت كيوان الذي سألني إذا وصل صديقي أن كل شيء على ما يرام، وأن بوسعنا العودة إلى الفندق.

في الطريق، وبعد نحو عشرين دقيقة، اتصلت بالرقم الأميركي لألبير. أبلغني صوت أنثوي أنه يتعذر الاتصال به. لم أترك رسالة، وفضلت انتظار اتصاله.

وهذا ما فعله بعد ساعة، في اللحظة التي كنت أدخل فيها إلى

غرفتي. من الواضح أنه لم يعلم بأني ذهبت إلى المطار. وهذا أفضل!

قال لي إن رحلته كانت جيدة، وإنه أصبح في شقته، ويظن أنه سيخلد للنوم على الفور، نظراً إلى فرق الساعة الكبير، وإنه لم يغمض له جفن في لندن. واقترح أن أمرّ به صباح الغد. وسألني إذا كنت سأعرف كيف أصل إلى شقته القديمة، وذكرني بأنني كنت في شبابنا أسخر من ضعف حس الاتجاه عنده، فأجبته بأنه إذا عرف كيف يصل إليها، فمن المؤكد أني سأصل كذلك بدوري. واكتفى بضحكة مقتضبة، بدون تعليق، وتواعدنا على اللقاء في الغد.

2

عندما اتصل به أصدقاؤه، قرابة السابعة مساء، للسؤال عن أحوال المسافر، تجنب آدم أن يحكي لهما مشهد المطار.

أخبرهما فقط أن ألبير قد اتصل به، وأنه قد وصل بالسلامة، وأنه رائق المزاج ولكنه مرهق، وقد خلد للنوم على الفور.

كانا يعتزمان الذهاب هذا المساء لزيارة تانيا التي لم يعزها نعيم بعد، وقد اقترحا عليه مرافقتهما. ولكنه اعتذر . قال لهما إنه في حالة من الإعياء الشديد، وإنه يعاني من صداع، يعزى بلا شك إلى كونه تنقل على الطرقات في ساعات الزحمة الشديدة، وسط سحابة من البنزين.

لم تكن تلك سوى ذريعة على الأرجح. ألأنه التقى الأرملة بما فيه الكفاية، وأحسَّ، نحوها، ببعض السأم؟ ربما. والتبرير المقنع الآخر أنه لم يكن يرغب برؤية أي كان قبل أن يخوض مع ألبير حديثاً مطولاً، على انفراد.

فقرر أن يلزم غرفته هذا المساء. وطلب عشاء خفيفاً يتألف من صحن من الجبنة وبعض الفواكه، وانهمك في ترتيب ملاحظاته وتدوين بعض التأملات العامة.

في طريق العودة إلى الفندق، فيما كنا عالقين في زحمة السير، اعترف لي سائق الفندق، بعد أن أفرط في الاعتذار كما لو كان على وشك ارتكاب أسوأ المعصيات، بأنه لم يلتق في حياته من قبل بشخص يدعى آدم. فهدأت من روعه مؤكداً له أنه لم يسئ إلي البتّة بهذه الملاحظة، وإن اسمي لم يكن شائعاً في البلد بالفعل، ولكن ذلك يروق لي أكثر مما يسبب لي الإحراج. أفليس ضرباً من الامتياز أن يحمل المرء اسم أب البشر؟

هز رأسه تهذيباً، بدون أن يبدو عليه الاقتناع مع ذلك بما أوضحته له. وإذا لم أخطىء في استجلاء التعبير الذي ارتسم في عينيه، فقد كان يبدو مقتنعاً بأنني راضٍ بمصيبتي. غير أنه أعرب عن امتنانه لي لأني لم أشعر بالاستياء من كلامه.

لزم كيوان الصمت فتابعت الحديث في قرارة نفسي، مجيباً عن تأكيداتي كما لم يكن بوسعه أن يفعل. لا ريب أني أحمل في اسمي بدء الخليقة، ولكني أنتمي إلى بشرية تندثر.

لطالما استرعى انتباهي أن آخر الأباطرة في روما كان يدعى رومولوس، مثل مؤسس المدينة؛ وأن آخر الأباطرة في القسطنطينية كان يدعى قسطنطين – كذلك مثل مؤسسها. ولذلك، لطالما أوحى لي اسمي، آدم، على الدوام بالتوجس أكثر من الفخر.

لم أعرف قطّ لماذا اختار لي والداي هذا الاسم [...]. طرحت يوماً على أبي هذا السؤال، فاكتفى بالرد: «إنه أبونا جميعاً!»، كما

لو أن بوسعي أن أجهل ذلك. كنت في العاشرة من العمر، واكتفيت بهذا التوضيح. ربما كان يجدر بي أن أسأله، وهو على قيد الحياة، ما المقصود أو المرجو من هذا الاختيار.

يبدو لي أن الأمر كذلك. ففي ذهنه، كان يفترض بي أن أنتمي إلى طائفة المؤسسين. أما اليوم، وقد بلغت السابعة والأربعين، فلا بد لي من التسليم بأنني لن أنجز مهمتي. لن أكون أول سلالة، بل سأكون آخرها، آخر قومي، والمؤتمن على أحزانهم المتراكمة، وخيباتهم، بل وعارهم وخزيهم. على كاهلي، ألقيت المهمة المقيتة التي تقتضي التعرف على ملامح أحبتي، ثم تأكيد هويتهم بإيماءة من رأسي قبل رد الغطاء عليهم [...].

اليوم الخامس عشر

1

الجمعة 4 أيار

أمضيت فترة الصباح بكاملها برفقة ألبير، في الشقة التي كان يعتزم فيما مضى الانتحار فيها. حدثني كما لو أننا لم نبح الواحد للآخر من قبل بأسرار، وكما لو أننا لن نلتقي بعد اليوم.

حرصت على الوصول إلى الحي الذي يسكن فيه في ساعة مبكرة، واستجمعت ذكرياتي للعثور على عمارته التي ظلت مألوفة المعالم. يبدو المدخل المزين ببلاطات من الخزف الأزرق اللون قد اجتاز الحرب بدون أن يصيبه خدش واحد. فقط انتصبت أمام المصعد بوابة حديدية سميكة، تذكر بقباحة السجون، وكذلك جهاز إنترفون؛ وكانت احتياطات لا تنفع، نظراً إلى أن اللوحة الرقمية كانت مبقورة والبوابة من غير قفل.

لما وصلت إلى الطابق السادس، ألصقت أذني بالباب للتأكد من أن صديقي قد استيقظ. لم تكن الثامنة صباحاً بعد، ولكن ثمة ضجة في الداخل. كان الجرس يعمل، ففتح لي، وقد ارتدى ثيابه، وتعانقنا.

كنت أريد أن أقترح عليه الخروج لتناول الترويقة، كما فعلنا مرة،

في باريس، حين أفرج عنه، وسافر إلى أميركا، ولكن المائدة كانت جاهزة.

«يظن المرء أنك تعيش هنا دوماً».

«لقد اعتني بالشقة تماماً في غيابي».

«بفضل والديك بالتبني؟».

ابتسمت. ورد عليّ بالابتسامة المتواطئة نفسها.

«أجل، فلندعوهما «والديّ بالتبني»، بما أن ذلك يروق لك».

«لم أفعل سوى استعادة العبارة التي استخدمتها في رسالتك...».

«للحصول على الإذن بالسفر، تطلب الأمر مني أن أتذرع بظروف عائلية. ولم يكن بوسعي الإفصاح عن هوية هذين الشخصين».

«اشتقت لخاطفيّ، سيدي المدير، ويجب أن أذهب للقائهما».

وضحك.

«لما كنت حصلت على الإذن بالسفر فحسب، بل لكنت خضعت على الأرجح لاستجواب صارم، ولتقييم لحالتي العقلية...».

«هل حافظت معهما دوماً على صلة؟».

«أجل، منذ البداية. عندما أفرجا عني، انتزعا مني وعداً بالعودة لزيارتهما. ولقد حرصت على القيام بذلك. واشترطت على مراد وتانيا أن يصطحباني لزيارتهما قبل إيصالي إلى المطار».

«أخبراني بذلك، على الهاتف، وأنت على متن الطائرة. لن أردد بأي عبارات تكلم عنك مراد، رحمه الله».

«رحمه الله! مهما قال، في ذلك اليوم، كان سيكون على حق. كنت عنيداً، وغير آبه بالخطر، وانتحارياً».

ولفظ هذه العبارة الأخيرة كما لو أنه يستعيد في فمه مرارة مألوفة. وأدركت أننا موجودان، أنا وألبير، في المكان الذي كادت أن تقع فيه المأساة، منذ أكثر من عشرين عاماً.

لزمنا الصمت وقد انغمسنا بلا شك في ذكريات موازية، للحظات معدودة، وقد تسمرت عيوننا على كوبي القهوة بالحليب أمامنا. ثم تابع قائلاً:

«عندما بدأت أعمل، قررت أن أرسل لهما كل شهر جزءاً من راتبي. لماذا؟ لأنني اكتشفت فجأة إلى أي مدى يمكن للحياة أن تكون مذهلة وممتعة، وإلى أي مدى تستحق أن تعاش، ولأني أحسست متأخراً بالهلع لأني كنت على وشك فقدانها. كنت ولا أزال في غاية الامتنان لهذين الزوجين الكريمين اللذين كانا، مرتين، أدوات العناية الإلهية. أولاً أدواتها العمياء، حين اختطفاني، وحالا بذلك دون ارتكابي لما يتعذر إصلاحه، ومن ثم أدواتها الواعية، السخية، والشجاعة، عندما علما بموت ابنهما، ومع ذلك، رفضا التنكيل بي، وأنا سجينهما، برغم معاناتهما وغضبهما، وفيما كان الكثيرون من حولهما يحضونهما على الانتقام ويلومونهما على كرم أخلاقهما الذي اعتبر من قبيل الضعف والتخاذل».

«فقررت أن أحوّل لهما كل شهر مبلغاً يساوي عشر راتبي. أجل،

العُشر، كما كان يقال فيما مضى... لم يغتنيا بسبب ذلك، إنما أتاح لهما ذلك العيش بمأمن من العوز، بل وإصلاح بيتهما. والبارحة، فور وصولي، اصطحباني إلى بيتهما لكي يطلعاني على التحسينات التي قاما بها بفضل ما أرسلته لهما من مال. ولقد اعتنيا كذلك بهذه الشقة. أنظر! إنها أفضل حالاً من الفترة التي كنت أسكن فيها. إنهما ناس أوادم وشرفاء للغاية، وكونهما استطاعا يوماً ممارسة الخطف يذكر بأهوال الحرب».

«باختصار، كنت الابن الذي فقداه، وهما...».

«إنهما الوالدان اللذان فقدتهما. أجل، هذا ما جرى عملياً، ولا يخفى عليك ذلك. فمن بين جميع أصدقائي الذين حافظت معهم على صلة، أنت الوحيد الذي يعرف ماضي الشخصي».

ابتسمت.

«في هذه الحالة، الآخرون في ظلمة حالكة تماماً، لأني لا أعرف شيئاً كذلك».

«أنت تعلم أن أبي اغتيل في ليبريا».

«كنت أعلم أنه كان يعيش في غرب أفريقيا، ولكني لم أعلم في أي بلد. لم نتحدث في الأمر البتة، وأذكر فقط ما كان يدور من همس في المدرسة».

«أعلم أنه كانت تقال بشأنه أمور فظيعة، إنه كان مهرباً، أو جاسوساً، أو الله أعلم. وفي الواقع، كان تاجراً في مونروفيا، وفي أحد الأيام، جاء

بعض المجرمين وقتلوه في مكاتبه، قرب المرفأ. كانوا لصوصاً يريدون سرقته، أو قتلة مأجورين يعملون لحساب أحد منافسيه. وإذا ما جرى تحقيق، فلم يبلغني أحد على الإطلاق بما توصل إليه من استنتاجات. ها أنت تعلم بقدر ما أعلم».

«وهل كان يأتي أحياناً لزيارتك؟».

«يبدو أنه جاء مرتين. ولو لم أر بعض الصور، لما تذكرت ملامحه. ولقد كف عن الكتابة أيضاً. وكانت صلتي الوحيدة به تقوم على حوالة مصرفية شهرية».

«مثلما تفعل مع أهلك بالتبني...».

ابتسم.

«لم أفكر بذلك... ربما أوحى لي ذلك بتلك الفكرة. ولكن المقارنة تتوقف عند هذا الحد».

«ووالدتك، هل كانت في مصح في سويسرا، أم أنها إشاعة؟».

«كانت إشاعة، وهذه المرة، أنا نشرتها. لقد انفصل والداي وأنا في الرابعة. وسافر أبي على الفور إلى ليبيريا حيث استقر اثنان من أشقائه. وتزوجت أمي ثانية برجل لم يكن يريد الاعتراف بالابن الذي أنجبته من زواجها السابق».

ولزم الصمت. كنت أهم بطرح أسئلة، حين لمحت أنه سيبكي. فغرزت نظرتي في كوبي، منتظراً أن يستعيد رباطة جأشه.

وأخيراً، قال وقد تهدَّج صوته:

«لقد قبلت بهذا الترتيب، ونسيتني كما لو كنت مجرد ذكرى سيئة، وكما لو كان مجرد الاكتراث لأمري يمكن أن يهدد حياتها الجديدة. لم يصلني منها شيء، لا رسائل، ولا حوالات مالية. وعندما تخلت عني وعهدت بي إلى المدرسة الداخلية، قلت لرفاقي في الصف إنها مريضة جداً، وإنها ذهبت لتلقي الرعاية في مصح. لم أجد حجة أخرى لتبرير تخليها عني، وكان الأمر يبدو مقنعاً. وفي الحقيقة، كانت تعيش في نيس، مع زوجها الجديد وأولادها الجدد».

«إخوتك وأخواتك غير الأشقاء؟».

«لا أدري حتى ما اسمهم ولا أعرف هيئتهم».

«وأمك، هل عدت والتقيتها؟».

«ولا مرة! كتبت لي يوماً رسالة، وكنت في التاسعة عشرة، لتخبرني أنها مريضة جداً وأنها تريدني أن أذهب لزيارتها. لم أذهب. تخليت عنها بين أحضان الموت كما تخلت عني».

«لست فخوراً بما فعلت، وسأندم على ذلك ما حييت. ولكني لم أرغب بالقيام بذلك آنذاك. لم تكتب لي قطّ من قبل، لا في عيد مولدي، ولا حتى لدى وفاة أبي. وحتى تلك الرسالة اليتيمة التي تبلغني فيها بمرضها، لم تعرف أن تختار الكلمات المناسبة. «أصلي لأجلك كل يوم أحد لكي تكون سعيداً». كدت أكتب لها بأني لست بحاجة إلى صلواتها، فمن هذه الناحية،لم أكن محروماً من الصلوات في المدرسة الداخلية؛ وبأني كنت بحاجة بالأحرى في طفولتي إلى أم تضمني

إلى صدرها الدافئ، لا إلى أم تصلي لأجلي في كنيسة على الكوت دازور. وأخبرتني أيضاً أن زوجها كان شديد الحرص على بدء حياة جديدة معها، لا تكون «ملطخة» بذكريات الماضي. كدت أجيبها إنه من الأفضل أن أتجنب تلطيخ موتها إذا لم تشأ أن ألطخ حياتها».

«وأخيراً، لم أكتب لها، ولم أرد على رسالتها بكل بساطة. وبعد أسبوعين، تلقيت على عنواني نعوة في إطار رمادي تعلمني بوفاتها، بدون أي تعليق. لقد استحقت على الأرجح أن أعاملها كما فعلت. ولكن هذه القصة أضنتني. وعندما أعاود التفكير بمحاولة الانتحار، وبالنعوة المشؤومة التي طبعتها، أقول لنفسي إن ندمي يطغى عليّ ليحملني على دفع ثمن انتقامي الخسيس».

خيّم الصمت. بقيت مترقباً. وتابع الكلام.

«لم أكترث في حياتي للدين كثيراً. لأي ديانة على الإطلاق. لعلّي بلغت حد التخمة بسبب كل تلك القداديس الصباحية التي كان يتوجب عليّ حضورها لدى الآباء. ولكن ثمة حديثاً منسوباً للنبي يراودني منذ سمعته، يقول إن كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات».

«أتعتقد أن هذا المبدأ يصح كذلك على «الأهل بالتبني»؟».

«يؤمن المعنيان بالأمر بذلك. يقولان لي إن أولادي سيهتمون بي لاحقاً، حين أتقدم في السن، مثلما اهتممت بهما. قلت لهما «أجل، يا

عمي»، «أجل يا خالتي». سيصابان بتعاسة عارمة لو قلت لهما إنني لن أنجب أبداً».

سكت ألبير. لم أسأله شيئاً. ونظر كل منا إلى الآخر. لابد من أننا تبادلنا كلاماً صامتاً. ثم سأل:

«لطالما كنت على علم بذلك، أليس كذلك؟».

كان الجواب الصحيح «كلا»، لأني لم أعلم بذلك سوى منذ بضعة أيام، بفضل سر باح به رامز. ولكن الرد بالنفي على السؤال كما طرحه كان سيكون أسلوباً أخرق للرد بالإيجاب. ففضلت القول:

«لم نتحدث قطّ في الأمر».

«هنا في البلد، كان من الصعب التحدث في هذا الأمر. مهما كنا قريبين الواحد من الآخر. لقد ترعرعنا معاً، وتعززت صداقتنا في سن كان كل بوح فيه يمكن أن يفهم على أنه دعوة. وكان الحذر يقتضي الاكتفاء بعدم البوح...».

«في أميركا، أفترض أن الوضع مختلف...».

«توجد أفكار مسبقة، ولكن إذا كنت تعرف «طريقة الاستعمال»، لن يحولوا حياتك إلى جحيم. تتعلم بسرعة أن تعاشر هذا الشخص عوضاً عن ذاك، وأن تقول الأمور بطريقة معينة، فتتعطل المنغصات. وفي جميع الأحوال، لست من أنصار «العلنية» القسرية. على كل امرئ أن يتمكن من اتخاذ قرار بشأن رغبته بالكشف عن هويته أم عدم الكشف عنها، وأمام من، وبأي عبارات. والأشخاص الذين يريدون أن يدفعوك

إلى تصريحات في غير أوانها ليسوا أصدقاء. والأشخاص اللائقون لا يلحون عليك. وسواء كانوا مثليين أم لا، يكتفون بأن يكونوا أصدقاءك، وزملاءك، وطلابك، وجيرانك. وأنا بدوري لا ألح عليهم، لا بسبب أسلوب عيشهم، ولا بسبب أسلوب عيشي.

«أنا أقول لكل واحد ما بمقدروه أن يسمعه، لا ما يرغب بسماعه، إنما ما يستطيع سماعه. «أهلي بالتبني» لن أقول لهما الحقيقة أبداً. لماذا أسبب لهما التعاسة؟ كلما كتبا لي، تمنيا لي أن أجد بنت الحلال. لا أعدهما بشيء، إنما أدعهما يتمنيان ما يعتبران أنه من واجبهما تمنيه. فهل ينفع أن أخبرهما بأن خطيبتي تدعى «جيمس»؟».

ران صمت آخر. وقرقعة أكواب.

«وأنت، بالمناسبة؟ أفترض أنك انفصلت عن المرأة الرائعة التي عرفتها في باريس منذ عشرين عاماً. لم تعد تذكرها البتّة في رسائلك، فاستنتجت أنها خرجت من حياتك. كانت محللة نفسية، أليس كذلك؟».

«أجل. باتريسيا».

«ألم تعد على صلة بها؟».

«إنها قصة قديمة».

«وهل بقيتما معاً لفترة طويلة؟».

«سبع سنوات».

«والقصة الجديدة، ما اسمها؟».

«دولوريس. إنها تدير مجلة».

«وهل أنتما معاً منذ...».

«ست سنوات، الآن، أو أكثر بقليل».

«هل أفهم منك أنك عشية انتخابات جديدة؟».

«على الإطلاق. لا تجري الأمور على هذا النحو. عندما أكون مع امراة، أرغب بأن تستمر علاقتنا مدى الحياة، وأكون مقتنعاً بأن ذلك ممكن».

«ولكنهن يخيبن أملك، الواحدة تلو الأخرى...».

«المشكلة لا تتعلق بهن، بل تتعلق بي. حالما تبدو لي سعادتي كاملة، أقول لنفسي إنها لن تدوم. فأبذل كل ما يجب القيام به لكي لا تدوم. إنها حالة مرضية، وأنا أدرك ذلك. أعلم أني أدمر العلاقة، ولكني غير قادر على التوقف قبل أن يكتمل التدمير».

لم أسر لألبير، لأن الأمر لم يخطر ببالي في تلك اللحظة، بأن الصورة التي تقض مضجعي دوماً وأبداً، هي صورة والديَّ يقهقهان قبل ساعات من حادث تحطم الطائرة التي كانت تقلهما. كم من مرة في حياتي، في لحظات السعادة العارمة، انبعثت تلك الصورة أمامي كما لتحذرني من أن الأفراح عابرة، وأن كل الضحكات التي سأسمعها ستنذر بمأساة وشيكة الحدوث!».

عندما يصبح الفرح عدو الفرح...

انتهى حديثنا عندما مر «والده بالتبني» لاصطحابه. كان هناك حفل

سينظم على مايدو على شرفه. ولقد دعاني إليه صاحب الكاراج، إنما فقط لأني كنت موجوداً، ولقد اعتذرت بتهذيب مدعياً بأني مرتبط بموعد.

أسفتُ لهذه المقاطعة. كان لدينا كلام كثير نقوله بعد، أنا وألبير – عن نشاطه المهني، وأبحاثه وأبحاثي، وعن مجموعته من الصناديق الموسيقية التي لمحتها على الرفوف.

وأسفت أيضاً لأني تحدّثت عن غرامياتي بهذه الخفة. فبقدر ما ينطوي الحديث عن الحب على الرقي، يتسم الحديث عن الغراميات بالابتذال. ولاأزال أذكر ذلك الحديث الذي أجريته مع بلال قبيل موته، والذي كان يسعى لإقناعي فيه بالعكس. ولقد أدهشني كلامه لما اتسم به من جرأة ووقاحة، ولكني أتشبت أكثر من ذي قبل بموقفي لدى إعادة التفكير في ما قاله لي بعد مرور ربع قرن. ولن أبدل رأيي بسبب الحديث الذي جرى اليوم.

بما أن ألبير باح لي بسر، كان من واجبي أن أتبادل معه البوح. تلك هي لباقة الأحاديث على مايدو... ولكن الأسلوب الذي تحدثت به عن النساء اللواتي عرفتهن إهانة للحب الذي شعرت به نحوهن. ومجرد تسميتهن الواحدة تلو الأخرى، في الجملة نفسها، يتسم بشيء من عدم اللباقة، لا بل من الدناءة. وطالما كنا معاً، كانت باتريسيا تمثل حياتي بأسرها، ويشقُّ عليّ اليوم أن أحولها إلى فصل أو حادثة في حياتي. ودولوريس ليست آخر صديقاتي، وهي عندي أعز شخص على قلبي، وسأبكي بدلاً من الدموع دماً لو فقدتها.

وسمي؟ هل هي عندي مجرد قوس معترض، كما كتبت؟ لدى إعادة التفكير في الأمر، أرى أنني أخطأت بالحديث عنها على هذا النحو. فالقوس الذي يفتح لي باب النعيم ليس قوساً مبتذلاً، وأنا لا أرغب بإغلاقه. خلال بضعة أيام، سيمضي كل منا في حال سبيله، ولكن ما أكنه لها من حب لن يمحى ولن يتعرض للخيانة أبداً.

كان آدم ينوي لدى الافتراق عن آدم أسفل عمارته أن يبقى لمدة ساعة في أحد مقاهي الحي لتدوين نتفٍ من حديثهما في مفكرته قبل أن ينساها؛ ثم أن يتسكع في المدينة، على هوى المحلات والبسطات، مثلما كان يفعل فيما مضى، وكما لم يفعل بعد منذ عودته.

ولكن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر حين فرغ من تدوين ملاحظاته، وكانت الشوارع حارة، ورطبة، ومزدحمة بالأشغال.لم يعد يقوى على السير. فأغلق مفكرته وركب أول تاكسي صادفه.

حين وصل إلى فندق سميراميس، لم يسع إلى الاتصال «بسيدة القصر»، ولا بنعيم. صعد مباشرة إلى غرفته، متصبباً عرقاً، منهكاً، وخلع ملابسه عند الباب، وبقي مطولاً تحت الدش، ثم خلد للنوم بمبذله.

أيقظته بعد ساعتين يد تمسح جبينه. ابتسم، إنما دون أن يفتح عينيه أو يحرك ساكناً، وينبس ببنت شفة. ولحسن الحظ، لأنه لو لفظ اسماً معيناً، لكان بالضرورة اسم سميراميس.

ولكنها لم تكن هي.

2

لم تترك له دولوريس أملاً يرجى بأنها ستأتي لموافاته.

وعندما ألح عليها آدم لحضور لقاء جمع الشمل، لم تظهر صديقته حماساً. فهؤلاء الأصدقاء الذين يريد جمع شملهم لا تعرفهم، وليست لديها الذكريات نفسها، ولا مكان لديها بينهم، قالت له ذلك؛ وبما أنها لا تفهم العربية، فحضورها سيعيقهم عن التحدث بحرية بلغتهم الأم. «ستمضي وقتك تشرح لي الأمور، وستندم على حضوري».

ولكن كل ذلك كان مجرد تصنع الغرض منه أن يظل صديقها في حيرة حتى اللحظة الأخيرة، وأن تكون هي، بالعكس، على يقين تام من رغبتها بالمجيء. والحق يقال إنها كانت تتحرق شوقاً لموافاته في البلد الذي أبصر فيه النور، والتعرف إلى الأشخاص الذين عرفهم، والمشاركة أخيراً -من خلال «جلسة استلحاقية» - في إحدى الفترات الأكثر سعادة في ماضيه. وعلاوة على ذلك، من المؤكد أنها لم تشأ أن يعيش هذه اللحظات التي تكتسب أهمية بالغة عنده بصحبة سميراميس فقط.

كانت دولوريس تبذل جهداً لئلا تصاب بالغيرة المبتذلة، وتشعر بشيء من الفخر لأنها لا تحمل ضغينة ضد تلك التي «استعارت»منها

حبيبها. لم تلتقها سوى مرتين في حياتها، إنما شعرت غريزياً نحوها بالمودة، بل كانت تثق بها، رغم ما جرى، وربما بسبب ما جرى بالضبط. وأصلاً، بفضل التواطؤ المبتسم «لغريمتها»، استطاعت التحضير لرحلتها في أجواء من التكتم. فلا ضغينة في قلبها، بالتالي، ضد صاحبة النزل الجميلة... ولكن دولوريس كانت تعلم أيضاً أنه قد حان الوقت لامتلاك الرجل الذي يخصها، وإغلاق ذلك «القوس».

استقبلتها سميراميس في المطار، ثم اصطحبتها إلى الفندق حيث أخطرهما موظف الاستعلامات بأن آدم في غرفته. كانت دولوريس تظن أنها ستفاجئه جالساً أمام شاشة حاسوبه. ففتحت الباب بهدوء. كانت الغرفة معتمة. وصديقها نائم.

فأيقظته وهي تداعب جبينه. وقبل أن يفتح حتى عينيه، تعرف إليها من عطر البخور الذي تضعه. فأطبق عليها ذراعيه متمتماً بالإسبانية: «حبيبتي!»، كما لو أنه ينتظرها. فانسلت بين الأغطية قربه.

قطع القيلولة الغرامية للعاشقين اتصال من ألبير الذي أراد الاعتذار عن اضطراره لمفارقة صديقه بهذه السرعة، في الصباح، واقترح أن يلتقيا مساءً في المدينة.

سأله آدم متهكماً: «أمتأكد أنت من أن خاطفيك سيفرجان عنك؟».

قال صديقه: «كلا، ولكنهما يمنحانني إجازة هذا المساء. أتذكر مطعم «القانون المدني»؟».

«قرب الجامعة؟ وكيف بوسعي أن أنساه؟ كان مقصفنا الجامعي...».

«مررت أمامه، وفوجئت بأنه لا يزال موجوداً. أو، بالأصح، أنه موجود من جديد. لقد اختفى في بداية الحرب، ثم خطر ببال أحدهم إعادة إحيائه. سأدعو كذلك سمي ونعيم. وأعتقد أن ذلك سيكون تمهيداً جيداً للقائنا».

ابتهج آدم.

«سأجلس في مكاني المعهود، وأطلب بالضبط ما كنت أطلبه في الماضي».

لم تكن دولوريس تعرف عما يتحدث، ولكن فرحة صديقها كانت معدية؛ فارتسمت على وجهها الابتسامة نفسها، ووضعت رأسها على كتفه العاري.

قال له صديق على طرف الخط: «وراء مظهرك المتمرد، أنت محافظ جداً في الأعماق».

لم يحاول آدم أن ينكر ذلك.

«لو كانت لدي عدة حيوات، لأمضيت واحدة أذهب كل يوم إلى الحانة نفسها، للجلوس إلى المائدة نفسها، وعلى الكرسي نفسه، وأطلب الطبق نفسه».

تمتمت دولوريس قرب أذنه: «مع الحبيبة نفسها».

قال لها، وهو يبعد السماعة عن شفتيه لكي يتسنى له تقبيلها: «أجل، معك».

تابع ألبير: «فكرت أيضاً بأن أدعو تانيا، ولكنها قد لا تكون فكرة جيدة، فأنا لم أذهب بعد لتعزيتها».

«كلا، ستكون بالفعل فكرة سيئة جداً. ومن المؤكد أنها لن ترغب بالخروج علناً بعد وفاة زوجها بفترة قليلة، ومن ثم ستتهمك بأنك أميركي قليل الأدب، تجهل أصول وطنك الأم وعاداته. لقد تغيرت. كلما تحدثت إليها، في الأيام الأخيرة، خلف حديثنا لدي مذاقاً مراً».

«بعد ثمان وأربعين ساعة، سأخبرك إذا كنت أشاطرك هذا التشخيص. سأعدل عن دعوتها هذا المساء».

وأعلن آدم: «ولكننا سنكون خمسة رغم ذلك».

ثم، وبدون تحذير، وضع الهاتف على خد صديقته التي أخذت على حين غرة ولم تعرف سوى أن تقول: «اسمي دولوريس».

كان تبدو مخجولة، وهو أمر لم يعهده فيها. ففي حياتها المشتركة مع آدم، كانت هي التي تظهر عادة أكثرهما ثرثرة وجرأة، والأقدر على إعطاء الأوامر وحمله على الانقياد لها. ولكن يجب القول إنها كانت غير واثقة بعد من نفسها، مثل *قائدة فاتحة تقف على مشارف أرض* مجهولة.

سوف تحتفظ لبعض الوقت بهذا الموقف، هذا المساء؛ تتحدث قليلاً، وتبتسم بتهذيب للنكت، وتراقب حركات بعضهم والعادات المستهجنة لبعضهم الآخر.

أثار الوصول إلى مقصف الزمن الماضي فورة من الذكريات المبتذلة المـأهولة بندلاء موردين لحشيشة الكيف، ونساء شبقات يبحثن عن طلاب فحول، ومشاجرات مشهودة بسكين المطبخ.

كانت دولوريس تنتظر. تركت الزبائن القدامى يختارون لها الأطباق؛ رفعت كأسها لتشرب نخب جمع شملهم؛ ومن ثم، انتهزت برهة صمت كان الأصدقاء الأربعة يتذوقون فيها النبيذ الذي اختاروه، فقالت لهم، بالنبرة الهادئة والحازمة التي كانت تدير بها عادة مجالس تحرير مجلتها:

«والآن، أوضحوا لي كل شيء! كيف تعارفتهم، وما الذي جمعكم، وما الذي فصل بينكم طوال هذا الوقت. أكاد لا أعرف شيئاً، وأود أن أعرف كل شيء! إنني بحاجة إلى دورة مكثفة لكي يتسنى لي متابعة ما سيقال في الأيام القادمة. كلي آذان صاغية لكم أنتم الأربعة».

وللتخفيف من النبرة الآمرة التي كانت تخاطبهم بها، رسمت على وجهها أكثر الابتسامات فتنة، ثم رفعت كأسها إلى شفتيها.

تشاور الأصدقاء متبادلين النظرات، وكل منهم يدعو الآخرين للتحدث قبله. وأخيراً، تشجع ألبير:

«آدم وأنا تعارفنا في المدرسة. كان في زمرة التلاميذ أقلهم همجية».

همس آدم لصديقته: «من فم ألبير، هذا إطراء عظيم». ولكنها وضعت سبابتها على شفتيه، لكي يدع صديقه يواصل الكلام.

«التحقنا بالجامعة معاً، وهناك تعرفنا إلى الآخرين. جميعهم في الوقت نفسه أو تقريباً. وهذه هي الذكرى التي أحتفظ بها على أي حال».

سألت الغريبة: «ما الذي جمعكم؟».

أمعن ألبير التفكير.

«ثمة أجوبة عديدة محتملة، وأول جواب يخطر ببالي أن لا أحد منا يشبه حقاً طائفته».

«وكوننا جميعاً غير تقليديين قربنا الواحد من الآخر...».

«ليس هذا ما قصدت قوله تماماً. كنت أحاول توضيح الأمور بصورة مختلفة».

استغرق الوقت الكافي لترتيب أفكاره.

«كان رامز أعز صديق لي بين المسلمين ؛ ونعيم أعز صديق لي بين اليهود، وآدم أعز صديق لي بين المسيحيين. وبالطبع، لم يكن جميع المسيحيين مثل آدم، ولا كل المسلمين مثل رامز، ولا كل اليهود مثل نعيم. ولكني كنت أرى أولاً أصدقائي. كانوا كمامة عيني، أو إذا شئت، كانوا الأشجار التي تخفي عني الغابة».

«وهل كان ذلك مستحسناً لديك؟».

«أجل، كان أمراً رائعاً. يجب إخفاء الغابة، ويجب وضع كمامة للعينين».

«ألذلك يصلح الأصدقاء؟».

«أجل، هذا ما أظن. أصدقاؤك يصلحون لحمايتك من أوهامك لأطول فترة ممكنة».

«ولكنك ستفقد أوهامك في نهاية المطاف».

«بالطبع، مع الوقت، سوف تفقدينها. ولكن من الأفضل ألا

يحصل ذلك أبكر من أوانه وإلا ستفقدين أيضاً شجاعة الاستمرار بالعيش».

وغُص حلقه، كما لو أن مجرد العودة إلى وطنه الأم ومدينته وأصدقائه، عاد بهواجسه السابقة لتطفو على السطح. فسرت حول المائدة لحظة من الإحراج غرق فيها جميع المدعوين في أطباقهم، أو في كؤوس النبيذ، إلى أن قال نعيم، بين لقمتين، وبدون أن ينظر إلى أحد.

«وتتعرض للخطف...».

أخذ ألبير على حين غرة ولكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة فائقة.

«أجل، تتعرض للخطف، وهذا أفضل ما يمكن أن يحدث لك».

وفجأة، وكما للتنفيس عن التوتر، قهقه الأصدقاء القدامى الأربعة قهقهة مطولة انضمت إليها دولوريس الذي حكى لها آدم حادثة الخطف، مع شيء من التأخر، وخرجت منها أبكر منهم لمتابعة «استجوابها».

«بما أن ألبير ذكر على الفور طائفة هذا وذاك، يجب أن أطرح عليكم سؤالاً يقض مضجعي منذ فترة طويلة، ولم يخصص آدم الوقت البتَّة لإجابتي عنه: لماذا يحتل الإيمان هذه المكانة في هذه المنطقة من العالم؟».

تشاور الأصدقاء متبادلين النظرات، واستهل نعيم الإجابة.

«هذا ما يقال في الغرب، ولكن لا تصدقي كلمة واحدة مما يقال! إنها مجرد أسطورة. والحقيقة هي عكس ذلك تماماً...».

«أحقاً؟».

«الغرب هو المؤمن، حتى في علمانيته، والغرب هو المتدين، حتى في إلحاده. وهنا، في المشرق، لا يكترث الناس للعقائد الإيمانية بل للانتماءات. فطوائفنا عشائر وغلونا الديني شكل من أشكال القومية...»

أضاف آدم: «وكذلك شكل من أشكال الأممية».

«إنه الاثنان معاً. فجماعة المؤمنين تحل محل الأمة؛ وبالقدر الذي تتجاوز فيه بمرح حدود الدول والأعراق، فهي تحل أيضاً محل عمال العالم الذين يبدو أن عليهم أن يتحدوا».

واستأنف نعيم، وهو ينكأ بالسكين جرحه كما ينكأ جرح أصدقائه: «إنها إشاعة كُذِّبت اليوم رسمياً».

أعلن المؤرخ: «لقد كان القرن العشرون قرن الفظائع العلمانية، وسيكون القرن الحادي والعشرون قرن العودة إلى القمع».

جازفت دولوريس بأن تبدو ساذجة فقالت: «أنا كنت أحب القرن العشرين».

قال لها صديقها الذي يكبرها بعشرة أعوام: «لأنك عرفته في أواخره، ولكن نصفه الأول كان فظيعاً بشكل خاص. وفيما بعد، تحسنت الأوضاع قليلاً، إنما بعد فوات الأوان بكثير، فقد وقعت الكارثة».

سألت سميراميس بقلق غير مصطنع: «لماذا تقول «بعد فوات الأوان»؟».

كان آدم يهم بالإجابة عن سؤالها حين وضع ألبير يده على ذراعه ليخطف منه الكلام.

«يجب القول إن القيمة السامية هي العلمانية بالنسبة إلى صديقنا الذي هو فرنسي أكثر من الفرنسيين. وإذا حاد عنها العالم، وعاد إلى كنف الدين، فهذا يعني أنه في تقهقر».

اعترض المعني بالأمر: «أليس كذلك بالنسبة إليك؟».

«لم تحسم الأمور بالنسبة إليّ بهذه الحدة. ففي عالم يسيطر عليه العجل الذهبي، لست على يقين من أن أقصى الأولويات هي إقصاء الله، لا بل يجب محاربة العجل الذهبي تحديداً، فهو أسوأ تهديد للديمقراطية كما لجميع القيم الإنسانية. لقد استعبدت الشيوعية البشر باسم المساواة، والرأسمالية تستعبدهم باسم الحرية الاقتصادية. وبالأمس كما اليوم، أصبح الله ملاذ للمهزومين، وملجأهم الأخير. باسم ماذا تريد أن تحرمهم منه؟ وللاستعاضة عنه بماذا؟».

كان لكلامه، على الرغم من طابعه الاستفساري، نبرة الحكم المبرم. وأعقبه صمت كسرته سميراميس في النهاية في محاولة لنقل النقاش، بدون أن تصيب نجاحاً، إلى مسار آخر.

«كان آدم يقول لنا البارحة إنّ ثمة مصيبتين رئيسيتين في القرن العشرين هما الشيوعية ومناهضة الشيوعية».

تنبأ المؤرخ: «وفي القرن الحادي والعشرين، هناك أيضاً مصيبتان رئيسيتان: الأصولية الإسلامية، ومعاداة الأصولية الإسلامية، وهذا، بالإذن من عالم المستقبليات الحاضر بيننا، يعدنا بقرن من التقهقر».

همست سميراميس في أذن الغريبة، إنما بصوت مسموع كفاية لكي يسمعها الجميع: «لا تصغي إليهم يا دولوريس! رفاقنا الثلاثة يبعثون على اليأس. لقد رحلوا عن بلدهم لدى إطلاق أول رصاصة، والآن يتنبأون لنا بنهاية العالم لتبرير رحيلهم».

دافع آدم عن نفسه: «أنا لا أتنبأ بنهاية العالم لهذا البلد بل للكوكب بأسره!».

فنظرت إليه صديقته نظرة مذهولة.

قالت له: «أنت تطمئنني. كان القلق بدأ يساورني».

وعاود المدعوون الخمسة يضحكون مطولاً. لم يعد أحدهم يرغب بالكلام. ثم خيمت لحظة صمت. ومن ثم، سأل نعيم الذي لم يكن يمزح في فنون الطعام رفاقه، بأكثر النبرات رصانة:

«أتعتقدون أن الساقي في هذه الحانة يجيد إعداد مشروب «كايبيرينا»؟(*).

(*) Caipirinha: المشروب الوطني في البرازيل وهو مصنوع من الروم والسكر والليمون (المترجمة).

اليوم السادس عشر

1

كان من المفترض أن يكون ذلك اليوم في أيار يوم جمع الشمل، فصار يوم الانفصال النهائي، والتشتت النهائي.

لحظ آدم تسلسلاً دقيقاً دوَّنه على الورق، لتوضيح أفكاره بلا شك.

سنلتقي في بيت سميراميس الصغير قرابة الظهر، الثانية عشرة والنصف كأبعد تقدير. وإذا انضم رمزي إلينا، سأدعه يتلو بعض الصلوات المسكونية، ثم ألقي كلمة ترحيب. قد يبدو ذلك غير ملائم لاجتماع أصدقاء، ولكن من الأفضل التصرف على هذا النحو لتحديد جو اللقاء، لكي يفهم الحاضرون أن الأمر لا يتعلق بمناسبة عادية.

وعدني رامز بأن يحضر معه لوحة أعدتها ابنته في مكتبه، تضم نحو أربعين صورة، قديمة بمعظمها، يظهر فيها، كما قال لي، جميع الحاضرين وكذلك الراحلان الاثنان، مراد وبلال. وسيقدم نسخة لكل منا، نقش عليها: «المؤتمر 5 و 6 أيار 2001، فندق سميراميس». ستضفي هذه التسمية الرسمية على اجتماعنا المزيد من المهابة. ولم لا؟ فهذا يروق لي.

أعرب رامز عن لفتة كريمة، فحرص على أن تكون دولوريس حاضرة في الألبوم. لم يكن لدي صورة لها، ولكن سمي وجدت واحدة، كانت قد التقطتها في باريس يوم جاءت لتناول العشاء عندما. كنا نظهر فيها نحن الثلاثة، وقد تعانقنا، وتلاصقت خدودنا؛ كان تقارباً يكتسب لدينا، بالنظر إلى «مغامراتنا» الحميمة الحديثة العهد، صدى غريباً.

سيغادر دنيا ورامز بالطائرة فجراً. وأنا أثق بهما، سيكونان أول الواصلين، مع أنهما قادمان من مكان أبعد من الآخرين.

تعهد ألبير بأن يقله إلى هنا «والده بالتبني» تمام الثانية عشرة ظهراً؛ وأنا أثق به هو كذلك.

أكد لي نضال مرة أخرى أنه سيأتي، وأنه لن يتأخر. وليس لدي أي سبب للتشكيك في ذلك، فالمناضلون يأتون دوماً في الموعد المحدد. لا تزال سمي تعتقد أنني أخطأت بدعوته... ولكنها اشترت، من أجله، حزمة من زجاجات البيرة بدون كحول.

وبالمقابل، فتانيا غير دقيقة في مواعيدها، كما قيل لي. وبالنظر إلى سلوكها في الأيام الأخيرة، يجدر بي أن أبتهج لذلك؛ ولكني لا أعتقد أني سألقي كلمة الترحيب قبل أن تحضر. فهي في نهاية المطاف صاحبة فكرة هذا اللقاء. وسنرى...

والشخص الذي سأتأثر جداً لغيابه سيكون الأخ باسيل، فبمقدوره، أكثر من أي شخص آخر، أن يرقى بهذا اللقاء إلى سماوات

أخرى، لا بفضل الآراء التي سيدلي بها، والتي لن تتعرض لخطر الضياع وسط التفاهات اليومية؛ إنما بفضل مجيئه، والأثر الذي سيحدثه مجيئه على الآخرين، ولا سيما على رامز وزوجته. سيتعاتبون بالضرورة، ويتندمون، وكذلك سيذرفون الدموع، بلا شك؛ ولكني واثق من أنهم سيفترقون متصالحين.

سيؤمن لنا حضور الراهب تحفيزاً فكرياً وشحنة عاطفية على السواء. ولكن يجب أولاً أن يأتي... فخلافاً للآخرين، لم يتعهد رسمياً بالحضور. قال: «ربما»، «أحسنت بجمع شملهم»، إنما لم يتملكني الشعور بأننا سنراه يصل من تلقاء نفسه. ولا أظن أنه سيكون من الصواب الاتصال به. فأنا شبه متأكد من أنه سيختلق عذراً على الهاتف للتهرب من المجيء.

السبيل الوحيد للتصرف أن أذهب بنفسي لإحضاره مع كيوان الذي لا غنى عنه؛ بدون أن أخطره، ومعتمداً فقط على حديثنا الأخير قرب المتاهة. وإذا رأى أنني اجتزت كل تلك المسافة لاصطحابه، فسيخجل أن يدعني أعود بخفي حنين، وسيتخلى عن مخاوفه، ويأتي.

ولذلك، يجدر بي أن أذهب في الصباح الباكر، لكي نصل إلى الدير عند التاسعة والنصف صباحاً، وننطلق من هناك قبل العاشرة للعودة إلى الفندق قبيل الظهر، الأمر الذي سيضطرنا إلى مغادرة الفندق في السابعة والنصف صباحاً.

قالت لي دولوريس إنها سترافقني.

ولكن صديقته ستعدل عن ذلك. فقد عادا في ساعة متأخرة جداً من المطعم، حوالى الثانية فجراً. ولما رن المنبه، في السادسة والنصف صباحاً، لم تحرك ساكناً. فنهض بمفرده. وربت على كتفها، مرتين أو ثلاث مرات، بلطف شديد. سألته بدون أن تفتح عينيها كم الساعة. فأخبرها. غمغمت، ثم استغرقت في النوم مجدداً.

فحلق آدم ذقنه، وأخذ دشاً، وارتدى ثيابه، ثم عاد ينحني فوقها ليطبع قبلة على شفتيها. وكما بحركة غريزية، رفعت ذراعيها لمعانقته، ثم تركته. وانطلق.

2

عندما وصل آدم إلى الدير، كان الأخ باسيل قد حضر أمتعته. أخبر الرهبان في اليوم السابق بأنه سيتغيب على الأرجح، وبأنه سيعود مساء الأحد.

أراد صديقه أن يحمل عنه حقيبته، ولكنه أصر على حملها بنفسه. وفي كل الأحوال، لم تكن سوى شنطة جلدية، تبدو خفيفة جداً.

لا أحد يعلم ما حدث في الساعة التي أعقبت ذلك، ولم يتحدث أي شاهد عن ذلك، وما باليد حيلة سوى مقارنة الفرضيات.

أما عن الأحداث نفسها، فالسيارة التي تخص سميراميس تعرضت لحادث، ولقي السائق وأحد الراكبين مصرعهما، وأصيب الراكب الثالث إصابات بليغة، وفي اللحظة التي تخط بها هذه السطور، لم يكن قد استعاد وعيه بعد.

ويعتقد أن السيارة انحرفت بصورة مفاجئة، وأنها انقلبت مرة أو مرتين قبل أن تقفز، إذا صح القول، في الفضاء. ثم تحطمت على صخرة، في الأسفل. ومن ثم، انفجرت، وانتشرت النيران في الأشواك القريبة.

عثر على جثتين متفحمتين داخل حطام السيارة. «كيوان ي.، السائق، 41 عاماً، و«رمزي ح.، مهندس، 50 عاماً»، حسب محضر الدرك. لا إشارة إلى الأخ باسيل. كان «آدم و.، أستاذ، 47 عاماً» ممدداً بلا حراك على بعد خمسة عشر متراً، بعد أن قذف من السيارة؛ ولا ريب أنه فتح الباب في محاولة للنجاة بنفسه.

لم ير أحدهم الحادث، ولم يسمع أحدهم الانفجار، وخمد الحريق من تلقاء نفسه بدون أن يشير أحدهم إليه. ويجب القول إن هذه البقعة من الجبل، الواقعة على مسافة عشرة كيلومترات من دير المغاور، بقعة جرداء، ووعرة، ومليئة بالوديان، وغير مأهولة كثيراً بالسكان.

لا يستبعد أن يكون أحد الشهود قد رأى الحادث، ولزم الصمت. وإذا كانت السيارة قد انحرفت، فلربما فعلت لتجنب الاصطدام بسيارة أخرى. وفي هذه الحالة، يتحمل سائق تلك السيارة جزءاً من المسؤولية عن المأساة، ولعله اختار عدم الإفصاح عن هويته. ولكنها ليست الفرضية الوحيدة المحتملة. فلعل كيوان حاول أن يتجنب أن يدهس حيواناً – كثعلب على سبيل المثال، أو ابن آوى، أو كلب.

ألم ينتقد آدم سائق الفندق على تلك اللباقة غير المستحبة التي تدفعه إلى الالتفات نحو محاورة حين يخاطبه، فيحيد بنظره عن الطريق؟ ليس من المستبعد أن يكون الحادث بدأ على هذا النحو، ولكنه مجرد تكهن، ومن المحتمل جداً ألا يعلم أحد ما جرى بالفعل.

«... انحرف عن الطريق لسبب غير محدد، في الموقع المعروف بالسناسل». ولن يذكر تحقيق الدرك المزيد من التفاصيل.

لم يقلق أصدقاء آدم على الفور.

وصلوا جميعاً في الموعد المحدد، بل وقبل الموعد بقليل. استقبلتهم سميراميس في بيتها المميز، المزين بألوان دافئة يغلب عليها الأحمر والترابي والقرميدي، والفسيح نسبياً، وإن وصفته صاحبته بالصغير بالمقارنة مع المبنى الكبير الذي تحول إلى فندق.

في القاعة الفسيحة المربعة التي تصلح غرفة للمعيشة، كانت الحيطان عامرة بالكتب، والأرضية بطبقتين أو ثلاث طبقات من السجاد العجمي. وكانت الأرائك والكنبات قديمة ومتخلخلة، ولكن ألوانها متناسقة، والوسائد وثيرة ومضيافة.

كان يُفترض أن يتجمع الأصدقاء هنا لتناول كأس ترحيب، قبل الانتقال إلى الطابق الأخير من الفندق، حيث أمرت سميراميس بإعداد وليمة فاخرة على شرفهم.

وقبيل الثانية عشرة والنصف، اتصلت دولوريس بآدم للاستفسار عن موعد وصوله. لم يرد هاتفه. حاولت عدة مرات؛ ثم ، وبعد ربع ساعة، طلبت إلى سميراميس إذا كانت تعرف رقم هاتف السائق. لم يرد كذلك. فطمأنهما رامز قائلاً إن السيارة لا بد موجودة في منطقة تكون فيها تغطية «الخليوي» ضعيفة. كان تفسيراً مقنعاً، وقد اطمأن له بعضهم بالفعل، ولكن دولوريس لم تطمئن. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وهي تعرف صديقها وكم يكره الوصول متأخراً، لا سيما لحضور مناسبة مثل هذه المناسبة، جمع الشمل الذي تولى بنفسه تنظيمه!

والحق يقال إن آدم لم يكن مقتنعاً كثيراً في البداية بفرص نجاح هذا المشروع. فرسائل الدعوة الأولى كتبها بالأخص لمواساة أرملة مراد، ولتهدئة ما يشعر به شخصياً من ندم وتأنيب ضمير. ولقد فوجىء بحماس أصدقائه، وبالسرعة التي اتخذوا فيها ترتيباتهم للمجيء.

فكون هؤلاء الأشخاص الذين شتتهم الحرب وصروف الحياة، والذين ينتشرون حالياً في أربع قارات مختلفة، ويعملون في مجالات مهنية أو سياسية أو روحانية شتى، والذين لم يجتمعوا منذ ربع قرن، أظهروا استعداداً للتوافد على هذا النحو، بإشارة منه، إلى هذا النزل الجبلي - قد يبدو ذلك مفهوماً، فيما بعد؛ إنما لم يكن يتوقع ذلك لحظة كتب رسائله.

ويجب القول إن ثمة رغبة عارمة كانت تتملكهم جميعاً بإعادة وصل ما انقطع مع أصدقاء الأمس؛ وكذلك، بالتأكيد، من خلال هؤلاء الأصدقاء، مع حياتهم السابقة. قبل الحرب، وقبل التشرذم، وقبل تفكك مجتمعهم المشرقي، وقبل رحيل الأشخاص الذين أحبوهم. ربما كان ألبير محقاً بقوله، كما فعل في إحدى الرسائل، إن أصدقاءه لم يجتمعوا قطّ منذ أيام الجامعة بسبب مراد. فقد كتب يقول: «فالاجتماع به أصبح غير وارد، والاجتماع بدونه بلا معنى. [...] ووفاته هي الظرف المثالي الذي سيسمح أخيراً بلقائنا».

أياً كان التفسير، فالحلم كان يتحول إلى حقيقة.... ولكنه كان يتحطم كذلك. بالمعنى الصريح والمجازي على السواء. ومن أصل

الأشخاص العشرة المتوقع مجيئهم، كان ثمانية منهم قد حضروا قبل الموعد، متحمسين لوصول «المنظم» لكي يتسنى بدء الجلسة. وإلى جانب سميراميس ودولوريس ونعيم الذين يقيمون في الفندق، كان ألبير أول الواصلين، وتبعه رامز ودنيا؛ ووصل نضال تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، صامتاً، متحفظاً، وهو لا يزال يتساءل في ما يبدو عما جاء يفعل وسط هذا الرهط من الكفار؛ ووصلت تانيا حوالى الواحدة بعد الظهر، بشوشة وثرثارة بثوب الحداد. ولم يبق سوى آدم والأخ باسيل.

وقرابة الثانية والنصف بعد الظهر استحال القلق إلى هلع. نهض رامز: «يجب أن نذهب ونبحث عنهم!» وبعد دقيقة، انطلقت سيارتان، سيارته التي اصطحب فيها دنيا ودولوريس؛ وسيارة نضال الذي اصطحب معه ألبير، وكذلك فرنسيس، مدير الندلاء، الذي كان قلقاً على شقيقه، والوحيد بينهم الذي يعرف الطريق، نظراً إلى أن سميراميس كانت مضطرة للبقاء في الفندق. واختار كل من تانيا ونعيم البقاء معها.

لم تصل السيارتان إلى الموقع المشؤوم إلا بعد ساعة. كان الناس قد تجمهروا - وتوقفت مركبات على جانب الطريق، وبعض الأشخاص يشبِّرون بأيديهم وهم يشيرون إلى أسفل الوادي الذي تصاعد منه دخان كثيف. وكان أشخاص آخرون موجودين أصلاً تحت، وبعضهم بالبدلة العسكرية.

كتب آدم يوم وصوله: «جئت للقاء شبح صديق، وها قد أصبحت بدوري شبحاً».

لم يكن يعرف أنه قد أحسن القول، للأسف، فمن شاهده ممدداً على سرير المستشفى، بلا وجه، بلا نظرة، جامداً وكلي البياض بضماداته، شعروا بالفعل أنهم يتأملون شبحاً.

في مفكرته الأخيرة التي سيعثرون عليها معه، كتب صفحات كثيرة بتاريخ الجمعة 4 أيار، وبعضها بتاريخ السبت 5 أيار - وتلك كتبها لا ريب لدى عودته من السهرة في مطعم «القانون المدني».

سأنتظر أن يصل آخر شخص، وأن ننتقل إلى المطعم، قبل أن أطلب التزام الصمت لأخذ الكلمة رسمياً، وقوفاً، ونصي بين يدي. وبما أن الحضور يقتصر على حوالى عشرة أصدقاء حول مائدة عامرة، سأشعر بنفسي مضطراً للادعاء، على سبيل التوطئة، أنني لن ألقي خطاباً على الإطلاق. ومع ذلك، فهذا بالضبط ما أعتزم القيام به. فبما أني راسلت بعضهم والتقيت بعضهم الآخر لإقناعهم بالمجيء، سيكون من اللائق أن أردد على مسمعهم، بشيء من المهابة، سبب أهمية لقائنا بعد انقضاء كل هذه السنوات من الفراق، والمواضيع التي يتوجّب علينا التحدث فيها.

سأتكلم بالفرنسية، لكي لا تشعر دولوريس بأنها مستبعدة،

وكذلك لأنه يسهل عليّ التعبير بهذه اللغة بعد كل هذه السنوات من التعليم في باريس.

والكلمات الأولى التي سأتفوه بها ستتسم حُكماً بطابع توفيقي أكثر من غيرها. ولاحقاً - على العشاء، أو يوم الأحد - سأتطرق، بما أنه يجب القيام بذلك، إلى المواضيع المزعجة.

سأقول: «إن ما يجمعنا أولاً هو ذكرى الذين فارقونا. فوفاة مراد السابقة لأوانها تأتي لتذكرنا بأنه كان يجدر بنا البقاء قريبين الواحد من الآخر، وإننا تفرقنا كثيراً. لم يسهم شخص بقدر ما أسهم هو في جمع شملنا أيام كنا في العشرين من العمر، وبفضله كذلك يجتمع شملنا اليوم. بفضله، وبفضل تانيا التي شجعتني بقوة على دعوتكم لهذا اللقاء الذي أعترف بأنّ تنظيمه كان يبدو لي أمراً شبه مستحيل، لا سيما في هذه العجالة. وأود بالأخص أن أشكرها لتغلبها على حزنها ومجيئها لمشاركتنا لا دموع الحنين فحسب بل كذلك ضحكاتنا الحتمية. وأنا أهدي سلفاً كل هذه الدموع وكل هذه الضحكات إلى جميع الذين رحلوا».

«وأولهم كان بلال. من عرفوه من بيننا لن يكون بوسعهم أن ينسوه أبداً. غالباً ما أفكر فيه، وفي نزهاتنا، ومناقشاتنا، ونظرته، ونبرة صوته. وحتى اليوم، وعلى الرغم من مرور السنين، ثمة قصص أرغب بأن أسردها على مسمعه، ونصوص أرغب بأن يقرأها، ومواضيع أرغب بأن أناقشها معه، ولن يكون بوسعي مناقشتها سوى معه، وألعن

الظروف التي أدت إلى رحيله السابق جداً لأوانه. لن يعارضني نضال. ولقد وافق على الانضمام إلينا لأني ذكرت اسم شقيقه. تفصل بيننا مسائل كثيرة، ولكننا سنظل مرتبطين أبداً الواحد بالآخر بذكرى كاتب عتيد حصدته قذيفة في مطلع الحرب.

«أتساءل أحياناً عما كانت ستكون عليه أعماله الروائية لو تسنى له الوقت لتأليفها. هل كان يتمتع بموهبة أولئك الشعراء والأدباء الذين كنا نتشاطر الإعجاب بهم؟ أرغب بأن أعتقد ذلك. أما ما أعلمه علم اليقين فأنه كان يتمتع بطباع الكاتب، وكذلك بنزواته».

«وكانت إحدى تلك النزوات تتعلق بي. عندما سمع اسمي للمرة الأولى، لم يسألني عن أخبار حواء، كما كان يفعل الكثيرون. ولكنه وعد نفسه على ما يبدو بأن يخاطبني من الآن فصاعداً كما لو كنت آدم الآخر، السلف، وكنت أختزن في ذاكرتي قصة البشرية».

«كان بوسعي أن أتضايق من تلك الدعابة، لا سيما وأنه كان يكررها بلا كلل أو ملل في كل من لقاءاتنا. ولكني لم أكن أتجاوب معه على هذا النحو، فهذا الاهتمام الخاص كان يرضيني. وعلاوة على ذلك، كان إلحاحه يحملني على التأمل في دلالة الأسماء، والمصير الذي يرتبط بها. فسرعان ما يعتاد المرء على الاسم الذي يحمله فلا يعود يفكر على الإطلاق بمعناه ولا بالسبب الذي دفعه لحمله».

ومن ثم، ذكر آدم، في عدد من الفقرات، أسماء الأشخاص الذين يجب أن يجتمعوا حول هذه المائدة، بمزيج من سعة المعرفة والإبداع، مع بعض القفشات.

فعلى هذا النحو، استعاد الصيغة التي استعملتها الهانم، ومفادها أن «نعيم هو الاسم الآخر للفردوس». وأوضح أن بلال كان عبداً معتوقاً من الحبشة أعجب النبي بصوته، وجعل منه أول مؤذن له؛ ومضيفاً أن «كل مؤذن حتى في أيامنا الحاضرة لا يزال يدعى بلال» في جاوة. وعرج على سميراميس، «الملكة الأسطورية لبلاد ما بين النهرين، التي كانت – أصلاً – معبودة كإلاهة»، ويتخيل المرء أنه قد وجه، من عبارة «أصلاً»، غمزة إلى سيدة القصر؛ ثم على مراد، «المرغوب، والمنشود، وهو اسم اخترعته الحلقات الصوفية لذكر اسمه تعالى، وكان الأوروبيون في القرون الوسطى يلفظونه أمورات»؛ قبل أن يسهب الحديث عن الأصل المريمي لاسم دولوريس، وعن الأصل الجرماني لاسم ألبير – النبيل والشهير، دون أن ينسى باسيل الذي يعني «ملك أو «إمبراطور» – وهو ليس أكثر الأسماء تواضعاً التي قد يحملها راهب».

ولدى الوصول إلى اسمه، بدأ آدم بإحالة الخطيب الذي سيكون إلى نص كتبه قبل يومين.

الرجوع بتاريخ 3 أيار إلى الفقرة التي تبدأ بما يلي «أحمل في اسمي بدء الخليقة، غير أني أنتمي إلى خليقة في طور الاندثار...»؛ ويبدو لي أنها تتلاءم مع المناسبة.

ولكنه ما لبث أن عدل عن رأيه.

لدى قراءة هذا النص مجدداً، أصبحت أقل ثقة برغبتي في قراءته على مسمع أصدقائي. ومن المؤكد أنني لن أفعل في اليوم الأول، على أي حال. لا يتعلق الأمر بكلمة افتتاحية وترحيبية، إنما بكلمة ختامية ووداعية. فماذا سيفيد أن أقول لهم: «على كاهلي، ألقيت المهمة المقيتة التي تقتضي التعرف على ملامح أحبتي، ثم تأكيد هويتهم بإيماءة من رأسي قبل رد الغطاء عليهم. أنا المكلَّف بالاندثارات...»؟.

والخاتمة أقل سوداوية بقليل. «وفرحتي العارمة أني وجدت، وسط المياه، جُزيرات من الكياسة المشرقية والمودة الصافية. وهذا يجدد لدي حب الحياة، في الوقت الحاضر على الأقل، ويمنحني أسباباً جديدة للمواجهة، بل لعله يمنحني ارتعاشة الأمل.

وماذا في المدى الطويل ؟في المدى الطويل، كل أبناء آدم وحواء محكوم عليهم بالهلاك».

بوسعي أن أتوقف عند «الأمل»، والاحتفاظ لنفسي بالبقيّة.

إنما لا! فبعد التفكير في الأمر ملياً، يجدر بي أن أجد خاتمة تلائم بصورة أفضل الفترة الصباحية، وتكون أقوى وقعاً، وبوسعها إثارة النقاش. يجب أن أستغرق الوقت الكافي للتفكير فيها، وسأجدها...

تلك الخاتمة المختلفة، لم يدوِّنها آدم في أي مكان. ربما كانت تختمر في ذهنه حين انحرفت السيارة عن الطريق. ولن يعرف أحدهم ذلك إلا حين يستعيد وعيه.

هل سيحصل ذلك؟ الأطباء لا يجزمون بالأمر. يقولون إنه سيبقى طويلاً بين الحياة والموت، قبل أن ينكفىء إلى هذا الجانب أو ذاك.

وتفضل دولوريس التي نقلته على متن طائرة مجهزة بالآلات الطبية إلى مستشفى باريس، والتي لا تفارقه، أنه محكوم مع وقف التنفيذ. وأضافت: «مثل بلده، ومثل ذلك الكوكب. مع وقف التنفيذ، مثلنا جميعاً».

صدر للمؤلف

الحروب الصليبية كما رآها العرب، ط1. 1990. ط7. 2012.

ليون الإفريقي، ط1. 1989. ط6. 2012.

سمرقند، 1989.

حدائق النور، ط1. 1989. ط3. 2012.

رحلة بالداسار، 2001.

صخرة طانيوس، ط1. 2001، ط. 2009.

القرن الأول بعد بياتريس، 2001.

موانئ المشرق، ط1. 2001، ط2 2008.

الحب عن بعد، ط1. 2002. ط2. 2009.

الهويات القاتلة، ط1. 2004. ط2. 2011.

بدايات، 2004.

الأم أدريانا، 2006.

اختلال العالم، 2009.

المحتويات

«في التائهون، أستلهم فترة شبابي بتصرف شديد. فقد عشتُ تلك الفترة مع أصدقاء كانوا يؤمنون بعالم أفضل. ومع أنَّ لا شبه بين أبطال هذه الرواية وبين أشخاص حقيقيين، فهم ليسوا من نسج الخيال تماماً. فلقد نهلتُ من معين أحلامي واستيهاماتي وحسراتي بقدر ما نهلتُ من معين ذكرياتي».

كان أبطال هذه الرواية متلازمين في شبابهم ثم تشتّتوا ودبَّ بينهم الخصام وفرّقتهم الأيام، وسيجتمع شملهم بمناسبة وفاة أحدهم. بعضهم أبى أن يغادر وطنه الأم، وبعضهم الآخر هاجر إلى الولايات المتحدة، أو البرازيل، أو فرنسا، وأخذتهم الدروب التي سلكوها في اتجاهات مختلفة. فماذا يجمع بعد بين صاحبة الفندق المتحرِّرة، أو المقاول الذي جمع ثروة، أو الراهب الذي اعتزل العالم وانصرف إلى التأمل؟ بعض الذكريات المشتركة، وحنين لا برء منه للزمن الذي مضى.

لأمين معلوف مؤلفات وأعمال روائية عديدة منها ليون الأفريقي، وسمرقند، وصخرة طانيوس (جائزة جونكور 1993)، وموانىء المشرق، والهويات القاتلة، وبدايات. ولقد نال عام 2010 جائزة أمير أستورياس للآداب عن مجمل أعماله.

ISBN 978-9953-71-919-1